

مكانة بيت المقدس

بين نصوص الوحي وحركة الإنسان

تأليف

جواد بحر

مكانة بيت المقدس

بين نصوص الوحي وحركة الإنسان

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الإصدار الثاني للطبعة الأولى، مزيدة ومنقحة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الناشر

مركز دراسات المستقبل

فلسطين - الخليل

الإهداء

إلى والدي الكريمن أجزل الله ثوابهما

فقد غرس مسلكهما في منذ الصغر علو مقام بيت المقدس ومسجده الأقصى المبارك : وذلك منذ ان كان أبي حفظه الله تعالى يصطحبني معه إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه منذ كنت غلاماً يافعاً :
ومنذ أن رأيت والدتي رحمها الله تعالى وقد زلزل كيائها وأذهل نفسها وأثار دموع عينيها ، ما تعرض له المسجد الأقصى من حرق عام ١٩٦٩م حين كنت غلاماً حدثاً صغيراً :
فابتدأ الأقصى مع بيت المقدس يستقران في نفسي استقراراً لازوالاً له .

المقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فهذا بحث أردت أن أُجَلِّيَ فيه صورة بيت المقدس في الإسلام، وأن أظهر مكانته المُرفَفة في الأعالي؛ وذلك لأسهم بجهد يخرج على استحياء أمام جهود الباحثين في خدمة هذه المدينة المقدسة، ثم لتشارك هذه الجهود في فتح الباب أمام دفقات من الحب والولاء والانتماء لا يقف أمامها شيء، تقوم على أساس واحد هو أن الأرض أرض الإسلام، ولن تتزيى بغير زي الإسلام.

وكنت قد كتبتُ بحثاً قبل هذا، لم أنشره بعد، أكَّدتُ وأثبتُ فيه أن فلسطين أرض راسخة الجذور في عالم العروبة والإسلام، ورددتُ فيه على دعاوى من يريدون سلخ تاريخ هذه الأرض القديم، لصالح أقوام لم تعرفهم فلسطين إلا في هامش تاريخها، وهم في هذا الهامش الضئيل، لم يراعوا قدسيته، ولم يحفظوا لها طهارتها، بل شهد كتابهم المقدس عليهم أنهم ما إن تخلصوا من حكم سليمان وداود عليهما السلام، حتى أبدلوا طهارة الأرض رجساً، وتوحيدها الناصع شركا أسود..

فلما أثبتُ ما أثبتُ في بحثي ذلك، وتركتُ فلسطين تتحدَّثُ فيه عن نفسها دون إكراه مني لها، فنطقت بما لا يجوز إخفاؤه من الحقائق التاريخية، وظهرت صورة فلسطين القديمة ذات الجذور العربية التوحيدية؛ لما أثبتُ ما أثبتُ من هذه المعاني، رأيتُ أن حلقة البحث لا تتم إلا بعد بيان المقام العالي لبيت المقدس في الإسلام، فجاء بحثي هذا ينطق بالحقيقة المنبثقة عن أصولها التي لا تُكذَّب أبداً.

إن ثمة قمة عالية سامقة، تربعت على ذروتها مدن ثلاث وتقاسمتها، وهي مدنٌ معروفة للقارئ الكريم، ولكن تبركا بأحاديث وخطوات الأنبياء التي سارت على ثراها،

نذكرها، لا لنعرّف القارئ بما يعرف، بل لتتبرك بذكر ما يعرف ونعرف؛ إن هذه المدن هي: مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، فهل عرفت لها مثيلاً؟

ولئن كانت الثالثة هي بيت المقدس، فإن لكل مدينة منها جانباً من القدسية والبركة ليس لشقيقتها، وعليه فللقُدس جانب من القدسية والمكانة الرفيعة، لم تنلها مكة ولا المدينة نفسهما، رغم سبقهما بالفضل إجمالاً.

وإن حديثنا في بحثنا هذا يخص بيت المقدس وحدها، ولا يتجاوزها إلى مكة والمدينة، إلا حيثما كان ذكر المدينتين كاشفاً عن جانب من مكانة بيت المقدس..

ولقد حظيت القدس بمكانة خاصة في وجدان المسلمين، وتمكنت من أديبائهم، فسبحت هذه الأدبيات في بحور المعاني القدسية، ولم يكن غريباً بعد كل ذلك أن تصبح القدس مصدر إلهام لشعراء العرب وخطباء المسلمين^(١).

ومن هنا فإننا نرفع صوتنا عالياً بكلمات مشرقة كتبها يراع الأستاذ المستشار طارق البشري، فلقد قال الرجل: «ليست القدس مدينة في وطن هو فلسطين، ولكن فلسطين وطن في مدينة هي القدس... القدس لا يمكن أن تستحيل إلى أنها محض موقع وعاصمة، فهي ليست برلين يمكن أن تحل محلها بون في الضمير الألماني، وهي ليست إستانبول يمكن أن تحل محلها أنقرة في الضمير التركي، ولكنها القدس بغير بديل»^(٢)؛ ونزيد:

(١) بل لم يقتصر الأمر على شعراء الإسلام والعربية، وإنما تعداه إلى من سواهم من الأمم، فلقد رأى النقاد أن قصة المعراج المتعلقة تعلقاً أساسياً بالقدس «كانت مصدر إلهام لداني، كبير شعراء الغرب المسيحي في الكوميديا الإلهية، التي يحمل الكثير من مبنائها والعديد من موضوعاتها شبيهاً لافتناً لروايات المعراج الإسلامية»، وذلك كما قال الأستاذ وليد الخالدي، في مقاله: الإسلام والغرب والقدس، نشرته مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣١) صيف ١٩٩٧م.

(٢) أورد كلام المستشار البشري هذا، الأستاذ حسام الدين نبيل، في مقال له بعنوان: (القدس مفاهيم يجب إيضاحها)، نشرته قناة الجزيرة على موقعها في الإنترنت:

وهي لب الصراع القائم، وهي سطوته، ومن ملكها ملك فلسطين كلها، ولربما لا نكون مبالغين إذا قلنا: من ملكها أوشك أن يملك الدنيا كلها.

فمن ذا يحسب نفسه يتزع القدس من نفوس المسلمين إلا أن يكون عابثاً عبثاً الصبيان، وما محاولات الطغيان سوى غبشٍ وغبارٍ أثارته زوبعة لا تلبث أن تسكن في يوم ما، لينصرف عن القدس ما قد ران على وجهها الجميل من لوثات، هي أفدر على العجز منها على الفعل؛ عن إلغاء وجه القدس العربي الإسلامي^(١).

إن ما انبثقت عنه قدسية فلسطين من أصول، كان أولها احتضان بيت المقدس، المدينة المقدسة، التي ترجع جذور نشأتها إلى أوائل عهد البشر بالأرض؛ ومروا باختصاصها بجماعات كثيرة من الأنبياء، وبالإسراء والمعراج، وكونها تحتضن أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين^(٢)، إلى غير ذلك من عظيم الخصائص، التي سوف نتعرض إن شاء الله تعالى لها في مكاتها من هذا البحث؛ نقول: إن ما انبثقت عنه قدسية هذه الأرض من كل ذلك، يدعوننا إلى أن نتعرف على فكرة القدسية من ناحية كونها متزلة ورسالة

(١) يذكر الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه هجرة اليهود السوفيت، (ص ٢٢٠) أن نسبة من سكن من المهاجرين اليهود في القدس حتى آخر أيلول عام ١٩٩٠م لم يتجاوز ٨% بخلاف ما كان عليه الأمر في السبعينيات، فلقد سكن القدس من المهاجرين اليهود ٢٥%؛ وهذا في تقدير الدكتور المسيري دليل على أن اليهود لا يكثرثون كثيرا بالقيم اليهودية أو الصهيونية، لذا لا يتجهون إلى القدس التي تحيطها هالة من القداسة في العقل اليهودي، فهي لا تعني لهم شيئا.

(٢) هو ثالث الحرمين الشريفين في حصر شد الرحال، لا في الحرمية؛ حيث منع كثير من العلماء وصف الأقصى وبيت المقدس بالحرم، على اعتبار أن هذا الوصف لم يثبت إلا للحرمين الشريفين، ولا أرى صحة منع هذا الإطلاق على المسجد الأقصى، وإنما غير الجائز هو إعطاء الأحكام الخاصة بالحرمين الشريفين للمسجد الأقصى وغيره من المساجد، والحرمية لا تعني بالضرورة نسبة أحكام الحرمين الشريفين للمسجد الأقصى، ونحن نطلق في كلامنا تعبيراتٍ مشابهة لا نرى مانعا من إطلاقها، كأن نقول: حرم الجامعة، وما شابه؛ هذا، ولم يرد في الشرع حظر على استخدام هذا اللقب لغير الحرمين، ما دام لم يحول أحكام الحرمين إلى المسجد الأقصى.

سامية، وعلى مدى ارتباط كل ذلك بهذه الأرض.

إننا هنا نتحدث عن بيت المقدس خاصة، ولكن حديثنا عن بيت المقدس هو في وجهٍ من وجوهه: حديث عن فلسطين عامة، وليعذرنا القارئ الكريم إذا وجد منا مزيداً من الحب والولاء لهذه الأرض المقدسة المباركة، ولا ضير في ذلك علينا، فهي التي اختصت بما أشرنا إليه، مما سيأتي تفصيله في ثنايا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ولقد قلتُ فيما قلتُ في هذه الأرض:

طاب من أفيائها جيرانها وعلى الآفاق منها رونق

ولقد دهم هذه الأرض المقدسة أكثر مما دهم سواها من أرض الإسلام، رغم فحش الجرم الغربي الاستعماري ضد أهل الإسلام في أرضه؛ ولكن ما تعرضت له فلسطين هو ضربٌ من المحن التي قلَّ نظيرها، فلقد احتلت من قبل أعداء الطهارة والقدسية، من صليبيين ويهود، ومن وثنيين يونان ورومان وفرس من قديم الزمان، وهي تلقى في أيامنا هذه ما يعرفه القاصي والداني من جرمٍ غربي فاحش ثقيل الفحش، ومن اتفاقٍ غربي على الانتصار للاحتلال الذي أحزن وجهها الباسم..

ولكن الغريب أنها مع كل ذلك تتسم بأنها أرض البشريات بتخليص البشر من أعدائهم ومن الشرك، وإنه لنبأ عظيم، أكثر الناس عنه معرضون، والتاريخ شاهد بمخزون هذه الأرض من تخليص البشر من أدياء كثيرين ألقوا برجسهم عليها، ثم لقوا عليها بؤس المصير!

إنها بعد كل محنة كانت تخرج حاملة معها جبالات من العبر والدروس في الشموخ المتواصل، والنصر العزيز، والعزة المستديمة؛ ولقد استفادت من حركة التاريخ عليها أو بما أو فيها، وهي تتمتع «بخصوصية كبيرة، لأنها تختص باستمرارية فريدة تتحدى التاريخ، فقد التقت داخلها حضارات العالم...، كما كانت مركز التصادم بين الإمبراطوريات القديمة والحديثة، فتعرضت للتخريب في حياتها الطويلة نحو ست عشرة مرة، وفي كل

مرة كانت تنهض إلى الحياة من جديد، وتعود قوية متعافية..»^(١).

واليوم، والاحتلال اليهودي جاثم على ساحاتها المضطربة شوقا إلى غدٍ يُعيد مجدَ الماضي، فإنها تدعونا دعاء الأمر الذي تجب طاعته، قاتلة: إن ثمة من يريد أن يسرقني من النفوس، كما سرقني من الجيوش والرؤوس، وإن ثمة أعداءً للطهارة التي تزينني قد ولغوا في بأفذار الكفر والإباحية، وهم يدعون قدسيتها عندهم، وإن الأرض لتسأل: هل القدسية تعني فيما تعني: نشر الإباحية والكفر في رحابي؟!!

لو كانت الأرض المقدسة فلسطين مقدسة فعلا في دين اليهود، لحافظوا على معاني الطهارة فيها، ولما نشروا كل ألوان الانحراف الديني والخلقي فيها، والحال أنهم الآن أصحاب الأمر والنهي فيها.

إن من يؤمن بقدسية فلسطين هو وحده الذي يُحسن تطهيرها من الرجس والكفر بالله، وإلا: فماذا سيكون معنى قدسيتها؟!!

إن الفكر اليهودي المعاصر ادّعى عدم قدسيتها عندنا، وأنها مهضومة المكان في رؤانا، وأن قدسيتها لم تكن إلا لدى اليهودي الذي ولّه في حبها، وتفاني مدافعا عنها!

سنرى في هذا البحث أي الفريقين أصدق: الفريق الذي يدّعي قدسيتها يهوديا أو الذي يدّعي قدسيتها إسلاميا، وذلك من خلال الفكر والاعتقاد، ومن خلال الممارسة العملية، تلك التي تنطلق من العقائد الدينية الأصلية لكل فريق من الفريقين.

وحاول فريق من المستشرقين وأذياهم الذاهبة في نفايات الفكر، أن يصرفوا معنى القداسة المتعلقة بهذه الأرض عن أصلاتها القديمة، وأن ينسبوها إلى أصول يهودية بالغة الحداثة إذا ما قيست بزمان الأرض الضارب في القدم، وأن يوهموا قراءهم أن الأحاديث

(١) من مقال الدكتور محمد أحمد صالح، أستاذ مشارك، قسم اللغات الشرقية، جامعة القاهرة، بعنوان: السياسة الصهيونية لتغيير التركيبة الديمغرافية، نشرته مجلة العربي في عددها (٥٠٥)، الصادر في شهر كانون أول عام ٢٠٠٠م.

المتعلقة بقدسية الأرض، ترجع إلى ابتداء ابتدعه خلفاء الإسلام، في سنوات صراع يتمنى المسلمون أنه لم يكن، لكنه كان، ومن الله العفو والمغفرة، لكن هؤلاء المستشرقين وأذيانهم، أرادوا أن يستغلوا ما داهم الأمة من مصائب الخلاف، ليجعلوا من خلفائها كما لو كانوا بابوات يملكون إيجاد أصول جديدة لدينهم، فأطمعوا أنفسهم بإمكانية نسبة معاني القدسية المتعلقة بهذه الأرض ومسجدها الأقصى إلى بعض خلفاء المسلمين، وكأن حالهم يقول: ما دام العرب المسلمون احتملوا أن ينشب بين خلفائهم قتال، فلا مانع من أن يُصدّقوا أن الخلفاء بلغوا مبلغا من الدس على رسول الله ﷺ، مكّنهم من نسبة أحاديث إليه تقديس بيت المقدس؛ ألا كذب هؤلاء، وسيرى القارئ مصداق قولنا على صفحات هذا البحث.

ولقد رأينا أن هذه الأرض تختص دون سواها من أرض الله الواسعة بمزايا ليست لغيرها، فأردنا أن يُسهم هذا البحث بشيء في هذا المضمار.

إننا هنا نُؤدي رسالة مقدسة، وذلك حينما نتكلم بالحق عن الأرض المقدسة، وإن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأصول الإسلام المبتوثة في صفحات تراثنا العربي الإسلامي العريق؛ إن كل ذلك يدعونا إلى مزيد من الاهتمام بهذه الأرض، لإعطائها حقها، ولن تخرج كلمات البشر مهما سمّت وعلت عن مقررات الحكمة في الوحي الشريف بأصلية: القرآن والسنة، وإنما قصارى ما يفعل البشر، أنهم يسرون مع آيات الله حيث تسير.

وإن المتزلة العالية لا تكون للمبتدع الآتي بالغريب عن دين الله سبحانه، وإنما هي لمن يغوص في آيات الله، ويأتي بالدُرر من أعماق النصوص، ويقتنص الغرر من آفاق النفوس، ويستفتح الأسرار في مدارات الكون، من الذرة إلى المجرة، فكلُّها آفاق البحث حسب دين الله، والسابح فيها سابح في آياته، قصر أو لم يُقصر.

وعلى كل ما تقدم، فإن بيت المقدس تتربع متبختره في نفس المؤمن بالله تعالى، ولأجل ذلك، فبيت المقدس مغروزة في نفوس المسلمين غرزا، ومغروسة في أفئدتهم غرسا؛ وهيئات لما غرس في شغاف القلوب أن يطراً عليه ذبولاً أو غروباً!

إن تسمية الكتاب: مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان، تتضمن الإيحاء بحركة مبدؤها الوحي الشريف، إذ يقود حركة الإنسان إلى تفاعل مشهود مع الأرض المقدسة، غني بالمعاني، ثري بدلائل الصدق المتمثل في جمال العلاقة بين الوحي والأرض المقدسة والإنسان، تلك التي جاء التاريخ ليؤكددها، وهو ما سيلمسه القارئ الكريم إن شاء الله تعالى!

وإني أعدُّ القارئ الكريم ألا يرى في بحثي هذا إلا الصحيح أو الحسن من الحديث النبوي، ولربما ملتُ إلى ترجيح الاحتجاج بحديث اختلف في الاحتجاج به، ولربما ملتُ إلى تصحيح أو تحسين حديث قال فيه بعض نقاد الحديث قديماً أو حديثاً ما بدا لي خلافه، ولا أتعالى على إمام قطُّ أبداً ما حييتُ.

ولكن في قليل جدا من الأحيان، أذكر حديثاً ثبت لي فيه ضعفٌ يسيرٌ أئينه، وما كنتُ لأذكر هذا الحديث إلا في سياق فكرة ثبت أصلها بالصحيح، أو تتابعت على ذكرها أحاديث عديدة يسيرة الضعف، رفعت مستوى المضمون إلى الثبات، ومثل هذا النوع في بحثي لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، بل لا يبلغ عددها.

وسوف يرى القارئ الكريم رؤى وتفسيراتٍ رأيتها، ومحاولاتٍ للدخول في أعماق النص أحيانا، كل ذلك و يقيني أن الصواب إن حالفني، فهو من الله، ولقد وقر في نفسي أن ما نفر من رأيي وتفسيري لبعض ما تعرضتُ له عن الصواب، فإن هذا النفور من قصوري وعجزني أنا، والله الغافر، وألتمس منه سبحانه العفو والتسديد، ورجائي من قارئني ألا يضمن عليَّ بما يصبوني به أو يوجّهني، وجزاه الله خيراً.

وأرجو أن يسمح لي القارئ بأن أتركه والأرضَ المقدسة، تحاكيه ويحاكيها، لتزداد
القلوب بها ارتباطاً، والنفوس لها عشقاً، والعقول بها إعجاباً.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأول:

**جولة في مفهومي القدسية والبركة وآفاقهما
وتعلقهما بالقدس**

إن تصور الأفكار من خلال توضيح المفهوم المقصود منها، هو الخطوة الضرورية الأولى في بحثنا الذي نخوض الآن بداياته، وإنما هنا في هذا الباب التمهيدي، نقوم بجولة في المفهوم الذي نريده من وراء كلمتي القدسية والبركة، وهما المفردتان اللتان تحمّلان في طياتهما مجمل رؤيتنا لمكانة بيت المقدس، فلا بد إذن من جولة تحدد المفهوم، لأجل أن نتحدد المتزلة، ويتبين المقام، وتظهر المكانة.

إنه تبين لنا أن القدسية والبركة مفهومان كبيران، يحمّلان في مضمونهما معاني أخلاقية سامية، ورسالة إنسانية نبيلة، مما يجعلهما أبعد ما يكونان عن دعوى دون التزام، فلا يصلح أن تلوك الألسنة مفردات القدسية والبركة، لبيان وإظهار عظيم المكانة التي يتبوؤها بيت المقدس، ثم تنفلت التصرفات والسلوكيات عن الالتزام برسالة القدسية والبركة، وبرسالة الأرض المقدسة المباركة.

وها نحن في بحثنا هذا نتبين هذا الجلال والكمال والوقار والخير الغزير، المركز كله في معاني القدسية والبركة، وفي تلك الفضائل الكبرى التي كوّنت في نفوسنا نحن المؤمنين بمكانة بيت المقدس، رؤية صحيحة راشدة، رفضت الخرافات والأوهام والتزمت بأنوار الحقائق.

ولكننا سنتحدث أولاً عن نشأة فكرة القدسية في حياة الإنسان، لنعرف في بداية بحثنا أيها نشأت مع نشأة الإنسان ذاته، من أول أيامه على الأرض.

إن ابتداءنا بالبحث في نشأة فكرة القدسية عند الإنسان، ونحن نبحث في بيت المقدس، تسوقنا إليه التسمية الخاصة ببيت المقدس، تلك التسمية التي صارت علماً لا يُعرف إلا لهذه المدينة المقدسة، فلا شك أن احتكارها لهذه التسمية، آتٍ من مخزونٍ خاصٍ تملكه هذه المدينة دون غيرها، منذ نشأتها الأولى.

ولقد دخلنا في مبحث خاص بمفهوم الأرض المقدسة في الوحي السماوي، لنقارب قدر استطاعتنا ما هو حقيقة.

إن فكرة القدسية الناشئة مع الإنسان أول أيام حياته على الأرض، كانت تمنح الإنسان رسالة خلقية تكفل له بها مسالك حسنة، تعبر عن جليل معنى الحياة أول ما عرفها على وجه الأرض، ولذا صح أن نقول: إن قدسية الأرض معنى كبير ينبثق عنه رسالة إنسانية بديعة، ومعانٍ خلقية سامية، تسكب على سلوك الإنسان محامد جلييلة، لأنها استطاعت ربط الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، والوحي بالبشر.

وفي هذا الباب، ستتضح هذه الأمور كلها إن شاء الله، وسنجعل هذا الباب في أربعة فصول:

الفصل الأول: قدم المعاني القدسية وحيويتها.

الفصل الثاني: مفهوم القدسية والبركة وما ينبثق عنهما.

الفصل الثالث: القدسية والبركة رسالة أخلاقية وإنسانية.

الفصل الرابع: مفهوم الأرض المقدسة.

الفصل الأول: قَدَمَ المعاني القدسية وحيويتها

أودُّ أن أُبيِّن أولاً، وقبل الدخول في مفهوم قدسية الأرض المقدسة وبركتها، أن القدسية لا تشمل بمفهومها أمكنة أو أزمنة خاصة فحسب، بل تشمل عندنا أولاً، أو هي تبدأ أولاً وقبل كل شيءٍ: بالعقائد والنصوص والتشريع، وهي حينما تبدأ بالعقائد، فهي تبدأ بالحق سبحانه وتعالى، فالله تعالى هو القدوس، أي المتزه عن النقائص والمعائب والشريك، وهذا عندنا أساس التقديس، ولن يتم لشيء تقديسه إذا لم يكن معترفاً بهذه القدسية لله سبحانه وتعالى، وكل شيء سيكون في دركات الغفلة والضلال والنقص إن لم يكن الله في قلبه، إن كان بشراً، وإن لم يكن الله معظماً فيه، إن كان مكاناً أو زماناً أو فعلاً؛ ولعله لمثل هذا المعنى جاء حديث الرسول ﷺ: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يُفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتَر أو قال أقطع»^(١)، هذا، ولربما يشاركنا في بعض ما تشمله القدسية عندنا نحن المسلمين، بعض أصحاب الديانات الأخرى، ولا ضير في ذلك عندنا..

ثم يجب أن نبين ثانياً، أن تقديس الأمكنة ميراث بشري أصيل وغير طارئ على البشرية، فهو نشأ مع الإنسان من أول هبوطه على هذه الأرض، بل إن الإنسان أول ما نزل على الأرض، لم يكن حسب اعتقادنا الإسلامي يعرف سوى الطهارة، التي هي المضمون الأهم لمعنى القدسية، فلقد كان قريباً من الملائكة، عارفاً بالله، قد امتلأ قلبه من جلاله سبحانه، ولم ير الأرض التي نزل عليها إلا معراجاً يعرج منه إلى ملكوت السماوات، ليعود من جديد إلى الجنة التي تسبب عدوّه إبليس بهبوطه منها..

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، (٣٩٥/٨، ح: ٨٦٩٧)، طبعة دار الحديث بالقاهرة، وهي التي حققها الأستاذ العلامة أحمد محمد شاكر رحمه الله تعالى، وأتمَّ تحقيقها الأستاذ حمزة أحمد الزين، وقال الأستاذ أحمد شاكر: إسناده صحيح، ورواه أيضاً أبو داود في سننه، (٢٨١/٤، ح: ٤٨٤٠)، وابن ماجه، (٤٣٦/٢، ح: ١٨٩٤)، وألفاظهم متقاربة، واللفظ الذي أثبتته هو لفظ الإمام أحمد.

هذه كانت حياة الإنسان أول ما هبط إلى الأرض، يقول الله تعالى: (فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا اهبطوا منها جميعا، فإما يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون..)^(١).

لقد نزل آدم عليه السلام إلى الأرض وفي صدره عظمة الله، بعد أن مرَّ بتجربة مع عدوه إبليس الذي أراد ألا تعظم كلمة الله في نفس آدم، لكن آدم عارفٍ بعدوه بعد التجربة إياها، وعارفٍ بالعظمة الربانية، وبمكان كلمات الله تعالى في نفسه.

وسيتضح معنا في صفحات بحثنا هذا، أن آدم ﷺ هو أول من عرف قدسية الأماكن في تاريخ البشر، فالثابت الصحيح كما سنرى أنه هو باني الكعبة المشرفة، أقدم مقدّس على وجه الأرض.

وهذا الذي نقوله عن أسبقية آدم عليه السلام في معرفة قدسية الأماكن، هو ما وصل إليه باحثون غربيون متخصصون..

فلقد أوضح ميرسيا إلياد، رائد دراسة قداسة الأماكن، أن تبجيل الأماكن المقدسة قد سبق كل تأملات الإنسان في طبيعة العالم، وتضيف أرمسترونج بعد أن تنقل بعض كلام إلياد: «فقداسة المكان من المبادئ التي تشترك فيها جميع الثقافات، والإيمان بها من العقائد الدينية الأولى في حياة الإنسان»^(٢)، والناس «يستجيبون في الواقع لاحتياجات إنسانية أساسية»^(٣)، وذلك حين يشغلون أنفسهم بما يتعلق بقدسية مكان ما.

وتتوسع كارين أرمسترونج في بحث مفهوم القدسية عند المسلمين حتى توصله إلى المجالات التي دخلها تطبيق التوحيد من مسيرة الإنسان في الحياة الإسلامية، فهي تقول:

(١) سورة البقرة، الآية (٣٧-٣٨).

(٢) القدس مدينة واحدة، ثلاث عقائد، تأليف كارين أرمسترونج، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، (٢٩).

(٣) المصدر نفسه، (٢٩).

«وعلى أساس مبدأ التوحيد ذاته، فقد أصبح لجميع المدن والدول الإسلامية التي قامت فيما بعد، قدر من القدسية التي غدت رمزا لمحاولة إخضاع كل الحياة الإنسانية لحكم الله»^(١)، ونحن رغم رؤيتنا لفترات متعدّدة في تاريخنا لم يعبر فيها نظام الحكم عن مفهوم صحيح للإسلام، إلا أننا نفهم هذا الكلام من أرمسترونج على اعتبار أن تطبيق شرع الله سبحانه وتعالى حينما يُطبّق، فإنه يُضفي على مطبّقه لونا من ألوان الوفاق والطهارة، هو أشبه بالقدسية إن لم يكن هو القدسية ذاتها، وعلى هذا من الممكن أن نفهم الحديث الشريف: (لا قُدّست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قوِّيها)^(٢)، أي لا طُهرت، وهذا يعني أنها حين يؤخذ لضعيفها من قوِّيها فإنها ستوصف بالقداسة..

وهو أيضا ما يمكن أن نفهمه مما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من مراسلة حرّت بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي رضي الله عنهما، قال ابن تيمية في الفتاوى: «..وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي يقول له: هلمّ إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقدس أحدا، إنما يقُدس الرجل عمله»^(٣)، فالتقدّيس على هذا يطال بجلاله الأشخاص والأمكنة التي تحظى بالتزامها بشرع الله في سلوكها وعقيدتها.

وليس من معنى القدسية أبدا ابتعاد الإنسان عن شؤون الحياة، بل الحياة العادية عند المسلم هي نفسها يمكن أن تكون مقدسة، إذا عاشها ملتزما بشرع الله تعالى؛ ويظهر أن اليهود لم يفهموا هذه القضية، إذ ظنوا القدسية هروبا من الحياة أو انغلاقا في أشكال من العبادة المنفصلة عن الحياة، وتذكر أرمسترونج رؤية اليهود المندهشة أو المستنكرة لما كان من حيوية الحياة المسجدية الإسلامية التي ربطت بين المسجد النبوي وبين الحياة ونشاطاتها

(١) المصدر نفسه، (٣٧٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٦٢/٤، ح: ٤٠١٠)، بلفظ: (كيف يُقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من

شديدهم).

(٣) مجموعة الفتاوى، تأليف: ابن تيمية، اعتنى بها، وخرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز

(ج٢٧/٢٩)؛ وهو في موطأ الإمام مالك، (٧٦٩/٢) بلفظ: (..وإنما يُقدّس الإنسان عمله).

وشؤونها، وهي بعد ذلك تعلق على رؤيتهم قائلة: «ويرى اليهود ذلك»^(١) مبعثاً للدهشة وأمرًا صادمًا، إذ إنهم يفصلون بين المقدّس وبين العالم الدنيوي، وهكذا يهياً لهم أن المسلمين لا ينظرون إلى مساجدهم وأماكن عبادتهم على أنّها مقدّسة، إذ إن باستطاعتهم أن يتجاذبوا أطراف الحديث مع أصدقائهم هناك، كما أنّهم يستغلون قداستها في عقد الحشود السياسية، غير أن ذلك يدل على عدم فهم [أي عدم فهم اليهود والنصارى]^(٢) فكرة المقدس عند المسلمين، الذين لا يرونه شيئاً منفصلاً عن الحياة، بل هو جوهر الحياة بأكملها، فحينما أقام محمد ﷺ لنفسه ولزوجاته حجرات في ساحة المسجد، برهن على أنه بالإمكان إدماج جميع الأمور الجسدية منها والمقدّسة والعائلية، والتي يجب أن تُدمج في واقع الأمر، وبالمثل، فإن أموراً مثل السياسة ورفاهية المجتمع وتنظيمه، هي أمور داخل مدى القداسة في ظل حكم الله، فالقداسة في الإسلام شاملة وليست نخبوية...، فالفكرة أن تدخل الدنيا في رحاب المساجد، لا أن تُعزل خارجها..^(٣).

وهذا من أرمسترونج تعبير ثري وغني بمعانٍ بديعة، وهذا التعبير وإن لم يكن حاملاً رؤية جديدة في الفكر الإسلامي، إلا أنه يتمتع بقدرة حسنة على إقحام هذه الفكرة في عقول أولئك الذين لا يقرؤون إلا لغير المسلمين.

وكلام أرمسترونج هنا لا يخرج في نهاية المطاف عن آية النور من سورة النور، التي تحدثت عن نور الله الكائن في بيوت الله، والذي يستقطب الناس إليه، وعن الرجال الذين يعمكثون في المساجد، والذين تصفهم الآية بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، قال تعالى: (في بيوت أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال،

(١) أي حيوية الحياة المسجدية الإسلامية.

(٢) ما بين المعكوفين من عندنا، وليس من كلام أرمسترونج.

(٣) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، (٣٨١-٣٨٢).

رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة^(١)، إن هؤلاء الرجال يُتأخرون بتجارات الدنيا، غير أن تجارهم ذات معانٍ قدسية، فهم يلتزمون بمقررات الحق في دين الله تعالى في تجارهم وسائر مسالك حياتهم، ثم إن تجارهم لم تصرفهم عن بيوت الله تعالى، فهم منها وإليها ذهابا وإيابا، يغترفون مما فيها من الخير والرحمة الإلهية.

وهكذا تطلُّ علينا جوانب من القدسية المتناسقة مع الحياة المستديمة، يتحصل منها في نهاية المطاف حياة طاهرة، ولكنها غير غائبة عن مستلزماتها، تسهم الصلاة فيها مع العمل في رسم صورتها الجليلة الجميلة، وهي نفسها التي قال الله تعالى عنها: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرتُ وأنا أول المسلمين)، إن الإنسان حينما تلقف معاني الوجود من صانعه، تناغمت حياته مع بعضها تناغما يستحيل معه الاضطراب أو الانشقاق.

فالعقل يستقي من منابع اليقين المتمثلة في آيات الموجد المتزلة، وفي آفاق الوجود المرسل؛ والروح تتلقى من هذا وذاك ما به تقي نفسها من اليأس والحيرة، والسلوك ينبثق من هذه الروح الرفرافة في آفاق الكون، ومن هذا العقل القنّاص الذي يستقي من منابع اليقين، ويلتقط من مباحج الوجود، لينتقي العقل والروح معا في تناغم بديع، وليصنعا معا سلوكا طاهرا، يجعل الحياة الدنيا بداية متفتحة لآخرة سعيدة، ويجعل الحياة الآخرة نهاية أبدية جميلة لدنيا راشدة، غرس صاحبها فيها جذورا تُنبث له في الآخرة زهورا وورودا وثمرا زاكية.

إنه لا تناقض عند المسلم الذي جعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، لا تناقض عند هذا المسلم بين الدنيا والآخرة، كل ما هنالك أن الدنيا تأتي في البداية، وأن الآخرة السرمدية المستمرة تأتي في المرحلة التالية.

(١) سورة النور، (٣٦-٣٧).

وها هنا، وها هنا فقط، تتكامل صورة الإنسان، وينسجم جسده مع روحه، ويتناغم عقله مع قلبه، وتنبثق السلوكيات انبثاقا طبيعيا عما في القلب والعقل دونما تكلف، فحياة الآخرة تبدأ بالدنيا، وتناغم الدنيا ينبثق من توافق ما في القلب مع ما في العقل، وتلاقسي الدنيا والآخرة يكون بكل هذا، إذا كان متلاقيا مع الوحي الكريم.

الفصل الثاني: مفهوم القدسية والبركة وما ينبثق عنهما

إن أهم ما يميّز الموصوف بالقداسة عندنا عن غيره، معانٍ طُهريةٌ ملتحمةٌ بالهيبة والوقار والجلال والجمال، بحيث تُحوّل هذه المعاني لدى المؤمن بالقدس عندنا دون تماونه بمستلزمات القدسية واحترامها.

وإن أهم ما يميز الموصوف بالبركة عندنا هو معانٍ تدور حول الخير ودوامه والعطاء وراثته.

إن هذين الوصفين بمعنييهما، تمازجا معاً ليكونا بتمازجهما صورة الأرض المقدسة بيت المقدس، والأرض المباركة فلسطين^(١)، فهي الأرض التي التقت فيها أسباب الطهر والهيبة والوقار والجلال والجمال والخير والعطاء في تاريخها ومنشئها منذ القِدَم، متمثلة في مخزونها من تراث النبوة، ومن الانتماء إلى السماء؛ ومتجسدة كذلك في رصيدها المُدَّخر للزمان الأخير، الذي تقف فيه سداً منيعاً أمام فتنه وضلالاته، لتؤدي من خلال موقعها هذا رسالة عالمية مذخورة لها وحدها.

إن كلمتي القدسية والبركة تستحقان منا إجراء عملية كشف عن مخزونهما المعنوي، القادر على الكشف عن جانب من جوانب المكانة العالية التي تتسم بها الأرض المقدسة.

ولأن حديثنا هنا مقصور على ما له صلة ببعض الأمكنة، أعني بيت المقدس، فإن معاني القدسية والبركة التي سنطرحها، ستكون خاصة بما يتصف به هذا المكان، وإن لم يعن ذلك بالضرورة احتكارَ هذا المكان لكل هذه المعاني.

(١) سيتبين لنا أن أكثر ما هنالك من الأدلة يُثبت أن لقب الأرض المقدسة خاص أصلاً ببيت المقدس؛ ونضيف هنا أن الأرض المباركة أكثر سعة من الأرض المقدسة، فهي تشمل في الغالب جميع الشام، وربما تشمل ما بين الفرات والنيل أيضاً، ولكن حديثنا هنا خاص في غالبه ببيت المقدس، ثم بفلسطين.

ونبدأ الآن بالحديث حول معاني القدسية والبركة، وبالله التوفيق، فنقول:

أولاً: إنه لم يرد في شيء من نصوص الشرع ما يجعل للقدسية والبركة معنى اصطلاحياً شرعياً خاصاً، كما هي عادة الشرع في كثير من المفردات والإطلاقات، كالصلاة والصيام والحج، وسواها من المفردات التي جعل لها التراث العربي الإسلامي معاني تخصها أخرجتها عن بعض سياقها اللغوي، وأضافت إليها معاني، صلّتها بالمعنى اللغوي الأصلي صلة الخاص بالعام أو العام بالخاص.. إلخ.

نقول: إنه لم يرد للقدسية والبركة مثل هذه الحال للمفردات التي ذكرنا نموذجاً عنها، ولذا، فإن الأمر في معنيهما يرجع إلى اللغة فحسب، وربما أيضاً إلى بعض سياقاتهما في القرآن والسنة؛ ولذلك، فلسوف نحاول أن نستخرج من اللغة ومن النصوص الشرعية معنى يمزج بين مفاهيم الشرع وبين اللغة في هذه المسألة؛ ولا يمكن أن نخرج عن مزج دلالة اللفظ لغوياً بدلالته شرعياً، فمن هذا المزيح نستطيع أن نخرج بمعنى القدسية والبركة اللتين اتسمت بهما هذه الأرض.

ثانياً: ومع هذا، فلقد اكتفينا هنا بنقول قليلة عن معاجم لغوية وقرآنية تشرح الأمر حسبما يتسع له بحثنا هنا.

ونبدأ بمعنى القدسية، من خلال جذرها: قدس..

قال الفيروزآبادي في بصائره^(١): «القدس والقدُس بضمّتين: الطهارة،...، وقدّسه تقديساً: طهّره، قال تعالى: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أي نظهر الأشياء امتثالاً لأمرك..»، وقال السمين الحلبي^(٢): «قوله تعالى: (وأيدناه بروح القدس) هو جبريل، والقدُس: الطهارة، ويُضَمّ داله ويُسكن، وذلك لأنه خُلِق من طهارة محضة مُلْكٍ نورانيٍّ، وقيل: سُمي بذلك من حيث إنه يتزل من الله تعالى بالقدُس، أي بما يطهر به نفوس عباده

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف الفيروزآبادي، (٤/٢٤٧).

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تأليف أحمد بن يوسف السمين الحلبي، (٣/٣٣٢).

من القرآن والحكمة والفيض الإلهي،...، قوله تعالى: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة):
المطهرة، ومنه بيت المقدس، لأنه يُتطهَّر فيه من الذنوب،...، وفي الحديث: (لا قُدِّسَتْ
أمة لا يؤخذ لضعيفها من قوِّيها)^(١)، أي لا طُهرت.

وقال الراغب الأصفهاني^(٢): «التقديس: التطهير الإلهي المذكور في قوله تعالى:
(ويُطهروهم تطهيرا)»، وفي تنمة قول الراغب ما يشبه النقلين السابقين، حيث يغلب أهما
أخذا عنه لا أنه أخذ عنهما؛ لسبقه زمانا.

وقال القرطبي في تفسيره^(٣): «وبناء قدس كيفما تصرف فإن معناه التطهير، ومنه
قوله تعالى: (ادخلوا الأرض المقدسة) أي المطهرة،...، وبيت المقدس سمي به لأنه المكان
الذي يُتقدس فيه من الذنوب، أي يُتطهَّر»، وقال أبو البقاء في كلياته^(٤): «التقديس: إثبات
ما يليق»، وقال العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي^(٥): «القدس: طهارة دائمة لا يلحقها
نجس باطن ولا رجس ظاهر».

وقال العلامة الإمام محمد الطاهر بن عاشور^(٦): «والمقدَّس: المطهر المتَّره،...،
وتقديس الأمكنة يكون بما يجلب فيها من الأمور المعظمة، وهو هنا^(٧) حلول الكلام الموجه
من قِبَل الله تعالى».

(١) رواه ابن ماجه (ح: ٤٠١٠ ج: ٣٦٢/٤) بلفظ: (كيف يُقدِّس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم
من شديدهم).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تأليف الراغب الأصفهاني، (٦٦٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، تأليف الإمام القرطبي، (٢٧٧/١).

(٤) الكليات، تأليف: أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، (٢٩٧).

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، تأليف العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، (٥٧٥).

(٦) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، (١٩٧/١٦).

(٧) أي في قوله تعالى في خطابه لموسى عليه السلام من سورة طه الآية (١٢): (فاخلع نعليك

إنك بالواد المقدس طوى).

وحول معاني البركة يقول ابن فارس^(١): «برك: الباء والراء والكاف أصل واحد، وهو ثبات الشيء»، ويقول الفيروزآبادي في قاموسه المحيط^(٢): «النماء والزيادة والسعادة،...، وبارك على محمد وعلى آل محمد: أدم له ما أعطيته من التشريف والكرامة،...، وبركت السحابة: اشتدَّ أهملها، وبركت السماء: دام مطرها»، ويقول الفيروزآبادي أيضا في بصائره^(٣): «والبركة معناها: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمادة موضوعة للزوم والثبوت،...، والمبارك: ما فيه ذلك الخير، وقوله تعالى: (هذا ذكر مبارك) تنبيه على ما يفيض من الحياة الإلهية، ولَمَّا كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يُحسُّ، وعلى وجه لا يُحصى ولا يُحصَر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، وفيه بركة»، ويقول أبو منصور الأزهري^(٤): «ومعنى البركة: علوُّ على كل حال».

ثالثا: وبعد هذه النقول التي مضت بنا إلى ما تريد من إفهامنا معنى قدسية الأرض وبركتها، فإننا نستطيع أن نستخلص منها مفهوما لكل من القدسية والبركة، يُمكن الاعتماد عليه في فهم كل ما تتحدث عنه النصوص مما له صلة بقدسية هذه الأرض وبركتها.

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (١/٢٢٧).

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي (٤/١٢٠).

(٣) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي، (٢/٢٠٩-٢١٠)، ويكاد هذا الذي نقلناه عن الفيروزآبادي، يكاد يكون نصا حرفيا في مفردات القرآن للراغب الأصبهاني، (١١٩-١٢٠)؛ والراغب الأصبهاني سابق من الناحية الزمانية للفيروزآبادي، مما يدل على أن الفيروزآبادي أخذ منه أو من مصدره؛ وإنما اقتصرنا في النقل عن الفيروزآبادي لزيادة قصيرة وجدناها عند الفيروزآبادي؛ ويُنظر ما نقله السمين الحلبي في كتابه عمدة الحفاظ، (١/٢٠٩) عن مفردات الراغب وقد نسبه إليه، ويُنظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، (١٢٥-١٢٦)، فقد نقل الكلام نصا حرفيا دون أن ينسبه لأحد.

(٤) معجم تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، (١/٣٢٠).

إن القدسية هنا بحسب ما نقترح: «صفة عالية ومقام سام، من شأنه أن يُترَه الأرض وأهلها المؤمنون بحقها هذا، واقعاً أو فرضاً، عما لا يليق بها وبهم من أصناف الفسق والفجور والكفر».

وإن البركة هنا بحسب ما نقترح أيضاً: «الخير الإلهي الدائم والثابت في الأرض، ونماؤه وغزارته وعالميته، مما يجعلها ذات مكانة عالية، ومقام شريف».

وإنما دفعنا إلى هذين اللذين اتخذناهما تعريفين، ما رأينا من شرح كلمة القدس والبركة في المعاجم اللغوية القرآنية التي نقلنا عنها، فلقد ركزت هذه المعاجم على معنى التطهير والخير ودوامه في كل محاور شرحها لكل من المفردتين.

وإنما قلنا في تعريف التقديس: واقعاً أو فرضاً، لما علمناه من واقع غير طاهر ألقاه عليها بنو يهود، مع وصفها في القرآن بالأرض المقدسة وبالبركة؛ مما يقضي بالزام المؤمنين بحقها، بالسعي إلى تطهيرها، لتحقيق معاني القدسية والبركة فيها.

وجعلنا العالمية جزءاً من تعريف البركة المتعلقة بالأرض الفلسطينية، استناداً إلى قوله تعالى: (ونجيناها ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين)^(١)، فقد جعلها الله تعالى بركة ذات بعد عالمي، وهو ما سنوضحه فيما سيأتي.

رابعاً: ولقد مر بنا أن الأرض المقدسة هي الأرض المُطَهَّرَة، وهو معنى استقطب إليه رواد الفكر والتربية الإسلامية، فاستخرجوا منه معاني بديعة أيضاً.

فهذا المفكر الإسلامي ورجل القرآن في فلسطين الأستاذ بسام جرار، لمَس المعنى لمسة كشف بها عن مضمون طهري بديع، فبعد بيانه أن الأرض المقدسة هي المُطَهَّرَة، وأن المُطَهَّرَة خلاف الطاهرة، بعد ذلك قال الأستاذ بسام جرار^(٢): «..أما المُطَهَّرَة فقد

(١) الأنبياء: (٧١).

(٢) في مقال له بعنوان الأرض المقدسة، نشره في موقع مركز نون للأبحاث والدراسات القرآنية

يلابسها الدّنس، ولكن لا تلبث أن تُطهّر، وهكذا، فكلما تكرر وجود الدنس تكرر التطهير^(١)، ويقول عن اتساع آفاق بركتها لتشمل العالمين: «ويُفهم من هذا أنّ لفلسطين وظيفة مباركة تتعلق بمسيرة البشرية كلها (الأرض التي باركنا فيها للعالمين)، فهي الأرض التي لا يتجذر فيها باطل، ولا يدوم فيها شر، لأنّها الأرض المطهّرة من ذلك كله..»، وبعد أن يذكر أدلة تاريخية ومستقبلية أخبر بها الوحي، كلّها تؤكد أن الشر والفساد لا يستقر فيها، كما لم يستقر الصليبيون والنتر، وكما سيزول فيها الدجال ويأجوج ومأجوج، بعد كل ذلك يقول الأستاذ بسام جرار: «أمّا اليوم فإنّ وجود إسرائيل يكاد يُنسينا حقيقة وجوهر هذه الأرض، بل قد يظن البعض أنّ عجلة التاريخ ستتوقف عند هذه اللحظة، أو أنّ سنة الله في المجتمعات ستتخلف، وأنّ كينونة فلسطين المتميّزة في كونها (مُطهّرة) ستزول، وما علموا أنّ وجود (إسرائيل) على الصّورة التي وجدت فيها، وفي الوقت الذي أصبح فيه إفساد الصهيونية عالميًّا الأبعاد، ويصدر عن هيمنة وسيطرة كونية الامتداد؛ هو الدليل على أنّ الامور تسير في طريق التقاء أقدار المفسدين ب(قَدْر) فلسطين الأرض المقدسة..»^(٢).

إننا نفهم من كلام الأستاذ هنا أن تطهير الأرض المباركة فلسطين من الإفساد اليهودي ذو بُعدٍ عالمي، لأنّ إفساد إسرائيل أصلا ذو بُعدٍ عالمي، أي أن المستفيد من نعمة التطهير هذه ليس فقط الشعب الفلسطيني، ولا شعوب العرب والمسلمين فحسب، وإنما المستفيد هو البشرية جمعاء، بسبب أن الفساد الإسرائيلي أصاب البشرية جمعاء^(٣)، ومن هنا جاء هذا الفهم لمعنى قوله تعالى: (التي باركنا فيها للعالمين).

(١) المرجع نفسه.

(٢) في استبيان شعبي على مستوى دول الاتحاد الأوروبي تبين أن ٥٩% من الشعوب الأوروبية يرون أن إسرائيل هي أخطر نظام على السلام العالمي، ونشرت خبر هذا الاستطلاع قناة الجزيرة القطرية عبر موقعها على الإنترنت، www.aljazeera.net/ بتاريخ ٢٠٠٤/١١/٤م، وذكرت أن استطلاعاً أجراه الاتحاد الأوروبي كشف أن نحو ٦٠% من أصل ٧٥٠٠

ويؤكد الأستاذ هذا المعنى في مقاله: (الأرض المباركة) معلقاً على قوله تعالى: (ونحنياه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين)، فيقول: «واللافت للاهتمام في هذه الآية أن فلسطين مبارك فيها للبشرية جمعاء»، وهذا بنص الآية الكريمة، ولعل كثيراً من مضامين هذا المعنى سوف تنكشف بما سيناله البشر من الخير بعد تطهير فلسطين، وبعد انفلات القيد الذي منع اليهودُ به انسياحَ بركة الأرض المقدسة في الدنيا كلها..

ويقول الأستاذ بسام جرار متابعاً: «البركة فيها معنى الثبات والاستقرار، وفيها معنى الاستمرار والملازمة...، وعليه فالبركة هنا - كما جاء في قول المفسرين - هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء^(١) أو هي الخير المستقر في الشيء اللازم له، وهذا يعني أن الخير الإلهي حلّ في كينونة فلسطين، وهذا الخير يلزمها في كل العصور إلى يوم القيامة، وتتجلى بركتها في كونها مقدّسة ومطهّرة من الشرّ، ولا يتحذر فيها باطل».

ويقول الأستاذ بسام جرار مطبّقاً وممثلاً لثبات الخير فيها وعالميته: «..لقد شكلت القضية الفلسطينية حاجزاً صلباً حمى وحفظ شعوب المنطقة من الذوبان في الحضارة الغربية، في الوقت الذي كان فيه العالم العربي والإسلامي يعاني من الأمية والتخلف، وذلك عندما شعرت الشعوب العربية والإسلامية بعبادة الغرب الشرسة الذي أوجد إسرائيل، وأمدّها بكل ما لديه من قوة، فخلق هذا التأيد رفضاً لدى العرب والمسلمين، بحيث أصبح الإلتواء إلى الذات الحضارية يقود إلى رفض التغريب، إن الإخفاق في حل المسألة الفلسطينية يعني أن الأمة لم تصل بعد إلى طور العالمية، وفي الوقت الذي

شخصاً أوروبيين من ١٥ دولة أوروبية أكدوا أن إسرائيل أكثر تهديداً للسلام العالمي من إيران وكوريا وأفغانستان.

(١) وهذا التعريف للبركة، هو ما قاله العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، فقد قال في معجمه اللغوي المصطلحي (التوقيف بمهمات التعاريف ١٢٥-١٢٦): «والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارك: ما فيه ذلك الخير، ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يُحسّ، وعلى وجه لا يُحصى ولا يُحصَر؛ قيل لكل ما يشاهد فيه زيادة غير محسوسة: مبارك...».

نستطيع فيه أن نحل هذه المسألة حلاً عادلاً نكون قد أصبحنا في المستوى اللائق لحمل رسالة الاسلام للعالم..“.

خامساً: وهذا الذي ذكره الأستاذ بسام جرار، يكشف عن مرتبة أخرى من مراتب معنيي التقديس والبركة المتعلقين بهذه الأرض، فيما أن التقديس يحمل لغةً معني الطهارة، فالمقدسة إذن هي المطهّرة، وهو يعني فيما يعني أن ما يطرأ عليها مما لا يتناغم مع طهارتها، هو زائل لا محالة، إن شاء الله تعالى.

وكما أن البركة ذات بُعد عالمي، فهي إذن ذات رسالة سِماتها الأساسية: الخير ودوامه الذي سينال العالمين في يوم من الأيام.

وهذا في تقديري عائد إلى تكليف الأمة الطاهرة المطهّرة بهذه الرسالة، وإلى ما ستناله هذه الأمة من عون الله تعالى في الدور العالمي ذي المضمون الخيري والتطهيري المنطلق باسم الأمة والقرآن من هذه الأرض إلى كل أرض الله تعالى.

ولذا، فالأرض المقدسة المباركة هي الأرض الطاهرة المطهّرة ذات الخير العميم في وجدان المسلم، والتي طرأ عليها ما يعكر عليها جميل صورتها، وأصابها ما يشوه نضار صفحتها، ونابها ما يلوّث طيب عطرها؛ مما يُحمّل الأمة أمانة تطهيرها من جديد للعاكفين في مسجدها، والمُعترفين من معين بركتها، ومما يجعل من أهم الفروض والواجبات إعادتها إلى بهائها أو إعادة بهائها المخطوف منها إليها.

سادساً: وعليه، فلا نحسب القرآن ركّز على وصفها بالبركة والتقديس لإبراز مقامها فحسب، بل نرى الأمر يتعدى ذلك إلى حكمة أخرى، ألا وهي إلزام المسلمين بتحقيق حالي الطهر والخير، فوصفها بالبركة والتقديس ليس طارئاً يمكن زواله، بل هو وصف جرى وسار مع سائر أنبياء الله على هذه الأرض، وسيرتهم فيها، داعين إليه سبحانه، ومجاهدين في سبيله، وتوّج هذا الحال الطهري والقدسي بما ألقى عليها من ثوب الجلال بإسراء الرسول ﷺ إليها، وعروجه منها إلى السماوات؛ وبما امتازت به هذه

الأرض المقدسة من قدرة هائلة على تحريك الأمة لإعادة أمجادها وعزتها، ومن قدرة عظيمة أيضاً على استقطاب أهل الشر لإنزال عذاب الله عليهم؛ ويأجوج ومأجوج والأعور الدجال، والتتر^(١) والصليبيون؛ أمثلة واضحة في هذا السبيل.

ومن هنا، فإننا نجيب عن سؤال طرحه الإمام الفخر الرازي في تفسيره حول قوله تعالى: (..الأرض المقدسة..)، فلقد قال: «هي الأرض المطهرة، طُهرت من الآفات، قال المفسرون: طُهرت من الشرك، وجُعِلت مسكناً وقراراً للأنبياء»، قال الفخر: «وهذا فيه نظر، لأن تلك الأرض لَمَّا قال موسى عليه الصلاة والسلام: (ادخلوا الأرض المقدسة) كانت مقدسة عن الشرك، وما كانت مقراً للأنبياء، ويمكن أن يجاب بأنها كانت كذلك من قبل»^(٢)، وهذا الجواب بأن سبب قدسيته عائد إلى أنها كانت مقراً للأنبياء من قبل، هو في تقديري صواب، لكنه غير تام، ذلك أن المعنى الذي تحمله الآية ليس مجرد وصف الأرض بالقدسية، بل فيها معنى التكليف بالمحافظة على هذه القدسية، وإلا: فما معنى أن يصفها بالمقدسة، والشرك يغمرها، لولا ما في وصفها بالقدسية من تكليف بدحر الشرك عنها؟!

فصارت فكرة التقديس المتعلقة بها تتضمن معنى التكليف بالعودة بها إلى أصلها، أي أن الأمر بدخول الأرض المقدسة يعني فيما يعني: أن تتحمل الأمة المكلفة بالرسالة مسؤولية تطهيرها وذلك بالمحافظة على قدسيته، وإزالة ما طرأ عليها مما لوّث طهارتها من ألوان الشرك وآثام المعاصي، وهذا ما يبدو لنا أن موسى عليه الصلاة والسلام أمر

(١) مما قرأته في تاريخ الغزو المغولي للشرق العربي والإسلامي، أن صيادي البحر في السويد والنرويج امتنعوا من نزول البحر والصيد فيه، خشية من التتر؛ وعليه فزوال شر التتر في فلسطين يؤكد في تقديري الصورة العالمية لبركة الأرض المقدسة؛ ثم لا أذكر الآن المرجع الذي قرأت فيه هذا الحدث الهائل، ولعلي أذكره إن شاء الله فيما بعد.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، (٢٠٢/١١).

قومه بدخولها لأجله، لكنهم نكصوا عن الأمانة، التي ثبت أنه لا يحملها إلا أمة الإسلام^(١).

سابعاً: بل إننا نرى أن الأمر فوق ذلك كله، فكون الأمة مكلفةً بتطهيرها إن عبثت بها الانحرافات، وكونها في حال لا يستمر معه فيها ما أصابها من الأرجاس، بل يزول بتطهير الله تعالى له، وبتوقيقه سبحانه بعض عباده في عملية التطهير، إن كل هذا يعني في نهاية المطاف أن المُطَهَّرِينَ (المحررين) لهذه الأرض، سينجحون في عملية تطهيرها..

وعليه، فللتسمية بهذا الاسم القدسي معانٍ تتضمن الطهارة أولاً، ثم عدم استمرارية الرجس إن طرأ طارئ رجس فأصابها بما لا يليق بمكانها؛ ثم نجاح المطهر (المحرر) لها، إذ إن معاني الشرك فيها غير مستديمة، فتزول المعاني الشركية، وهذا معنى انتصار الحرر المطهر لها.

فكونها طاهرةً مطهَّرةً على المعنى الذي ذكرنا، وكون هذا المعنى يُحمّل الأمة مسئولية تحقيق هذا الحال الطهري فيها، كون كل ذلك حاصل في مضمون معناها؛ إن هذا يعني في نهاية المطاف أن الأمة حينما تسعى إلى تحقيق معاني الطهر فيها، فلسوف تنال على سعيها هذا توفيقاً من الله سبحانه، ولسوف تُنصر إن شاء الله تعالى، ذلك هو المتناغم جدا مع معاني التقديس والتطهير المتعلقة بهذه الأرض.

أو بعبارة أخرى: فكونها لا تحتمل استمرار الأذى، وكونها طاهرة بالأصل لا بطرود الطهارة، وكون الأمة مكلفةً بواجب تثبيت حال الطهر هذا، أو إعادته في حالة طرود الرجس؛ وكون زوال الرجس جزءاً من رسالتها وطبيعتها، إذ هي لا تتناغم مع

(١) وهذا يُذكرنا بفهم قوله تعالى في باب آخر عن المسجد الحرام: (ومن دخله كان آمناً)، ففوق ما تحمله الآية من إعلاء شأن المسجد الحرام، فهي تُحمّل المسلمين مسئولية إيجاد حال الأمن دائماً في المسجد الحرام.

حالة الرجس لأصالتها الطاهرة؛ فإن كل هذا يعني أن حال الطهر آتية دائما كلما ألمَّ بها طارئ من غير جنسها، فستطرده لأنه غريب عنها، ويعني أيضا أن الداعي إلى تطهيرها منتصر بأمر الله سبحانه وتعالى.

ولعل ما كشفت عنه الأحاديث من زوال يأجوج ومأجوج والأعور الدجال واليهود؛ وما كشف عنه التاريخ من زوال الصليبيين والترك؛ وبعض ذلك حصل وبعضه سيحصل على هذه الأرض؛ لعل كل هذا صنع لشخصية الأرض المقدسة المباركة تراثاً من المعاني المؤكدة لرسالتها، فإذا سأل سائل: كيف تستطيع الأمة تحقيق حال الطهر والقدسية فيها، والحال هو الحال؟ جاء التاريخ الماضي، وعلم المستقبل الذي بثته الأحاديث، لتعمق في النفس بالتجربة المشاهدة وبنصوص الوحي، معاني القدسية والطهارة والبركة، وإمكانية تحقيقها!

ثامنا: ولربما نفعنا في التمثيل هنا لوظيفة هذه الأرض المقدسة، ما ورد في حديث البخاري الطويل، الذي يذكر فيه الرسول ﷺ قصة الرؤيا التي رآها لأصحابه، ففيه أن المَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ أَخَذَا بِيَدِهِ انْطَلَقَا بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ..

روى البخاري^(١) عن سَمْرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟)، قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَسَأَلْنَا يَوْمَئِذٍ فَقَالَ: (هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟)، قُلْنَا: لَا، قَالَ: (لَكُنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي، فَأَخَذَا بِيَدِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمَقْدُوسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلْبٌ مِنْ حَدِيدٍ [قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: كَلْبٌ مِنْ حَدِيدٍ يُدْخِلُهُ فِي شِدْقِهِ] حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَمِسُ شِدْقَهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ

(١) البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٣/٢٩٥-٢٩٦)، ح: ١٣٨٦، ورواه البخاري أيضا في موضعين آخرين، جاء في أحدهما تاما وبألفاظ قريبة من اللفظ الذي أثبتناه، (١٢/٤٥٧، ح: ٧٠٤٧)، وفي الآخر مختصرا، (٤/٣٦٧، ح: ٢٠٨٥).

على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة، فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه، قلت: من هذا؟ قال: انطلق، فانطلقنا إلى ثقب مثل التور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، يتوقد تحته ناراً، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا حمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة، فقلت: من هذا؟ قال: انطلق، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، على وسط النهر رجل بين يديه حجارة [قال يزيد وهب بن جبرير عن جبرير بن حازم: وعلى شط النهر رجل] فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه، فردّه حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قال: انطلق، فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها، فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب، قلت: طوّفتما لي الليلة فأخبراني عما رأيت، قال: نعم، أما الذي رأيته يُشقّ شدقه، فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه، حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة، والذي رأيته يُشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة، والذي رأيته في الثقب، فهم الزناة، والذي رأيته في النهر آكلو الربا، والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام، والصبيان حوله أولاد الناس، والذي يوقد النار مالك حازن النار، والدار الأولى التي دخلت، دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار، فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعت رأسي، فإذا فوقي مثل السحاب، قال: ذاك منزلك، قلت: دعاني أدخل منزلي، قال: إنه بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملت أتيت منزلك).

وحول قوله ﷺ من هذا الحديث: (فأخذنا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة)، قال الفقيه المحدث الإمام ابن أبي جمرة الأندلسي أثناء شرحه: «الأرض المقدسة هي بيت المقدس»، ثم طرح السؤال التالي: «وهنا بحثٌ في إخراجِه عليه السلام في النوم إلى الأرض المقدسة: لِمَ خُصَّتْ من بين الأرض بأن أُريَ له عليه السلام فيها تلك الأمور التي في الرؤيا، ولم يكن في غيرها من الأرض؟»، وأجاب ابن أبي جمرة أن الحكمة هنا تظهر من أكثر من وجه، ونحن نقتصر على وجه واحد مما ذكره ابن أبي جمرة، ونزيد عليه، والوجه الذي اخترناه مما ذكره أن هذه الأرض هي موضع الحشر، فهي التي يُحشر إليها الخلائق^(١).

أما ما نزيده على ما ذكره: فهو ما قرَّرناه من أن هذه الأرض ذات شأن خاص بتطهير البشرية من أهل الرجس فيها، من أي صنف كانوا.

فلقد ذكرنا أن بيت المقدس هي أرض الطهارة، وهي الأرض التي ينتصر فيها الخير على الشر، وهي الأرض التي تستقطب إليها أهل الشر لا لتكريمهم، بل لإنزال العقاب الأليم عليهم؛ ونرى هذا الحديث يكشف عن أقوام لوئوا أنفسهم في الحياة الدنيا بألوان من القدر الخلقى، أُرِيهم الرسول ﷺ بيت المقدس وهم ينالون عذابهم وعقابهم على قذارتهم المتلوثة بألوان كثيرة، وهذا يؤكد في تقديري المعنى الذي نحن بصدده، فالأرض المقدسة هي المطهَّرة، وهي التي ينكشف فيها عقاب الذين وقعوا في الرجس، ولكأن الأمر في نهاية المطاف: إعلان أن الأرض المقدسة ذات شأن في الكشف عن الذين أسأؤوا إلى البشر بالأخلاق الرجسية، كما هو الحال المتعلقة بالأرض المقدسة من تخلص البشر من

(١) بهجة النفوس وتخليها بمعرفة ما لها وما عليها، للإمام الحافظ المحدث أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، (١١٦/٢)، وهذا الكتاب هو شرح لمختصر صحيح البخاري، فقد شرح فيه مصنفه ابن أبي جمرة ثلاثمائة حديث انتقاها من صحيح البخاري، ورجع إليه الحافظ ابن حجر في فتح الباري في مواطن شتى منه.

أشد أعدائهم: يأجوج ومأجوج والأعور الدجال واليهود، كما سيأتي معنا في مكانه من هذا البحث، إن شاء الله تعالى.

ثم إننا هنا آثرنا أن نقل الحديث بطوله مع بعض تعليق ابن أبي جمرة، ومع تعليقنا عليه، لما فيه من معالمٍ اختصَّ بها هذا الحديثُ بيتَ المقدسٍ..

وبعد ما أثبتنا كل هذا الذي ذكرناه، فلا بد من عودة إلى معاني البركة وصلتها بهذه الأرض..

تاسعا: فلقد جعل الله تعالى بركة الأرض ذات بُعد عالمي كما ذكرنا، والبركة في أهم معانيها: غزارة الخير ودوامه، وحينما أكدت النصوص قدسية الأرض، والقدسية في ذاتها خير كبير؛ حين تؤكد ذلك كله بالنصوص، فإن طائفة من المعاني تتمازج، لتجعل القدسية ذاتها بُعد عالمي؛ فالقدسية خير، والبركة تعني الخير، وقدسية هذه الأرض: جزءٌ من الخير والبركة المركوزة فيها، وبما أن بركة هذه الأرض عالمية، وبما أن بركتها شاملة لمعاني التقديس، إذن: فالقدسية بمعنى التطهير ذات بُعد عالمي أيضا؛ مما يعني أن رسالة الأرض في العالم ليست بعيدة عن معنى تطهير العالم من الطغاة ومن الأرجاس، فلا بد أن لها في هذا شأنًا؛ بل إن التاريخ القديم، وإن المستقبل الذي أنبأ به رسول الله ﷺ، إن التاريخ والمستقبل المذكورين يؤكدان المعنى التطهيري العائد إلى بركة هذه الأرض العالمية، ولقد أشرنا إلى دور هذه الأرض في تطهير البشر من أعدائهم العالميين.

إن هذه المعاني القدسية قد انتشرت في آفاق فسيحة، فأصابت بخيرها عالمًا كبيرًا، بسبب قربها من بيت المقدس، جعلت له شخصية ذات مدلول سماوي خاص، وجعلت الفيلسوف والمفكر الفرنسي المسلم روجيه جارودي، ينبعث في سياحة روحية حين كان يدرُسُ فلسطينَ معرفًا لها بأنها أرض الرسالات الإلهية، فلقد قال في سياحة من سياحاته السامية: «وهكذا نستطيع أن نُعرِّف الهلال الخصيب بأنه هذا الجزء من العالم الذي

أسهم أكثر من أي جزء آخر في وصل الإنسان بالله^(١)، هذا، وإن في تسمية الفيلسوف الفرنسي المسلم روجيه جارودي لكتابه (فلسطين أرض الرسالات الإلهية) بهذا الاسم، لدلالة عميقة على ما افتعل في نفسه، من اختيار روجي لهذه الأرض المقدسة، التي لم يُسمّها القرآن الكريم غير التسميتين: الأرض المباركة، والأرض المقدسة، وهما تسميتان تشييان بطبيعة الانتماء الروحي، وبالصلة بالسمااء التي ستتحدث عنها في موضعها من بحثنا، وبالوظيفة المقدسة التي تحدثنا عنها في موضع سابق قريب.

(١) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، روجيه جارودي، (٥٤).

الفصل الثالث: القدسية والبركة رسالة أخلاقية وإنسانية

بعد أن تحدثنا عن مضامين مفهوم قدسية وبركة أرض بيت المقدس، نرى أنفسنا مسوقين للحديث في مسألة أخرى، وهي أن القدسية والبركة اللتين وُصفت بهما هذه الأرض، ليستا معبرتين عن مترلة تبوءتها هذه الأرض، وعن تكليف يحلّل الأمة مسئولية تحقيق هذه المعاني فيها فحسب، بل هما معبرتان عن رسالة خلقية تحملها هذه الأرض ويحملها معها أهلها.

وهذا ما يعبر عنه المضمون المعنوي الذي تحمله الكلمتان: البركة والقدسية، وقد تحدثنا عنهما بما نراه كافياً.

وهو نفسه المعنى الذي ورد على لسان الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه، والذي يحمل مضمونا قوامه أن وصف الأرض بالتقديس لا يُعني المقيم فيها عن تقديس نفسه، أي تطهيرها عما لا يليق بها ولا به.

يقول ابن تيمية في الفتاوى^(١): «..وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي يقول له: هلمّ إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقديس أحداً، إنما يقديس الرجل عمله»، وهذا الكلام من فقيه النفس والأرض سلمان الفارسي رضي الله عنه، يكشف عن معنى إنساني أخلاقي..

وفي شرح كلام سلمان لأبي الدرداء، قال الفقيه ابن العربي المالكي^(٢): «يعني أن الذنوب إنما تُكفّرُها التوبة والأعمال، ليست البقاع، أما إنه قد يتعلق بالبقعة تقديس ما،

(١) مجموعة الفتاوى، تأليف: ابن تيمية، اعتنى بها، وخرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز (ج٢٧/٢٩)، وهو في الموطأ للإمام مالك، (٢/٧٦٩).

(٢) القيس في شرح موطأ ابن أنس، للفقهاء الأندلسي المالكي ابن العربي، (٣/٥١٢).

وهو إذا عمل العبد فيها عملاً، ضوعف له بشرف البقعة مضاعفة تكفر سيئاته وترجح ميزانه وتدخله الجنة..».

وهذا من ابن العربي في شرحه لكلام سلمان رضي الله عنه، يشير إلى معنى دقيق آخر لقدسية الأرض، يحمل في طياته أن تقديس الأرض للإنسان لا يصلح دونما عمل صالح يقوم به هذا الإنسان، وأن التقديس هنا بمعنى مضاعفة ثواب العمل الصالح، وأن لا تقديس لمن لم يتقدم بعمل صالح في هذه الأرض.

إن قدسية الأرض معلّمٌ مُذَكَّرٌ للإنسان بالخير، لما بُثَّ على جنبات هذه الأرض من تراث غني بالخير، ومن شأن مثل هذا الحال بالنسبة لأهل الإيمان أن يوقع في نفوسهم ثقل الحياء من عمل لا يليق بها، فيعملون الحسنات، ليرتفعوا بالدرجات.

إننا نلمس في أنفسنا ميلاً إلى زيادة فعل الخير، أو إلى تقليص حالة الشر، وذلك حينما نكون في أزمان ذات فضيلة، أو أماكن ذات مقام رفيع، أو حينما نكون أمام من تمثلت فيه معاني الخير والفضيلة علماً أو كرماً أو جهاداً... إلخ.

أوليس الواحد فينا يرى نفسه أكثر انضباطاً بمبادئ الشرع والأخلاق في مثل هذه الأحوال؟

ففي شهر رمضان المبارك يكثر الخير في الناس الذين يعظمون هذا الشهر، فتقل ذنوبهم ويزيد عامل الخير فيهم، وكم أقبل على الله من التائبين في شهر رمضان المبارك، ممن كانوا لا يأبهون بشيء من أصول دينهم.

وفي هدأة الليل، وقد أخذ الناس مضاجعهم، يجلو لأهل الإيمان أن يستفتحوا أبواب السماء بذكر الله وصلاة يملآن القلوب عرفانا، وتأمل فيما قال الله تعالى يزيد العقول والقلوب بصيرة، ولو أقبل الشيطان على واحد منهم يريد أن يسرقه من انصهاره بين يدي الله، فسيجد موانع هذه السرقة أكثر منها بكثير في غير هذا المقام وهذا الحال، وما ذلك

إلا لما في أحوال القداسة والطهر والخير والبركة من رسائل إنسانية أخلاقية، تجذب الإنسان إلى الخير جذبا أشد من جذبه في غيرها.

ولعله من هنا تضاعفت حسنات أولئك الذين يستغلون بلاد الطهر والقداسة في الخير، كما تضاعفت سيئات أولئك الذين لم يحترموا مقامها القدسي، وإن هذه المعاني تقبض على قلب المسلم قبضا، يحول بينه وبين اقتراف السيئات في هذه الأماكن.

روى ابن المُرَجِّي في فضائل القدس^(١) عن نافع قال: قال ابن عمر ونحن ببیت المقدس: «يا نافع اخرج بنا من هذا البيت، فإن السيئات تضاعف فيه كما تُضاعف الحسنات».

قال ابن المُرَجِّي^(٢) في علة تعظيم سيئات من يقارفها في الأماكن الفاضلة كالمساجد وغيرها: «ألا ترى أن من يُرى يعمل المعاصي في المسجد، ومن رؤي يعمل المعاصي خارج المسجد، يكون التوبيخ لمن عمل المعاصي في المسجد أعظم، والمقت إليه أسرع، وإن كانا جميعا قد اشتركا في الفعل، لكن هذا في المعنى اكتسب ذنبين، فالذنب الواحد: هتكُه حرمة المسجد...، والذنب الآخر: ارتكابه المعصية، فهذا من التضعيف، والله أعلم».

ولعله من هنا كان يجرى كثير من الناس على الإكثار من الخيرات في المساجد الثلاثة، لما في معنى ذلك من تعظيم للحسنات فيها، روى سعيد بن منصور في سننه عن أبي مجلز قال: «كانوا يستحبون لمن أتى المساجد الثلاثة أن يختم بها القرآن قبل أن يخرج: المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ، ومسجد بيت المقدس»^(٣).

(١) فضائل بيت المقدس، لأبي المعالي المشرف بن المُرَجِّي، (٢٩٥).

(٢) المرجع نفسه، (٢٩٧)، وقد تصرفنا تصرفا يسيرا في كلمتين فيما نقلناه عن ابن المُرَجِّي هنا، ليتضح المعنى أكثر.

(٣) إعلام الساجد بأحكام المساجد، بدر الدين الزركشي، (٢٨٨).

وهذا أمر مفهوم في تقديري، فإن تعظيم الأماكن الفاضلة شرعا بالحسنات وفعل الخيرات، هو احترام لمن أسبغ عليها بفضله سبحانه وتعالى؛ وإن ارتكاب المعاصي فيها، هو انتقاص من مكانتها التي أعطاه الله إياها، وهذا المعنى واضح فيما يتعلق ببيت المقدس وضوحا كبيرا، فهي التي تسمت باسم معناه التطهير من الذنوب، وهو قدرها الشرعي، فيكون الوقوع في الذنوب فيها نقيضا لقدرها الشرعي الذي أراده الشرع لها.

الفصل الرابع: مفهوم الأرض المقدسة

لا يضيرنا أن توصف الشام عموماً بالتقديس، فهي أرض الدعوات الربانية، وليس التقديس عنها بعيد؛ ولكن الذي يضيرنا هو طريقة البحث التي توسّع وصف التقديس ليشمل الشام عموماً، في الوقت الذي تنسى هذه الطريقة مركز القدسية الشامية المتمثلة ببيت المقدس، أو تصرف الذهن عن بيت المقدس، حينما تشير هذه الطريقة دائماً بأن الأرض المقدسة الوارد ذكرها في القرآن والسنة هي الشام، فأين بيت المقدس التي بسبب وجودها حصناً حصيناً لمعاني التقديس من وصف القدسية الخاص بها في هذه الطريقة؟!

ورغم أن بيت المقدس جزء من الشام، إلا أن مكانة القدس تضيع عند كثير من المؤلفين في بحر الشام الفسيح حينما يفسرون الأرض المقدسة بالشام عموماً، ثم ينطلقون إلى الشام لبيان فضلها المستند في معظمه إلى وجود القدس فيها، وهكذا تُنسى بيت المقدس!

ولذا، فواجب هذا الفصل أن يبين أن الأرض المقدسة الوارد ذكرها في القرآن والسنة هي بيت المقدس، وليس هذا انحيازاً منا لبيت المقدس، وإنما هو عودة بالمفهوم إلى أصله، ولأجل أن نعطي بيت المقدس حقها مما ورد فيها من تخصيص القرآن والسنة معنى الأرض المقدسة فيها.

وسنجد في تعبيراتٍ عدةٍ وردت على ألسنة بعض القدماء من الصحابة ومن بعدهم أن الأرض المقدسة هي بيت المقدس.

فمثلاً سنجد في تعبير الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه ما قد يسمح بقصر إطلاق وصف الأرض المقدسة على بيت المقدس خاصة، وذلك في سياق يدلُّ على أن الأمر متعارفٌ عليه، على الأقل بين المخاطب والمخاطب، فقد ذكرنا ما رواه مالك في الموطأ، أن أبا الدرداء رضي الله عنه أرسل إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه أن هلمَّ إلى

الأرض المقدّسة، فكتب إليه سلمان: «إن الأرض لا تقدس أحداً، وإنما يقدّس الإنسان عمله»^(١)..

وأثناء تفسير كلام أبي الدرداء ذكر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله تعالى، في شرحه للموطأ^(٢) أن أبا الدرداء كتب كلامه هذا لسلمان رضي الله عنهما من دمشق؛ ولكن كونه كتب كلامه هذا وهو في دمشق، لا يعني بالضرورة أن يكون قصده أن دمشق هي الأرض المقدسة، وإنما المعنى هو أنه أرسل إلى سلمان من دمشق يدعو للذهاب بصحبته إلى الأرض المقدسة، التي سيتضح معنا حسب سياق ما نقله من شرح كلامه أنها بيت المقدس وليست دمشق.

ذلك أن سياق كلام الأستاذ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله تعالى، في شرحه لكلام أبي الدرداء رضي الله عنه، يدل بصراحة على أن الأرض المقدسة الوارد ذكرها في كلام أبي الدرداء، هي بيت المقدس ذاتها، فقد نقل الكاندهلوي عن كتاب المنتقى في شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي قوله في سياق شرحه، أي في سياق شرح الباجي لمعنى وصف تلك الأرض بالمقدسة، وأنه يحتمل أن يكون معنى كونها مقدسة هو أنها المقدسة لأهلها، بمعنى أنها تطهّر من فيها من الذنوب؛ نقل الكاندهلوي عن الباجي في المنتقى قوله^(٣): «..ويدل على صحة هذا التأويل قول سلمان: إن الأرض لا تقدس أحداً، ولا تطهّره من ذنوبه، وإنما يقدّسه عمله، فيكون على هذا التأويل إنما وصف أهل بيت المقدس بذلك في وقت عملوا فيه بطاعة الله، وكان كثير منهم أنبياء، وسائرهم أتباعاً للأنبياء، ولعله كان ذلك في وقت أمروا بملازمته، كما أمر المسلمون بالهجرة إلى المدينة، فكأن سكنها في ذلك الوقت تُقدّس أهلها، وتطهّره من الذنوب»، وهذا واضح في أن الأرض المقدسة في كلامي أبي الدرداء وسلمان الفارسي رضي الله عنهما

(١) الموطأ للإمام مالك، (٢/٧٦٩).

(٢) أوجز المسالك إلى موطأ مالك، للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي المدني، (١٤/٣٨٠).

(٣) المرجع نفسه، (١٤/٣٨٠)، وقد نقل الكاندهلوي كلام الباجي هذا من كتابه: المنتقى.

هي نفسها بيت المقدس، فتفسير تقديسها أنصبَّ على الحديث عن بيت المقدس والأنبياء الذين حلّوا فيها.

وقد نقل رسالة أبي الدرداء ذاتها إلى سلمان أبو المعالي المشرف بن المرجي في كتابه فضائل بيت المقدس، وجعلها تحت عنوان: باب ذكر من زار بيت المقدس من الأئمة والصالحين، ومن كان فيه من المتعبدين والأبدال، فذكر فيه قصة أبي الدرداء هذه^(١)؛ وهذا يعني من ابن المرجي أن الأرض المقدسة في كلام أبي الدرداء رضي الله عنه هي بيت المقدس.

ثم، لقد ذكر شهاب الدين المقدسي^(٢) أن أبا عبيدة قال لما حضره أجله: «ادفوني من غربي نهر الأردن إلى الأرض المقدسة، ثم قال: ادفوني حيث قبضت، فإني أتخوف أن تكون سنة».

وهذا من أبي عبيدة رضي الله عنه يدل على أن الأرض المقدسة كائنة غربي نهر الأردن، وهذا يشير إلى بيت المقدس ذاتها خاصة، أو إلى فلسطين عامة.

وقريب منه ما ذكره ابن المرجي عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال: «..دعوا الدنيا على أهلها ينهشونها، وبرزوا إلى الأرض المقدسة، وإلى هذه الجبال، وإلى حيث لا تنكرون منكرًا»، وأوماً بيده إلى بيت المقدس^(٣).

كل هذا الذي نقلناه يلقي ضوءاً على مفهوم الأرض المقدسة، وأنها في الحقيقة بيت المقدس، وأن ما يرد على لسان بعض الأئمة والمفسرين من إطلاق وصف الأرض المقدسة على الشام عموماً هو من باب توسيع المفهوم، أو من باب توسيع دائرة بركتها، لتشمل مساحات كبيرة، انطلاقاً من قوله تعالى: (الذي باركنا حوله).

(١) فضائل بيت المقدس لأبي المعالي بن المرجي، (٢٤٥).

(٢) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، لشهاب الدين المقدسي، (٣٠٠)، والرواية نفسها بتفصيل

أطول في فضائل بيت المقدس لأبي المعالي بن المرجي، (٢٥٨).

(٣) فضائل بيت المقدس، لأبي المعالي المشرف بن المرجي، (٢٦٠).

ومع كل ذلك، فإنني أضيف: إنني وجدت أكثر ما قرأت لشارحي حديث رسول الله ﷺ في قصة سيدنا موسى عليه السلام حين سأل الله تعالى أن يدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجر؛ وجدتُ أكثر ما قرأتُ لشارحي هذا الحديث أن الأرض المقدسة هنا هي بيت المقدس، وسيرى القارئ الكريم ذلك في سطور تالية.

وكذلك الأمر في تفسير كثير من الأئمة لقوله تعالى على لسان سيدنا موسى ﷺ: **(..يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة..)**، كما سيري القارئ الكريم في سطور وفقراتٍ تالية. وعليه، وفوق ما نقلنا من تفسير لكلام أبي الدرداء رضي الله عنه السابق، وما نقلناه عن أبي عبيدة رضي الله عنه وعن غيره أيضاً، فوق ذلك، فسنقوم بمحاولة تحديد مفهوم الأرض المقدسة من خلال شروح العلماء لثلاثة نصوص، هي أشهر ما ورد في رأيي متضمناً ذكر الأرض المقدسة، أحدها من القرآن والآخرا من السنة، وسنضيف إليها نصاً من صحيح البخاري؛ كل ذلك لنرى شرح كل تلك النصوص عند أهل التخصص، بل سنرى أن بعضها يفسر بعضاً، ويؤدي إلى أن الأرض المقدسة فيها هي بيت المقدس خاصة دون غيرها..

وهذه النصوص هي التالية:

النص الأول هو قوله تعالى: **(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا تتردوا على أديباركم فتنقلبوا خاسرين)**^(١).

والنص الثاني هو ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما^(٢) أن موسى عليه الصلاة والسلام لما حضرته الوفاة: **(سأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجر)**، وقد ورد عند مسلم والبخاري مرفوعاً، وعند البخاري والنسائي موقوفاً عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) سورة المائدة، الآية (٢١).

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري، (٣/٢٤٥، ح: ١٣٣٩)، و(٦/٥٠٨، ح: ٣٤٠٧)، صحيح مسلم، (٧/٤٦١-٤٦٢، ح: ٢٣٧٢)، ورواه أيضاً النسائي، (٤/٤٢٥، ح: ٢٠٨٨)، والبخاري في شرح السنة، (٥/٢٦٥-٢٦٦، ح: ١٤٥١).

والنص الثالث هو ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم^(١) وصحح إسناده وأقره الذهبي وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير^(٢) وكتب بجواره: صحيح، عن عبد الله بن حوالة أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه وقال: (يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك).

ثم رأيت أن أضيف إلى هذه النصوص نصا رابعا، هو بعض حديث طويل نقلته بطوله في فصل سابق عن البخاري، وذلك في قصة رؤيا رسول الله ﷺ حين ذكر أنه رأى في المنام رجلين أحذاه إلى الأرض المقدسة.

إننا من شروح بعض العلماء لهذه النصوص، بل من دلالة بعضها، سنصل إلى مزيد من المعرفة بالأرض المقدسة، والتي نرى أنه يتقاسم تحديدها الأقوال التالية:

١ - فمن الناس من يقصر إطلاق الأرض المقدسة على بيت المقدس خاصة دون غيرها؛ كما نراه من صنيع الفقيه المحدث الإمام ابن أبي جمرة الأندلسي أثناء شرحه لحديث رؤيا الرسول ﷺ الذي ذكرناه قبل صفحات، فقد قال: «الأرض المقدسة هي بيت المقدس»^(٣)؛ وهو ظاهر كلام الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم، فعند شرحه حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة وفاة موسى ﷺ، وسؤال موسى

(١) سيأتي تفصيل القول في إسناده هذا الحديث في مكانه من الفصل العاشر من الباب الرابع، وهو في مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق: حمزة أحمد الزين، (٣٢٢/١٦)، ح: ٢٢٣٨٦، وأبو داود، (٣٥٨/٢)، ح: ٢٥٣٥، والحاكم في المستدرک، (٤/٤٢٥)، وصححه الأستاذ الألباني رحمه الله تعالى في صحيح أبي داود، (ح: ٢٢١٠) كما نقله عنه الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، في كتابه: المهدي وفقه أشراف الساعة، (هـ-٧٢٩).

(٢) صحيح الجامع الصغير للأستاذ الألباني رحمه الله تعالى، (١٢٩٣/٢-١٢٩٤، ح: ٧٨٣٨).

(٣) بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها، للإمام الحافظ المحدث أبي محمد عبد الله بن أبي

جمرة الأزدي الأندلسي، (١١٦/٢).

ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال الإمام النووي^(١): «وأما سؤاله الإدناء من الأرض المقدسة، فلشرفها، وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم، قال بعض العلماء: وإنما سأل الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس، لأنه خاف أن يكون قبره مشهورا عندهم، فيفتتن به الناس»؛ وهو أيضا ظاهر كلام الزين ابن المنير، كما يفهم من سياق ما نقله عنه الحافظ في الفتح^(٢)؛ ورجح القاضي عياض أن موسى طلب القرب من الأنبياء الذين دُفِنوا ببيت المقدس^(٣).

وهو أيضا ما يفهم من كلام الحافظ نفسه في الفتح، فأثناء عرضه لتفسير حديث سيدنا موسى الذي يطلب من الله الإدناء من بيت المقدس، ذكر الحافظ^(٤) أن الله لما منع بني إسرائيل من دخول بيت المقدس، وتركهم في التيه أربعين سنة.. إلخ، وهذا من الحافظ تفسير لآية: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة..). بأنها بيت المقدس؛ وبوّب ابن المرجى لحديث سؤال موسى الإدناء من الأرض المقدسة بقوله: باب سؤال موسى عليه السلام ربه أن يدنيه من بيت المقدس عند موته^(٥)، وذكر الحديث، وهذا منه تفسيرٌ للأرض المقدسة ببيت المقدس.

وهو قول ابن جزّيّ الغرناطي الأندلسي في كتابه التسهيل^(٦)، بل حينما ذكر أن الأرض المقدسة هي بيت المقدس، ذكر قولين آخرين أوردهما بصيغة التمرّيض، فقال: وقيل: الطور، وقيل: دمشق؛ والقول بأهما بيت المقدس هو قول

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي، (٤٦٢/٧).

(٢) فتح الباري للحافظ ابن حجر، (٢٤٦/٣).

(٣) يُنظر: المرجع السابق، (٢٤٦/٣).

(٤) المرجع السابق، (٢٤٦/٣).

(٥) فضائل بيت المقدس لأبي المعالي بن المرجى، (٢٧٦).

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، للإمام محمد بن جزّيّ الغرناطي الأندلسي، تحقيق رضا فرح الهمامي،

(٣٧٤/١).

البيضاوي^(١)، وأبي السعود في تفسير كل منهما^(٢)، وهو أيضا قول الشيخ محمد علي الصابوني، فقد علق على تفسير ابن كثير لقوله تعالى: (ادخلوا الأرض المقدسة..) بقوله: ((المراد بالأرض المقدسة: بيت المقدس وما حوله))^(٣). ويساعدنا في تصحيح إطلاق لقب الأرض المقدسة الوارد في قصتي موسى ﷺ في القرآن والسنة، أن يوشع بن نون، وهو فتى موسى عليه السلام، قد فتح فعلا بيت المقدس بعد وفاة أستاذه موسى، فقد روى الإمام أحمد^(٤) رحمه الله تعالى في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الشمس لم تُحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس)، وعليه: فبيت المقدس هي الغاية التي وجه نبيُّ الله تعالى موسى عليه السلام قومه ليدخلوها، كما ورد في آية المائدة: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة)، فلما لم يدخلوها، لِحَبْنِ فِيهِمْ، وحبٌ للدنيا، وتاهوا في صحراء التيه أربعين سنة، ومات موسى عليه السلام قبل دخول الأرض المقدسة، وسأل الله تعالى أن يُدنيه منها رمية بحجر؛ لما وقع كل ذلك جاء دور يوشع لإنفاذ

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، (١٤٣/٢).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، محمد بن محمد العمادي، (٢٣/٣).

(٣) هامش مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (٥٠٢/١)، وذكر الشيخ قوله هذا مرة أخرى في

كتابه صفوة التفاسير، (٣٣٥/١) ناقلا إياه عن البيضاوي.

(٤) المسند للإمام أحمد، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، رحمهما الله تعالى، (٢٧٥/٨، ح: ٨٢٩٨)،

وظاهر كلام الشيخ شاكر تحسين أو تصحيح إسناده، ونقل الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا رحمه

الله تعالى في شرحه على الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، (١٠٥/٢٠)، نقل

عن الحافظ ابن كثير قوله في هذا الحديث: وهو على شرط البخاري؛ وقال الحافظ ابن حجر في الفتح

(٢٥٥/٦) عن رجال إسناده: محتجُّ بهم في الصحيح؛ وقد صححه الأستاذ الألباني رحمه الله تعالى في

صحيح الجامع الصغير، (٩٨٢/٢، ح: ٥٦١٢)، وذكره في سلسلة الأحاديث الصحيحة، (٢٦٦/٥)،

ح: ٢٢٢٦)، وحكم في الصحيحة، (٣٩٤/١، ح: ٢٠٢) على إسناده الإمام أحمد بأنه إسناده

جيد.

أمر الله تعالى لبني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، فسار إلى بيت المقدس فاتحاً، وحُبست له الشمس أثناء فتحها، كما في الرواية التي ورد ذكرها في حديث الإمام أحمد. إن هذا كله يدل على أن الأرض المقدسة المقصودة في الآية من سورة المائدة هي نفسها بيت المقدس التي فتحها يوشع بن نون فعلاً، منفذاً أمر الله تعالى لبني إسرائيل بدخولها، وحُبست له الشمس أثناء فتحها.

ويساعدنا على تحديد مفهوم الأرض المقدسة ببيت المقدس، ما سوف يأتي في الفصل العاشر من الباب الرابع من تفصيل القول في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وصحح إسناده وأقره الذهبي وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير وكتب بجواره: صحيح، كما قد ذكرنا تفصيل تخريجه قبل قليل، عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه وقال: (يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك).

ونرجى البحث التفصيلي في هذا الحديث إلى الفصل العاشر من الباب الرابع، ولكننا هنا نستيق مكان ذلك التفصيل بشيء متعلق بتوضيح معنى الأرض المقدسة؛ ففي هذا الحديث بيان أن آخر خلافة للمسلمين ستكون في الأرض المقدسة، بدليل ما يفهم من كلام الرسول ﷺ فيه، أن الساعة قريبة من نزول الخلافة في الأرض المقدسة قرب التصاق، وذلك بدليل قوله ﷺ فيه: (والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك)، فهذا يعني أن تلك الخلافة ستكون آخر شيء يسبق الساعة، أو يسبق علامتها المباشرة لقيامها، وهذا التقريب لقيام الساعة بعد نزول الخلافة الأرض المقدسة، هو أكثر لصوقاً بالساعة من قرب بعثة الرسول ﷺ من الساعة، والتي مثل لها رسول الله بقرب ما بين أصبعيه السبابة والوسطى، فُلصوقُ يده ﷺ من رأس عبد الله بن حوالة رضي الله عنه أثناء وضعه إياها على رأسه، هو بالتأكيد دلالة على قرب أكثر من ذلك القرب الذي ورد في تمثيل رسول الله ﷺ لقرب بعثته من الساعة بقرب ما بين أصبعيه الشريفتين السبابة والوسطى، فقد ذكر

ما يفيد الالتصاق في حديث ابن حوالة، ولم يُذكر ما يفيد هذا الالتصاق في حديث قرب ما بين الساعة وبين بعثته ﷺ.

فإذا تبين لنا، كما سوف يأتي في الفصل المشار إليه، أن المقصود بالخلافة في حديث ابن حوالة هي خلافة المهدي عليه السلام، لأجل أن المهدي يلاقي الأشراف الكبرى للساعة، التي بعدها مباشرة تقوم الساعة، وإذا علمنا كما سوف يأتي أن المهدي عليه السلام سيكون بيت المقدس تحديداً، وأن عيسى ابن مريم ﷺ سيصلي خلفه في المسجد الأقصى، فإنه ينتج عن كل ذلك أن الأرض المقدسة الوارد ذكرها في هذا الحديث لن تخرج عن بيت المقدس، وسيأتي البحث التفصيلي في الموضوع في وقته من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

٢- قد ذكرتُ أولاً تفصيل القول، حسب تقديري طبعاً، أن بيت المقدس هي الأرض المقدسة، وثمة قول آخر لعلماء يوسعون رقعة الأرض المقدسة توسيعاً يشمل فلسطين، وهو لا يخرج كثيراً عن القول الأول الذي فصلته قبل قليل.. يقول أستاذي الشيخ عبد الحميد طهماز^(١): «وفلسطين هي أفضل أرض في بلاد الشام، لأن فيها أولى القبلتين المسجد الأقصى ومسرى رسول الله ﷺ وهي الأرض المقدسة التي ذكرها سبحانه في قوله الكريم على لسان نبيه موسى ﷺ: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا تتردوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين)؛ وعندما جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام سأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجر، .. وهي أرض فلسطين»؛ وهذا القول هو قول الإمام المحقق محمد الطاهر بن عاشور، فقد قال في تفسير الآية التي تأمر بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة: «وهذه الأرض هي أرض فلسطين، وهي الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وبين نهر الأردن والبحر الميت، فتنتهي إلى حماة شمالاً وإلى غزة وحبرون جنوباً»^(٢)؛ وهو أيضاً قول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب عبد

(١) في كتابه سبيل السعادة في سورة طه وكلمة التوحيد وأمة التوحيد في سورة الأنبياء، (٦٨).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (١٦٢/٦).

السلام طويلة، فبعد أن ذكر حديث ابن حوالة عند الإمام أحمد وأبي داود والحاكم وصححه وأقرّه الذهبي، والذي ذكرناه مرتين قبل قليل، وسيأتي مرارا في هذا البحث، وهو الحديث الذي ينص على أن الخلافة إذا نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الساعة؛ بعد أن ذكر الأستاذ هذا الحديث في كتابه: المسيح المنتظر ونهاية العالم، قال: «فدلّ على خلافة عاصمتها القدس، وقاعدتها أرض فلسطين؛ لأن الأرض المقدسة هي فلسطين، كما في سورة المائدة، والبركة مقرّها المسجد الأقصى، كما في سورة الإسراء؛ وهذه الخلافة لمّا توجد بعد»^(١)، أي وسوف توجد إن شاء الله تعالى؛ وهذا من الأستاذ عبد الوهاب قريب جدا من قول من يقول إن الأرض المقدسة هي بيت المقدس ذاتها، كما قد يوحي كلامه.

٣- ومن أهل العلم من يُدخل في مفهومها أرض الشام كلها، ويبدو أن الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور أدخل الشام كلها في الأرض المقدسة، وذلك في تفسير قوله تعالى: (وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها)، فيقول الشيخ ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «والأرض أرض الشام، وهي الأرض المقدسة»^(٢)، ولا يظهر لي أن الشيخ أراد هنا تفسير الأرض المقدسة الوارد ذكرها في آية المائدة، وإنما أراد تفسير آية الأعراف التي تذكر الأرض المباركة، ثم وصف هذه الأرض المباركة بالتقديس، وهذا ليس ببعيد، فأرض الشام عموما تستحق الوصف بالتقديس لترات الخير فيها؛ لكنه ليس تفسيراً للشيخ للأرض المقدسة الوارد ذكرها في المائدة، وقد قرأ القارئ قوله فيها وأنها فلسطين، وذلك في الفقرة السابقة؛ والقول بأن الأرض المقدسة هي الشام هو قول الدكتور صلاح الخالدي في كتابه تصويبات، فقد قال فيه: «والمراد بالأرض المقدسة فلسطين وما جاورها، أو بلاد الشام على الأصح»^(٣)، وهو يقول بعد

(١) المسيح المنتظر ونهاية العالم، للأستاذ الشيخ عبد الوهاب عبد السلام طويلة، (٥٨).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٧٧/٩).

(٣) تصويبات في فهم بعض الآيات للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، (١٣٦).

قريب من صفحة: «وحقق الله لليهود هذا الوعد، ودخلوا الأرض المقدسة بقيادة العبد الصالح يوشع بن نون»^(١)، وقول الدكتور الخالدي هذا يُلزمه بأن الأرض المقدسة هي بيت المقدس تحديداً، لما ذكرناه قريباً من حديث الإمام أحمد^(٢) رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الشمس لم تُحسب على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس)، وهذا يعني أنه سار إلى الأرض المقدسة التي هي بيت المقدس؛ والقول بأن الأرض المقدسة هي الشام هو قول قتادة في تفسيره آية المائدة^(٣).

٤- ولربما اتسع الأمر عند بعض الباحثين، فجعلوها شاملة للمنطقة الواقعة بين الفرات والنيل^(٤)، وقريب منه منقول عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، كما ذكره عنه الشوكاني ناقلاً إياه عن ابن عساكر، قال ابن عساكر عن معاذ: هي ما بين العريش إلى الفرات^(٥).

٥- وثمة أقوال بأنها الطور الذي كلم موسى عليه ربه سبحانه وتعالى، أو أريحا، أو دمشق؛ وهي بمجملة أقوال مشمولة ببعض الأقوال السابقة، غير أنها لا تقوى على معارضة القول بتخصيص وصف التقديس ببيت المقدس، فالمعاني المتمثلة فيها كفيلة لتجعلها بؤرة الأرض المقدسة، إن لم تكن هي.

(١) المرجع السابق، (١٣٦).

(٢) المسند للإمام أحمد، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، رحمهما الله تعالى، (٢٧٥/٨، ح: ٨٢٩٨)، وقد فصلنا القول فيه حين ذكرناه قبل صفحات.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، (٣٢٣/٢)، والبحر المحيط، لأبي حيان، (٤٦٩/٣)، وفتح القدير للشوكاني، (٣٨/٢).

(٤) وهو ما اعتمده الدكتور صلاح الخالدي في كتابه حقائق قرآنية، ووافقه عليه الأستاذ إبراهيم العلي في كتابه: الأرض المقدسة، يُنظر لهذه الرؤية عند هذين الأستاذين كتاب الأرض المقدسة للأستاذ إبراهيم العلي، (٢٤-٢٦).

(٥) فتح القدير للشوكاني، (٣٨/٢).

ولستُ بسبيل التوزين بين هذه الأقوال، لكنني أودّ الالتفات إلى أمرين:

الأول: هو جامعُ جمع بين هذه الأقوال، فهي كلها تنفق على أن بيت المقدس من الأرض المقدسة، سوى ما قرأه القارئ الكريم في القول الخامس من الأقوال التي ذكرناها؛ ويلزم من كلام من قال إنها أرض الشام، ومن قال إنها الواقعة بين الفرات والنيل، يلزم من كلام أصحاب هذين القولين أن فلسطين جزء من الأرض المقدسة، ففلسطين داخلية في تحديد الأرض المقدسة لدى أصحاب هذين القولين، على اعتبار أنها جزء من الشام، أو جزء مما بين الفرات والنيل.

الثاني: هو أن أكثر من نقلت عنهم يجعلون الأرض المقدسة كالعالم على بيت المقدس، فهي نفسها عندهم بيت المقدس، ولكأن كثيرا من أصحاب سائر الأقوال تقصد أن الأرض المقدسة هي بيت المقدس أيضا، لكنهم يرون قدسية بيت المقدس متسعة لتشمل الشام كلها، أو ما بين الفرات والنيل؛ ولست أرى ضيرا في هذا التوسيع لأنوار القدسية المقدسية، غير أنني هنا أقصد حصر المفاهيم، وضبط التعابير.

وأنا أميل جدا إلى اعتبار بيت المقدس هي الأرض المقدسة، فمعظم ما قرأنا من فضلٍ متّسم بالجلال الديني والوقار النبوي متصلّ اتصالا وثيقا ببيت المقدس ذاتها، فهي أرض الإسراء، وأرض أولى القبلتين، وثالث الحرمين، وفيها أحد المساجد الثلاثة التي تُشدّ إليها الرحال، ثم هي مع كل ذلك معصومة من الأعور الدجال، وهي التي صلى فيها محمد ﷺ بالأنبياء إماما، وأخيرا هي التي يصلي فيها المهدي بعيسى ﷺ إماما؛ وجميع هذا الذي نذكره مفقود تماما في غير بيت المقدس من أرض الشام أو من الأرض التي بين الفرات والنيل، وليس لهذه الرقعة الكبيرة ما يعوضها عما لم تنله مما هو لبيت المقدس، فحق لبيت المقدس أن يكون له علم آخر هو: الأرض المقدسة.

ويساعد على اختياري لتفسير الأرض المقدسة ببيت المقدس، أن بيت المقدس نفسها هي التي نالت دون غيرها اسما مشتقا من التقديس، فصار علما عليها، أي أنها نالت

اسما ينبثق مما هو مختزنٌ فيها وفي تراثها من معاني القدسية^(١)، ومشتقا من الجذر (قدس)، وذلك خلافاً للأماكن المقدسة الأخرى، التي لم تنل اسما تقديسياً منبثقا من الاشتقاق نفسه؛ فلم يخصها أهل الإسلام بما خصوا به بيت المقدس من تسمية خرجت تتألاً من جذور التقديس، بما يحمل مفهوم التقديس من معانٍ جليلةٍ تعرّضنا لبعضها؛ فهي الأرض المقدسة، وهي بيت المقدس، وهي القدس، وهي التي احتفت بما يجعلها بعد مكة والمدينة على الذروة من بلاد الدنيا، ثم إنها هي التي ما فتت تشدّ المجاهدين وأشواقهم إليها، حباً في أن يقضوا شهداء على ساحة أقصاها تطهيراً لها، وترسيخاً لمعاني قدسيّتها.

وعليه، فإنني سأعتمد في بحثي هذا المفهوم الذي يجعل الأرض المقدسة هي ذاتها بيت المقدس، وأحيانا في بعض السياقات، سأعتمد المفهوم الذي يجعل من فلسطين كلها تفسيرا للأرض المقدسة، ولست في ذلك رافضا لإطلاق وصف التقديس على أرض الشام عموماً، غير أنني أقصد هنا إلى الكشف عما تحمله النصوص التي سندور حولها من معانٍ.

(١) ذلك أن للأسماء فلسفة خاصة، فأصدقها ما كان معبرا عن حقيقة المسمى بها، وأجملُ هذه المسميات ما كانت حقيقته سامية عالية مرفرفة، فجاءت تسميته كذلك، سامية عالية مرفرفة، ومن هنا كان اسم محمد صلى الله عليه وسلم جامعا بين أرقى الأسماء وأجملها، وبين أصدقها، وكذا الأرض المقدسة، هي أصدق اسم لهذه الأرض، وهي أيضا من أرقى التسميات.

الباب الثاني:
فضائل القدس بين نصوص الوحي وكتب
الفضائل

قد اقتضت طبيعة البحث هنا أن نتصدى لضرب من البحوث الاستشراقية، يهودية وغير يهودية، تلك البحوث التي قامت على أصل أصلته أهواء المستشرقين، يقوم على أساس أن بيت المقدس بعيدة عن ساحة الاهتمام العربي والإسلامي الأصيل، وأن ما هنالك من رؤى حول بيت المقدس ومكانته في الإسلام، ليست أكثر من فيض يهودي إسرائيلي قديم، اقتحم العقل الإسلامي، ووجد له من الأدعياء من يؤسس له فيه مكانا!

لقد غفل مخترعو هذا التأسيس أن الإسلام محصن أيما تحصين ضد أي دخيل يحاول اقتحام حرمه، ولو كان الإسلام يسمح باقتحام الدخيل لحصون وحيه الشريف، لنجحت مؤامرات اقتحام القرآن الكريم، لتلوّثه بما يحرفه عن صفائه الإلهي، ولتدخل عليه همزات الشياطين، وأوهام الحمقى والمغفلين؛ لكن كل تلك المحاولات رجعت على نفسها وأصحابها بفشل مُخجل!

ولو كان هذا التأسيس الاستشراقي صحيحا، لنجحت محاولات هدم السنة المشرفة، حين قام فرقاء من الناس بوضع أحاديث بالآلاف، ظنا منهم أن الدين سيُهدم من هذا الباب، لكن هذا التخريف الشعوبي واليهودي، استنفر أسود السنة لتصدى له، ولتكشف عن عقلية إسلامية عالية القدر، استطاعت أن توصل أصولا وتخترع علوما، تتباهى بها على الأمم، أصابت حركة الوضع بضربات قاتلة، ونبشت عما في ظلماها من حيرة واضطراب..

فهل نعذر أدعياء البحث العلمي أولئك، من المستشرقين، يهودا أو غير يهود، إلا من احترق عقله وفكره منهم؟ هل نعذرهم على أوهامهم التي تسللت إلى نفوسهم كأثر من آثار انطباعهم بصفة التوراة والإنجيل، اللذين عششت وفرّخت فيهما أساطير الأمم من قديم الزمان، ثم أُتخذت دينا عندهم يكفر منكره؟ هل نعذر كل هؤلاء لأنهم حسبوا حصون القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مهلهلة كحصون التوراة والإنجيل؟!

إن أهم ردّ على كثير من شبهات المستشرقين يتمثل في مطالبتهم بالدليل والبرهان وصحة النقل لما يقولون وينقلون، وها هنا نقطة افتراق بيننا وبينهم، فبينما يعجزون عن

إثبات صحة كتابهم المقدس: التوراة والإنجيل، يقوم البحث العلمي الإسلامي الأصيل بحشد أدلة قادرة قاهرة، يستطيع بها الناظر إليها أن ينافح عن الدين وأصوله بقوة واقتدار؛ وبينما يقوم منهج البحث الإسلامي في مجال الدعاوى على طلب الدليل المكافئ للدعوى، ويقدر على الالتزام بهذا الطلب، ويتمثله في حياته؛ يقوم المنهج الغربي في إلقاء الدعاوى على الأوهام، وعلى محاولة الانتقاء لما يحسبه داعما له في فكرته، أو أوهامه، واستبعاد ما سواه؛ وبينما تفوق المنهج الغربي المعاصر في إجراءات إثبات الدعوى والمواصفات التي لا تُقبل إلا بها، تراه حينما يناقش قضايا الإسلام أبعد ما يكون عن هذه المنهجية!

إن ثمة مفارقات كبيرة:

الإسلام من أول يوم يدعو إلى التثبيت والاستفادة من الإجراءات التي تبدها العقول البشرية، ثم يلتزم بكل ما هنالك، والغرب بدأ حياته الدينية دون شيء من هذا، فإذا وصل به الأمر نتيجة انفلاته من طبيعة الكتاب المقدس التي لا تعتمد منهج التثبيت لعدم قدرته على الثبات أمامه أصلا، إذا انفلت من هذه الطبيعة، وأدت به تجربته المستفيدة من تجارب غيره، كالمسلمين مثلا، تراه أبدع في الإجراءات والالتزام بها، طالما هي بعيدة عما يمكن أن تبثه أفواه قاداته الفكريين والسياسيين من إمكانية استفادة تاريخ الإسلام أو واقعه مثلا من نتائج البحث..

إن الاستشراق الغربي أحد اثنين إلا من رحم الله:

فهو إما جاهل بمنهج التثبيت، وإما خائن لها، خاصة إذا كان الإسلام هو المستفيد!! ولا داعي لاستلال سيف الرد من غمده الآن، لأننا أجلنا إشهار سيفنا إلى الفصول المكوّنة لهذا الباب، بل إلى كل أبواب الكتاب، فانتظر!
وسيضم هذا الباب فصولا أربعة، وهي كما يلي:

الفصل الأول: تأسيس نصوص الوحي لمكانة القدس عند المسلمين.

الفصل الثاني: شبهات المستشرقين حول أحاديث فضائل القدس.

الفصل الثالث: الرد على هذه الشبهات.

الفصل الرابع: نظرة في كتب فضائل بيت المقدس.

الفصل الأول: تأسيس نصوص الوحي لمكانة القدس عند المسلمين

نقصد بالتعرّف على التأسيس لمكانة القدس عند المسلمين، التعرفَ على النصوص الأولى التي أفسحت للقدس مكانا خاصا في نفوس المسلمين، لنكشف عن أصالة المكانة التي تتبوّؤها بيت المقدس في الإسلام، وليكون هذا الفصل تمهيدا للرد على دعاوى استشراقية، أرادت أن توهم قارئها أن مكانة القدس في الإسلام فيضٌ يهودي كريم! رغم أن كثيراً من هذه النصوص قيل قبل الهجرة، بل في أوائل العهد المكّي أي قبل أن يتعرف أي مسلم على أي يهودي. وكذلك لنمهّد بهذا الفصل لفصول وأبواب تالية، تكشف عن الأغصان الباسقة والثمار اليانعة، تلك التي نمت وترعرعت على هذه الجذور الأولى التي سنتحدث عنها هنا..

وسيرى القارئ حشدا من النصوص الصحيحة، من القرآن والسنة، كلٌّ منها يُسهم في هذا التأسيس الذي نخوض غماره هنا..

فأول ما يلفت نظرنا هنا أن مكانة بيت المقدس عند المسلمين ابتدأت من أول يوم كانت فيه صلاة في الإسلام، فلقد كانت قبلة هذه الصلاة، واستمرت تجتذب إليها صلوات المسلمين إلى أن حوّل الله تعالى القبلة إلى الكعبة المشرفة، بعد الهجرة النبوية ببضعة عشر شهرا؛^(١) إن اتخذ هذه المدينة قبلة للمسلمين مدة ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا بعد هجرة المسلمين إلى المدينة، يقوم دليلا لا يُنقض على مكانتها لدى المسلمين، منذ زمن الرسول عليه الصلاة والسلام^(١).

وهذا أمر لا يحتاج منا إلى طلب دليل، لشهرته بين المسلمين، بل لاعتراف اليهود والنصارى معاً به، ولذا، فلن يرى القارئ الكريم بحثا منا هنا في أدلة هذا الأمر.

(١) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (٤٨).

هذا، ولكأن الله تعالى أراد ألا يجعل لأحد حجة تدفعه إلى الادعاء بأن تحويل القبلة إلى مكة جاء على خلفية التهوين من مكانة القدس في الإسلام، فجعل سبحانه لدفع هذا الادعاء تدبيراً خاصاً، تمثل في معجزة الإسراء والمعراج، في فترة سبقت تحويل القبلة بأكثر من عامين ونصف، فدخلت المدينة المقدسة في صلب آيات الله تعالى من سورة الإسراء، قبل تحويل القبلة بهذا الزمان المذكور، لتبقى دون أن يحوم حولها ناسخ من النواسخ، تُقرأ بين المسلمين حتى بعد تحويل القبلة عن بيت المقدس، إلى أن يأتي الله بأمره في جمع الناس ليوم لا ريب فيه.

أعني أن رحلة الإسراء والمعراج ذات المحور المقدسي ذهاباً وإياباً، والتي انطلقت قبل تحويل القبلة بعامين ونصف، سبقت أماني البائسين من الجارين وراء الأوهام، فقطعت عليهم طريق الادعاء بتراجع مكانة القدس بعد تحويل القبلة منها إلى مكة المكرمة، قطعت عليهم هذا الطريق برحلة الإسراء التي سبقت تحويل القبلة، وبآية الإسراء المستمرة قراءة وتذكيراً بمكانة القدس ما دام القرآن يجري في أفئدة المسلمين، وتلهج به حناجرهم.

وكان آية الإسراء تقول: لئن تحوّلت القبلة عن بيت المقدس، فقد حظيت بأن كانت ممر الأرض إلى السماء، في أعظم رحلة بشرية، هي رحلة الإسراء؛ حتى إذا حاول أحدهم أن يلوي عنق الحقيقة، فيدعي أن تحويل القبلة عن بيت المقدس تمّ من مقامها، قامت رحلة الإسراء وآية الإسراء بالمنافحة عن هذه المكانة.

ثم تتلاحق النصوص بعد ذلك، كل منها يُسهم بحسب طريقته وبجسب مناسبته في بيان منزلة بيت المقدس، لتشكل جميع هذه النصوص مصدر اعتقاد إسلامي لا يتزحزح.

إن آية الإسراء التي ذكرت رحلة رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، تتحدث عن بركة ذات شمول مكاني فسيح، فالله تعالى يقول: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا، إنه هو السميع

البصير)، وجاءت آيات أخرى تتحدث عن هذه البركة، وكلها نزلت في العهد المكي، لتتأسس في نفوس المسلمين من قديم الزمان، مكانة رفيعة للبيت المقدس، وللأرض المباركة بحملها..

ومن آيات العهد المكي المعروفة بمكانة الأرض المقدسة قوله تعالى: (وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها)^(١)، والله تعالى إنما أورث بني إسرائيل قديما تلك الأرض التي قصبتها بيت المقدس، ومعلومة هي الآيات التي تصف انطلاق بني إسرائيل من مصر، وعبورهم البحر، ثم أمر موسى ﷺ قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة، وإبائهم أمر نبيهم وربهم، إلى أن تصف هذه الآيات من سورة المائدة ضربَ التيه عليهم؛ ومعلومة هي النصوص التي تتحدث عن ملك سليمان وداود، وأن هذا الملك كان في بيت المقدس، كما ثبت في الصحيح من قصة بناء سليمان مسجداً بيت المقدس، ولم تأت آية واحدة تشير إلى رجوع بني إسرائيل إلى مصر، وعليه، فالآية التي تقول: (...مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها..). تعني قطعاً أرض بيت المقدس، لا أرض مصر، لأن بني إسرائيل لم يرثوا أرض مصر، وإنما الأرض التي بؤرتها بيت المقدس^(٢).

(١) الأعراف: (١٣٧).

(٢) أطلت هنا لأرد على من يقول إن الأرض التي بارك الله فيها في سورة الأعراف هي مصر، ومن هؤلاء القائلين بهذا القول الإمام السخاوي رحمه الله تعالى، يُنظر كتابه: الأجابة المرضية، (٤٥٢/٢)، قال الإمام السخاوي: «فإن الأرض المذكورة هنا أرض مصر جزماً؟ وأنت رأيت من خلال السياق الذي ذكرناه أنه لا يمكن أن تكون هذه الأرض إلا أرض بيت المقدس.

عزيزي القارئ: وبعد أن أثبتنا أن الأرض التي بارك الله فيها في آية الأعراف التي ذكرناها هي الأرض التي قصبتها ومركزها بيت المقدس، لا يهمنا بعد ذلك تهوُّش المهوِّشين الذين يخشون على فلسطين من هذه الآية وما شابهها من الآيات، ويدعون أننا بما سنعطي اليهود حقاً لهم في فلسطين، فالآية تتحدث عن فترة تاريخية مضت وانتهت بما لها وما عليها، ولا ينبثق عنها حق حاضر، لا في قانون شرعي ولا قانون دولي، واليهود اليوم ليسوا بني إسرائيل، كما أثبتنا ذلك في بحث لنا، ولقد ناقشنا فيه فكري الوعد الديني والحق التاريخي المدَّعَيْن من أساسيهما، ونفينا قطعاً أن يكون بإمكان

ويقول الله تعالى: (ونحنياه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين)^(١)، وهي الأرض المقدسة من بلاد الشام، كما ذكر ابن كثير^(٢)، ويقول تعالى: (ولسليمان الريح عاصفةً تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها)^(٣)، قال فخر الدين الرازي^(٤): «إلى بيت المقدس»، وهي البؤرة التي كان سليمان عليه السلام يحكم منها مملكته؛ ويقول تعالى أيضا: (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة)^(٥)، ونقل أبو حيان الأندلسي^(٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله في تعريف هذه القرى التي بارك الله فيها: «قرى بيت المقدس»؛ وفي كتابه: أطلس القرآن^(٧)، وتحت عنوان: الأرض التي بارك الله حولها: بيت المقدس وما حولها، عقد الدكتور شوقي أبو خليل فصلا خاصا ذكر فيه هذه الآيات إلا الآية الأخيرة، ثم قال بعد أن سردها: «بارك الله بيت المقدس وما حولها بأنواع البركات الحسية والمعنوية، وما حولها: بلاد الشام، مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة الأطهار».

فهذه أربع آيات تذكر بركة المسجد الأقصى وبيت المقدس، فإذا أضيفت إليها آية الإسراء، رأينا البركة شاملة كما ذكرنا لمساحة مكانية كبيرة، لكن بؤرتها ومحور بركتها هو بيت المقدس، الذي اختصه الله تعالى بالإسراء برسوله، دون سائر الأرض المباركة.

اليهود الاستناد عليهما في ادعاء حق لهم في فلسطين، واستندنا في الرد عليهم إلى رؤى جديدة تُطرح لأول مرة، فليُنظر إليه من يشاء، في بحثنا: انتماء فلسطين بين دعاوى التوراتيين وحقائق الماضي والحاضر.

(١) الأنبياء: (٧١).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، اختصار الشيخ محمد علي الصابوني، (٥١٤/٢).

(٣) الأنبياء: (٨١).

(٤) التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (٢٠١/١١).

(٥) سبأ: (١٨).

(٦) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، (٢٦١/٧).

(٧) أطلس القرآن، للدكتور شوقي أبي خليل، (١٨٤).

وكأني بالتعبير القرآني حينما قال: (التي باركنا فيها) في الآيات التي نقرؤها، وحينما قال: (الذي باركنا حوله) في آية الإسراء، وهو يستعمل الاسمين الموصولين: التي والذي، كأني بهذا التعبير القرآني يقصد أن يجعل البركة علماً على بقعة بذاتها، تُحتكر قرآنياً لصالح هذه البقعة وحدها، فالقرآن لم يقل: أرضاً باركنا فيها، وإنما قال: (التي باركنا فيها)، و (الذي باركنا حوله)، فكأنها الأرض المعهودة بالبركة دون غيرها، وذلك لتنحصر البركة في هذه الآيات بهذه البقعة وحدها، ولولا ما قال سبحانه في آية الإسراء: (الذي باركنا حوله)، لكانت البركة منحصرة قرآنياً ببيت المقدس وحده، لكن نعمة الله أبت إلا انسحاب البركة واندياحها في مساحة واسعة فسيحة، من غير أن تصرف مركز البركة عن أن يكون: بيت المقدس وحده.

إن هذه الآيات التي تلونها، وجميعها مما نزل في مكة المكرمة، فسح لبيت المقدس مكانة سامية، لم تنلها جميع أرض الله سبحانه وتعالى.

وإن هذه الآيات المكية لتنفي أية مصداقية لدعوى فريق من المستشرقين يهودا وغير يهود، يقولون: إن مكانة بيت المقدس في الإسلام إنما انبثقت من يهود، فهل أثبت التاريخ شيئاً من لقاء اليهود بأحد من المسلمين قبل العهد المدني؟ الجواب: لا، فمن أين جاء التأثير إذن؟!

وهذا الكلام نفسه نقوله في الحديث الحواري القصير التالي بين الرسول ﷺ من جهة وبين الأرقم رضي الله عنه من جهة أخرى، فهو يصور توجهها من هذا الصحابي إلى بيت المقدس في المرحلة الأولى من العهد المكي، مما يُسهم في نفي أية إمكانية لصدق دعاوى يهودية تقول: إن المسلمين استفادوا مكانة بيت المقدس من اليهود..

روى الحاكم النيسابوري في مستدركه على الصحيحين وصححه^(١) وأقره الذهبي، عن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه وكان جاء إلى الرسول يودّعه بعد إسلام عمر

(١) المستدرک للحاکم، (٥٠٤/٣)، وسيأتي تخريج تفصيلي له.

كما في المستدرک، أي بعد أن انتهى دَوْر دار الأرقم بإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال الأرقم: «فجئتُ رسول الله ﷺ لأودّعه وأردتُ الخروج إلى بيت المقدس، فقال لي رسول الله ﷺ: (أين تريد؟)، قلت: «بيت المقدس»، قال: (وما يُخرجك إليه، أفي تجارة؟)، قلت: «لا ولكن أصلي فيه»، فقال رسول الله ﷺ: (صلاة ها هنا خير من ألف صلاةٍ ثمَّ)»^(١)، أي في بيت المقدس.

إننا هنا أمام توجه قديم إلى بيت المقدس من قِبَل بعض صحابة رسول الله ﷺ، ورغم أنني لا أعلم سوى الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه قد عقد العزيمة لزيارة بيت المقدس، إلا أن في توجُّهه معنى ذا أهمية في بحثنا هنا..

إنه أولاً: حصل في أول الإسلام، بعد إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإنه ثانياً: يدل على أن الأرقم لم يتوجَّه هذا التوجه من تلقاء نفسه إلا لمعنى يتعلق ببيت المقدس، عرفه من محمد ﷺ، وإلا، فالسؤال يطرح نفسه: لماذا اختار بيت المقدس، وهي بعد في أيدي الروم، ولم يكن مسجدها مهياً للصلاة فيه، بسبب بعده عن سيطرة المسلمين عليه؟!!

أغلب الظن أن رسول الله ﷺ كان يحدثهم عنها، وعن شد الرحال إليها، وعن فضل ذلك، فأراد الأرقم بناءً على كل ذلك أن يذهب إلى بيت المقدس لمجرد الصلاة. أو ربما كان الذي بعث عزيمته إلى بيت المقدس هو كونها قبلة المسلمين يومذاك، فأراد أن يصلي في نفس القبلة التي يتجه إليها في صلاته، لرسوخ معنى القدسية فيها.

(١) يبدو أن الصلاة كانت مفروضة من أول الإسلام، أو على الأقل كانت موجودة، بغير تعدادها المعروف بعد ليلة الإسراء، وبغير توقيتها المعروف حالياً، يقول الحافظ ابن حجر، (فتح الباري، ١/٥٥٤): «ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما كان وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد، وذهب الحربي إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداء وركعتين بالعشي، وذكر الشافعي عن بعض أهل العلم أن صلاة الليل كانت مفروضة ثم نُسخت بقوله تعالى: (فأقرأوا ما تيسر منه)، فصار الفرض قيام بعض الليل ثم نُسخ ذلك بالصلوات الخمس».

ألا يعني هذا أن بيت المقدس كانت تتأسس كمدينة ذات مكانة صالحة
لاستقطاب الناس للصلاة فيها في ذلك العهد المكي القديم جداً؟

ولا يصح الاستناد على توجيه الرسول للأرقم بأن يصلي في المسجد الحرام بدل بيت
المقدس، بأنه دليل على رفض فكرة هذا التأسيس لمكانة بيت المقدس التي نتحدث عنها،
وإنما مجمل ما في كلامه عليه السلام هو توجيه الأرقم إلى الصلاة في المكان الأكثر فضلاً،
ولربما خشى عليه رسول الله ﷺ من الذهاب إلى بيت المقدس الواقعة حينها في الأسر
الروماني، والله أعلم.

ومهما قلنا في تفسير هذا التوجيه النبوي للأرقم، فإن السؤال سيبقى ماثلاً: ما الذي
حثَّ الأرقم على الذهاب إلى بيت المقدس في هذا الزمن المكي القديم؟ نقول: إنها مكانة
بيت المقدس المعروفة للصحابة في ذلك العهد القديم.

على ما مضى، فإننا نقطع أنه ما إن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة حتى
كانت قد رسخت في نفوس أصحابه المكانة السامية لبيت المقدس، وفحوى هذه المكانة
أنها أرض مباركة، وأنها أرض هجرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنها أرض
الإسراء والمعراج، تلك الرحلة التي ارتبطت فيها حبال الودّ بين الأرض والسماء،
فجبا الله فيها أهل الإيمان، ممن اختارهم الله تعالى، هدية السماء إلى الأرض، متمثلة
بالصلاة.

إن الأحاديث الكثيرة التي ستقرؤها أيها القارئ الكريم في هذا البحث، والتي تتحدث
عن هذه الأرض المقدسة، في نواح كثيرة لإظهار مكانتها الكريمة؛ إن هذه الأحاديث
أسهمت أيّ إسهام في التأسيس لمكانة كبرى تتبوّؤها هذه الأرض، والرسول ﷺ حينما
يتحدث عنها، كان يتحدث عن أمر مألوف لدى المسلمين، مما لم يدع مجالاً لصحابي أن
يسأل رسول الله ﷺ عن بيت المقدس أو المسجد الأقصى ما هما؟

إن ما مضى من المعاني المتعلقة ببيت المقدس، هو الذي دعا الصحابة رضي الله عنهم إلى عقد جلسة يُجرون فيها مقارنة بين مسجد بيت المقدس وبين مسجد الرسول ﷺ، ولا شك أن المقارنة كانت بين فاضلين، بل بين ذي فضل وعديم الفضل؛ لقد أجرى الصحابة رضي الله عنهم هذه المقارنة حتى طلع عليهم رسول الله عليه السلام بالقول الفصل، الذي يُعطي كل ذي حقَّ حقَّه، ويعلي كل ذي مكان إلى مكانه، دون بخس أو شطط، روى الحاكم^(١) وصححه وأقره الذهبي على تصحيحه، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل: مسجد رسول الله ﷺ أو مسجد بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه^(٢))، ولنعم المصلّي هو، وليوشكن لأن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعا، أو قال: (خير من الدنيا وما فيها). إنه لولا ما رسخ في نفوس الصحابة من مكانة عالية لبيت المقدس ومسجدها، تحدثت عنها آيات الله تعالى، وانبثقت من بين شفقي رسول الله ﷺ؛ إنه لولا هذا الذي سبق من الله ورسوله، ما كان جلسة المقارنة هذه أن تُعقد؛ ولقد أضاف الرسول ﷺ إلى ما كان راسخا في نفوسهم، بيانا لصورة عاطفية غامرة لمشاعر المسلمين، سيكشف عنها زمان آتٍ بعد رسول الله ﷺ، قد يكون هو زماننا نحن، الذي يتمنى فيه الإنسان فعلا أن يرى بيت المقدس^(٣)، والله المستعان.

(١) الحاكم في المستدرک، (٤/٥٠٩).

(٢) سنين إن شاء الله تعالى في فصل خاص بفضل الصلاة في المسجد الأقصى مقدار فضل الصلاة فيه، فهل هي فعلا بخمسائة صلاة كما هو الدارج بين المسلمين، أو هل هي بمائتين وخمسين صلاة، أو بألف صلاة، سنفصل القول في هذا إن شاء الله تعالى.

(٣) أذكر حين كنا معتقلين في سجن عوفر الإسرائيلي، في الفترة بين ٢٤/٦/٢٠٠٢ - ١٢/٣/٢٠٠٣م، وكان بعضنا يحتاج إلى بعض الفحوصات في مستشفى هداسا عين كارم؛ أذكر ما كان عليه حديث الذهابين إلى المستشفى بعد عودتهم، إنهم يكشفون عن عاطفة تستبد بمشاعرهم، فلقد رأوا قبة الصخرة المشرفة من بعيد، وهم موثوقون بسيارة الباص التي تقلهم، وترى أحدهم يقول: لقد

إن قوله ﷺ: (وليوشكن لأن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعا)، هو ما يكشف عن هذه العاطفة الجياشة الصادقة.

إن هذا الواقع الذي لا نزال في شرحه، هو نفسه الذي دعا ميمونة بنت سعد مولاة رسول الله ﷺ أن تسأله عليه السلام فيما بعد عما يجب على المسلمين نحو بيت المقدس، المعروفة إليها وإليهم، حسبما توحيه صيغة السؤال، قالت ميمونة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: أفتنا في بيت المقدس، وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد وابن ماجه والطحاوي^(١)، فأجابها عليه السلام: (أرض المنشر والمحشر، اتنوه فصلوا فيه، فإن صلاةً فيه كألف صلاة فيما سواه)، قالت: أرأيتَ من لم يُطق أن يتحمَّل إليه أو يأتيه؟ قال: (فليُهد إليه زيتا يُسرجُ فيه، فإن من أهدى له كان كمن صلى فيه)، إنه لولا ما كان يدور في تلك البيئة النبوية من حديث حول بيت المقدس ومكانته، ولولا ما كانت

رأيتها، والآخر يقول: لم أتمكن من رؤيتها، وأما أنا فلقد رأيتها عدة مرات، حتى أصدرت قيادة الإرهاب قرارها بإسداد الأستار على نوافذ الباصات!.

وأذكر أنني رأيتُ في برنامج تلفزيوني أذاعه تلفزيون المنار بلبنان، في أحد أيام شهر أيلول من عام ٢٠٠٣م؛ أذكر تلك الصورة المعبرة عن صدق عاطفة المسلمين من غير العرب نحو بيت المقدس في أواسط آسيا، وتحديدًا في جمهورية كازخستان، ففي إحدى القاعات التدريسية ظهرت صورة لمسجد مرسومة باليد، تظهر فيها ثلاث قباب، مكتوب تحتها: بيت المقدس باللغة العربية، والصورة ليست صورة الصخرة ولا الأقصى، لكن شوقهم وحبهم لبيت المقدس، جعلهم يتخيلونها على هذا النحو! إنه مقام القدس الذي تأسس فينا من قرون طويلة، فهل يا ترى تستطيع إسرائيل نزع بيت المقدس من نفوسنا ونفوس هؤلاء المسلمين الذين يبعدون عن بيت المقدس آلاف الكيلومترات؟!.

(١) صحح إسناده الحديث الإمام البوصيري في كتابه مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، (٤٥٤/١)، والشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه وتحقيقه لشرح مشكل الآثار، للطحاوي، (٦٩/٢-٧٠، ح: ٦١٠)، والأستاذ حمزة أحمد الزين في تنمة تحقيق مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٦٠٥-٦٠٦، ح: ٢٧٤٩٨)، وسيأتي تفصيل تخريجه في الفصل الذي خصصناه لبيان فضل الصلاة في المسجد الأقصى من الباب الرابع.

توحي به الآيات المكية الكريمة ومنها آية الإسراء من معانٍ قدسية تتعلق ببيت المقدس،
لما كان لسؤال ميمونة من معنى!

لكل هذه المعاني، وجّه رسول الله ﷺ ميمونة إلى شكل من أشكال الحق المطلوب منهم تجاه بيت المقدس، وعرفها فضل الصلاة فيه.

وفي جواب رسول الله ﷺ بهذه الصيغة: (ائتوه فصلوا فيه)، أي صيغة مخاطبة جمع من الرجال، أو من النساء والرجال معاً، رغم أن السؤال موجه من امرأة واحدة؛ في هذا الجواب بهذه الصيغة ما يفيد أن ميمونة سألت سؤالها في حضرة جماعة من الصحابة، فوجّه الرسولُ الجوابَ إليهم أجمعين، لا إلى ميمونة صاحبة السؤال وحدها، وفي هذا الأسلوب الخطابي الكريم بيان لأهمية الأمر.

ومعنا هنا حديث يصور مكانة بيت المقدس عند المسلمين في عهده ﷺ بشكل آخر، وهو الذي يتضمن قصة ذلك الصحابي الجليل الذي نذر لله تعالى إن فتح على المسلمين مكة المكرمة، أن يأتي بيت المقدس فيصلي فيه، والرسول ﷺ وإن نصحه أن يصلي في مكة، فإن نصيحته هذه لم تكن أمراً ملزماً له، ولم تكن على أساس التهوين من مكانة بيت المقدس، كما ربما يحاول البعض أن يسرح في خيالات غير منضبطة؛ بل كانت قائمة على أساس أن وفاء النذر في المسجد الحرام يكفي هذا الرجل، لما عُرف عن مكانة الصلاة في المسجد الحرام، المتفوقة عليها في المسجد الأقصى.

روى الإمام أحمد وأبو داود والدارمي والحاكم وصحّحه^(١) وسكت عليه الذهبي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رجلاً قال يوم الفتح: «يا رسول الله، إني نذرتُ إن فتح الله عليك مكة أن أصليَ في بيت المقدس»، فقال: (صلِّها هنا)، فسأله

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٢٢/١٢)، ح: ١٤٨٥٦، قال مُتِمُّ تحقيقه وتخرجه أحاديث الأستاذ حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح، وهو في سنن أبي داود، (٣/١٩٦)، ح: ٣٣٠٥، ٣٣٠٦، وهو في المستدرک للحاكم، (٤/٣٠٤-٣٠٥)، وكذلك في سنن الدارمي، (٢/١٨٤-١٨٥).

فقال: (صلِّها هنا)، فسأله فقال: (شأنك إذن)، وزاد أبو داود في إحدى رواياته للحديث: (والذي بعث محمداً بالحق لو صليتَها هنا لأجزأ عنك صلاةً في بيت المقدس^(١))، وقوله ﷺ لهذا الصحابي: (شأنك إذن)، يدل على أن توجيه رسول الله له للصلاة في المسجد الحرام لم يكن توجيهها إلزامياً، إنما كان أمر ندب^(٢).

إنه لولا ما في نفس هذا الصحابي الجليل من مكانة لبيت المقدس، ما نذر أن يتوجه إلى بيت المقدس للصلاة فيه.

إن هذه المعاني كلها هي التي دفعت أبا ذر رضي الله عنه أن يقصد المسجد الأقصى، ليكثر فيه السجود والصلاة، روى الإمام أحمد^(٣) عن الأحنف بن قيس قال: دخلت بيت

(١) إن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم هنا ليس صادراً عن تمهين من مكانة بيت المقدس كما حاول بعض المستشرقين أن يدَّعوا، ولكنه جاء بيانا لجواز أداء النذر في المكان الأعلى مكانة من المكان الذي نوى الناذر أن يؤدي العمل فيه، وسيأتي معنا نقاش هذا الموضوع في الفصل الأول من الباب الثاني، إن شاء الله تعالى.

(٢) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (١٣٦/٣١).

(٣) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بتحقيق حمزة أحمد الزين، (٥٣١/١٥، ح: ٢١٣٤٤)، قال محققه: إسناده صحيح؛ وقال محققاً طبعة مؤسسة الرسالة للمسند، الشيخ شعيب الأرنؤوط، والشيخ عادل مرشد، (٣٥٨/٣٥، ح: ٢١٤٥٣): إسناده صحيح على شرط مسلم، قالوا: وهو في مصنف عبد الرزاق، (٣٠٦١، ٤٨٤٧)؛ ورواه الدارمي، (٣٤١/١) عن الأحنف، ولم يذكر أبا ذر، وإنما قال: فإذا برجل، ثم إن الدارمي ذكر أن مكان الصلاة في مسجد دمشق، مما قد يعكر على صحة نسبة هذه الصلاة إلى أبي ذر في بيت المقدس.

ولكن: رواية الإمام أحمد التي أثبتناها، والتي تذكر المسجد الأقصى وأبا ذر صحيحة الإسناد، فشيخ الإمام أحمد فيها هو عبد الرزاق بن همام، صاحب المصنّف، وهو إمام حافظ ثقة مشهور، أما شيخ الدارمي في روايته فهو محمد بن كثير، هو ابن أبي عطاء، ضعّفه جدا الإمام أحمد، وضعّفه النسائي وابن المديني، وقال البخاري: لئن جدا، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: يُخطئ ويُغرب، ونقل الحافظ ابن حجر توثيقه عن ابن معين والحسن بن الربيع وابن سعد، لكنه، أي ابن سعد قال: اختلط في أواخر عمره، وقال ابن عدي: له أحاديث لا يتابعه عليها أحد؛ يُنظر: تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر،

المقدس، فوجدتُ فيه رجلاً يُكثر السجود، فوجدتُ في نفسي من ذلك، فلما انصرف قلتُ: أتدري على شفعٍ انصرفتَ أم على وترٍ؟ قال: إن ألكُ لا أدري فإن الله عز وجل يدري، ثم قال: أخبرني حَبِيّ أبو القاسم رضي الله عنه، ثم بكى ثم قال: أخبرني حَبِيّ أبو القاسم رضي الله عنه، ثم بكى ثم قال: أخبرني حَبِيّ أبو القاسم رضي الله عنه أنه قال: (ما من عبدٍ يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة، وكتب له بها حسنة)، قال الأحنف: قلتُ: أخبرني من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا أبو ذرُّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الأحنف: فتقاصرت إليّ نفسي.

وهكذا، فبيت المقدس وُجد راسخاً في قلوب المسلمين، طيلة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما إن لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى، حتى كانت بيت المقدس مقصداً من مقاصد حركة الفتوح الإسلامية، ليتحقق وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ذكر ستة من أشراط الساعة أيام غزوة تبوك فقال: (موتي ثم فتح بيت المقدس..)، وسيأتي هذا الحديث، وقد ذكرنا تفصيل تخريجه في مكانه من هذا البحث، وقد رواه البخاري وغيره^(١).

بل ما لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، إلا وقد بثَّ بين الصحابة أن بيت المقدس ستكون آخر منزل تتزله خلافة النبوة في قابل الأيام.

روى الإمام أحمد^(٢) عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه ثم قال: (يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد

..(٤١٥-٤١٧).

وعلى كلٍ لا مانع من أن تكون القصة نفسها تكررت في دمشق مع أبي ذر، فيكون قد رُوي يفعل ما كان يفعله من العبادة ببيت المقدس، إذ هو مذهبه من الإكثار في السجود. ولا بد أن نذكر أن أبا المعالي بن المُرَجِّي ذكر قصة فيها بعض الشبه بهذه القصة عن أبي ذر نفسه في بيت المقدس، يُنظر: فضائل بيت المقدس لابن المُرَجِّي، (٢٥٢).

(١) صحيح البخاري، مع فتح الباري، (٣٢٠/٦)، ح: (٣١٧٦).

(٢) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٣٢٢/١٦)، ح: (٢٢٣٨٦)، قال محقق هذه الطبعة الأستاذ حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح؛ ورواه أيضاً أبو داود، (٣٥٨/٢)، ح: (٢٥٣٥)،

دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك).

إن أرض بيت المقدس هي مستقبل الإسلام القادم، وإنه حريٌّ أن يضع المسلمون فيها اهتمامهم، فهي الخلافة الأخيرة في الدنيا.

وأرجو أن يستحضر القارئ الكريم ما ذكرناه في فصل سابق من تحديد لمفهوم الأرض المقدسة، وما أكدناه من أن الأرض المقدسة في النصوص التي ذكرناها هي بيت المقدس ذاتها، وبناءً عليه، فإن هذا الحديث يتحدث عن بيت المقدس خاصة لا عن الشام عامة.

هذه المعاني كلها دعت الصحابة فيما بعد إلى إعطاء بيت المقدس من نفوسهم، وإلى التوجه إلى الشام وقصبتها بيت المقدس، وبؤرة بركتها المسجد الأقصى، حتى تم الفتح والتحرير الإسلامي لبيت المقدس، ودخلت في حوزة الإسلام، وفي زمالة مع المدينتين المقدستين: مكة والمدينة، لتؤدي كل مدينة رسالتها التي أوكل الله إليها أداؤها.

إن الأحاديث الشريفة، التي تحصر مشروعية شد الرحال لأجل الصلاة في ثلاثة مساجد، منها: المسجد الأقصى، وإن الأحاديث الشريفة التي تُعظم من فضل الصلاة في المسجد الأقصى، وإن آية المائدة التي تذكر أمر موسى ﷺ قومه بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، فسماها مقدسة، وإن الآيات الكريمة التي فسرت في علم التفسير بأنها إشارة إلى بيت المقدس، مع ما ذكرناه في هذا الفصل من الآيات والأحاديث؛ إن كل هذا الذي نشير إليه هنا إشارة، وسيأتي معنا تفصيله في وقته، ليؤكد لنا معاني كبرى:

١ - مكانة بيت المقدس في الإسلام أصيلة أصالة الكتاب والسنة، وليست دخيلة من قبل اليهودية، كما حاول فريق من المستشرقين وتلاميذهم من العرب أن يوهموا أنفسهم

والحاكم في المستدرک، (٤/٤٢٥)، وصححه الأستاذ الألباني رحمه الله تعالى في صحيح أبي داود، (ح: ٢٢١٠) كما نقله عنه الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، في كتابه: المهدي وفقه أشراف الساعة، (٧٢٩هـ)، وصححه الأستاذ الألباني في صحيح الجامع الصغير، (٢/١٢٩٣-١٢٩٤، ح: ٧٨٣٨).

وغيرهم، ونقصد أن هذه المكانة نالت حظها الوافر في نفوس المسلمين في العهد المكي، أي قبل أن يتعرفوا على أي يهودي في الدنيا، مما يمنع دعوى استشراقية بائسة تقول إن فضائل بيت المقدس ذات منشأ يهودي.

٢- هذه المكانة عُرِفَت في الإسلام من أول يوم كانت فيه صلاة، فقد توجه رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس في صلاته إلى أن نُسخت القبلة بعد ستة عشر شهرا من الهجرة النبوية المشرفة، لتحمل آية الإسراء التي نزلت قبل تحويل القبلة بزمان، لواء مكانة بيت المقدس.

٣- تدرّج الإسلام في بيان مكانة بيت المقدس تدرّجا مناسباً للحال التي كان يعيشها المسلمون، فحيثما كان المسلمون أقلية، لم تتجه الأحاديث إلى شيء من ذكر فتوح لبيت المقدس، أو دعوة لزيارته، وحيثما صار للمسلمين دولة، وتوجهت الأنظار إلى نشر الإسلام، حرّض الله تعالى المسلمين عبر الوحي الشريف لإتيان بيت المقدس، وعظّم الصلاة فيها، وسيرى القارئ مصداق هذا الذي نقوله في الفصل الذي خصصناه للحديث في فضل الصلاة في المسجد الأقصى.

ثم، سيرى القارئ في فصلين قادمين عقدناهما في الباب الخامس إن شاء الله تعالى، أحدهما بعنوان: العبّاد والعلماء وروّاد الحضارة يؤمّون بيت المقدس، والآخر بعنوان: امتلاء بيت المقدس بالعلماء قبل الغزو الصليبي؛ سيرى القارئ فيهما ذلك الأثر الباهر لهذا التأسيس لمكانة بيت المقدس في الإسلام، مما لا نرى ضرورة الخوض فيهما هنا.

وهكذا، فالحشد الكبير من النصوص في القرآن والسنة في العهد المكي، والذي يدور فحواه حول بيت المقدس، كان قد أسّس في نفوس المسلمين تأسيسا راسخا لمكانة هذه المدينة المقدسة، فجاءت النصوص في العهد المدني تحمل تفصيلات لم تحملها النصوص التي نزلت أو وردت في العهد المكي.

ولا أعرف متى كان بيان رسول الله ﷺ لأول بيتين بُنيتا في الأرض، والذي تضمن أن الثاني منهما هو المسجد الأقصى، وأنه بُني بعد الأول بأربعين سنة^(١)؛ لا أعرف متى كان هذا البيان النبوي الذي جاء في سياق جواب من الرسول على سؤال طرحه أبو ذر الغفاري، وسيأتي معنا هذا الحديث أكثر من مرة؛ لكن احتمال أن يكون قد ورد في العهد المكي وارد، فأبو ذر راوي الحديث أسلم قديماً في مكة المكرمة، وهو من أوائل الناس إسلاماً.

وكونه كان في مكة أو في المدينة، فلن يتغير شيء مما نحن بصدده، فهو إن كان في مكة، فهو مُسْنَمٌ في التأسيس لمكانة بيت المقدس ومسجدها، وإن كان في المدينة، فهو امتداد لهذا التأسيس القديم الذي نتحدث عنه.

(١) وهو مروى في البخاري، (٦٤٦٩، ح: ٣٣٦٦)، مع فتح الباري، وهو في مسلم بشرح النووي، (٣/٣٢٦، ح: ٥٢٠)، وسيأتي معنا في فصول لاحقة.

الفصل الثاني: شبهات المستشرقين حول أحاديث فضائل القدس^(١)

واجب هذا الفصل أن يستعرض بعض الشبهات، لا أن يرد عليها، وإن كان لا يخلو من بعض الردود هذا ولن نستعرض جميع شبهات المستشرقين المتعلقة بأحاديث فضائل بيت المقدس، لأن الفكر الاستشراقي السابح في عالم الخيال ليس له ما يضبطه ليقف عند حدّ يفرضه عليه البحث العلمي وأصوله من موضوعية وصدق وأمانة، بالتالي، فليس من مقدور بحث كهذا استعراض جميع الشبهات التي نطقت بها ألسنة المستشرقين، أو فرقاء منهم، كما أن كثيرا مما تناقلته كتبهم بادٍ للعيان قهفته، بل بعضه مثير للضحك، وبالتالي فليس من المعقول أن نسرد شبهاتهم، التي لو شأؤوا هم أن يذكروها مجتمععة لأثقلت كاهلهم، وهم أصحابها!

إن ثمة أقواما اتمموا إلى ما أثقل أهواءهم، حاولوا أن يتزعوا فضائل بيت المقدس من أصالتها المنتمية إلى الوحي الشريف، لينسبوا إلى مرجعيات بائسة لم تحفظ كتابا ولم ترع نبوة؛ فلا بد من الرد عليهم.

وعليه، ففصلنا هذا مسوق لاستعراض أقوال هؤلاء المستشرقين، الذين حاولوا انتزاع الأصالة الإسلامية من هذه المعاني السامية الصادرة من الوحي الشريف، والمتعلقة بالقدس ومسجدها الأقصى، وحاولوا إلحاقها بأصول يهودية دخيلة على

(١) أرجو أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى أنني حينما أهديت كتابة بحثي هذا حصلت على نسخة من بحث الدكتور حسن عبد الرحمن السلوادي بعنوان: المستشرقون اليهود ومحاولة التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام، وكان البحث قد اكتمل بفضل الله تعالى، لكنني رأيت أن أنقل عنه بعض النصوص عن مستشرقين يهود وغير يهود، فنقلتُ عنه نصين للمستشركة اليهودية حوّا لاتسروس يافه، ونصا عن المستشرق بوهل، وكنتُ أودُّ الاستفادة منه بقدر أكبر، لكن تأخر بحثه عني، رغم محاولتي للحصول عليه، حرمني مما كنت أرجوه مما هو مبثوث فيه من الفوائد في الرد على هذا النمط من المستشرقين.

الإسلام والإنسان معا، لينصبوا من خلال ما يكذبون راية زور، تدّعي أن الإسلام ليس في أصله سوى انبثاق عن اليهودية مُحَرَّفَة كلام الله تعالى، وقاتلة الناطقين به من أنبياء بني إسرائيل أنفسهم؛ وفصلنا هذا مسوق أيضا لبيان محاولة هؤلاء المستشرقين تفسير بعض الأحاديث على وجه يلوي عنقها ليدّعوا أنها تمّون من مقام بيت المقدس..

وسيكون ردّنا على رؤى هؤلاء المستشرقين هنا ردّا سريعا، وذلك أثناء استعراضنا لشبهاتهم، ولكننا سنعقد بعد هذا الفصل مباحث خاصة تردّ على كليات دعاويهم، بكليات من الردود..

إن هؤلاء الباحثين يصرّحون بدعاواهم مهیضة الجناح، وهم يلفون على أبدانهم أثوابا ليست لهم، سطوا عليها بالدعوى ثم نسبوها لأنفسهم، فسمّوا أنفسهم كذبا: أرباب البحث العلمي، وهم من أكثر الناس بعدا عن البحث العلمي حينما يطرحون مثل هذه المسائل، رغم ما يحملون من اقتدارٍ عليه في جوانب متعددة من الحياة، لكنّ تعلق الأمر بالإسلام، جعلهم يُفلتون من زمام البحث العلمي وأصوله، ليسيروا مع تعصّبهم وخرافاتهم!

ولقد استطاع هؤلاء أن يستقطبوا من المسلمين من حاول معهم رفع لواء الكذب الذي خاطته أيديهم، لكن في نهاية المطاف: سقط الكذب ولواؤه، وانكشف البهرج، وانطلقت الحقيقة تنافح عن نفسها، وتزيل الأعداء من طريقها.

إن هؤلاء المستشرقين يقومون بوظائف متعدّدة، يقوم بعضها على بعض، ليؤدوا رسالة التزوير، (وبأمانة!!).

إنهم يأتون إلى الضعيف من النصوص، أو إلى الموضوع، فيبنون عليه بناءً، ثم يأتون إلى الصحيح مفسّرين إياه تفسيرا خارجا عن سياقه ولغته وعُرفه وأصوله، فيبنون بناءً آخر، ثم يأتون إلى الأحداث في العهد النبوي والتي تلتها، فيقتنصون ما يفسّرونه على ما يشتهون، ثم يبنون بناءً آخر، يظهر للناس كما لو كان أثرا من آثار المنهج العلمي الرصين والأمين معاً..

وفوق كل ذلك يحاولون نزع الأصول الصحيحة من الوحي الشريف ليلحقوها بالتوراة، ليصلوا إلى مبتغاهم، وهو أنه لا فضل لبيت المقدس في الإسلام.

ولا داعي للإطالة في هذه التوطئة، بل فلندخل في التفاصيل..

إن ثمة دعوى يهودية المنشأ تقول: إن أحاديث فضائل بيت المقدس ذات أصول يهودية، وإن المسلمين نقلوها من أهل الكتاب ثم تناقلوها فيما بينهم، وصبغوها صبغة إسلامية..

١- فهذا إسحاق حسون المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس ينسب إلى معاوية رضي الله عنه أحاديث في فضائل القدس يعتبرها ذات أصول يهودية يقول حسون: «..وهكذا بدأت الأحاديث والروايات والقصص ذات المصدر اليهودي في تاريخ بيت المقدس وفضله، تنتشر بين جماعات المسلمين، وتصطبغ بصبغة إسلامية،... وقد أظهر الأستاذ هيرشبرغ والأستاذ فايدا وغيرهما من الباحثين، أن هذه الأحاديث التي أصبحت فيما بعد شهيرة لا يخلو منها كتاب في فضائل بيت المقدس، أصلها فيما تناقلته كتب اليهود قبل الإسلام، وأنها كانت معروفة ومنتشرة في هذه الديار»^(١)، ثم أخذ حسون يستند على كلام محمود أبي رية في مقال له ادعى فيه أن كعب الأحبار، اليهودي سابقا، والتابعي المسلم في نهاية الأمر، هو مصدر من تلك المصادر التي وردت فيها مناقب الشام عامة، وهي حسب أبي رية ذات مصادر من أهل الكتاب^(٢).

هلا ذكر هيرشبيرغ وفايدا، اللذين نقل عنهما حسون، هلا ذكرا اسم كتاب يهودي واحد سبق ظهور الإسلام، يتضمن شيئا من فضائل بيت المقدس التي يتناقلها المسلمون!؟

(١) يُنظر تقديم إسحاق حسون اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس) للواسطي، (٢٠).

(٢) يُنظر المرجع نفسه، (٢١).

ويعمل ككلام هؤلاء قالت المستشرقة اليهودية حوّا لاتسروس يافه: ^(١) «لقد استوعب محمد (ﷺ) من المصادر اليهودية فيما استوعبه: فكرة قدسية القدس»^(١)، وسنعرض للإجابة عن كلامها في فصل آتٍ إن شاء الله تعالى.

إننا سنعدّ مقارنة بين مكانة القدس عند اليهود ومكانتها عند المسلمين في مبحث خاص من مباحث هذا الفصل، لنرى فيه: هل ثمة تشابه في مكانة المدينة بين المسلمين واليهود، حتى نحكم أنه من الممكن أو من غير الممكن أن يأخذ المسلمون مكانة بيت المقدس من اليهود؟ وسنرى ألا تشابه بين مكانة بيت المقدس عند الفريقين، مما يُمكننا من التأكيد أن فضائل القدس لا ترجع إلى أصول يهودية.

وعليه، فرجاؤنا من القارئ الكريم ألا يستعجلنا بشيء قبل أوّانه.

وساق حسون أحاديث جعلها أمثلة على دعواه، منها كما ذكر هو، قول معاوية رضي الله عنه عن القدس: (إنها أرض المحشر)، وينقل عن البلاذري في أنساب الأشراف أن معاوية خاطب بهذا النص صعصعة بن صُوحان؛ ومنها أيضا قول معاوية إن الشام: (خيرة الله من بلاده، يجتبي إليها خيرته من عباده)؛ وقوله فيما ينقله حسون عن كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم: (.. في الأرض المقدسة التي جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده، فأحلّها أهل الشام ورضيهم لها ورضيها لهم..). ثم قوله مرة وهو يخطب على منبر بيت المقدس فيما ينقله عن فضائل بيت المقدس لابن عساكر: (.. ما بين حائطي هذا المسجد أحبُّ إلى الله تعالى من سائر الأرضين)^(٢)، ويلاحظ أن حسون تبعا لهيرشبرغ وفايدا، قد نسب هذه النصوص إلى معاوية، رغم أن بعضها صحيح النسبة إلى الرسول ﷺ، كما سنرى.

(١) قدسية القدس في الإسلام، لحوّا لاتسروس يافه، من كتاب: القدس، دراسات في تاريخ المدينة، تحرير: أمنون كوهين؛ نقلا عن: بحث الدكتور حسن عبد الرحمن السلواي بعنوان: المستشرقون اليهود ومحاولة التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام، (٥).

(٢) يُنظر تقديم إسحاق حسون اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس)

وردُّنا على هذه الدعوى أن أول ما يقال فيها إنها دعوى بلا دليل، ويجلو للمستشرقين اتباع منهج الدعوى بلا دليل، ويجلو لهم أن يسقطوا على المسلمين آفات التاريخ المسيحي واليهودي، فقاموا يُلصِقون بالإسلام ما وجدوه في اليهودية والمسيحية، بسبب ما هم عليه من نكران لصلة الإسلام برب السماء سبحانه وتعالى.

إنهم لم يذكروا دليلاً، بل كل ما فعلوه هو ذكر بعض الأحاديث التي قالوا: إن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ذكرها في مناسبات شتى، ثم اعتبروا هذه الأحاديث من فيض اليهودية على الإسلام، فهلا أثبتوا هذه الدعوى؟!!

هذا، وقد اعتبر حسون الشام مهده اليهودية والنصرانية، ورأى أن الأمويين عملوا من أجل «إضفاء صبغة إسلامية مقدسة على الشام عامة وبيت المقدس خاصة»^(١)،

للواسطي، (٢٠).

(١) المرجع نفسه، (١٩)، وهذا في الحقيقة صحيح، فقد عرّب عبد الملك الدواوين، وصكَّ العملة الإسلامية، وأسلمَ مظاهر الحياة العامة، حتى ظهرت مساجد المسلمين على كنائس النصارى، ولا أقول على معابد اليهود، فهي لم تكن موجودة أصلاً، ولكن هذه الأسلمة التي أشرنا إليها ليست أكثر من إعادة الأمور إلى نصابها، وليست أكثر من إعادة التوحيد الذي هو دين موسى وعيسى وداود وسليمان إلى ساحة الشام، بعد أن أدخل الروم مذاهب الشرك في الشام تحت عنوان النصرانية، وأدخل اليهود أصنام الأمم الأخرى في معابدهم التي لم تعش طويلاً؛ إن الأمويين خدموا توحيد موسى وعيسى ومحمد، ولن يضيرهم أن يقول أي مستشرق، يهودي أو نصراني أو شيعي ما يقول، فهذا شرف ناله الأمويون قبل غيرهم، ولكننا نسأل حسونا: مهده أي نصرانية أو يهودية كانت الشام؟ هل كانت مهده نصرانية الإمبراطور الوثني قسطنطين، أم مهده نصرانية عيسى عليه السلام؟ أو هل كانت الشام مهده يهودية ملوك إسرائيل الذين اعترفوا التوراة نفسها أنهم مارسوا أشكال الشرك في الهيكل المزعوم، أم كانت مهده دين موسى صلى الله عليه وسلم؟!!

إن كان يقصد أن الشام كانت مهده دين موسى وعيسى، فلقد جاء الأمويون يواصلون مسيرة دين موسى وعيسى، لأنه هو نفسه دين محمد، وإن كان حسون يقصد، وهذا هو الراجح، أن الشام مهده دين قسطنطين وتحريفات اليهود الخارجة عن دين موسى، فنحن نرفض أن تنتسب الشام إلى هذه

ويقول حسون عن معاوية: «و لم يكن صعبا عليه إثبات حرمة بلاد الشام، فالقرآن يسميها الأرض المقدسة في سياق خطاب موسى إلى بني إسرائيل، وفيها المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله...»، وقد وسع معاوية المعنى الذي يشتمله بيت المقدس إلى الأرض المقدسة؛ وكى ينشر معاوية ذلك بين المسلمين، ويدفع عن نفسه تهم علماء المدينة وأصحاب علي وكبار الصحابة، الذين لم يؤيدوه أو يؤيدوا خطوته هذه؛ عمل على ترويح الأحاديث والقصص التي تروى ذلك، وإذا افتقرت الأحاديث الصحيحة منها أو الموضوععة إلى هذا السبيل إلى شيء من هذا القبيل، فإن في قصص بني إسرائيل ما يسد الحاجة، خاصة وأن بعض العلماء رأى في الحديث القديم المنسوب إلى الرسول (ﷺ) والذي قال فيه: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)، رخصة في ترويح هذا النوع من الأحاديث وقبولها وتبنيها، وهكذا بدأت الأحاديث والروايات والقصص ذات المصدر اليهودي في تاريخ بيت المقدس وفضله تنتشر بين جماعات المسلمين، وتصطبغ بصبغة إسلامية^(١).

إنه يكرر هنا زعمه في أن مصدر فضائل بيت المقدس يهودي!

وأرجو أن يكون القارئ على ذكرٍ لما قرأه في الفصل الماضي حول تأسيس النصوص الإسلامية لمكانة بيت المقدس عند المسلمين، فإن فيه ما لعله يكفي في الرد على دعوى المستشرق حسون وأساتذته الذين يرجع إليهم، إذ تبين لدينا أن مكانة بيت المقدس في الإسلام قد رسخت في أوائل العهد المكي للدعوة النبوية، مما يعني أن المسلمين يعرفونها قبل تعرفهم على أول يهودي عرفوه في تاريخهم، وقبل عقود من الزمن من قيام دولة بني أمية.

وسنرد بالتفصيل على كلامه في مباحث الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

التحريفات، ووظيفتنا تكمن في مواصلة مسيرة الأمويين في هذا الدرب!.

(١) المرجع نفسه، (١٩-٢٠).

فأرجو ألا يستعجلنا القارئ الكريم..

٢- وكان محمود أبو رية، الذي امتلأ غيظاً من السنة النبوية، قد حاول أن يطمسها بنسبة بعضها إلى اليهود، كما فعل هيرشبرغ وفايدا، على ما عرفناه عنهما خلال استعراضنا لكلام المستشرق اليهودي حسون الوارد في البند السابق؛ وأبو رية هذا هو أحد أولئك الذين غرّرت بهم حكايات المستشرقين، فصاروا لها دعاة ورعاة؛ هذا المعرّز به كان قد قال في كتابه: (أضواء على السنة المحمدية): «كانت الأحاديث الصحيحة أول الأمر في فضل المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ، ولكن بعد بناء قبة الصخرة، ظهرت أحاديث في فضلها وفضل المسجد الأقصى»^(١)، ولكنّ قراءة سريعة للفصل الأول من هذا الباب من بحثنا بعنوان تأسيس نصوص الوحي لمكانة بيت المقدس، يكشف أن بيت المقدس غُرست في نفوس المسلمين من خلال القرآن قبل السنة، وفي العهد المكي خصوصاً، كما قد أثبتنا فيما ندعو القارئ إلى معاودة قراءته إن شاء.

وقال أبو رية أيضاً تحت عنوان: «اليد اليهودية في تفضيل الشام»: «إن الشام ما كان لينال من الإشادة بذكره والثناء عليه، إلا لقيام دولة بني أمية فيه... فكان جديراً بكهنة اليهود أن ينتهزوا هذه الفرصة، وكان من هذه الأكاذيب أن بالغوا في مدح الشام»^(٢)، وهذا الاتهام وإن كان في منطوقه موجهاً إلى الدولة الأموية، لكنه مسوق ليكون جسراً يعبر عليه أبو رية وأسياده، فيصل كل منهم إلى إسقاط السنة ذاتها ثم القرآن الكريم، من أجل أن ينجح اليهود ثلاث مرات: الأولى: ضرب رسالة الإسلام نفسه بأصله، والثانية: إسقاط مكانة القدس في الإسلام، ليحلّو لهم ادعاء

(١) كتاب أضواء على السنة، تأليف محمود أبو رية، (١٢٩)، نقلاً عن: الأنوار الكاشفة، للشيخ

عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، (١٢٨ و١٢٩).

(٢) المرجع نفسه، (١٣٠)، نقلاً عن: الأنوار الكاشفة، للشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي

اليماني، (١٣٠).

انتمائها إليهم دون غيرهم من البشر! والثالثة: إسقاط دول الإسلام المنافحة عنه، رغم ما لنا عليها من ملاحظات، ولا يمنعنا انتمؤها إلى الإسلام من هذه الملاحظات، إذ لا نرى فيها أي شكل من أشكال العصمة؛ كما لا تمنعنا ملاحظتنا عليها من إنصافها!!

٣- وهنا نجد إسحاق حسون، المحقق (اليهودي!) لكتاب فضائل القدس للواسطي، نجده يستند على كلام محمود أبي رية هذا، الذي ذكر كما نقل عنه حسون من مقال له نشرته مجلة الرسالة المصرية عام ١٩٥١م، أن في مصنفات فضائل بيت المقدس وغيره من البقاع التي بالشام «من الآثار المنقولة عن أهل الكتاب وعمن أخذ عنهم، ما لا يجلب للمسلمين أن يبنوا عليه دينهم»، ويقول حسون إن أبا رية اتهم كعباً بأنه ادّعى الإسلام «ليتمكن من تنفيذ ما حُطّط له من بث الأضاليل على لسان النبي محمد ﷺ، واقم اليهود بأن يدهم كانت من وراء حركة تفضيل الشام، إذكاءً لنار الفتنة في الدولة الإسلامية»^(١)، ولم يوضح حسون ما يقصده من الفتنة هنا، كما أنه لم ينقل عن أبي رية مقصده من هذه الفتنة.

إن مشكلتنا مع هؤلاء هي في إطلاق الدعاوى بلا دليل، فمن أين لأبي رية أن كعب الأحبار هو من أدخل أحاديث فضائل الشام في الإسلام؟ ومن أين له أن فضل المسجد الأقصى لم يكن معروفاً في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، حتى أكرم كعبُ الأحبار الأمة بهذا الفضل العظيم!؟

إن الحواجز الإسمتية الجبارة، والحراسات الإلكترونية المتطورة، وعيون مخابرات العصر الحديث اليقظة والمهوسسة في آنٍ واحد؛ إن كل ذلك وأولئك مجتمعين، أقل يقظة من يقظة علماء الحديث في الإسلام، الذين لم يستحوا من علماء فضلاء وأئمة عظماء أن يقولوا لهم: لا نقبل رواياتكم، لضعف حفظكم، أو لخرف

(١) يُنظر تقديم إسحاق حسون اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس) للواسطي، (٢١)، ويامكان القارئ الكريم أن يقرأ رؤى أبي رية هذا في كتاب أضواء كاشفة، للشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، فقد ذكر أقواله تفصيلاً، وردَّ عليها تفصيلاً أيضاً.

أصابكم في آخر عهدكم بالدنيا، أو لسبب عارض من أسباب الحياة! بل لم يخافوا خلفاء وحكاماً كباراً انجرت ملوك الدنيا من وراء كعابهم، لم يخافوا منهم أن يقولوا لهم: لا نقبلكم في رواية حديث واحد؛ بل لم يُجامل علماء الحديث في الإسلام أسانيدَ ظاهرها الصحة، فبحثوها وكشفوا فيها عن علة قاذحة، ولسان حالهم يقول: لستُ بالخبِّ ولا الخبُّ يخدعني؛ فهل يستطيع أحد أن يقتحم هذا الحصن الحصين، والحال كما وصفنا؟! اللهم لا، ولا أمريكا المنتفخة ذاتها!!

٤- ويعتبر حسون أن ثمة صراعاً نشب بين أهل الحديث وبين القصاصين حول قدسية القدس، وأن القصاصين نجحوا في استقطاب العامة في هذا الصراع، ويذكر في ذلك قصة يرويها الواسطي في كتابه فضائل البيت المقدس، فحواها أن الزهري الإمام المحدث الفقيه، قدم على عقبه ابن أبي زينب بصحبة خالد بن حازم في بيت المقدس، وأن عقبه هذا أخذ يحدث بفضائل بيت المقدس، فقال الزهري: لن تنتهي إلى ما انتهى الله إليه، قال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)، فغضب عقبه عليه، وقال: لا تقوم الساعة حتى تُنقل عظام محمد ﷺ إليها، ويعلق حسون: «ولهذا الأثر مغزى ذو أهمية، ففيه يتجلى الصراع بين رجال الحديث كالزهري، الذين يرون أن فضل بيت المقدس يكمن في أنه كان المكان الذي أسرى بالنبي إليه، وكفاه بذلك فضلاً؛ وبين القصاص الذين يجتذبون إليهم العامة، ويقصون عليهم القصص من كل مصدر كان، وخاصة من كتب اليهود والنصارى، وقد بلغ هذا الصراع ذروته في القرن التاسع للهجرة في كتابات ابن تيمية، إلا أن النصر طيلة قيام هذا الصراع لم يحالف المحدثين، وانتشر القصص بين المسلمين، وأخذ على أنه روايات صحيحة ثابتة»^(١).

(١) يُنظر تقديم إسحاق حسون اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس)

ولقد نقل البروفسور قسطنطين عدده من الأحاديث والآثار من مصنفَي عبد الرزاق وابن أبي شيبة، ومن الترغيب والترهيب للمنذري، زاعما أنها تتضمن التهوين من مقام بيت المقدس، سأذكر هنا فقط المرفوع منها إلى رسول الله ﷺ، وهي ثلاثة أحاديث فقط لأتحدث حولها، أما غير المرفوع، فسيكون لنا معه لقاء في الفصل الرابع من هذا الباب، والأحاديث الثلاثة هي:

٥- روي عن رسول الله ﷺ من قوله: (أنا خاتم الأنبياء، ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء، أحق المساجد أن يزار وتُشد إليه الرواحل: المسجد الحرام ومسجدي، وصلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام)، وقد عزا قسطنطين هذا الحديث إلى مصادر متعددة، منها: الترغيب والترهيب للمنذري، وهو فيه فعلاً^(١)، وقد نسب المنذري إلى البزار، لكن مشكلة هذا الحديث أن البعض ضعفه، فقد قال الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد^(٢): رواه البزار وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف، ولكن صححه الأستاذ الألباني، فذكره في صحيح الترغيب والترهيب له^(٣)، وكتب جواره ما يشير إلى أنه صحيح لغيره، وهذا يعني أن له أكثر من إسناد، أو جاء معناه في أكثر من حديث، فاستحق التصحيح لغيره، وهي مرتبة احتجاج حسب المعروف من علم الحديث.

ومن المصادر التي عزا إليها قسطنطين هذا الحديث: عمدة الأخبار في مدينة المختار، للعلامة أحمد بن عبد الحميد العباسي، من علماء القرن العاشر الهجري، لكن المذكور فيه: (وهو أحق المساجد أن يزار وأن يُركب إليه على الرواحل بعد المسجد

(١) الترغيب والترهيب للمنذري، (١٧٣/٢).

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي، (ج ٤/٤).

(٣) صحيح الترغيب والترهيب للأستاذ الألباني رحمه الله تعالى، (٤٥/٢، ح: ١١٧٥).

الحرام^(١)، وواضح الفرق بين اللفظين في بعض مواطن الحديث من الروایتين، التي ذكرناها أخيراً، والتي ذكرها هو وذكرناها أولاً..

والرواية التي ذكرناها أخيراً أوضح من الرواية التي ذكرها وذكرناها أولاً، لكنه أثر أن يذكر ما ذكر، ويتجاوز ما روينا، رغم أنه قرأه، بدليل ذكره كتاب عمدة الأخبار كمصدر للحديث؛ إنه فعل ذلك، لأن الرواية المذكورة أولاً، أقل وضوحاً من التي ذكرناها أخيراً، وعدم وضوحها يسمح له أن يفسرها كما يشاء، وللقارئ أن ينتبه إلى أن الرواية الثانية فيها ترتيب واضح لأفضلية ابتدأت بالمسجد الحرام، وثبتت بالمسجد النبوي، أما الأولى، فرغم ما تتضمنه من هذا الترتيب، إلا أن الأمر فيها أقل وضوحاً، بل تكاد الأولى تنفي الفضل عما سوى المسجدين، أما الثانية، فهي التي تذكر ترتيباً لا يمنع من حلقة ثالثة في سلمه، وهذه الحلقة مذكورة في أحاديث أخرى، وهي معلومة لدى كل مسلم، ألا وهي: المسجد الأقصى، وأرجو أن يعود القارئ إلى مقارنة سريعة بين الروایتين، ليتأكد مما نقول.

وعليه، فلا يحمل الحديث معنى من معاني التقليل من شأن المسجد الأقصى، بل كل ما فيه ذكر مسجدين هما الأعلى فضلاً، وهما المسجد الحرام والمسجد النبوي، وهما كذلك، ولم يذكر المسجد الثالث، لا إنكاراً لفضله، بل لأن المناسبة ربما كانت تدور حول فضيلة المسجدين، ثم إن الأحاديث الأخرى تضمنت فضل المسجد الأقصى.

٦- (يُرحل إلى مسجدين، مسجد مكة ومسجد المدينة)، قال قسطنطين إنه في مصنف عبد الرزاق، غير أنني لم أجد هذا النص في مصنف عبد الرزاق المطبوع بتحقيق المحدث الشهير حبيب الرحمن الأعظمي، ومع ذلك فإننا لا نرى في الحديث دليلاً على القضية المطروحة عند قسطنطين، فعنده أن هذا الحديث مع غيره من الأحاديث، يعتبر دليلاً على «اتجاهات قديمة، استهدفت تعظيم حرمة مكة، أو حرمة مكة والمدينة مع

(١) عمدة الأخبار في مدينة المختار، للعلامة أحمد بن عبد الحميد العباسي، (٩٦).

التقليل من حرمة بيت المقدس^(١)، كما قال فيما نقلناه عنه قريبا، فهل يا ترى يفيد هذا الحديث هذه الفائدة؟

في الحقيقة لا يتجاوز هذا الحديث أن يكون متضمنا فكرة الإشادة بالمسجدين الحرام والنبوي، دون أن يبين المسجد الآتي في الدرجة الثالثة، ولو كان هدف الحديث بيان مراتب كل المساجد، لذكر المسجد الأقصى في المرتبة الثالثة، لكن الحديث لم يأت لهذا، وإنما لبيان فضل المسجدين.

فليس فيه تقليل من حرمة بيت المقدس إذن، بل غاية ما فيه: الإشارة إلى أفضلية زيارة المسجد الحرام والنبوي، وهما كذلك، ولا أحد من المسلمين يرى أن زيارة الأقصى أفضل من زيارتهما، لكن، هل كون الأقصى في درجة ثالثة بعد المسجدين، هل ذلك يعتبر دليلا على كلام الرجل؟ الجواب: لا.

٧- (خير ما رُكبت إليه الرواحل: مسجد إبراهيم ومسجدي)، وهو في الترغيب والترهيب للمنذري، وللحديث روايتان أخرتان عند المنذري أيضا هما: (..مسجدي هذا والبيت المعمور) و (..مسجدي هذا والبيت العتيق)، وفي مسند عبد بن حميد عن جابر عن النبي ﷺ قال: (خير ما رُكبت إليه الرواحل مسجدي هذا والبيت العتيق)، قال البوصيري: إسناده صحيح^(١).

وهذا كسابقه، ليس فيه غضُّ من قيمة المسجد الأقصى، بل كل ما فيه أنه يبين أن خير ما رُكبت إليه الرواحل المسجد الحرام والمسجد النبوي، وهو كذلك، فلا أحد ينكر ذلك من أهل الإسلام؛ لكن الحديث لا يتضمن أن المسجد الأقصى خالٍ من المكانة، بل يصح أن يقول المسلم: خير ما رُكبت له المطايا المسجد الحرام، دون

(١) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، للحافظ البوصيري، المطبوع بمامش المطالب العالية

للحافظ ابن حجر، (٣/٣٨٥).

ذكر المسجد النبوي، لأن الأمر كذلك، فهو خير ما رُكبت إليه المطايا، ولو قال المسلم هذا الكلام، لما كان في كلامه غضٌّ من مكانة المسجد النبوي.

وهذا كقول القائل: محمد خير البشر، فليس في هذه العبارة سوى تفضيل محمد على البشر، دون أن يتزع هذا التعبير نفسه مكانة الأنبياء عليهم السلام، ليجعلهم كسائر البشر.

وسأكتفي بهذه الردود التي قمت بها سريعاً على دعوى أن الأحاديث النبوية تهوّن من مقام بيت المقدس، ذلك أن ما سأطرحه في الباب الرابع كافٍ في تقديري لبيان تهافت دعواهم، فأحاديثه واضحة التعظيم لمقام بيت المقدس.

إن هذا الذي ذكرناه هو مجمل ما يطرحه هؤلاء القوم في دعواهم أن فضائل القدس ذات مرجعية يهودية، وجدت طريقها معبّدةً مدلّلةً إلى دواوين السنة، أو أن ثمة أحاديث تهوّن من مقام المسجد الأقصى؛ ولقد رأينا أن كاتباً عربياً قد ساندتهم في دعواهم هذه، بعد أن جعل المستشرقين مصدرَ ثقافته في تعرفه على دين قومه المسلمين، فأخذ بأقوالهم وقام يناضل من أجلها، وليس هذا بضائر لنا، فكم من ذي عينين أضرَّ عينيه المرضُ، فلم يرَ إلا الضباب، حتى إذا ظن أنه زال مرضه، آواه المرض إلى عمى لا يرى بعده صواباً ولا ضباباً، وهذا شأنك يا أبا رية، وهذا شأن أساتذتك، وأحسبكم الآن وأنتم في دار الحق تعضّون على أصابع الندم، تكادون تقطعونها وأنتم تتمنون أن تعود الدنيا لتعودوا من أهوائكم، ولات حين مناص!

إن مجمل ما يطرحونه هو وقوع فطاحل القذوات الأولى للأمة تحت فيوضات اليهود الكريمة! الذين أخذوا يعلمون قادة الأمة وفتحي الدنيا ومُحرّريها من الخرافات، قاموا يعلمونها مكانة بيت المقدس، حتى تأتي أجيال الأمة فيما بعد، لتحارب إسرائيل، بحجة ما تعلموه من اليهود أنفسهم من مكانة بيت المقدس!!

يا ترى: لو صحَّ هذا فمن الغبي؟!

لو كنتُ مكان اليهود لمنعتُ تسرب هذه الفضائل إلى المسلمين، لأن تسرُّبها، إن صحَّت الدعوى، هو الذي جعل للقدس حصنا حصينا في نفوس المسلمين، يمنعهم من التنازل عنها لليهود، ويدعوهم في يوم من الأيام لإخراج اليهود منها!!

ولو كنتُ مكان اليهود لسترتُ على قومي، ولم أ طرح تلك الدعوى المهيضة التي تقول إن اليهود هم من علّم المسلمين كيف يجعلون بيت المقدس إسلامية قرآنية نبوية محمدية، لأنني لو طرحتها فسأكشف مقدار بلاهة قومي، إذ كيف يعلمون المسلمين احتكار القدس للإسلام، في الوقت الذي يدعون أنها لليهودية فحسب!؟

فمن المضحوكُ على ذقنه حسب هذه الدعوى إذن!؟

هل هو الذي، حسب الدعوى، أخذ مكانة القدس العالية من اليهود فجعلها في دينه؟! أم أولئك الذين ادَّعوا أنهم أرسلوا كعب الأبحار، ذلك المتهم زورا بالقدس لتدمير الأمة في مهدها الأول، والذي بزعمهم علّم الصحابة والتابعين مكانة القدس، لينافسوا اليهود عليها، وليخرجوهم منها؟! أم الأغبياء هم أولئك الذين يلوكون هذه الدعوى، يحسبون أنفسهم بذلك قد حصلوا على الدِّ ما يشتهون: تحطيم الإسلام!! من الغبي يا ترى!!؟

باللغباء، كيف يحسُن في العقل أن أعلم عدوي ما به يقوى عليّ!؟

دعني عزيزي القارئ من هذا القرف الفكري غير المتزن، وأصغ إلي..

إننا سنطرح ها هنا كشفا حقيقيا للنفسية المسلمة من أول تعرُّفها على اليهود، لتعرِّف على ذلك السدّ العالي والحصن الحصين الذي بُني في نفوس المسلمين، فحال بينهم وبين أن يتخذوا اليهود أساتذة لهم في أي شأن من شؤون الدين.

سنتحدث تفصيلا في هذا، وسندخل مسألة القصاص وموقف شيخ الإسلام ابن تيمية في الموضوع، لمناسبة يراها القارئ الكريم، وسنضطر للحديث عن القدس عند

اليهود، ليرى القارئ الكريم من هم أولئك الذين هَوَّنت بل أهانت نصوصهم بيت
المقدس!

سنرى كل ذلك في مباحث الفصل التالي إن شاء الله تعالى..

الفصل الثالث: الرد على شبهات المستشرقين

لقد استعرضنا في الفصل السابق شبهاتٍ أثارها أدمغة بعض المستشرقين، وتبعهم على بعضها بعض العرب، ممن تلقفوا ثقافتهم الحديثة عن جماعات المستشرقين، ورأينا بعد هذا الذي استعرضناه أن نتحدث بإفاضة عن هذه الشبهات، وقسمنا فصلنا هذا إلى مباحث، تناولنا في كل مبحث منها موضوعاً رئيساً يتضمن الإجابة عن شبهة أو أكثر من هذه الشبهات المطروحة، ورأينا أن نفصل في بعض ما طرحه من الردود، ليخرج القارئ إن شاء الله تعالى وقد أخذ ما يكفيه من الرد على هذا المثار.

وقبل الدخول في مباحث هذا الفصل، لا بد من طرح ما يلي:

كان حسون قد ذكر أحاديث منها قول معاوية رضي الله عنه عن القدس: (إنها أرض الخضر)، وقوله عن الشام إنها: (خيرة الله من بلاده، يجتبي إليها خيرته من عباده)، وقوله: (..في الأرض المقدسة التي جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده، فأحلها أهل الشام ورضيهم لها ورضيها لهم..)، ثم قوله مرة وهو يخطب على منبر بيت المقدس فيما ينقله عن فضائل بيت المقدس لابن عساكر: (..ما بين حائطي هذا المسجد أحبُّ إلى الله تعالى من سائر الأرضين)^(١).

وذكر حسون نقلاً عن غيره من المستشرقين أن هذه الأحاديث ذات مرجعية يهودية، دون أن يذكر حسون شيئاً من الأدلة التي تثبت أنها ذات مرجعية يهودية..

سيرى القارئ الكريم أنني لن أتناول الردّ على المستشرق حسون فيما استند عليه مما نسبه إلى معاوية رضي الله عنه في مباحث هذا الفصل، واعتباره أنه يرجع إلى أصول يهودية؛ اكتفاءً مني بأن النصوص الثلاثة الأولى ثابتة أصلاً قبل أن يذكرها معاوية، فهي

(١) يُنظر تقديم إسحاق حسون اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس)

للواسطي، (٢٠).

ليست من قوله، بل مما ثبت في نصوص الشرع ابتداء من عهد رسول الله ﷺ في حق فلسطين وبيت المقدس خاصة، ذلك أن وصف بيت المقدس بأنها أرض المحشر وارد في حديث صحيح، سنتناوله تفصيلا في الفصل الثامن من الباب الرابع؛ أما كون الشام خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فهو وارد في حديث صحيح، سنورده في الفصل الأول من الباب الثالث، وهو نص من كلام رسول الله ﷺ؛ أما تسمية فلسطين بالأرض المقدسة، وجعلها محل الأنبياء والصالحين، فهو ما ثبت من نصوص القرآن والسنة نفسها، كما ذكرنا بعضه في الباب الأول حين حديثنا عن الأرض المقدسة وما هي، وكما سنذكر ذلك في الفصل الثالث من الباب الرابع؛ فهي أرض محمد ﷺ، وهي أرض عيسى ويحيى وزكريا، وهي أرض موسى وسليمان وداود، وهي أرض إبراهيم ولوط، عليهم الصلاة والسلام أجمعين..

وهي فوق كل ذلك الأرض التي صلى فيه رسول الله ﷺ بالأنبياء في المسجد الأقصى أثناء رحلة الإسراء، ولو لم يثبت إلا هذا، لكفاها استحقاقا للقب أرض الأنبياء، فهي الأرض الوحيدة التي اجتمع فيها الأنبياء أجمعون مأمومين بمحمد ﷺ.

إن ما قاله معاوية هنا لا يخرج عما أثبتته نصوص الشرع قبل عصر معاوية، بل قبل عصر الخلفاء الراشدين، أي أنها ثبتت في عصر النبوة، وبعضها ثبت في العهد المكي من عصر النبوة، قبل أن يلتقي أي مسلم بأي يهودي في الدنيا!

أما ما ذكره حسون نقلا عن ابن عساكر أن معاوية قال إن ما بين حائطي المسجد الأقصى خير من كل الأرضين، فهذا مما لا أتصور صحته عن معاوية، وإن قالها فهو مخطئ، وليس كتاب ابن عساكر بين يدي حتى أثبت من إسناده، ذلك أنه ثبت أن خير الأرضين هي أرض الحرمين الشريفين، وتأتي بعدهما مباشرة أرض المسجد الأقصى.

أقول: إنني أكتفي هنا بما ذكرته من مرجعية الوحي لما قاله معاوية رضي الله عنه، وهو منه التزام بنصوص الشرع، سوى ما شككت في نسبته إليه من اعتبار أرض الأقصى

خير الأرضين، لمخالفته النصوص، ولذا فلن أكرّر ما تقرّر في أوائل البحث أو ما سيتقرّر أثناءه.

وإلى مباحث هذا الفصل التي ستكون كما يلي:

المبحث الأول: مقارنة سريعة بين رؤية المسلمين للقدس ورؤية اليهود لها.

المبحث الثاني: حصانة المسلمين من ضلالات التوراة.

المبحث الثالث: مسألة القصاص ومكانة بيت المقدس.

المبحث الرابع: شيخ الإسلام ابن تيمية وبيت المقدس.

المبحث الأول: مقارنة سريعة بين رؤية المسلمين للقدس ورؤية

اليهود لها

إن قسطنطين وحسونا أرادا أن يوهما قارئهما أن الآثار الإسلامية تهوّن من مقام القدس، وإذا بالحقيقة تبرز بعد خفاء من وراء جدران التزوير السميكة، لتقول إن الذي يهوّن من مقام القدس حقيقة هو النص التوراتي دون غيره، وكان على المستشرقين اليهود ألا يخوضوا في هذه القضية، لأنهم الخاسرون، ولأن خوضهم فيها دفعنا إلى أن نتعرف على ما في التوراة من مواقف تجاه المدينة المقدسة!

إننا سنُجري هنا مقارنة سريعة بين مكانة بيت المقدس في الإسلام ومكانته في اليهودية، لنرى: هل هي المكانة ذاتها للمدينة في الدينين؟ ولنرى الموقف الحقيقي للمدينة في النص التوراتي.

فإن كانت المكانة للمدينة واحدة في الدينين، فلربما يوهم ذلك فعلا أن مكانة بيت المقدس في الإسلام منبثقة عنها في اليهودية، ولكن ماذا يكون موقف المستشرق اليهودي حسون وسواه حينما يكتشف أن ما يقوله المسلمون عن بيت المقدس، لا يقول منه اليهود حرفا واحدا، وأنه لا تلاقي بين اليهود والمسلمين في شخصية القدس؛ وكيف تصح إذن تلك الدعوى المهيضة أن فضائل القدس وفلسطين جاءت إلى الإسلام من عند اليهود؟!!

نقول هذا الكلام، رغم أننا لا نرى أن وجود مثل هذا التشابه إن وُجد، يدل بالضرورة على أن المسلمين تلقّوه من اليهود، بل هو لا يعني أكثر من أن هذا العنصر الذي تتشابه به مكانة القدس في اليهودية مع مكانتها في الإسلام، قد انفلت من أيدي التحريف اليهودية، فبقي على أصله السماوي دونما تغيير، وهو لم ينل هذه الثقة، إلا إن وجد له في ديننا شاهدا يشهد له؛ لأننا نعتقد أن أصل دين اليهود وتوراتهم من عند الله، لكن دخله تحريف كثير، أودى ببعض المعاني الأصيلة التي لم يضر بها معول التحريف

للتخفي في أخبية مغلقة ذات أبواب موصدة، لا يعرف حتى اليهود أنفسهم أنها مما بقي
سالمًا من التحريف، وعليه، فلن يستطيع أحد اكتشافها، إلا إن أكدها الإسلام بالقرآن أو
السنة.

فكيف إذا لم نجد توافقًا أصلاً بين مكانة القدس في الإسلام ومكانتها في اليهودية؟
أيصح أن يقال بعدها: إن المسلمين أدخلوا مكانتها في دينهم، مما أخذوه عن اليهودية؟!

إن محمداً ﷺ عرف مقام بيت المقدس وبركاته وقدسيته من نصوص الوحي الشريف
قبل أن يلتقي بأي يهودي في الدنيا، ثم عرّف أصحابه بهذا الذي عرفه من مقامها؛ مما
يؤكد أن قول هؤلاء المستشرقين ليس إلا من أبواب الوهم.

إن ثمة شيئاً آخر سنستفيده من هذه المقارنة بين رؤية نصوص الدينين للمدينة
المقدسة؛ إننا أردنا أن نبين للقارئ النصوص التي تهوّن حقيقة من مقام بيت المقدس، هل
هي نصوص الوحي الشريف قرآناً وسنة، أو هي نصوص التوراة؟ وسيرى القارئ الكريم
أن بيت المقدس مكان هاوٍ في أحوال الرذيلة في التاريخ اليهودي وفي التوراة؛ إن هذا
الكشف سيُسهم في الرد على المستشرقين الذين يقولون إن النصوص الإسلامية حملت فيما
حملت التهوين من مقام القدس.

إننا في النهاية نقول للمستشرقين اليهود والنصارى: من كان بيته من زجاجٍ فلا
يرجم الناس بالحجارة!

ولقد أطلنا على القارئ الكريم، ونتركه والمقارنة السريعة التي وعدناه بها.

أولاً: رؤية المسلمين للمدينة المقدسة

إن رؤية المسلمين لبيت المقدس^(١) تنبثق أساساً من نصوص الوحي الشريف قرآناً وسنة، فهذه النصوص هي المكوّن الأساس لهذه الرؤية.

ولقد استأثر بيت المقدس بمجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، تحمل في ثناياها معانٍ كبيرة، فحواها يدور حول بركة الأرض المقدسة ومزلة القدس وتعظيمها، وأولية مسجدها بعد الكعبة المشرفة، وكون مسجدها القبلة الأولى للمسلمين، وأفضلية الصلاة في هذا المسجد وشد الرحال إليه، وكونها أرض الإسراء والمعراج وأرض الأنبياء، ومأوى الطائفة الظاهرة بالحق وأرض الرباط، وكونها تحتوي على الصخرة المشرفة، التي قيل في الحديث إنها من الجنة؛ ثم كونها محفوظة من الدجال، وكذلك في كونها الأرض التي تُحسم فيها الصراعات الكبرى في حياة البشر لصالح الخير، تلك الصراعات التي يمثل فيها جانب العدوان على البشر: الأعرور الدجال وأجوج ومأجوج واليهود؛ ثم فيها يظهر انتصار التوحيد على التثليث، ليعم هذا الانتصار البشرية كلها في زمان نزول عيسى ﷺ، الذي جعله أهل التثليث ضلعاً في مثلثهم؛ ثم إن مدار بعض هذه الأحاديث الناطقة بمزلة بيت المقدس يؤكد أخيراً على كونها مأوى آخر خلافة إسلامية على وجه الأرض، ثم في كونها أرض المحشر والمنشر^(٢).

(١) أجّلنا الحديث عن مقام القدس في تاريخ الإسلام لنفصل ذلك حسب ما يقتضيه المقام في باب خاص جعلناه تحت عنوان: قضايا حضارية وتاريخية مقدسية.

(٢) أدعو القارئ الكريم إلى الاستفادة من كتاب مفتاح كنوز السنة للأستاذ المرحوم خدام السنة المشرفة، محمد فؤاد عبد الباقي، فينظر إلى الأحاديث التي حدد مكانها من كتب السنة والتي تتعلق ببيت المقدس، وذلك في الصفحة (٨٤-٨٥) من الكتاب المذكور، طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت، أو أية طبعة أخرى لهذا الكتاب، ومفتاح البحث فيه هنا هو كلمة: بيت المقدس، وهي واردة في الكتاب بحسب ترتيب الحروف الهجائية.

إن كل معنى من هذه المعاني قد وردت فيه أحاديث صحيحة، أو على الأقل حديث واحد صحيح، وبعضها وردت فيه أصلاً آيات قرآنية كريمة، أسهمت في إحاطة هذه المعاني بسياج آمن لا تقدر شبه الأغرار أو الأشرار عليه أبداً، ولا نزاع في دليل صحيح على شيء من هذه المعاني، إلا في معانٍ ثلاثة، رجحنا في سياق بحثنا أنها تحظى بما يصححها^(١).

هذه هي بيت المقدس في الإسلام، دونما تفصيل في شيء منها، إذ سيأتي التفصيل في باب خاص بها؛ فما هي بيت المقدس في الدين اليهودي؟

كما أدعو القارئ الكريم إلى قراءة كتاب: الأرض المقدسة، للأستاذ إبراهيم العلي، وكذا كتاب: بيت المقدس وما حوله، للدكتور محمد عثمان شبير، ففيهما مجموعة جيدة من هذه الأحاديث، يجدها القارئ مشروحة بيّنة.

(١) أعني كون الأرض المقدسة هي أرض رباط دائم، وكونها مأوى الطائفة الظاهرة بالحق، وكون الصخرة من الجنة، ولقد رجحنا كما قلنا في سياق بحثنا صحة ما يدل على هذه المعاني، فأرجو القارئ الكريم قراءة رؤيتنا لدليلها في مكانها من هذا البحث.

ثانياً: رؤية اليهود لمقام بيت المقدس

إن النصوص التوراتية هي المكوّن الأساس لرؤية اليهود للمدينة المقدسة، وعليه فسنتظر في هذه النصوص وما تقوله في حق بيت المقدس، لتتعرف بذلك على أساس رؤية اليهود لها.

إن أورشليم، بيت المقدس، لم تُذكر في الأسفار الخمسة عند اليهود ذكراً يفيد التقديس أو التفضيل أبداً^(١)، بل لم تذكر القدس في الأسفار الخمسة إلا في سفر التكوين^(٢)، ولكن ليس فيه إلا إخبار بما كان من استقبال ملكي صادق، ملك شاليم لإبراهيم عليه السلام فيها، أي في ييوس، على ما كان اسمها يومذاك.

تقول المؤرخة والراهبة النصرانية البريطانية العارفة بالتوراة كارين أرمسترونج^(٣):
«كان الآباء الأوائل قد ارتبطوا بمدن بيت إيل والخليل وشكيم وبئر السبع، ولكنهم لم يلاحظوا أورشليم في أسفارهم وترحالهم»، والآباء الأوائل هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وربما أدخل فيهم البعض موسى ونوحا وادم، عليهم السلام أجمعين.

ويقرر التاريخ الإسرائيلي أن يوشع بن نون ترك أورشليم لأهلها لأنها كما يقول تيدي كوليك وموشي برلمان^(٤): «غير ذات قيمة بالنسبة له من الناحية الاستراتيجية»، بل ثمة شيء آخر: إن «صموئيل النبي لا يذكرها على الإطلاق وربما لا يعرفها»^(٥).

(١) محمد جلاء إدريس في كتابه: أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي (١٢٨).

(٢) سفر التكوين، (١٩-١٨/١٤).

(٣) في كتابها: القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، (٦٦).

(٤) في كتابها: أورشليم (٢٢) نقلا عن: أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، للدكتور

محمد جلاء إدريس (١٢٩).

(٥) أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، (٥٨).

وفي سفر الخروج ذكر للأرض المقدسة بأنها تفيض سمنا وعسلا^(١)، دون أن يحمل مثل هذا الذكر تقديسا بالمعنى الديني لهذه الأرض المقدسة.

لكن في الخروج أيضا أن أقدس شيء عند اليهود هو تابوت عهد الرب، وخيمة الاجتماع التي كان يوضع فيها هذا التابوت^(٢)، وهي التي حل مكانها البناء الذي صار فيما بعد يحمل اسم الهيكل، فهو الذي نال التبجيل عند اليهود^(٣)، رغم ما سيأتي بيانه من إهانات لهذا الهيكل جاءت في ممارسات اليهود أنفسهم، وباعتراف النصوص التوراتية.

وورد في سفر الملوك الأول، أن اسم الرب وُضع في الهيكل إلى أبد الدهر^(٤)، ويُعتبر الهيكل على هذا أقدس مقدسات اليهود، ويُعتبر قدسُ الأقداس أقدس شيء فيه، وهو جزء من الهيكل نفسه، وكان يضم تابوت العهد، «وجاء في الأجداد»^(٥) أن فلسطين توجد في مركز الدنيا، والقدس في وسط فلسطين، والهيكل في وسط القدس، ويقع قدس الأقداس في وسط الهيكل، أي أن قدس الأقداس يقع في وسط الدنيا تماما، ويوجد أمامه حجر الأساس^(٦)، «فقدس الأقداس الذي في وسط الهيكل، هو بمثلة سُرة العالم، ويوجد عنده حجر الأساس: النقطة التي عنده خلق الإله العالم...، والهيكل كثر الإله

(١) سفر الخروج، (٥/١٣).

(٢) يُنظر: سفر الخروج، (٨/٢٥)، (٣٣-٣٤/٢٦)، (٣٠/٢٩)، (٣٧/٢٩)، (٤٣-٤٤/٢٩).

(٣) يُنظر: سفر الملوك الأول، (١٢-١/٨)، وفي سفر الملوك الأول أيضا، (١٣/٥-١٨)، وذلك لتفصيل لتلك المكانة التي كوَّنتها التوراة للهيكل المزعوم، من خلال استعراضها لعملية البناء والإعداد له وعدد البنائين المشاركين فيه في عهد سليمان عليه السلام.

(٤) سفر الملوك الأول، (٣/٩).

(٥) قال الدكتور المسيري في موسوعته اليهود واليهودية والصهيونية، (١٤٧/٥): «تستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى الفقرات والقطع التلمودية التي تعالج الجوانب الأخلاقية أو القصصية الوعظية أو الأدعية أو الصلوات أو مديح الأرض المقدسة أو التعبير عن الأمل في وصول الماشيخ، كما تشير إلى الأجزاء التي تتناول التاريخ والسير والطب والفلك والتنجيم والسحر والتصوف».

(٦) اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، (١٦٥/٤).

مثل جماعة يسرائيل، وهو عنده أثن من السماوات، بل من الأرض التي خلقها بيد واحدة، بينما خلق الهيكل بيديه كليهما؛ بل إن الإله قرر بناء الهيكل قبل خلق الكون نفسه^(١)، ومع ذلك، فسيرى القارئ الكريم عظيم الإهانات لأقدس المقدسات هذه.

والقدس هي المدينة التي كانوا يحجون إليها ثلاث مرات كل عام، وفي القباله اليهودية تحظى القدس بمكانة المدينة التي سيفيض منها الخير من السماء، ومنها يوزع على بقية العالم، وهي الملكوت الذي سيحكم العالم، ولا يفصلها أي فاصل عن الإله، وتصعد أدعية اليهود من خلالها، وستعلو جدرانها وتقترب من العرش الإلهي^(٢).

إن هذا الذي تضمنته بعض النصوص يتناقض تماما مع ما تقوله أخرى، ومتناقض كذلك مع الممارسة اليهودية التي تعاملت معظم تاريخها مع بيت المقدس والهيكل بإهانات عظيمة، منها ملؤها بالأوثان، ومنها ملؤها بالعثور.

ففي سفر الملوك الأول^(٣) أن سليمان عليه السلام باني هيكل الرب في أورشليم اتخذ آلهة من دون الله، ومال قلبه عن إله إسرائيل، وفي سفر الملوك الثاني أنه عليه السلام وضع هذه الآلهة قبالة أورشليم، يقول سفر الملوك الثاني: «**والمرتفعات التي قبالة أورشليم التي عن يمين جبل الهلاك التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشثروت رجاسة الصيدين ولكموش رجاسة المؤابيين، ولملكوم كراهة بني عمون، نجسها الملك**»^(٤). وفي سفر الملوك الثاني^(٥) يعلن الرب رفضه للمدينة المقدسة: «ولكن الرب لم يرجع عن حمو غضبه العظيم، لأن غضبه حمي على يهوذا، من أجل جميع الإغاضات التي أغاظه إياها منسسي، فقال الرب: إني أنزع يهوذا أيضا من أمامي كما نزع إسرائيل، وأرفض هذه المدينة

(١) المرجع نفسه، (١٥٩/٤).

(٢) المرجع نفسه، (١٢٥/٤).

(٣) سفر الملوك الأول، (٣-١/١١).

(٤) سفر الملوك الثاني، (١٣/٢٣).

(٥) سفر الملوك الثاني، (٢٧/٢٣-٢٨).

التي اخترتها أورشليم، والبيت الذي قلتُ يكون فيه اسمي، ومهما حاولتَ تفسير رفض الرب لهذه المدينة، فهو لن يخرج عن التهوين من شأنها.

وفي سفر حزقيال ما فيه من إهانة للمدينة، ففيه: «يا ابن آدم، عرّف أورشليم برجاساتها، وقل: هكذا قال السيد الرب: مخرجك ومولدك من أرض كنعان، أبوك أموري وأهلك حثية»^(١)، وفيه: «وأنت يا ابن آدم هل تدين مدينة الدماء، فعرفها كل رجاساتها، وقل: هكذا قال السيد الرب، أيتها المدينة السافكة الدم في وسطها، ليأتي وقتها، الصانعة أصناما لنفسها لتتنجس بها»^(٢).

وفي السفر المنسوب لأرميا الذي هو من أخبر الناس برب إسرائيل، إذ استمرت نبوته أكثر من نصف قرن، في هذا السفر^(٣) يقول أرميا: «فقلتُ: آه يا سيد الرب، حقا إنك خداعاً خادعتَ هذا الشعب وأورشليم قائلاً: يكون لكم سلامٌ، وقد بلغ السيفُ النفس»، وحينما تسقط مكانة الرب، ويتهم بالكذب، فلا مقام لشيء أبدا!

إنه حينما انقسمت مملكة سليمان بعد وفاته، واستقر الأمر في شكيم/نابلس في يد يربعام، خصم سليمان عليه السلام، وخاف يربعام من تقرب الشعب بذبائحه إلى بيت الرب في أورشليم، وخاف أن يرجع الناس بذلك إلى رحبعام، ملك يهوذا حينها «..استشار الملكُ، وعمل عجلي ذهب، وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آهتك يا إسرائيل الذين أصدوك من أرض مصر، ووضع واحدا في بيت إيل وجعل الآخر في دان»^(٤)، مسكينة هذه القدسية المدعاة لمدينة يقتل أدياؤها معاني الجلال فيها كل يوم، ويقتلون فيما بينهم أيهم أكثر رجسا!

(١) سفر حزقيال، (١٦/١-٣).

(٢) سفر حزقيال، (٢٢/١-٣).

(٣) سفر أرميا، (٤/١٠).

(٤) سفر الملوك الأول، (إصحاح ١٢) نقلناه: أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي،

للدكتور محمد جلاء إدريس (١٤٣).

إنه يتضح ألا مكانة دينية لأورشليم لدى مملكة إسرائيل الشمالية، تلك المملكة التي صنع ملكها يربعام عجولين من ذهب ليصرف الناس بما عن أورشليم، ولو كان لها مكان ديني مقدس لما كسر سورها ملكان من ملوك يهوذا، ولما اصطاد ملكا يهوذا هذان ذهب الهيكل لبيت كل منهما الخاص، ولو كان الهيكل والقدس مقدسين لدى الإسرائيليين لما عبد الشعب الإسرائيلي آلهة أخرى، ناسين الرب وهيكله، كل ذلك على ما يتضح من أسفارهم.

ولم تسلم مملكة الجنوب من تلويث القدسية المدعاة لبيت الرب في أورشليم، بل لقد أُدخلت الأرجاس والأوثان إلى بيت الرب هذا، ونال ما نال من خروج على معاني القدسية، يقول سفر الأخبار الثاني: «حتى إن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم، ونجسوا بيت الرب الذي قدّسه في أورشليم»^(١)، ولكن: أليس فيهم رجل رشيد؟ وهل فقد الشعب من يقول كلمة الحق ويزيل أنجاس وأرجاس الأمم عن البيت المقدس!

ولعل بعض ما قرأنا وبعض ما سنعرّف القارئ عليه الآن يحمل الدلالة الأهم على هذا المعنى..

إن المعبد، الهيكل، صار دارا للأصنام، لتعبّد فيه من دون الله تعالى، هكذا قال سفر الملوك الثاني، مما يفرّغ القدسية عند اليهود من معناها ووقارها..

يذكر سفر الملوك الثاني الانحرافات التي وقع فيها الملك منسى، الذي ملك خمسا وخمسين سنة، حسب السفر نفسه، (٦٩٨-٦٤٣ ق.م.)^(٢)، هذا الملك وقع في أخطر المحظورات، على ذمة سفر الملوك الثاني، يقول السفر: «وعاد فبنى المرتفعات التي أبادها حزقيّا أبوه، وأقام مذابح للبعل، وعمل سارية كما عمل أخاب ملك إسرائيل، وسجد لكل جند السماء وعبدها، وبني مذابح في بيت الرب، الذي قال الرب عنه في

(١) سفر أخبار الأيام الثاني، (١٤/٣٦).

(٢) تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، فتحي محمد الزغبي، (٤٠٢).

أورشليم: أضع اسمي، وبني مذابح لكل جند السماء في دارَي بيت الرب^(١)، وفي سفر الملوك الثاني أيضا أن الملك يوشيا، الذي نُصَّب ملكا حوالي عام ٦٣٨ ق.م.، قد اختار بعد دعوى اكتشاف سفر الشريعة في الهيكل أن يطيع الرب، إن الملك يوشيا هذا قد أمر بإخراج ما في الهيكل من أدوات الشرك، التي كانت تملأ الهيكل قبل عهده مما يدل أنها كانت داراً للأصنام وللبغاء زماناً طويلاً حتى جاء الملك يوشيا فطهرها؟ ولنا أن ننظر إلى شيء من نصوص سفر الملوك الثاني في هذه المسألة..

يقول السفر: «وأمر الملك حَلِقِيَّا، الكاهنَ العَظيمَ، وكهنةَ الفرقة الثانية وحراس الباب، أن يُخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجناد السماء، وأحرقها خارج أورشليم في حقول قدرون، وحمل رمادها إلى بيت إيل،...، وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادي قدرون..»^(٢)، وفي الترجمة التي نشرتها جمعية الكتاب المقدس في لبنان، بدل: وأخرج السارية، فيه: «وأخرج صنم أشيرةٍ مِنَ الهَيْكَلِ خارج أورشليم، إلى وادي قدرون»^(٣)، وفي ترجمة جمعية الكتاب المقدس عن إصلاحات يوشيا أيضا: «وهدمَ بيوتَ البغاءِ المُكرَّسِ التي في دارِ الهَيْكَلِ، حيثُ كانتِ النساءُ ينسُجنَ ثياباً لأشيرةٍ»^(٤)، إنهم لم يقصروا في تلوين البيت المقدس بكافة الملوّنات، حتى جعلوه داراً للبغاء!

هذه إذن مكانة بيت المقدس، أورشليم، عند اليهود، حسب تلك النصوص، وهي بين خرافات علقوها بالقدس، وبين إهانات نسبوها إلى القدس.

(١) سفر الملوك الثاني، (٣٣/٢١).

(٢) سفر الملوك الثاني، (٦/٢٣-٤).

(٣) سفر الملوك الثاني، (٦/٢٣)، من الترجمة التي نشرتها جمعية الكتاب المقدس اللبنانية عبر موقعها

على الإنترنت www.elkalima.com.

(٤) سفر الملوك الثاني، (٧/٢٣)، من الموقع نفسه www.elkalima.com.

فهل فيما عرضناه عليك موجزا عن بيت المقدس في الإسلام، هل فيه حرف من هذا الذي ذكرته أسفار التوراة؟

فكيف إذن يُجيز حسون وغيره من مستشرقى اليهود والنصارى أن يقولوا: إن مكانة بيت المقدس في الإسلام جاءت منبثقة عن اليهودية؟!

إن ممارسة الإسرائيليين في بيت المقدس هي الممارسة المتناقضة مع كل معاني القدسية والاحترام، وسيأتي معنا في فصول قادمة كيف ولغ بعض المستشرقين اليهود في تاريخنا مُدَّعين أن بعض الدول والحكام المسلمين لم يُعطوا بيت المقدس حقها من التكريم، فأين يذهب هؤلاء المستشرقون اليهود بممارساتهم التاريخية في عهد دولتهم الأولى! وهل وجدوا في تاريخنا من فعل عُشر معشار ما فعله ملوكهم؟!

المبحث الثاني: حضانة المسلمين من ضلالات التوراة

إننا نقول ابتداءً: إنه ليس من شأن المسلم أن يشكّل دينه كما يشاء له هواه، بل إن دين المسلم هو نصوص لا يقبلها إلا إذا صحت وتوافقت مع شروط القبول لها وفقّ ميازين النقد ومناهجه؛ وينضبط فهمه لهذه النصوص الثابتة بأصول اللغة أولاً، وبرباط التناسق الداخلي بين هذه النصوص ثانياً، وببصيرة العقل ثالثاً؛ ولا يثبت نص ولا يصح فهم نص دون الارتكاز إلى هذه المعالم المفهومة للنصوص، أو المثبتة لها؛ وهذا بخلاف اليهود والنصارى، الذين يملكون أن يضيف بابواتهم وحاحاماتهم إلى دينهم ما يشاؤون، ثم إنهم بعد ذلك ينسبونهم إلى السماء، وإن شهادة درابر^(١) المؤرخ الأمريكي الغربي، وإن شهادات العالم الآثاري اليهودي إسرائيل فنكلشتاين والكاتب والمؤرخ وعالم الآثار الأمريكي وليم أولبرايت ودائرة المعارف البريطانية^(٢)؛ إن شهادات كل أولئك

(١) قال المؤرخ الأمريكي درابر في كتابه Conflict of Religion & Science: «إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولّت قسطنطين الملك، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها، ونشأ من ذلك دين جديد، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء، هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية، إذ قضى الإسلام على منافسه (الوثنية) الوثنية قضاءً باتّاً، ونشر عقائده خالصة بغير غش»، نقلاً عن: ماذا خسّر العالم بالخطايا المسلمين، للعلامة الهندي أبي الحسن علي الحسيني الندوي، رحمه الله تعالى، (١٦٦-١٦٧).

(٢) نشرت صحيفة الحياة الجديدة في عددها الصادر بتاريخ ١٤/١١/٢٠٠٠م عن عالم الآثار الإسرائيلي يسراييل فنكلشتاين، الذي شغل منصب مدير معهد الآثار التابع لجامعة تل أبيب قوله: «.. وإن كنية التوراة اليهود في القرن الثالث أضافوا قصصاً لم تحدث أصلاً».

وذكر كيث وايتلام في كتابه احتلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٩٦)، اعتراف وليم أولبرايت، وهو أحد علماء الآثار الأمريكيين المشاهير، الذين كرسوا جهودهم في حياتهم لأجل إثبات مصداقية التوراة، اعترف «بإسهامات الثقافات المحيطة في هذين الكتابين المقدسين»، أي العهدين القديم

لتكفي لتأكيد أن الدين الذي كان يتلقى من الأديان الأخرى، ويضيف أتباعه إليه عقائد وثقافات الأمم، إنما هو دين النصارى واليهود، لا دين المسلمين.

إن المستشرقين الذين يدعون أن فضائل بيت المقدس في الإسلام إنما هي فيوضات يهودية، إنهم ينطبق عليهم المثل العربي القديم: رمتني بدائها وانسلت، فهم حينما رأوا التوراة والإنجيل مصائد لخرافات الأمم، وحاويات لقذاراتها، حسبوا ذلك في الإسلام، أو تمنوا أن يكون الإسلام كذلك، فلما لم يروا في نصوص الإسلام شيئاً من هذا، قاموا يكذبون.

إن الإسلام هو الذي وقفت نصوصه أولاً، ثم علماءه ثانياً، ثم مخلصو حكامه ثالثاً؛ وقفوا جميعاً سداً منيعاً في مواجهة مثل هذه الإضافات، ففضحوها، ثم أخرجوها من العقول التي تغرر بها، وهم في كل يوم ينقضون انقضاء الأسود على كل دخيل من العقائد والأفكار، فيجهضون بقية الروح التي فيه!

هذا، وما أسرع أن يُدمغ المسلم بدمغة الابتداع، الذي قد يكفر بسببه، إن أضاف إلى الدين ما لا شاهد له من النصوص، فيدور بين الناس لا يرى له مستمعاً، ثم يهرب إلى الخلوّة بنفسه، يحميها من تجهّم الناس!

وهذا السلوك الديني والشعبي والعلمي، يشكّل قاعدة عامة في مسألة حصانة الإسلام من الدخيل، أي دخيل..

وأما حصانته من دخيل العقائد والأفكار إذا كان مصدرها أهل الكتاب، فحدّث ولا حرج، من بناءات تحصينية يخلو من مثلها أي دين، وأما حصانة الإسلام من دخيل اليهودية في عقائده، فالسدُّ عظيم والحِصنُ عالٍ والقلعة شامخة، والأساس راسخ في

والجديد.

ولقد جاء في دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٥، (٨٧٩/٢)، لعام ١٩٨٢م، نقلاً عن: تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسعية، للدكتور محمد علي البار (٢٩-٣٠)، جاء فيها تصديق صارخ بكل هذا، فقالت: «إن العهد القديم كتاب يمثل تراث الشعب الإسرائيلي وتراث شعوب أخرى كثيرة».

أرض صلبة لا يقدر أن ينتزعه منتزع؛ وفقدان الثقة بما يقوله اليهود، يملأ القلب تشكُّكا في كلِّ آتٍ من قبلهم، حتى غدا عامة المسلمين ينسبون كل شرٍّ إلى اليهودية واليهود، وحتى أمسوا ينظرون إلى كل متآمر على أنه يهودي، أو مدفوع من قبل يهود؛ أفصحُ بعد كل هذه الحصون والمنشآت والأسس العميقة، الدينية والعقلية والنفسية، أن يرجع شيء من الإسلام إلى اليهودية أو أن ترجع مكانة القدس عند المسلمين إلى أصول يهودية!!

إنه لو لم يكن الإسلام مالكا بنصوصه الصحيحة والصريحة مكانا عاليا للقدس، لكانت القدس كسائر مدن المسلمين، بل لوقف المسلمون يتشككون من كل من يريد أن يرفع مقدارها فوق سواها من المدن، بحجة أن ذلك ابتداع في الدين..

إنه لولا ما بثت النصوص من عظيم مكانة القدس، ما كانت لها المكانة المعروفة والعالية؛ ولو جاء تقديسها من اليهود، لوقفت تلك السدود والحصون التي أشرنا إليها للحيلولة دون دخول هذا التقديس إلى عقائد المسلمين، ولوقف علماء المسلمين يقولون: إن إعطاء القدس مكانة تقديسية هو قول اليهود فاحذروه!

إن أصل دين المسلم يعصمه من الوقوع في هذا النمط من التصور لدينه، والمسألة عند المسلمين مشهورة ومشهودة..

ولا بد هنا من لفت الانتباه إلى أن هذه الحصون التي تحدثنا عنها قديمة في الإسلام قديم الإسلام نفسه، فهي موجودة لدى الصحابة، فلقد كانوا هم والتابعون وتابعوهم محصنين من التوراة، ومعلومة هي الأحاديث عن الرسول ﷺ التي ينهى فيها عن التشبه باليهود^(١) وبأهل الكتاب، ومعروفة هي الآيات التي تتحدث عن الصورة التي عليها اليهود والتوراة في الإسلام، ومشهورة هي قصص اليهود في المدينة المنورة، تلك القصص التي

(١) يُنظر كتاب: اليهود في السنة المطهرة، للدكتور عبد الله بن ناصر بن محمد الشقاري،

(٥٧٢/٢-٥٩٣)، ففيه ذكر مرتب متناسق حسب المواضيع لكثير من الأحاديث التي نهي فيها رسول

الله صلى الله عليه وسلم عن التشبه باليهود، وقد ذكر فيه ٣٤ حديثا تتضمن هذا النهي.

تكفي وحدها لإيجاد حاجز سميك يحول دون دخول اليهود وأفكارهم في وسط الدائرة العقيدية والفكرية والتشريعية الإسلامية.

ونضرب هنا أمثلة تبين أن الإسلام معصوم من اليهودية وأفكارها، وهي بالغة الشهرة، وهي في الوقت ذاته صحيحة الإسناد والانتساب إلى المنسوبة إليه..

روى الإمام أحمد في مسنده^(١) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار يوم أن ذهب إلى المسجد الأقصى بعد الفتح العمري: «أين ترى أن أصلي؟»، فقال: «إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فتكون القدس كلها بين يديك»، فقال عمر: «ضاهيت اليهودية، لا، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ»، فتقدم إلى القبلة فصلى، ثم جاء فبسط رداءه، فكنس الكناسة في رداءه، وكنس الناس.

(١) مسند الإمام أحمد، بتحقيق وتخريج الشيخ المحدث أحمد محمد شاكر، (١/٢٧٦-٢٧٧، ح: ٢٦١)، قال محققه أحمد شاكر: إسناده حسن، وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية عن إسناده هذا الحديث، (٧/٥٨): «وهذا إسناد جيد، اختاره المقدسي في كتابه المستخرج»، ولا بد أن نذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد ذكر مختارة المقدسي هذه في فتاواه (١/١٧٢) وقال فيها: «هو أصح من صحيح الحاكم»، لكن قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه وتحقيقه لمسند الإمام أحمد، (ح: ١٦١، ج: ٣٧٠/١): إسناده ضعيف لضعف أبي سنان، وهو أحد رواته في مسند أحمد، وذكر أنه رواه أيضا أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال بإسناد آخر، وهذا يعني حسب اصطلاح المحدثين أن الحديث سينال مرتبة الاحتجاج به؛ يُنظر كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، (١٦٨).

أما الكلام في أبي سنان الذي وضعه الشيخ شعيب، فقد ذكر الشيخ أحمد شاكر رحمه الله أنه: صدوق في حديثه لين، وقال الإمام الحافظ الذهبي في الميزان، (٣/٣١٢): «ضعفه أحمد وابن معين، وهو ممن يكتب حديثه على لينة، وقواه بعضهم يسيرا، وقال العجلي: لا بأس به، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي»، وواضح أن التضعيف المذكور فيه تضعيف يسير، ومثله قابل لتحسين حديثه، كيف وقد جود ابن كثير إسناده، كما نقلنا عنه، ثم إن ما ذكرنا من أن لهذا الأثر إسنادا آخر برواية إبي عبيد القاسم في الأموال، إن ذلك يقويه.

وعلى جميع الأحوال، فيكفينا حكم الشيخ أحمد شاكر والإمام ابن كثير، فقد حسن أحدهما إسناده، وجوده الآخر.

إن هذا الأثر عن عمر رضي الله عنه يدل دلالة صريحة أن الإسلام ليس خاضعا لليهودية، فلو كان خاضعا لها، لأمسك عمر برؤية كعب الأحيار وصلى حيث أشار، غير أنه رفض رؤية كعب، معتبرا أنه في رؤيته يضاهاى اليهودية، أو ينطلق منها، رغم أن كعب الأحيار رضي الله عنه ليس متهما في الإسلام، إلا أن ما وقر في نفس عمر مما عرفه عن اليهودية، جعله يقول ما قال!

وروى النسائي في سننه، واللفظ له، والإمام أحمد في مسنده^(١)، كلاهما بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتيت الطورَ فوجدتُ ثمَّ كعباً، فمكثتُ أنا وهو يوماً أحدثه عن رسول الله ﷺ ويحدثني عن التوراة، فقلتُ له: قال رسول الله ﷺ: (خيرُ يومٍ طلعت فيه الشمس يومُ الجمعة، فيه خلق آدمُ وفيه أُهبطَ وفيه تيبَ عليه، وفيه قُبضَ وفيه تقوم الساعة؛ ما على الأرض من دابةٍ إلا وهي تصبح يوم الجمعة مُصيخةً حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا ابنَ آدمَ؛ وفيه ساعة لا يصادفها مؤمن وهو في الصلاة يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه إياه)، فقال كعبٌ: «ذلك يومٌ في كل سنة»، فقلتُ: «بل هي كلُّ جمعة»، فقرأ كعبُ التوراة ثم قال: «صدق رسول الله ﷺ هو في كل جمعة»، قال أبو هريرة: «فخرجتُ فلقيتُ بصرةَ بنَ أبي بصرةَ الغفاريَّ فقال: «من أين جئت؟»، قلتُ: «من الطور»، قال: «لو لقيتكَ من قبل أن تأتيه لم تأتِه»، قلتُ له: «لِمَ؟»، قال: «إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (لا تُعملُ المطيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا ومسجد بيت المقدس).

(١) سنن النسائي، (١٢٧/٣-١٢٨، ح: ١٤٢٩)، ومسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٤٤٠/٩، ح: ١٠٢٥٢)، وقال محققه الشيخ حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط في طبعته التي حققها لمسند أحمد، (ح: ١٠٣٠٣، ج: ٢٠٥/١٦): «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، ورواه أيضا مالك في الموطأ، (١٠٨/١-١١٠)، وهو في أبي سنن أبي داود، (٣٩٣/١-٣٩٤، ح: ١٠٤٦)، وهو أيضا في الترمذي، (٣٦٢/٢-٣٦٤، ح: ٤٩١)، لكن دون ذكر قصة كعب مع أبي هريرة، وروى الطحاوي في شرح مشكل الآثار، (٥٦، ٥٧/٢) كلام أبي بصرة الغفاري لأبي هريرة حول زيارة أبي هريرة للطور، ونسب كلام أبي بصرة لحميل بن بصرة.

قال أبو هريرة: فلقيتُ عبدَ الله بنَ سلامٍ، فقلتُ: «لو لقيتني خرجتُ إلى الطورِ فلقيتُ كعباً، فمكثتُ أنا وهو يوماً أحدثه عن رسول الله ﷺ ويحدثني عن التوراة»، وذكر أبو هريرة الحوار الذي دار بينه وبين كعب الأحمار، فلما ذكر له أن كعباً قال عن الساعة التي يستجاب فيها الدعاء من ساعات الجمعة إنها كل سنة، قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه لأبي هريرة: «كذب كعب»، ثم واصل أبو هريرة حديثه، قال: قلتُ: «ثم قرأ كعب⁽¹⁾ فقال: صدق رسول الله ﷺ هي في كل جمعة»، فقال عبد الله بن سلام: «صدق كعب، إني لأعلم تلك الساعة»، فقلتُ: «يا أحمي، حدثني بها»، قال: «هي آخر ساعة من يوم الجمعة قبل أن تغيب الشمس»، فقلتُ: «أليس قد سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: (لا يصادفها مؤمن وهو في الصلاة..)، وليست تلك الساعة صلاة؟»، قال: «أليس قد سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: (من صلى وجلس ينتظر الصلاة لم ينزل في صلاته، حتى تأتيه الصلاة التي تلاقيها؟)، قلتُ: «بلى»، قال: «فهو كذلك».

إن هذا الأثر الحواريَّ الطويلَ يحمل بين حروفه مجمل القضية التي نحن في صدددها، فليس أبو هريرة بالذي يتلقى عن كعب، وليس هو بالذي يخدعه إسلام أي إنسان من البشر، إن كان وجد في كلامه ما يخالف كلام رسول الله ﷺ، ثم إنه فيما يبدو لم يكن يعرف حديث منع شد الرحال إلى مسجد غير المساجد الثلاثة ومنها المسجد الأقصى، مسجد بيت المقدس، كما هو واضح من سياق الحديث، وإنما أخذ هذا الحديث عن صبرة بن أبي صبرة الغفاري، وعليه، فلم يكن الأمر أنه تلقى تعظيم مسجد بيت المقدس عن كعب، وإنما كان الأمر أنه أخذ الحديث عن غير كعب، وعليه، فالحديث معروف في الإسلام قبل فكرة بناء قبة الصخرة المشرفة، كما سيأتي في الرد على من ادعى وضعه لأجل تبرير بناء القبة على الصخرة.

(1) في رواية الإمام أحمد: ثم قرأ كعب التوراة.

وقد روى الإمام أحمد بإسناد صحيح^(١) أن عبد الله بن سلام قال: قلتُ ورسول الله ﷺ جالس: «إنا نجد في كتاب الله^(٢) في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو في الصلاة، فيسأل الله عز وجل شيئاً إلا أعطاه ما سأله»، فأشار رسول الله ﷺ يقول: (بعض ساعة)، قال فقلتُ: صدق رسول الله ﷺ، قال أبو النضر: قال أبو سلمة: «سألته أية ساعة هي؟»، قال: «آخر ساعات النهار»، فقلتُ: إنما ليست بساعة صلاة، فقال: «بلى، إن العبد المسلم في صلاته إذا صلى، ثم قعد في مصلاه، لا يجبسه إلا انتظار الصلاة».

وهذا الحديث يدل على أن من أسلم من علماء أهل الكتاب كانوا يطرحون ما عندهم أمام الرسول ﷺ ثم أمام الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، فما كان من حقِّ بينه الرسول وصحابته وتابعوهم، وما كان من باطل رفضوه..

أما ما ورد من الأحاديث في جواز رواية أخبار بني إسرائيل، فهي لا تتجاوز السماح بتناقل هذه الأخبار عنهم، أما دخول هذه المنقولات إلى عقيدة المسلم، فهذا ما جاء النهي عنه، ولا يجوز أن يتعدى النقل إلى تصديقهم وحمل عقائدهم التي قد تتضمنها تلك الأخبار^(٣).

ولا أدل على ذلك من هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم مختصراً^(٤)، أن رسول الله ﷺ قال: (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (١٧/١١٨-١١٩، ح: ٢٣٦٧١)، قال محققه حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، محققا الجزء ٣٩ من مسند أحمد طبعة مؤسسة الرسالة، (٣٩/١٩٨، ح: ٢٣٧٨١): «إسناده قوي».

(٢) يقصد التوراة.

(٣) يُنظر كتاب: اليهود في السنة المطهرة، للدكتور عبد الله بن ناصر بن محمد الشقاري،

(٦٠٢/٢).

(٤) مسند الإمام أحمد، (ح: ١٧١٦٣، ج ٣١٠/١٣)، وقال الأستاذ حمزة أحمد الزين الذي أتمَّ تحقيقه: إسناده صحيح، وقال محققو الجزء ٢٨ من مسند أحمد، طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت، الشيخ شعيب الأرنؤوط وزملاؤه، (٢٨/٤٦٠، ح: ١٧٢٢٥): «إسناده حسن»، ورواه أيضا أبو داود،

تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقا لم تُكذبوهم، وإن كان باطلا لم تصدقوهم)، وهذا من رسول الله ﷺ احتياط كبير فيما يتعلق بما يمكن أن يكون حقيقة، إذ بإمكانه أن يتهم كل ما يمكن أن يأتي عبر بني إسرائيل بالكذب، لأنهم اشتهروا بذلك، لكنه لم يفعل، إذ قد يتحدث بعضهم أحيانا بما هو صدق، فلأجل هذا قال ما قال.

قال الإمام السندي: «قوله: (فلا تصدقوهم)، أي: لا عبرة بأخبارهم لفسقهم بل لكفرهم، نُبقي ما أخبروا به على الشك والاحتمال»، قال محققو الجزء ٢٨ من مسند الإمام أحمد، الشيخ شعيب الأرنؤوط وزملاؤه: «إن أخبار أهل الكتاب هي على ثلاثة أقسام، أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته»^(١).

إن هذه المواقف التي تتصف بالإنصاف والحذر معا، مما يأتي عبر أهل الكتاب، إنها تكفي لرفض أي فكرة تتهم المسلمين الأوائل بأنهم كانوا يأخذون دينهم أو بعض دينهم من أهل الكتاب، فهل يمكن والحال كما أوضحنا أن تتسرب أفكار وعقائد أهل الكتاب، وخاصة اليهود منهم، إلى عقائد وأفكار المسلمين في جيلهم الأول والثاني؟

إننا نخلص إلى أن تحذيرات هامة قد وردت في السنة النبوية ذاتها مما يأتي من قبل أهل الكتاب، وأن الحدَّ الفارق بين ما يمكن أن يؤخذ منهم وما لا يمكن أن يؤخذ منهم هو: مدى موافقة نصوص الإسلام ومفاهيمه على ما يأتي عبرهم، فإذا أضيف ما عُرف من صورة أهل الكتاب عامة، واليهود خاصة في هذه النصوص والمفاهيم الحاكمة، عرفنا مقدار ما يمكن أن يتسرب من قبل اليهود، وأدركنا ما هنالك من حواجز سميكة تحول دون انهيار مفاهيم الإسلام أمام مفاهيمهم.

المطبوع مع عون المعبود شرح سنن أبي داود، (ح: ٣٦٣٩، ج ٥٥/١٠)، والحاكم في مستدرکه، (٣/٣٥٨-٣٥٩).

(١) هامش مسند الإمام أحمد، طبعة مؤسسة الرسالة، (٢٨/٤٦١).

وهذه الآثار والأحاديث التي تلونهاها، تكفي للرد على من يدّعي أن المسلم ينتظر اليهود ليعلموه أصول الدين وشرائعه وشعائره، وهو أيضا كافٍ للرد على دعوى أن المسلمين أخذوا قدسية ومكانة بيت المقدس عن اليهود، وهو أيضا وافٍ في بيان أن الأحاديث التي تُروى في مكانة القدس لم تأت من اليهود، إذ وضح من رواية الإمام أحمد والنسائي في الأثر الحواريّ الذي ذكرناه أن أبا هريرة لم يكن يعرف حديث شد الرحال حينما التقى بكعب الأحبار، ولا عرفه إياه كعب الأحبار، بل عرفه بعده من صحابي هو صبرة بن أبي صبرة الغفاري، فمن أين يأتي التأثر والحال كما وصفنا؟

وعرفنا أيضا من مسلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة مكان بناء مسجد عمر في ساحات الأقصى يوم فتح القدس، وكيف اقترح كعب الأحبار اقتراحا، فرفض عمر اقتراحه، معتبرا أنه من تأثر كعب باليهودية.

وعرفنا رؤية الإسلام لكيفية التعامل مع ما يرد من عند اليهود من أفكار ورؤى وقصص، كيف سمح بالرواية، ونهى عن التصديق والتكذيب، رعاية لإمكانية صدق بعضها وإمكانية كذب بعضها الآخر..

وكنا قد عرفنا أولا كيف عرض الإسلام لليهود وتاريخهم وتحريفهم دين الله تعالى وتوراته الأصيلة..

ورأينا تاريخ اليهود مع المسلمين، ومؤامراتهم عليهم في عهد المصطفى ﷺ حتى لم يبق في نفس مسلم ثقة بهم..

رأينا كل ذلك، وأكثر منه.

فهل يمكن والحال هذه أن يتخذ المسلمون اليهود أساتذة لهم يتعلمون منهم بعض دينهم؟!!

اللهم لا، فكيف كذبَ حسون وأبو رية؟

الجواب: هو ذلك النمط من التعامل مع غير اليهود، والمبثوث في التوراة، خبرناه من تاريخهم وتوراتهم ومسالكتهم، فلم يَعدُ (البروفيسور!) حسون أن يكون متناسقا تماما مع ذلك النمط!

فليقل الكذاب ما يشاء، ولا ضير على صادق الصادقين من كذب الكذابين!
ثم أرجو قارئى العزيز أن يسمح لي بطرح السؤال التالي، الذي قد تعرضنا لفكرته قريبا، ونصوغه صياغة أخرى.

هل يعني المستشرق حسون، ومروّج فرية استقاء الإسلام مكانة القدس من اليهودية، هل يعنون أن اليهود أعانوا على أنفسهم بسبب إدخالهم معاني تقديس القدس بين المسلمين؟ إن منطقية الأمور تقضي ألا يُفيد اليهودُ أحدا من المسلمين بمكانة القدس، حتى لا تكون هذه المعاني سببا في إصرار المسلمين على إسلامية القدس، ذلك المعنى الذي يأبى اليهود أن يكون أصيلا في الإسلام، وهو الآن يرهقهم أيما إرهاق؛ فبعد أن تنازل العلمانيون عن معظم فلسطين، وبعد أن كان الكثير منهم جاهزين للتنازل عن القدس ذاتها، وقف حملة لواء الإسلام ينافحون عن القدس وفلسطين، بحجة أنها أرض الإسلام ذات الفضائل الكبرى، وذات القدسية والبركة الخاصة عند المسلمين، استنادا منهم على الآيات والأحاديث التي تجعل لها مقاما ساميا؛ فهل دعوى حسون القائلة إن أحاديث فضائل بيت المقدس هي مما تلقاه المسلمون من اليهود، هل دعواه هذه تعني أن اليهود هم الذين أعانوا المسلمين على أنفسهم، فبثوا في نفوس المسلمين ما يُتعبُ اليهودَ أنفسهم؟!!

وإن تكرار حسون لتهم أبي رية، يعني أن اليهود هم مَنْ خَلَقَ لهم منافسا على القدس، بدسّ هذه الأحاديث المعظمة للقدس بين المسلمين، وإلا، فما أسهل أن يتنازل المسلمون عن القدس لولا هذه الأحاديث التي دسها اليهود بين المسلمين، (حسب ما يدعي اليهود)، ألا ما أعجب هذا الحمق!

إنه يظهر من صنيع هؤلاء أنهم حسبوا السنة النبوية كالتوراة والإنجيل، اللذين اتسعا لكل خرافة، وقبل أن تتضمن صفحاتهما مستوردات الأفكار من الأمم الأخرى، فلما رأوا ذلك في كتبهم الدينية، حسبوا أن السنة النبوية الشريفة تستحق ذات الوصف، وتقع تحت طائلة ذات الاتهام، فرضي هؤلاء (المحققون!) و(رواد المنهج العلمي في البحث!) أن يصموا السنة بما رسخ في نفوسهم مما رأوه في التوراة والإنجيل، ووجدوا رجلا كان يهوديا فأسلم، فلما أغاظهم إسلامه، أرادوا أن يوقعوا بينه وبين المسلمين سدود البغضاء، فاتهموه بتزوير كلمات في الإسلام وسنته، ليحققوا بذلك غايتين، أولاهما: تنفير المسلمين ممن أسلم من اليهود، والثانية: التشكيك بالسنة النبوية ومضامينها، خاصة المتعلقة بالقدس.

إننا أمام شياطين من نوع آخر، لا يعرف لهم إبليس مثيلا، إلا من هذا الصنف من الناس!

إننا نتحدى أن يُثبت أهل الإنجيل والتوراة مصداقية كتابيهم!

وليُسمح لي القارئ الكريم بذكر حديث من أحاديث فضائل القدس، لنرى: هل يمكن أن يكون ذا أصل يهودي، أو أن يكون مما تلقاه المسلمون عن اليهود؟

روى الإمام أحمد^(١) بإسناد صحيح عن سمرة بن جندب من خطبة رسول الله ﷺ يوم أن كسفت الشمس، وذكر في هذه الخطبة عن الأعور الدجال قوله عليه السلام: (وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس، وإنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس، فيزلزلون زلزالا شديدا، ثم يهلكه الله تبارك وتعالى، حتى إن أصل الحائط لِينَادِي، يا مسلم، أو قال: يا مؤمن، هذا يهودي، أو قال: هذا كافر، تعال فاقتله)،

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (١٤٥/١٥)، ح: ٢٠٠٠٥٤، وقال محقق هذه الطبعة حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح، ورواه الحاكم في مستدرکه (ج ٣٣٠/١-٣٣١) وقال، أي الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرّجاه، وأقرّه الذهبي في تلخيصه قائلا: على شرطهما.

السؤال: هل من الممكن أن ينقل اليهود للمسلمين أن من فضل بيت المقدس القضاء على اليهود أنفسهم فيها، فيشدّد ذلك من أزر المسلمين عليهم، هل من الممكن أن يقول اليهود هذا؟!

وبالمناسبة، فإننا قد انفردنا عن اليهود والنصارى بتمحيص كل ما يُنسب إلى رسول الله ﷺ، ولم يستح المنهج العلمي الإسلامي في التثبت من النصوص، لم يستح هذا المنهج من القصاصين الذين كثر فيهم تناقل القصص التي لا أصل لها، وذلك قبل أن يتفضل علينا البروفيسور إسحاق حسون وسواه من اليهود والنصارى إلى تنبيهنا على اقتحامها عقول العامة، ولكن مع ذلك لا أحد يستطيع أن يثبت أن أصلها من اليهود أو النصارى، إلا القليل منها، ونودُّ أن نؤكد هنا أن منهج علم الحديث هو ذاته منهج بحث علمي قادر جدا على تنقية العقل من الخرافات، وهو منهج إسلامي خالص، فلا يعرفه أصحاب الأديان الأخرى في تحقيق ما يُنسب إلى دينهم، وليس عندهم سواه، ونذكر هنا في هذه المناسبة أن الدكتور أسد رستم، وهو مؤرخ نصراني لبناني، اعتمد كلام الإمام المحدث ابن الصلاح في علوم الحديث بحروفه^(١)، مما يدل على المترلة التي تبوأها هذا العلم المخصّص للروايات بمواضيعها كافة، قبل تفكير البشر كلهم يهودا وغير يهود في مثل هذا المنهج التثبتي.

(١) يُنظر هامش صفحة (٢٦) من كتاب منهج النقد في علوم الحديث، للمحدث الفقيه الشامي

المبحث الثالث: مسألة القصاص ومكانة بيت المقدس

إن إسحاق حسون، المحقق (اليهودي!) لكتاب الواسطي: فضائل البيت المقدس، يدور يمينا وشمالا، لعله أن يجد حجة يتخذها لأجل أن يقرر أن مكانة بيت المقدس ليست أصيلة في الإسلام، وهو هنا يقتنص لنفسه اقتناصة كبيرة، حين وجد ضالته في القصاص..

ولقد ذكرنا قريبا أنه نقل قصة رواها الواسطي في كتابه، فحواها أن الزهري سمع قاصاً اسمه عقبة بن أبي زينب يقص على الناس فضائل بيت المقدس، وأن الزهري قال له: لن تنتهي إلى ما انتهى الله إليه، قال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)، فغضب عقبة عليه، وقال: لا تقوم الساعة حتى تُنقل عظام محمد ﷺ إليها؛ ويعلق حسون: «ولهذا الأثر مغزى ذو أهمية، ففيه يتجلى الصراع بين رجال الحديث كالزهري،...، وبين القصاص الذين يجتذبون إليهم العامة، ويقصون عليهم القصص من كل مصدر كان، وخاصة من كتب اليهود والنصارى، وقد بلغ هذا الصراع ذروته في القرن التاسع للهجرة في كتابات ابن تيمية، إلا أن النصر طيلة قيام هذا الصراع لم يحالف المحدثين، وانتشر القصص بين المسلمين، وأخذ على أنه روايات صحيحة ثابتة»^(١).

ولنا وقفات مع هذه القصة، ووقفات مع تعليق حسون عليها..

١ - لا أودُّ أن أبحث في مدى صحة هذه القصة، فليس وجودها في فضائل البيت المقدس أو سواه من الكتب دليلاً على صحتها، إلا إن كانت في الصحيحين، فإن وجود حديث ما فيهما أو في أحدهما يدل على صحته، وهذه القصة ليست في

(١) يُنظر تقديم إسحاق حسون اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس)

للواسطي، (٢٣).

الصحيحين ولا في الكتب الستة ولا في مسند أحمد، إنما ذكرها الواسطي في كتابه عن فضائل القدس.

وما أكثر ما روى المؤلفون في العصور الماضية بأسانيدهم قصصا لا تثبت، مطمئنين إلى ما كان في عهدهم من انتشار المعرفة بالإسناد؛ أقول: لا أريد أن أبحث في صحة إسناد هذه القصة، إذ إنها إذا لم تثبت بذاتها، ففحواها الذي تدور حوله ثابت، أعني: وقوع الكذب من كثير من القصاص.

ولكننا نقرر أيضا أن الكذب لم يُترك في الساحة دون صواعق النقد والفضيحة، فقد قام علماء الحديث بما سنشير إلى بعضه من فضح الكاذبين على الرسول ﷺ.

٢- ولكن اعتبار الأمر جرى هذا المجرى الذي ساقه حسون، وكأنه استقر في وجدان المسلمين، وصار جزءا من تفكيرهم، هذا الاعتبار هو الذي سأناقشه هنا، إذ بدا الأمر عند حسون كما لو أن القصاص هيمنوا على الساحة الثقافية الإسلامية، وأنهم كسبوا جولات الصراع الذي احتدم بينهم وبين أهل العلم بالحديث، وفي كلامه إيهاً بأن المحدثين وحدهم هم من وقفوا في مواجهة القصاص، كما يبدو من كلامه، وكأنه أراد أن يخفي الحقيقة الكامنة في أن علماء الإسلام بعامته في كل مجالات تخصصهم، ومعهم القصاصون الصادقون، قد خاضوا غمار هذا الصراع وسدوا ثغرة قد يقتحم منها القصاص، وإن ذكر حسون لابن تيمية، جاعلا إياه محدثا فحسب هو تجاوز للحقيقة، فحسون حاول بصنيعه هذا أن يوهم القارئ أن ابن تيمية كان يمثل المحدثين فحسب في هذا الصراع، والحقيقة أن شهرة ابن تيمية كانت في مجالات العلوم الإسلامية جميعها، فهو الفقيه الإمام، والمفسر المقدم، وهو المحدث الكبير، وهو المجادل الجسور؛ إن كل هؤلاء ابن تيمية، ولذا حق له أن ينال لقب: شيخ الإسلام.

إن صنيع حسون في ذكره ابن تيمية في طائفة المحدثين فحسب، دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى أنه ملك زمام الحديث والفقه والعقيدة والتفسير، وسوى ذلك

من علوم الإسلام، إن هذا الصنيع منه جاء بقصد إيهام القارئ أن المعركة كانت بين القصاصين وبين المحدثين فحسب، وكأن سائر علماء الإسلام في سائر التخصصات قد انحسموا لصالح الكاذبين من أهل القصص؛ ولو كان منصفاً لقال: إنها قامت بين الصنف الكاذب من القصاصين وبين علماء الإسلام ومن معهم من أهل الصدق من القصاصين، فليس الحال أنهم خسروا المحدثين وكسبوا سواهم، بل لم يكسب القصاصون لا المحدثين ولا من سواهم من علماء الأمة وأهل الرشد فيها.

٣- إن تبادل الأدوار بين جماعات المستشرقين واضح فيما فعله حسون وجولد تسيهر المستشرقان اليهوديان؛ فالزهري عند حسون هنا ملتزم بالنص القرآني، رافض أية إضافة عليه من قبل كذبة القصاصين، بل هو مهزوم أمام القصاصين الوضّاعين؛ وهو عند جولد تسيهر يضع الحديث في فضائل بيت المقدس، ترعا منه لأجل صديقه عبد الملك بن مروان^(١)، استناداً منه فيما يدعي تسيهر، على ما تبثه الدعاية اليهودية من فضل بيت المقدس؛ والقضية واضحة، فلربما لا يروق هدم السنة وأصالتها باقحام حسون للزهري بأنه يرفض الأحاديث في مكانة بيت المقدس اكتفاءً منه بآية الإسراء؛ فإذا لم تُقبل هذه التهمة من قبل أحد، فليُطلق غيره تهمة أخرى، ليأتي معول الهدم الصّدئ هذه المرة من قبل جولد تسيهر، لا لهدم شخصية الزهري، بل لهدم السنة وأصالتها ولقطعها عن انتسابها الصحيح إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويأتي الهدم هذه المرة باقحام آخر مفاده أن الزهري يضع الحديث لفضل بيت المقدس، فإذا جُمع كلام حسون نفسه بأن فضائل بيت المقدس تعود إلى أصول يهودية، مع ما ادّعاه تسيهر أن الزهري وضع الأحاديث في فضلها، التقى

(١) وهو حديث: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، فقد زعم تسيهر أن الزهري وضعه لأجل صديقه الخليفة عبد الملك، يُنظر قول جولد تسيهر في الزهري، وتفنيد أكاذيب هذا المستشرق اليهودي، في: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى، (٢٠٦-٢٢٦).

الكذبان على أمر قدره كلا الكاذبين.

فمن نصدّق إذن، جولد تسيهر الذي يتهم الزهري بوضع الحديث، أم المستشرق
حسون الذي يتهم الزهري بالهزيمة أمام الوضعين لرفضه وضع الحديث؟!
في الحقيقة: ليس تسيهر ولا حسون مصدرًا من مصادرنا فيما نُكذّب أو نصدّق!
لسنا هنا في الرد على شبهة جولد تسيهر في دعواه حول هذا الحديث، فلقد ناقشنا
الأمر في فصل خاص، أكدنا فيه أن بناء قبة الصخرة لم يكن ذا صلة أصلاً بما يُدعى
من منع الناس من الحج إلى الكعبة وتحويلهم إلى بيت المقدس..

٤- وليس القصاص مذهباً واحداً كما يوحي به كلام حسون، فقد كان منهم الصادق
وكان منهم الكاذب، ولم يكن الكذبة منهم في مأمن من مواجهة الأئمة من العلماء
والخلفاء، كما سيأتي قريباً.

٥- وبما أن من القصاص من كان من أهل الصدق والحكمة، فلا بد أن نذكر أن من
الأئمة من كان مُدعياً في القصّ الصادق، حتى أُلّف فيه تأليفات، كابن الجوزي
رحمه الله تعالى، الذي غلب عليه القصّ في بعض كتبه، ككتابه: (المدهش)،
وكتابه: (القصاص والمذكرين)، لكنه كان من راشدي القصاصين، ولم يتهم مع من
تاه منهم في دياجير الخرافة وظلمات الأباطيل، بل لقد رشّد القصاصين ترشيداً
بتوجيهاته الدالة على رشّد العالم الحكيم وفصاحة الفاهم العليم؛ ولقد ذكر ابن
الجوزي في كتابه: القصاص والمذكرين شروطاً عدّة يجب أن يلتزم بها القاصّ، منها:
العلم وإتقان فنونه، ومعرفة الحديث وتمييز صحيحه من سقيم، والعلم بالتاريخ
وسير السلف وأخبار الزهاد، ومعرفة الفقه معرفة جيدة، وكذلك معرفة العربية،
وتقوى الله تعالى مع التخلص من الطمع، والعمل بما يدعو الناس إليه، والزهد في
الدنيا وترك المظاهر الفخمة^(١).

(١) تاريخ القصاص، للدكتور محمد بن لطف الصباغ، (٢٦).

وعودة إلى أولئك الذين أثاروا مسألة القصاص، وضخّموا من أمرها، وصوّروا القصاص كما لو كانوا قد استولوا على الساحة الإسلامية بمساجدها ومدارسها وجامعاتها، وكما لو كانوا قد هيمنوا على مجتمعات الناس، وكما لو طردوا الأئمة إلى زوايا الخذلان ودياجيرها؛ لنرى: هل نجح الفريق الكاذب من القصاص فيما مشّوا فيه، كما أراد مشيرو مسألة القصاص أن يقولوا؟!
 الجواب: لا، بدليل أن الأمة لا تحفظ إلا أسماء الصادقين من تاريخها الطويل، ولو نجح القصاص فعلاً، لحفظت الأمة، عامّيها وعالمها، أسماء القصاصين، ولكن الأمة لا تحفظ الكذب ولا الكذابين!

إن كل عوام الأمة يعرفون أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد ابن حنبل، رضي الله عنهم؛ وكثير من عوامّ الأمة يعرفون ابن كثير والغزالي والنووي، وجميع طلبة العلم في الأمة يعرفون أبا يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وابن تيمية والغزالي وابن خلدون وابن كثير والسرخسي والنووي وابن حجر العسقلاني وغيرهم؛ غير أنه لا أحد من الأمة يعرف عقبة بن أبي زينب، ذلك الذي ذكره حسون كقصاص ناجح في منافسته لأهل الحديث؛ فأين القصاصون أصحاب الأثر الكبير جدا، والمنصورون في معركتهم مع المحدثين من ذاكرة الأمة؟ إنهم لو انتصروا فعلاً لوجدوا لهم في ذاكرة الأمة مكانا، فأين المكان؟!
 إن حسون أوهم قارئه أن الجولة كانت للقصاصين، فأين هم وما بثوه من قصص كاذبة، وأين هذه القصة الكاذبة التي رواها عن عقبة بن أبي زينب، هل يعرفها أحد من المسلمين، هل يقول واحد من عوامّ الأمة إن الساعة لن تقوم حتى تُنقل عظام محمد ﷺ إلى بيت المقدس؟ فأين النصر المدّعى المكذوب؟

إن المستشرق اليهودي حسوناً قد أوهم القارئ الكريم أن الأمة وعلماءها وزعماءها قعدوا مستسلمين أمام سورة القصاص، وأمام تمدّهم الطاعني، فلكن الأمة أخذت تندب حظها وتبكي على نفسها، بعد أن وقفت عاجزة أمام هذا

القصص المشوهة لصورتها المشرقة، فيا لها من آلام لم تصادف دواءً، ويا له من دواءٍ لم يُفدَّ شفاءً..!

فهل هذا صحيح؟!

إنني ها هنا ناقل بعض ما كان من علماء الأمة وزعمائها في مواجهة القصص الكاذب، لنرى قدر الاستسلام المهين المدعى الذي يخرج به قارئ كلام المستشرق حسون:

● روى ابن عساكر عن الرشيد أنه جيء بزنديق فأمر بقتله، فقال الزنديق: يا أمير المؤمنين، أين أنت من أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم، أُحرّم فيها الحلال وأحلّ فيها الحرام، ما قال النبي ﷺ منها حرفاً؟ فقال له الرشيد: «أين أنت يا زنديق عن عبد الله بن المبارك وأبي إسحاق افزاري، ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً؟»^(١).

● وقال ابن عديّ في كتابه الكامل في الضعفاء: لَمَّا أُخِذَ عبد الكريم بن أبي العرجاء لتضرب عنقه قال: لقد وضعتُ فيكم أربعة آلاف حديث أُحرّم فيها الحلال وأحلّ فيها الحرام^(٢)، أي أن الأمة لم تستسلم للقصاصين، بل أخذ هؤلاء لتضرب أعناقهم!

● وبعد أن ذكر ابن الجوزي في كتابه الموضوعات أن «معظم البلاء في وضع الأحاديث إنما يجري من القصاص» قال: «وما أكثر ما يعرض عليّ أحاديث فأردّها عليهم ويحقدون عليّ فأرسلُ إليهم أقول لهم: «ما دام هذا الناقد حيا لا يمشي لكم زائف»^(٣)، وهو يقصد نفسه بقوله: هذا الناقد الحي.

(١) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور محمد بن

لطفی الصباغ، (٢١٤).

(٢) المرجع نفسه، (٢١٥).

(٣) المرجع نفسه، (٢٠٦).

● ولمَّا دخل سليمانُ بنُ مهرانَ الأعمشُ البصرةَ نظرَ إلى قاصِّ يقصُّ في المسجد فقال (أي القاصُّ): حدثنا الأعمش عن أبي إسحاق، حدثنا الأعمش عن أبي وائل...، فتوسط الأعمشُ الحلقةَ ورفع يديه وجعل ينتفِ إبْطيه، فقال له القاصُّ: يا شيخ ألا تستحي، نحن في علم وأنت في هذا؟، فقال الأعمش: «الذي أنا فيه خير من الذي أنت فيه»، قال: كيف ذلك؟ قال: «أنا في سُنَّةٍ وأنت في كذب، أنا الأعمش وما حدثتك مما تقول شيئاً»، فلما سمع الناس ذكر الأعمش انفضوا عن القاصِّ واجتمعوا حول الأعمش، وقالوا: حدثنا يا أبا محمد^(١)، فأين النصر المدَّعى لكذبة القصاص؟!

● وذكر الطُّرطوشي^(٢) أن علياً رضي الله عنه أخرج القصاص من المسجد، وقال: «لا يُقَصُّ في مسجدنا».

● وأخرج الرامهُرمُزي في كتابه المحدث الفاصل بين الراوي والواعي^(٣) عن أبي حفص الفلاس قال: كان حمادُ المالكي كذاباً، وسمعتُ عمراً الأنماطيَّ يقول: حدثنا الحسن أن عمر بن الخطاب أتى بسارق فقطع يده، وقال له: ما حملك على هذا؟ قال: القدر، فضربه عمرُ أربعين سوطاً، وقال: «قطعتُ يدك لسرقتك، وضربتُك لفريتك على الله»، قال عمروُ الأنماطيُّ: فقلتُ (أي لحماد المالكي): لو افتري على عمر كم كان يضربه؟ فقال (أي حماد المالكي): ثمانين، قال عمروُ الأنماطي: فقلتُ: يفترى على الله يُضرب أربعين، ويفترى على عمر فيضرب ثمانين؟ والله لا تفارقني حتى

(١) الحوادث والبدع، لأبي بكر محمد بن الوليد الطُّرطوشي، تحقيق علي حسن عبد الحميد الحلبي الأثري، (١١١-١١٢)، وذكر القصة غير تامة السيوطي في تحذير الخواص من أحاديث القصاص بتحقيق الصباغ، (١٩٧-١٩٨).

(٢) في المرجع نفسه، (١١١).

(٣) نقلاً عن: تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور محمد بن لطفى الصباغ، (١٨٧).

أستعدي عليك، فأقرّ (أي حماد المالكي) أنه لم يسمعه من الحسن، وحلف لا يحدث به، فكتبتُ عليه كتابا، وأشهدتُ عليه شهودا.

● وليس الأمر أن القصَّ والتذكير محظوران شرعا، وإنما الأمر أن كثيرا من القصاصين كانوا يكذبون في قصصهم على رسول الله ﷺ، ولو كانوا يصدّقون، لما مُنعوا من القصِّ، قال الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه: «أكذبُ الناسُ القُصاص والسُّؤال، وما أحوجَ الناسِ إلى قاصِّ صدوق، لأنهم يُذكِّرون الموتَ وعذاب القبر»^(١).

٨- بعد كل هذه الأخبار عن القصاصين والموقف منهم، فهل يصح أن يوهم أي إنسان الناسَ أن القُصاص انتصروا في معركتهم على المحدثين كما ادَّعى المستشرق (اليهودي!) حسون؟! اللهم لا!

(١) الحوادث والبدع، لأبي بكر محمد بن الوليد الطُّرطوشي، تحقيق علي حسن عبد الحميد الحلبي

الأثري، (١١٢).

المبحث الرابع: شيخ الإسلام ابن تيمية وبيت المقدس

ومع ذلك ترى حسون يجتزئ كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، ليوهم القارئ أنه كان رافضا للمكانة المقدسة للقدس، بحجة أنه رافض لقصاص القصاصين، فما دام القصاص ذو المصدر اليهودي هو مصدر فضائل بيت المقدس حسب هوى المستشرق حسون، فلا بد إذن من رفض فضائل بيت المقدس ذاتها؛ ولا بد من انتصار كذبة القصاصين على ابن تيمية وعلى علماء الإسلام عموماً، الذين حاول حسون أن يحتزلهم في أهل الحديث؛ هكذا عرض شخص ابن تيمية؛ ثم إن حسون استغل اجتهادات ابن تيمية التي تعمم المفهوم من حديث منع شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، ليخرج بنتيجة مفادها أن ابن تيمية رحمه الله تعالى يرى أنه لا أصل لهذه المكانة المقدسة التي يحتلها بيت المقدس، وهو في ذلك يسحب ما حكم عليه ابن تيمية من تصرفات الناس الخاطئة فيما يتعلق ببيت المقدس بالبدعة التي لا أصل لها فعلاً، يسحبه على مكانة بيت المقدس ذاتها، رغم ما سننقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية مما يدل على خلاف ما ينسبه إليه المستشرق حسون القائل: «ويرى ابن تيمية بحق! أن المكانة المقدسة التي يحتلها بيت المقدس، والعبادات والزيارات والندور وربط الحج بزيارة بيت المقدس (التقديس) والوقوف في عيد الأضحى (التعريف) وغير ذلك، مردّها اعتقادات العامة، وهي تستند إلى أقوال باطلة لا أصل لها باتفاق أهل المعرفة بالحديث»^(١).

إن حسون استغل موقف ابن تيمية من البدع المتعلقة في نفوس بعض الناس ببيت المقدس، ليتخذ من موقفه هذا من البدع دليلاً على إنكار ابن تيمية لمكانة القدس، والسؤال: هل يلزم من رفض البدع المتعلقة بالقدس رفض مكانة القدس ذاتها؟ إن حسون يقصد في نهاية المطاف أن يقول: إن مكانة بيت المقدس عند المسلمين هي من نوع البدع

(١) من تقديم إسحاق حسون، المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس للواسطي، (١٦).

لدى العلماء، وسنرى تمحيص الأمر من خلال ابن تيمية ذاته، لنرى حُسن التوازن عند علماء الإسلام والذي تفتقده اليهودية برُمَّتها.

وسنرى أن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يكن يرى ما نسبته إليه حسون أن المكانة المقدسة التي تحتلها القدس مردُّها إلى عقائد العوام، وأنها باطلة لا أصل لها باتفاق أهل الحديث؛ وإنما الأمر عند ابن تيمية هو كيف نتعامل مع هذه المدينة ذات المكانة العالية في الإسلام، وليس رفضا لمكانة المدينة المقدسة.

وهناك في الوقت ذاته بعض المسائل الخلافية بين ابن تيمية ومعه فريق من علماء الإسلام، وبين كثير من علماء المسلمين فيما يتعلق بشد الرحال إلى ما سوى الأقصى والمسجد الحرام والنبوي، فابن تيمية يرى أنه لا يجوز شد الرحال إلا إلى هذه المساجد الثلاث، ويرى معظم العلماء سوى ابن تيمية ومن معه، أن شد الرحال ممكن إلى ما سوى هذه المساجد من قبور الأنبياء والبقيع المباركة، فلم يكن محور الخلاف هو مكانة المدينة المقدسة، وإنما هو حول الاقتصار في شد الرحال إلى المدن الثلاث أو إلى غيرها من البقيع المباركة، وعليه، فابن تيمية يُقصر مساحة هذا الشرف في المدن الثلاث، التي منها بيت المقدس، وأما معظم العلماء، فيرون أن هذا الشرف يصيب أيضا بقعا كريمة أخرى، وهذا يدل على أن ابن تيمية يعظّم بيت المقدس، إذ يجعلها حسب اجتهاده أحد ثلاثة أمكنة لا يجوز شدُّ الرحال شرعا إلا إليها، وذلك انطلاقاً منه مما أدى إليه اجتهاده في شرح حديث شدِّ الرحال.

فمع كثير من العوام كانت المشكلة عند شيخ الإسلام في كيفية التعامل مع قدسية القدس ومكانتها الرفيعة، ومع معظم العلماء كانت المشكلة في اقتصار ابن تيمية على استحقاق المساجد الثلاثة لشرف شد الرحال إليها دون غيرها من بقاع الشرف عند المسلمين، وعليه، فلم يكن موقف ابن تيمية الراض للبدع المنتشرة بين بعض جهلة المسلمين، تلك البدع المتعلقة بالقدس والأقصى، لم يكن موقف ابن تيمية

الرافض لها قائما على أساس التهوين من مكانة بيت المقدس، وإنما كان قائما على أساس أن الشرع يرفض العبادة التي يُدخلها الناس فيه دون أن يكون لها أصل فيه.

إننا سنرجع الآن إلى الكتاب نفسه الذي نقل عنه حسون رأي ابن تيمية، وسننقل بعض ما له صلة بالموضوع من مجموع فتاوى ابن تيمية..

(١) فابن تيمية رحمه الله تعالى يذكر فلسطين بألقابها القرآنية، فهو يقول عنها بالجمل:
«وكذلك الأرض المقدسة كان فيه الجبارون الذين ذكرهم الله تعالى..»^(١)، وبعد أن نقل حديث شد الرحال إلى المساجد الثلاثة، قال الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أجمع أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق، وتفوق علماء المسلمين على استحباب السفر إلى بيت المقدس للعبادة المشروعة فيه، كالصلاة والدعاء والذكر وقراءة القرآن والاعتكاف»^(٢)، ويقول: «والمسجد الأقصى أفضل المساجد بعد المسجد النبوي»^(٣)، وهكذا تبدو المكانة التي يحتلها المسجد الأقصى واضحة للعيان عند ابن تيمية، بخلاف ما حاول حسون أن يوهم القارئ.

(٢) وينقل ابن تيمية الخلاف بين العلماء فيمن نذر أن يأتي المسجد الأقصى للصلاة والاعتكاف فيه، ويؤكد قول الجمهور على وجوب الوفاء بهذا النذر، ويصحح قولهم، ويرفض قول الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه الذي لم يجرم مثل هذا النذر، وإنما لم يوجب الوفاء به، لأصل تأسس عند أبي حنيفة أن ما لا واجب من

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى بها وخرّج أحاديثها عامر الجزار وأنور الباز، (٨٢/٢٧).

(٢) رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية: في زيارة بيت المقدس، المطبوعة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، (٥٧/٢).

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى بها وخرّج أحاديثها عامر الجزار وأنور الباز، (١٣٩/٢٧).

جنسه بالشرع فليس بواجب بالنذر، وهذا الاجتهاد من أبي حنيفة ليس خاصا بالمسجد الأقصى، بل هو عام في كل المساجد، حتى المسجد النبوي، قال ابن تيمية: «وهكذا النزاع لو نذر السفر إلى مسجد النبي ﷺ مع أنه أفضل من المسجد الأقصى»^(١).

(٣) وعند ابن تيمية أنه لا يجوز شد الرحال إلى بقعة أخرى غير المساجد الثلاثة، ليس تهوينا منه لمكانتها، إنما اتباعا منه لما وصل إليه اجتهاده من كيفية التعامل مع الأماكن ذات المقام في الإسلام، فيؤكد ابن تيمية مثلا أن نذر السفر لزيارة مثل قبر الخليل عليه السلام أو جبل حراء أو غار ثور أو الطور أو غيرها من الأماكن ذات المقام عند أهل الإسلام، يؤكد أن نذر السفر إلى هذه الأماكن منهي عنه، لمخالفتها في اجتهاده حديث رسول الله ﷺ في منع شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة^(٢)؛ بل أكثر من ذلك، فإن ابن تيمية يخوض مع علماء عصره صراعا عنيفا، حين يرفض شد الرحال لزيارة قبر الرسول ﷺ نفسه، مع إجلاله للقبر وصاحبه عليه الصلاة والسلام، فهو يقول في فتاواه: «.. وذكروا زيارة قبره المكرّم، وما علمت أحدا من المسلمين قال: إنه من لم يقصد إلا زيارة القبر يكون سفره مستحبا»^(٣)، فها هو يصفه بالمكرّم، ويمنع من قصد زيارته فحسب؛ والقضية ليست رفضه تكريم القبر الشريف، وإنما كانت في كيفية التعامل مع هذا القبر المكرّم على صاحبه الصلاة والسلام؛ ويقول ابن تيمية أيضا: «وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره^(٤) صلوات الله وسلامه عليه، أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين، لم

(١) رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية: في زيارة بيت المقدس، المطبوعة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، (٥٧/٢).

(٢) المرجع نفسه، (٥٩/٢).

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى بها وخرّج أحاديثها عامر الجزائر وأنور الباز، (١٨٤/٢٧).

(٤) لا بد أن نبين أن الحق في هذه المسألة مع جمهور العلماء الذي يرون جواز شد الرحال إلى قبره

يكن عليه أن يوفي بنذره، بل يُنهى عن ذلك^(١)، ونقل عن مالك بن أنس رضي الله عنه قوله عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي ﷺ: «إن كان أراد القبر فلا يأتسه، وإن أراد المسجد فليأته»^(٢)، وفيما يتعلق بفضل بيت المقدس، فهو يرفض أن يعود سببه إلى وجود قبور الأنبياء فيه، يقول ابن تيمية: «وببيت المقدس من قبور الأنبياء ما لا يحصيه إلا الله، فهل يقول عاقل: إن فضيلته لأجل القبور»^(٣).

٤) ويؤكد أن العبادات المشروعة في المسجد الأقصى هي من جنس العبادات المشروعة في المساجد كلها، إلا المسجد الحرام، فهو وحده الذي استحوذ على عبادات الطواف والسعي وتقبيل الحجر الأسود.. إلخ، إذ هذه الأعمال لا تُشرع لغير مكائها ولا في غير سياقها المعروفين، ويقول: «فلا يجوز لأحد أن يطوف بحجرة النبي ﷺ ولا بغير ذلك من مقابر الأنبياء والصالحين، ولا بصخرة بيت المقدس، ولا بغير هؤلاء، كالقبة التي فوق جبل عرفات، وأمثالها، بل ليس في الأرض مكان يطاف به كما يطاف بالكعبة، ومن اعتقد أن الطواف بغيرها مشروع، فهو شر ممن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة...، فمن اتخذ الصخرة اليوم قبلة يصلي إليها، فهو كافر مرتد، يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، مع أنها كانت قبلة، لكن نُسخ ذلك، فكيف بمن يتخذها مكانا يُطاف به كما يطاف بالكعبة، وكذلك من

صلى الله عليه وسلم، وقد فصل في المسألة كثيرا الإمام تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى في كتابه: شفاء السقام في زيارة خير الأنام، وكذلك فصل فيها تخريجا لأحاديثها بإبداع وتوسُّع واستقصاء الشيخ محمود سعيد ممدوح في كتابه الفذ: رفع المنارة في تخريج أحاديث التوسل والزيارة.

هذا، وكنت قد كتبتُ مسألة أردت أن أجعلها في بحثي هذا أبين فيها صحة ما ذهب إليه السبكي رحمه الله وعلماء الأمة ممن سبقه ولحق به في مسألة شد الرحل إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، غير أنني حذفتها، لعدم مناسبتها لموضوع البحث أولا، وخشية التطويل ثانيا.

(١) المرجع نفسه، (١/١٧٠).

(٢) المرجع نفسه، (١/٢١٣).

(٣) المرجع نفسه، (٢٧/١٣٩).

يسوق إليها غنما أو بقرا ليدبحها هناك، ويعتقد أن الأضحية فيها أفضل،...، أو أن يسافر إليها ليُعرّف بها عشية عرفة؛ فهذه الأمور التي يشبه بها بيت المقدس في الوقوف والطواف والذبح والحلق، من البدع والضلالات، ومن فعل شيئا من ذلك معتقدا أن هذا قرية إلى الله، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، كما لو صلى إلى الصخرة معتقدا أن استقبالها في الصلاة قرية كاستقبال الكعبة، ولهذا بنى عمر بن الخطاب مصلى المسلمين في مقدم المسجد الأقصى^(١)، إن ابن تيمية هنا لم يرفض مكانة بيت المقدس، وإنما رفض هذه الأشكال من التعامل معها، وهو في كلامه هذا يحافظ على سلامة الإسلام من البدع، التي أسهمت كما لم يسهم غيرها في تشويه صورة الإسلام الصافية.

(٥) ومن هنا نستطيع أن نفهم قول الإمام ابن تيمية: «وأما أهل العلم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فلم يكونوا يعظمون الصخرة، فإنها قبله منسوخة،...، وكذلك الصخرة إنما يعظمها اليهود وبعض النصارى»^(٢)، وهذا منه ليس انتقاصا من مقام الصخرة، وإنما هو تأصيل سليم لرفض تخصيص الصخرة بشيء دون المسجد الأقصى، فهي جزء من الأقصى، فنالت بناءً على هذه الجزئية نفس المكانة التي نالها المسجد الأقصى، أما تخصيصها بفضل خاص فهو مرفوض عند الإمام ابن تيمية؛ وسيأتي معنا ترجيح أن الصخرة لها مكانة تخصها فوق كونها جزءاً من المسجد الأقصى، ولكن مع هذه المكانة التي نقرُّها لها، فليس ثمة عبادة تخصها دون المسجد، ومن هنا نرفع صوتنا مع صوت ابن تيمية إذ ينادي إلى عدم استلام وتقبيل الصخرة المشرفة بقوله: «فصخرة بيت المقدس لا يُسن استلامها، ولا تقبيلها باتفاق المسلمين».

(١) رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية: في زيارة بيت المقدس، المطبوعة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى

لابن تيمية، (٢/٦٠-٦١).

(٢) المرجع نفسه، (٢/٦٢).

هذا، وعند الإمام ابن تيمية أنه ليس للصلاة عند الصخرة فضل خاص، وهو يواصل قوله السابق: «بل ليس للصلاة عندها والدعاء خصوصية على سائر بقاع المسجد، والصلاة والدعاء في قبلة المسجد الذي بناه عمر أفضل من الصلاة والدعاء عندها»^(١)، ولربما يرى الإمام عدم صحة الحديث الذي ينص على أن الصخرة من الجنة، إذ إنني لم أطلع على رأيه فيه، غير أن تلميذه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يقول^(٢): «وكل حديث في الصخرة فهو كذب مفترى»، ويغلب على الإمامين الجليلين التوافق في الاجتهادات، مما يحتمل معه أن يكون ابن تيمية يرى الرأي نفسه في هذا الحديث؛ وستأتي مناقشتنا لكلام ابن القيم رحمه الله أثناء نقلنا أقوال الأئمة في تصحيح الحديث الذي ينص على أن الصخرة من الجنة، في مبحث خاص بفضل الصخرة المشرفة، إن شاء الله تعالى.

(٦) وكذلك نستطيع أن نفهم قول ابن تيمية: «وأما زيارة بيت المقدس فمشروعة في جميع الأوقات، ولكن لا ينبغي أن يولى في الأوقات التي تقصدها الضلال، مثل وقت عيد النحر، فإن كثيرا من الضلال يسافرون إليها ليقفوا هناك، والسفر لأجل التعريف به معتقدا أن هذا قرية، محرّم بلا ريب، وينبغي ألا يتشبه بهم، ولا يكثر سوادهم، وليس السفر إليه مع الحج قرية، وقول القائل: قدّس الله حجّك قول باطل لا أصل له»^(٣)؛ إن وجود أهل الاتباع مع أهل الابتداع في مكان واحد وزمان واحد، يستند عليه أهل البدعة في نشر بدعتهم، وعليه فابن تيمية يمنع المسلم المتبع من تكثير سوادهم في المكان والزمان نفسه، والأزمة كثيرة والأمكنة كثيرة، وليختار المسلم منها أصفهاها.

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى بها وخرّج أحاديثها عامر الجزار وأنور الباز،

(٧٨/٢٧).

(٢) المنار المنيف، للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، (٧٨).

(٣) رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية: في زيارة بيت المقدس، المطبوعة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى

لابن تيمية، (٦٤/٢).

(٧) ويقول ابن تيمية: «والمقصود هنا أن الصحابة لم يكونوا يستحبون السفر لشيء من زيارات البقاع، لا آثار الأنبياء ولا قبورهم ولا مساجدهم؛ إلا المساجد الثلاثة، بل إذا فعل بعض الناس شيئاً من ذلك أنكر عليه غيره، كما أنكروا على من زار الطور الذي كلم الله عليه موسى، حتى إن غار حراء الذي كان النبي ﷺ يتعبد فيه قبل المبعث، لم يزره هو بعد المبعث ولا أحد من أصحابه، وكذا الغار المذكور في القرآن»^(١).

(٨) وحول مكانة التربة التي دُفن فيها رسول الله ﷺ قال ابن تيمية: «فلا أعلم أحداً من الناس قال إنها أفضل من المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو المسجد الأقصى، إلا القاضي عياض، فذكر ذلك إجماعاً، وهو قول لم يسبقه إليه أحد فيما علمناه، ولا حجة عليه، بل بدن النبي ﷺ أفضل من المساجد»^(٢)، وهذا من ابن تيمية نص في أن المسجد الأقصى أفضل من تربة قبر الرسول ﷺ، وفي قوله نظر عند بعض العلماء؛ وقال في الموضوع ذاته: «والنصوص الدالة على تفضيل المساجد مطلقة، لم يُستثن منها قبور الأنبياء ولا قبور الصالحين»^(٣).

(٩) ويقول: «ودلت الدلائل على أن ملك النبوة بالشام، والحشر إليها، فإلى بيت المقدس وما حوله يعود الخلق والأمر، وهناك يُحشر الخلق، والإسلام في آخر الزمان يكون أظهر بالشام، وكما أن مكة أفضل من بيت المقدس، فأول الأمة خير من آخرها، وكما أنه في آخر الزمان يعود الأمر إلى الشام، كما أسري

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى بها وخرّج أحاديثها عامر الجزار وأنور الباز،

(٢٣/٢٧).

(٢) المرجع نفسه، (٢٥/٢٧).

(٣) المرجع نفسه، (٢٣/٢٧).

بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فخير أهل الأرض في آخر الزمان ألزمهم مهاجر إبراهيم عليه السلام وهو بالشام»^(١).

ولقد أكثرنا النقل عن ابن تيمية هنا لعدة أمور نراها بالغة الأهمية:

● لقد استند المستشرق حسون على ما نسبته إلى ابن تيمية، لأجل أن يصل بالقارئ إلى أن ابن تيمية لا يرى لبيت المقدس مكانة في الإسلام، فلقد قرأ القارئ الكريم ما نقلناه عن حسون من نسبته لابن تيمية أن المكانة المقدسة التي تحتلها بيت المقدس مردّها إلى اعتقادات العامة،^(٢) وهي تستند إلى أقوال باطلة لا أصل لها باتفاق أهل المعرفة بالحديث^(٣)، هكذا صورّ المستشرق حسون رؤية ابن تيمية؛ ولقد رأى القارئ الكريم موقف ابن تيمية، فهو لم يُنكر أبداً مقام بيت المقدس، وإنما أنكر ما أدخله العوام من عبادات لم يُنقل مثلها في حق بيت المقدس، كالتعريف يوم عرفة لغير الحاج، وتقديس الحجة للحاج، وتقويل الصخرة.. إلخ، ولقد ذكرنا كلاماً كثيراً لابن تيمية يتضمن استحباب زيارة القدس، ويتضمن إقراراً بمكانتها في الإسلام، فهي عنده مثلاً أرض المحشر، وأرض الأنبياء، إذ فيها ما لا يحصى من قبورهم، وهي عنده الأرض المباركة بنص القرآن الكريم.. إلخ، ولكن إعظام هذه الأرض والإقرار بفضلها ومكانتها وقديسيتها شيء، وممارسة أشكال من العبادة مما لم يشرعه الله تعالى شيء آخر، وليس المسلم يهودياً أو نصرانياً حتى يبتدع عبادات لا يعرفها دينه.

● إن المستشرق حسون يعرض تشويبه لرؤية ابن تيمية، ليصور للقارئ أن هذا الموقف هو ملخص موقف المحدثين بإجماعهم، وعليه، فرؤيته تمثل رؤيتهم بالإجمال، فلا بد إذن من عرض حقيقة موقف ابن تيمية ليتبين الصدق من الكذب.

(١) المرجع نفسه، (٢٨/٢٧)، ويُنظر نفسه، (٢٦٦/٢٧-٢٦٧).

(٢) تقديم إسحاق حسون، المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس للواسطي، (١٦).

● الصراع الذي يظهر من محاطبات ابن تيمية لمخالفيه، لم يكن صراعا مع القُصّاص الذين انتقلت عبرهم مكانة بيت المقدس إلى الإسلام، على زعم حسون، وإنما كان صراع ابن تيمية هنا مع جماعات من الأئمة والفقهاء، رأوا خلاف رأيه في مسألة زيارة قبر الرسول ﷺ وفي زيارة سواه من الأماكن التي لم يأتِ الشرع حسب اجتهاد ابن تيمية بجوازه، فخصومه ليسوا القُصّاص، بل أئمة وعلماء كبار لهم وزنهم الكبير في دين المسلمين، وسواء انتصر في هذا الصراع ابن تيمية أو خصومه، فالمنتصر في كلا الحالين إمام فقيه، وليس قُصّاصا، كما زعم حسون.

إذن، فهل رأى القارئ كيف تُدار الأمور في عقول المستشرقين؟

إن فيما أوضحناه كفاية!

الفصل الرابع: الأمة تيار واحد في تعظيم مقام القدس

إن مقام بيت المقدس مكان اتفاق بين المسلمين، فلا أحد فيهم يرى سوى هذا المقام العظيم لبيت المقدس، فبيت المقدس هو المبارك المقدس في نفوس المسلمين منذ الجيل الأول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

غير أن ثمة دعاوى تنطلق من حناجر تعودت أن تقذف ما في نفوس أصحابها من أوهام فاسدة، قذفت أوهاما لها صراخ وطنين، لكنها خالية من الحق المبين، مفادها أن ثمة تيارا كان يرفض مقام بيت المقدس والمسجد الأقصى في أول الإسلام، فهل هذا صحيح؟ إن واجب هذا الفصل هو استعراض رؤية أصحاب هذه الدعوى، ثم الرد عليها، كل ذلك في مبحثين اثنين:

المبحث الأول: دعوى وجود تيار رافض لمكانة القدس.

المبحث الثاني: الرد على هذه الدعوى.

فيلى التفصيل..

المبحث الأول: دعوى وجود تيار رافض لمكانة القدس

صفا الجو لمستشرقين يهود، وانثقت أمامهم ألوان الأمل، وظنوا أنهم على شيء، فزجت بهم أمانهم المعسولة في بحر من المباحث ما كانوا ولن يكونوا أهلا لها، إذ لم يملكوا وسائلها المنهجية، ولا روح الباحث المنصف فيها؛ إن بحثهم هذا الذي آواهم إلى سراب، قد بالغ في دفع الظنون في نفوسهم، حتى حسبوا أنهم بلغوا ما يريدون، وأين هم مما يبتغون، إذا كانت الحقيقة في جهة، وفي جهة أخرى هم يعيشون؟!

إنهم اقتنصوا من المكتبة الإسلامية بعض ما ظنوه حجة لهم، فقاموا يوصلون الأصول، ويُعدّون القواعد، ويستخرجون النتائج، ويقولون للقاصي والداني: إن القدس ليس لها من مكانة إلا في دين اليهود، أما المسلمون، فلقد قبضنا على حجة تزول دونها جبال الدنيا، تكشف ما هنالك من مهانة تُكئنها نفوسهم تجاه القدس..

عزيري القارئ: ما كل ذي عينين يُحسن النظر، ولا كل ذي لسانٍ يحسن الكلام، فقد يرى الرجل جميلا بهما تدور في حُجرتي باصرته عينان جميلتان، فإذا ابتليته كشفت عن عمى لا شفاء منه؛ وقد يرى الرجل ذا لسان قاذفٍ، فإذا اخترته علمت أن طول لسانه سوءةٌ يستحيي العقلاء منها، فإذا محصته كشفت عن فهاهة وبكمٍ، وإن وجدت له طول لغوٍ في الباطل!

لن أطيل عليك..

إن المستشرقين اليهوديين قسطن وحسون قد أوقعا نفسيهما فيما يهينهما، حينما انتقيا أحاديث وآثارا مروية عن بعض الصحابة والتابعين، أودت بهما إلى حسابان أو ادعاء أن القدس فاقدة المكانة في الإسلام..

وسنذكر في البداية نصا لإسحاق حسون المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس لأبي بكر محمد بن أحمد الواسطي، فقد قال في تقديمه للكتاب: «إلا أن الأرض

المقدّسة بصورة عامة، وبيت المقدس بصورة خاصة، لم يحتل في الإسلام قط مكانة مقدسة تفوق مكانة الحجاز ومكة، حتى ولا مكانة تعادل أو توازي مكانة مكة^(١)، كذا قال، وهو بمجمله صحيح، إلا أن ذكره لهذا الصحيح يدخل في باب: كلمة حق أريد بها باطل، ذلك أنه لم يقصد بكلامه هذا أن يبين أن بيت المقدس لها مكانة عظيمة في الإسلام، غير أنها مسبوقة بمكانة مكة والمدينة، أي لم يُرد أن أفضل المدائن في الإسلام هي مكة ثم المدينة ثم بيت المقدس على الترتيب، وإنما أراد أن يصل إلى القول إن بيت المقدس لم ينل مكانة تليق به في الإسلام، وأن مكانته المتعارف عليها ما نشأت عند المسلمين إلا متأخرة، في القرن الثاني الهجري، يقول حسون: «ولا أدل على ذلك من الأحاديث العديدة التي انتشرت منذ النصف الأول للقرن الثاني الهجري، والتي أظهرت اتجاه علماء المسلمين نحو عدم إعطاء بيت المقدس مكانة جليلة تساوي مكانة مكة أو المدينة»^(١).

وينقل حسون عن قسطنطين: «ومن أبرز الأحاديث التي كانت تستهدف إبراز هذا الاتجاه عن طريق رفع شأن مساجد غير مسجد بيت المقدس، وجعل زيارة تلك المساجد للصلاة فيها ذات قيمة تفوق قيمة زيارة بيت المقدس، الحديث الذي أورده الفاكهي في كتابه تاريخ مكة»، ثم ذكر الحديث الذي نقله عن عائشة بنت سعد، وهو الحديث الأول الذي ردّدنا على استناده عليه في ادّعائه التقليل من مكانة بيت المقدس في الإسلام، وسيأتي بعد قليل في المبحث التالي، إن شاء الله تعالى.

(١) إسحاق حسون، المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس، تقديمه للكتاب، (١١)، وهو قريب من كلام المستشرق اليهودي عوفر ليفنين، فقد ذكر في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن المرحّج عن فضائل القدس أن الأحاديث المتعلقة ببيت المقدس انتشرت بشكل واسع في العصر الأموي، يُنظر: أدب فضائل المدن في دراسات المستشرقين المعاصرين، وهو بحث كتبه: عبد اللطيف زكي أبو هاشم، ونشره موقع: باحث للدراسات WWW.bahethcenter.org على الإنترنت.

ثم أخذ إسحاق حسون ينقل عن البروفيسور م. ي. قسطنطين^(١)، من مقال نشره قسطنطين هذا عام ١٩٦٩م بعنوان: **You Shall Only Set Out For Three Mosques**، وهو يقول في مقاله هذا: «يبدو أنه كان هناك إجماع لدى المسلمين منذ مطلع القرن الثاني للهجرة حول حرمة المساجد الثلاثة، المسجد الحرام ومسجد النبي (ﷺ) والمسجد الأقصى، وبالتالي حول حرمة المدن الثلاث (مكة والمدينة وبيت المقدس) وقد انعكس هذا فيما بعد في وفرة الأحاديث الخاصة بهذه المدن»، إن كلامه هنا يعني أن الإجماع على حرمة ومكانة هذه المدن، هو الذي جعل الأحاديث التي تُروى في الموضوع كثيرة، وهذا عكس الحقيقة تماما، فالأحاديث والآيات عندنا، هي التي توجد الإجماع التالي لورودها، وليس الإجماع أو واقع الأمة هو الذي يصنعها.

وإن كلام قسطنطين هذا يحمل في طياته أن الأحاديث في فضائل بيت المقدس وُجِدَت في القرن الثاني بعد أن لم تكن قبل ذلك موجودة، أي أنها أحاديث موضوعة، وهذا باطل تكفّل بيانه الفصل الأول من الباب الثاني، والذي عقدها بعنوان: تأسيس نصوص الوحي لمكانة القدس عند المسلمين، فليُرجع إليه، وسيأتي معنا في بحث حديث شد الرحال ما يدل على أنه مشتهر متعامل به في النصف الأول من القرن الأول للهجرة، وسيروى القارئ كثيرا من الأدلة على بطلان قوله مبثوثة هنا وهناك في بحثنا هذا.

يتابع قسطنطين قوله: «ومع ذلك، ظهر وجود اتجاهات قديمة استهدفت تعظيم حرمة مكة، أو حرمة مكة والمدينة، مع التقليل من حرمة بيت المقدس، وقد انعكست هذه الاتجاهات في عدد من الأحاديث القديمة التي حُفظ قسم منها في مصنفات الحديث التي تعتبر صحيحة؛ وسنسردها الآن هذه الأحاديث التي ما من شك في أنها كانت سابقة

(١) البروفيسور مثير يعقوب قسطنطين هو أحد أولئك المستشرقين اليهود الذين نَحَوْا بالاستشراق منحى جديدا، قوامه: دراسة فضائل المدن عامة، وفضائل بيت المقدس خاصة، ويعتبر من الشخصيات اليهودية الاستشراقية العالمية المتخصصة بالحديث النبوي الشريف؛ يُنظر: أدب فضائل المدن في دراسات المستشرقين المعاصرين، وهو بحث كتبه: عبد اللطيف زكي أبو هاشم، ونشره موقع: باحث للدراسات على الإنترنت. www.bahethcenter.org

للإجماع الخاص بحديث المساجد الثلاثة، (لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى)“.

وسيرى القارئ الكريم بعد قليل أننا ناقشنا هذه الروايات من مصادرها التي نسبها إليها البروفيسور قسطنطين، والذي اعتمده إسحاق حسون، المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس للواسطي، والذي ساق بعد ما نقل عن قسطنطين ما يجب الرد عليه فيه، وأود أن يلاحظ القارئ الكريم أنني أشرت إلى جانب كل رواية من الروايات التالية مصدرها حسب كلام قسطنطين.

المبحث الثاني: الردّ التفصيلي على هذه الدعوى

سيرى القارئ أثناء تناوّلنا للردّ التفصيلي على هذه الدعوى، أن ثمة مغالطات في الأمر، كبرها وتمّها حسونٌ وقسطنٌ ومن سار على دربهما، أو من سارا هما على دربهم!

هذه المغالطات التي تستهدف استغفال القارئ، تتمثل في ثلاثة أمور:

الأول: في إيهامهم القارئ أن كل ما نقلوه صحيح النسبة إلى من نسبوه إليه.

الثاني: وفي تفسيرهم ما صحّت نسبته على وجه يخالف الحق.

الثالث: وفي دعواهم أن ثمة تياراً تشكّل مما انبثق عن تصحيحهم ما لم تصح نسبته،

أو عن تفسيرهم ما صح على وجه لا يصح.

هذا فوق ما هنالك من توجّه واضح لدى أصحاب هذه الدعوى، يفترس غير

العارف بطبيعة الرواية وتاريخها في الإسلام، ليقع في نفسه أن القضية هي فعلاً كما يريد

هؤلاء المستشرقون أن تكون!

ونقصد بطبيعة الرواية الحديثية وتاريخها في الإسلام، ما تعارف العلماء المتخصصون

عليه، من أن الحديث في الأجيال الثلاثة الأولى من الصحابة والتابعين، ربما لا يكون قد

وصل إلى الراوي الصحابي أو التابعي، رغم غزارة علمه وكثرة روايته للحديث، ورغم

وصول هذا الحديث إلى غيره من الرواة وأهل العلم من الصحابة والتابعين، ولكن الأمر

يتقلص جداً في العصور الآتية، من مثل عصر الإمام أحمد والبخاري إلى أن نصل إلى مثل

عصر ابن حجر والسيوطي.

والسبب في ذلك أن الرسول ﷺ لم يكن يجمع جميع الصحابة لتلاوة حديث من

أحاديثه عليهم، لأن دواعي جمعهم غير واقعة؛ بل كان يقول ما يقول لمن حضره منهم،

وسائرهم في جهادهم وعملهم، فإذا دعت مناسبة ما إلى أن يذكر صحابي جليل ما سمعه

من الرسول، قام فذكر ما سمع أيضاً أمام من حضر من الصحابة والتابعين، حتى إذا جاء

جامعو السنة، ابتداء من الجمع الرسمي لها بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ابتدأت تتقلص هذه الفجوة التي تمثلت في عدم وصول بعض الأحاديث إلى بعض الصحابة والتابعين، وابتدأت السنة تنتشر كعلم له رجاله المتخصصون في هذا الباب، وهم أولئك الذين دفعتهم دولتهم على جمع السنة من حاملها المتفرقين في البلدان.

ومع ذلك، فقد يأتي عالم من العلماء في أجيال أخرى، يُفتي فتوى ما في أمر ما، فيتبين له فيما بعد أن ثمة خللا في فتواه، سببه أنه يخالف حديثا ما في المسألة، لم يكن قد اطلع عليه رغم غزارة علمه، فإذا لفت نظره عارف بهذا الحديث، رجع إليه وغير فتواه، وليس الأمر أن هذا العالم يؤسس لتيار يقوم على مخالفة أصل من أصول الشرع، كما يجب أمثال هؤلاء المستشرقين أن يُقرروا في ديننا!

ويجد القارئ لكتاب: رفع الملام عن أئمة الإسلام، لشيخ الإسلام ابن تيمية أمثلة عديدة لهذا الأمر.

فليس الأمر أن ثمة اختلافا في مكانة بيت المقدس، أو تهوينا لمقامها، بل كل ما هنالك أن حديثا ما من الأحاديث التي تتضمن بيانا لمكانتها لم يصل إلى صحابي ما، فقال ما قد يحسبه الرائي إنكارا للمكانة أو تهوينا لها، ليستغل عور البحث العلمي والتاريخي ذلك في إيهام قارئهم بأن ثمة تيارا يهون من مكانة بيت المقدس!

وهب أن أفرادا من الصحابة لم يروا لبيت المقدس تلك المكانة المعروفة، فهل هؤلاء الأفراد يشكّلون تيارا؟ لو كان ذلك كذلك لرأيت لهذا التيار أنصارا امتدّ وجودهم إلى قرون تالية، فأين هم ممثلو هذا التيار المدّعى؟!

إن كل ما ثبت في أجيال المسلمين هو أن بيت المقدس ومسجدها الأقصى يحتلان مكانا مرموقا كبيرا لا يسع أحدا جهله، فضلا عن إنكاره!

إن هؤلاء المستشرقين قد استغفلوا القارئ غير العارف بهذه الحقيقة، وقاموا ينسجون الأوهام، ويحسبون أنهم على شيء؛ وسيأتي في سياق ردِّنا التفصيلي هذا ما يؤكد اعتماد هؤلاء المستشرقين لهذه المغالطات والإيهامات.

عزيزي القارئ: كل ما تراه أمامك الآن من روايات عن بعض الصحابة، إما أن يكون ضعيفاً في نسبته إلى المنقولة عنه، وإما أنه لا يحمل المعنى الذي قصده هذان المستشرقان، قسطنطين وحسون، أو يكون رأياً لصحابي لم تبلغه أحاديث فضائل القدس.

وستتناول الآن الأحاديث التي حاول هذان المستشرقان أن يبنيا عليهما ما بنيا من الإيهام، وسنبحث فيها لتتعرف على ما هنالك من مخبوء؛ وهذه هي الأحاديث:

(١) عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: كان سعد رضي الله عنه يقول: «لو كنت من أهل مكة ما أخطأني جمعة لا أصلي فيه، يعني مسجد الخيف، ولو يعلم الناس ما فيه لضربوا إليه أكباد الإبل، ولأن أصلي في مسجد الخيف ركعتين، أحبُّ إلي من أن آتي بيت المقدس مرتين فأصلي فيه»^(١).

(١) إسحاق حسون، المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس، تقديمه للكتاب، (١١-١٢).
ومسجد الخيف مسجد عظيم في منى بمكة المكرمة، ومما ينبغي لفت النظر إليه أنه ورد في إحدى روايات حديث شد الرحال ذكر مسجد الخيف بدل المسجد الأقصى، ولكنها رواية ضعيفة منكورة، كما ذكر ذلك الأستاذ محمود سعيد ممدوح، في كتابه (رفع المنارة، ٣٦٧)، وذكر فيه أنه رواها الطبراني في الأوسط من طريق خثيم بن مروان عن أبي هريرة، وذكر عن البخاري في التاريخ الكبير أنه لا يُعرف لخثيم هذا سماعٌ من أبي هريرة، وهو، أي خثيم، ضعيف ذكره ابن الجارود في الضعفاء، وقال العقيلي: لا يُتابع على حديثه.

وعن فضل مسجد الخيف ذكر الإمام الحافظ أبو الطيب الفاسي المكي أن الإمام الجندي روى بإسناده عن ابن جريج عن عطاء أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: «لو كنتُ امرأةً من أهل مكة ما أتى علي سبت حتى آتي مسجد الخيف، فأصلي فيه ركعتين»، يُنظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، لأبي الطيب الفاسي، (١/٤٢٣-٤٢٤)، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد، (٣/٢٩٧) أن البزار روى بسند رجاله ثقات عن ابن عمر أنه قال: «في مسجد الخيف قبر سبعون نبياً».

وقد ذكر حسون في هامش الصفحة التي ذكر فيها هذا الحديث ما يشير إلى أن مصدره هو كتاب تاريخ مكة للفاكهي، مخطوطة ليدن.

لكن، روى عمر بن شبة في كتابه تاريخ المدينة المنورة قال الحافظ ابن حجر^(١): بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إلي من أن آتي بيت المقدس مرتين، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل»، وفي مستدرك الحاكم وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي^(٢) رحمه الله عن عامر وعائشة ابني سعد بن أبي وقاص، عن أبيهما سعد رضي الله عنه قال: «لأن أصلي في مسجد قباء أحب إلي من أن أصلي في بيت المقدس».

أفلا يعني هذا الذي نقله عن ابن حجر والحاكم أن ثمة اضطرابا في لفظ هذا الأثر عن سعد، فمنهم من روى عنه: لأن أصلي في قباء، ومنهم من روى: لأن أصلي في مسجد الخيف؟

لكن سواء صح اللفظ الذي يذكر مسجد الخيف أو اللفظ الذي يذكر مسجد قباء، ففي الأثر تفضيل واضح لأحد هذين المسجدين أو لكليهما على بيت المقدس، فما معنى هذا؟

نقول أولا: هذا أثرٌ عن صحابي، وليس حديثا نبويا، أي أن الحجة لا تقوم به إلا في حالة عدم مخالفته للنصوص القرآنية والنبوية، وعليه، فمهما قاله من الصحابة والتابعين من عدد، فإن الحجة الشرعية عندنا في القرآن والسنة، وهذا الأثر لا يستطيع أن يؤسس لمعنى من المعاني، إذا كان هذا المعنى مخالفا للكتاب والسنة، وسبب مخالفته ما سيأتي مرارا أن الصحابي قد لا يكون سمع بالحديث الذي يؤصل لمعنى يتنافى مع ما يُروى عنه، إذ لم يكن ﷺ يجمع صحابته حين إرادته الكلام، بل كان يتكلم مع من حضر مجلسه.

(١) فتح الباري، للحافظ ابن حجر، (٨٣/٣).

(٢) المستدرك للحاكم النيسابوري، (١٢/٣).

وعليه، فربما قال سعد رضي الله عنه ما قال، وهو لم يسمع بالحديث الذي يجعل للمسجد الأقصى فضلا خاصا، إذ لا يُتصور أن صحابيا كبيرا أو صغيرا قال مثل هذا الكلام وهو يعلم أنه يخالف به حديثا صحيحا عن النبي ﷺ، وذلك لما عُلم من التزام صحابة الرسول عليه السلام لكل ما ورد عنه.

هذا إذا فسرنا كلام سعد بأنه يحمل معنى رفض المكانة السامية للمسجد الأقصى في الإسلام، ولكن هذا التفسير غير صحيح أصلا، إذ ربما يقصد سعد عقد مقابلة بين مسجدين فاضلين، ففضّل أحدهما على الآخر، دون أن يقصد إسقاط الثاني فضلا من مراتب التفضيل.

أي إن جعل هذا الأثر مسجداً الخيف أفضل من المسجد الأقصى، لا ينفي الفضل عن المسجد الأقصى، ولا يمكن أن يحمل تفضيل بقعة ما على بقعة أخرى مضموناً مفادُه أن البقعة المفضولة خالية من الفضل، بل غاية ما في الأمر أن ثمة فضلاً وثمة ما هو أفضل من هذا الفاضل، وهذا هو المعنى الذي يحمله هذا الأثر. وكمثال: لو قال إنسان: لأن أصلي مرة في المسجد الحرام أحب إلي من أن أصلي خمسين مرة في المسجد النبوي، فإن كلامه هذا لا يحمل معنى إخلاء المسجد النبوي من الفضل، بل يحمل معنى واحداً ألا وهو: إن الصلاة في المسجد الحرام أفضل منها في المسجد النبوي، وهو كلام صحيح، إذ هو كذلك في الواقع الشرعي المتعلق بترتيب الفضل بين المسجدين، فسبَقَ المسجدُ الحرامُ المسجدَ النبويَّ حسب هذا الترتيب، وعليه، فليس يصح أن يُنسب إلى قائل هذا الكلام أنه ينفي الفضل عن المسجد النبوي، وكذلك هذا الأثر الذي يفضّل مسجد الخيف على المسجد الأقصى.

إن هذا الكلام الذي نقوله هنا يصلح في الإجابة عن عدة آثار تحمل المضمون نفسه الذي يحمله الأثر عن سعد رضي الله عنه.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وأبو داود والدارمي والحاكم وصححه^(١) وسكت عليه الذهبي، وصححه كذلك ابن دقيق العيد^(٢)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رجلا قال يوم الفتح: «يا رسول الله، إني نذرتُ إن فتح الله عليك مكة أن أصليَ في بيت المقدس»، فقال: (صلِّ ها هنا)، فسأله فقال: (صلِّ ها هنا)، فسأله فقال: (شأنك إذن)، وزاد أبو داود في إحدى روايته للحديث: (والذي بعث محمدا بالحق لو صليتَ ها هنا لأجزأ عنك صلاةً في بيت المقدس).

وروى الحاكم وصححه^(٣) وأقره الذهبي على تصحيحه، عن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه أنه قال: «..فجئتُ رسول الله ﷺ لأودّعه وأردتُ الخروج إلى بيت المقدس، فقال لي رسول الله ﷺ: (أين تريد؟)، قلت: (بيت المقدس)، قال: (وما يُخرجك إليه، أفي تجارة؟)، قلت: (لا ولكن أصلي فيه)، فقال رسول الله ﷺ: (صلاة ها هنا خير من ألف صلاةٍ ثمَّ)»، أي خير من ألف صلاة هناك، أي في بيت المقدس.

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٢٢/١٢)، ح: ١٤٨٥٦، قال مُتِمُّ تحقيقه وتخرّيج أحاديث الأستاذ حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح، وهو في سنن أبي داود، (٣/١٩٦)، ح: ٣٣٠٥، وهو في المستدرک للحاكم، (٤/٣٠٤-٣٠٥)، وكذلك في سنن الدارمي، (٢/١٨٤-١٨٥).

(٢) نقل هذا عنه شمس الحق العظيم آبادي في كتابه: عون المعبود شرح سنن أبي داود، (٩/٩٥).

(٣) المستدرک للحاكم، (٣/٥٠٤)، ورواه أيضا الطحاوي في شرح مشكل الآثار، (٢/٦٦)، ويبدو أن محقق شرح مشكل الآثار، الشيخ شعيبا الأرناؤوط لم يكن راضيا عن تصحيح الحاكم والذهبي له، إذ إن أحد رواته وهو عثمان بن عبد الله بن الأرقم لم يوثق إلا من قبل ابن حبان، ولكن لا نرى بأسا بالاحتجاج به، إذ لم يجرّحه أحدٌ أيضا، فلا أقلّ من القول بتحسينه، ثم هو متناسق تماما مع الحديث الذي ذكرناه قبله، فهو في معناه نفسه، وقد رأى القارئ تصحيح الأئمة له.

وروى الإمام أحمد^(١) أن امرأة اشتكت شكوى فقالت: لمن شفاني الله لأخرجنَّ فلأصلينَّ في بيت المقدس، فبرأت، فتجهَّزت تريد الخروج، فجاءت ميمونة زوجَ النبي ﷺ تسلم عليها، فأخبرتها ذلك فقالت: اجلسي فلكلي ما صنعت، وصلي في مسجد الرسول ﷺ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (صلاةٌ فيه أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد إلا مسجدَ الكعبة).

وهنا انبثقت مسألة لن نفصل فيها شيئاً، ولكننا نشير إليها مجرد إشارة، فلقد رأى كثير من الأئمة أن من نذر عملاً صالحاً يعمله في مكان ذي فضل، فعَمَلَه في مكانٍ أكثر فضلاً، فهل يكون وفي بنذره؟ ننقل هنا كلام ابن تيمية فقط رحمه الله تعالى الذي قاله تعليقا على حديث الإمام أحمد في قصة الرجل الذي نذر أن يأتي بيت المقدس إن فتح الله على رسوله مكة المكرمة، قال ابن تيمية: «ولهذا أذن له النبي ﷺ أن يذهب إلى الأقصى، مع أمره له أن يصلي في المسجد الحرام، وإخباره أن ذلك يُجزيه، فدل ذلك على أنه أمر نذب، وأنه مُخَيَّر بين أن يفعل عين المنذور وأن يفعل ما هو أفضل منه»^(٢).

فالمسألة هي أنه هل يُلزم من نذر أن يؤدي صلاة في مكان مفضل، هل يُلزم بأدائها في هذا المكان المفضل، أو يكفيه أن يؤديها في المكان الأكثر فضلاً^(٣)؟ وعودة إلى هذه الأخبار التي كنا فيها:

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة مؤسسة الرسالة التي حُقِّقت بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، (٤٤/٤٠٨، ح: ٢٦٨٢٦)، قال قال محققو هذه الطبعة: حديث صحيح، ورواه أيضا الطحاوي في شرح مشكل الآثار، (٢/٦٤، ح: ٦٠٣)، وقال محققه الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (٣١/١٣٦).

(٣) يُظَر في هذه المسألة: مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (٣١/١٣٦)، وإعلام الساجد في أحكام المساجد، بدر الدين الزركشي، (٢٧٠)، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، للشيخ شمس الحق العظيم آبادي، (٩/٩٤-٩٥).

ليس في هذه الأخبار إلا معنى واحد، هو تفضيل الصلاة في المسجد النبوي أو مسجد قباء أو مسجد الخيف عليها في المسجد الأقصى، دون أن يُلغى الفضل عن الصلاة في المسجد الأقصى، ودون أن يُتزل الصلاة فيه إلى مستوى الصلاة في غيره من مساجد المسلمين، وليس في هذه الأحاديث تهمين من مكانة المسجد الأقصى، أي أن الموضوع كله هو ترتيب الفضل في الصلاة بين هذه المساجد. ولا بد من طرح مسألة ذات تعلق:

إن سعدا هنا يتحدث عن فضل الصلاة فحسب، فيجعل الصلاة في المسجدين أفضل منها في المسجد الأقصى، لينال فضل الصلاة في المسجد الأقصى المرتبة الثالثة؛ أقول: إنه يتحدث هنا عن فضل الصلاة في هذه المساجد، دون أن يشير إلى أن الفضل ليس متعلقا بالصلاة فحسب، فثمة أبواب من الفضل تتعلق ببيت المقدس غير فضل الصلاة فيها، وهذا الفضل غير موجود في غير بيت المقدس، أي أنه إن نالت الصلاة في بيت المقدس المرتبة الثالثة بعد المسجدين، فقد نال المسجد الأقصى وبيت المقدس المرتبة الأولى من الفضل في مجالات أخرى، ففضلهما ذو شعب متعددة، وليس فضل المكان منحصرًا في فضل الصلاة فيه.

هذا طبعًا في حال صحة الحديث الذي يذكر فضل الصلاة في مسجد الخيف عليها في المسجد الأقصى، وقد أشرتُ إلى ما فيه من اضطراب.

ملخص الكلام: غاية ما يحمله أثر سعد في حال صحته، أن الصلاة في مسجد الخيف أفضل منها في المسجد الأقصى، لا أن المسجد الأقصى حال من الفضل والمكانة، ولا أن مسجد الخيف أفضل من كل الوجوه من المسجد الأقصى، فلا تلازم بين فضل الصلاة في مكان على الصلاة في غيره، وبين فضل هذا المكان مطلقًا من كل وجه، ذلك أن من فضل بيت المقدس ما ليس لمكة ذاتها، ففي بيت المقدس يُجتنب الشر ويظهر الخير ويأمن الناس في آخر الزمان، كما سيأتي في كون بيت المقدس أرض المحشر والمنشر..

كل ذلك إن صح الحديث عن سعد، على المعنى الذي شاء قسطنطين أن يفسره به،

ولا بد أن سعدا لا يقصد أن المسجد الأقصى حال من الفضل، فإن قصد ذلك، فهو به يخالف الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ، وعليه فيحمل كلامه إن صح على أن سعدا لم يسمع عن رسول الله تلك الأحاديث التي تنصُّ على فضل الصلاة في المسجد الأقصى.

(٢) عن عبد الله بن الهذيل قال: (لا تشد الرحال إلا إلى البيت العتيق)، وذكر قسطنطين أنها في مصنف ابن أبي شيبة، وهو كذلك في مصنف ابن أبي شيبة، لكن بصيغة الأمر، أي هو في المصنف هكذا: (لا تشدوا الرحال..)^(١)، وهو إن صح عن ابن الهذيل، فلا يتجاوز أن يكون رأياً يخالف به الثابت عن الرسول ﷺ، وأما سبب المخالفة، فهو ما عُرف في الجليلين الأولين من الصحابة والتابعين أن بعض الأحاديث لم تكن قد وصلت بعضهم، فكان الرجل منهم يُفتي في الأمر مما فيه خلاف الوارد عن الرسول ﷺ، فإذا وصله في الموضوع حديث رجع إليه، لا كما حاول المستشرقان اليهوديان فعله من تفسير الأمر على اعتبار أن ثمة اتجاهها يقلل من مكانة بيت المقدس في أول الإسلام.

وكون هذا قد صح عن ابن الهذيل، إن صحَّ فعلاً، فهو لا يترع فضل بيت المقدس ومسجده، ذلك أن جوانب فضله ليست محصورة في أنه تُشدُّ إليه الرحال، بل إن الإسراء بالرسول إليه يتضمن فضلاً ليس للمسجد النبوي نفسه.

أما كون ابن الهذيل قاله لاحتمال عدم وصول الأحاديث الأخرى إليه، وكون الأحاديث لا تصل أحيانا إلى بعض الصحابة والتابعين، فيبينه ما ذكره قسطنطين نفسه مما ورد عن ابن عطاء أو عطاء، على ما هو عند قسطنطين من رفض وإنكار للمسجد الأقصى أولاً، ثم رجوعه إلى اعتبار المسجد الأقصى مسجداً ثالثاً تُشدُّ إليه الرحال بعد المسجدين الحرام والنبوي، إذ إن التفسير الوحيد لذلك هو أن

(١) يُنظر مصنف ابن أبي شيبة، (٢/٢٦٨).

الحديث الذي يذكر المسجد الأقصى لم يصله أولاً، ثم وصله فيما بعد، فلما وصله قال به، والقصة واردة عند قسطنطين، وهي:

(٣) قال قسطنطين: «ويُلقي حديث نُقل عن ابن جريج بعض الصَّوِّء على موقف بعض علماء المسلمين في القرن الثاني للهجرة من مسألة زيارة المساجد الثلاثة، ذكر ابن جريج أن ابن عطاء نقل حديثاً يجذب زيارة المساجد الثلاثة، وأضاف: كان عطاء ينكر الأقصى ثم عاد فعده معها، وعطاء هذا هو الذي سأله ابن جريج رأيه فيمن نذر المشي من البصرة إلى بيت المقدس، فأجابه بما معناه: أُمرتُ بهذا البيت فقط، يقصد الكعبة، وقد أمر طاوس، وهو الذي أورد الحديث عن المسجدين، شخصاً نذر زيارة بيت المقدس بشد رحاله إلى مكة»^(١)، نسب قسطنطين كل هذه الآثار إلى مصنف عبد الرزاق؛ ومسألة النذر أوردناها قبل قليل؛ وواضح ما كان من تغيير ابن عطاء موقفه من شد الرحال إلى بيت المقدس، وهو ما فسره أنه حصل بعد اطلاعه على الحديث النبوي الذي يدعو إلى شد الرحال إليها، بعد أن لم يكن مطلعاً عليه حين أنكر بيت المقدس.

(٤) عن حذيفة قال: «لو سرتُ حتى لا يكون بيني وبين بيت المقدس إلا فرسخاً أو فرسخين، ما أتيتُه وما أحببتُ أن آتية»، نقله قسطنطين عن ابن أبي شيبه في مصنفه، وهو في مصنفه فعلاً، وبإسناد صحيح^(٢).
إننا في حاجة إلى فهم سياق هذا الكلام من حذيفة رضي الله عنه، فهل يحمل هذا الكلام منه التهوين من مكانة بيت المقدس فعلاً، أو أن لهذا الكلام من حذيفة خاصةً معنى خاصاً في سياق خاص؟
ثم، إذا كنا قد افترضنا أن في كلام حذيفة رضي الله عنه تهويناً من مكانة بيت

(١) نقلنا كلام قسطنطين هذا عن إسحاق حسون، المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس، تقديمه للكتاب، (١٣-١٤).

(٢) مصنف ابن أبي شيبه، (٢٦٧/٢)، تحقيق سعيد اللحام.

المقدس، فهل يستطيع كلامه أن يتقدّم على كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ،
اللذين يتناقض معهما هذا المروي من كلام حذيفة، فيما لو لم نجد له تفسيراً؟ وهل
يصلح كلام حذيفة للاستناد عليه أن ثمة اتجاهها أو تياراً من أهل القرن الأول يهون
من مكانة بيت المقدس؟!

إن إعطاء الكلام حقه، وإدخاله في سياقه الطبيعي من فكر صاحبه ورؤاه، إن ذلك
أمر لا بد منه في تفسير كلام أي متكلم.

هل من الممكن أن يكون الهدف من حذيفة التهوين من مكانة بيت المقدس بكلامه
هذا؟ إن كان هذا مقصداً حذيفة رضي الله عنه فكيف إذن نفهم كلامه الذي
صح عنه، والذي يَحْصُرُ فيه جواز الاعتكاف في المساجد الثلاثة، وبضمنها
المسجد الأقصى؟!

فقد روى عبد الرزاق وابن أبي شيبة في مصنفيهما^(١) بإسنادٍ رجاله ثقاتٌ رجالُ
الشيخين، كما قال الشيخ شعيب الأرناؤوط؛ عن إبراهيم النخعي قال: جاء حذيفة
إلى عبد الله بن مسعود، فقال: ألا أعجبك من ناس عكوفٍ بين دارك ودار
الأشعري^(٢)؟ قال عبد الله: فلعلهم أصابوا وأخطأت، فقال حذيفة: ما أبالي، أفيه
أعتكف أو في بيوتكم هذه؟ إنما الاعتكاف في هذه المساجد الثلاثة: مسجد الحرام
ومسجد المدينة والمسجد الأقصى.

وفي رواية الطحاوي في شرح مشكل الآثار، قال ابن مسعود لحذيفة: «لعلك
نسيتَ وحفظوا، وأخطأتَ وأصابوا»^(٣).

(١) ذكر هذا الأثر عن حذيفة الشيخ شعيب الأرناؤوط في هامش (٢٠٢/٧)، من شرح مشكل
الآثار الذي حققه، وذكر أنه في مصنف ابن أبي شيبة، (٩١/٣) وأنه في مصنف عبد الرزاق،
(٨٠١٤).

(٢) يقصد مسجد الكوفة الأكبر، كما ذكر ذلك الشيخ شعيب في تحقيقه لشرح مشكل الآثار
للطحاوي، (هامش ٢٠٢/٧).

(٣) شرح مشكل الآثار، للطحاوي، (٢٠١/٧).

إن أول شيء نأخذ من كلام حذيفة هنا، أنه يُعطي المسجد الأقصى مقاما رفيعا، فهو عنده أحد مساجد ثلاثة لا يجوز الاعتكاف إلا فيها، مما يعني أن كلامه السابق، والذي يعبر فيه أنه لا يجب أن يأتي بيت المقدس، خارج عن معنى التهوين من بيت المقدس.

إن موقف حذيفة هنا يُعطي المسجد الأقصى مكانة أكثر من المكانة التي يعطيها إياها حديث شد الرحال، فحديث شد الرحال خاص بمجرد شد الرحال لزيارة المساجد الثلاثة من أجل الصلاة فيها، وقول حذيفة يزيد عليه بانحصار جواز الاعتكاف فيها دون غيرها، ومنها الأقصى بطبيعة الحال. إذن فللأقصى مكانة خاصة عند حذيفة، وكون حذيفة رضي الله عنه يحصر جواز الاعتكاف في المساجد الثلاثة بما فيها مسجد بيت المقدس، واضح في تضمُّنه إتيان بيت المقدس، إذ لا بد لمن أراد الاعتكاف فيه أن يأتيه، فكيف يمكن إذن أن نفسر ما صح عنه من أنه لا يجب أن يأتيه حتى لو كان بينه وبينه فرسخ واحد؟!

أرجو ألا يكون في محاولة التفسير باب للحيرة، إذ لا يضيرنا ولا يضيرُ مقام الأقصى وبيت المقدس، سواءً فسّرنا كلامه هذا أم لم نفسره، ذلك أن المعاني والأحكام عندنا تتأسس بكلام الله ورسوله، وإنما يضيرنا التناقض إن كان وُجد في كلام الله ورسوله، وهذا مستحيل أبدا، فالوحي قرآنا وسنة معصوم من الخلل والتناقض والتعارض!

وعليه، فإن خالف مخالفاً أصلاً أو نصاً، فإن البحث في تفسير مخالفته حينها يكون لصالحه نفسه حتى نكتشف له عذرا، لا لصالح الفكرة الثابتة بالنص؛ فإن لم نجد له عذرا، بقيت القضية على صفائها المستند إلى الوحي.

إذن، كلامنا هنا هو في الدفاع عن حذيفة لا في الدفاع عن الفكرة، إذ إن ورودها في كتاب الله وسنة رسوله كافٍ في ثبوتها وثباتها.

وأعني بالفكرة هنا مكانة بيت المقدس!

ولا بد إذن أن نبين الأمر على حقيقته، وذلك عبر طرح مسألة أخرى بها يتضح

المقام.

إن حذيفة رضي الله عنه مات في المدائن سنة ست وثلاثين، بعد استشهاد عثمان^(١) رضي الله عنه بأربعين يوماً، وكان والياً لعمَرَ على المدائن، وأقرّه على ولايتها عثمان رضي الله عنه طيلة حياته، ولقد شارك في فتح أرمينيا، وشاهد فيها من قرأ القرآن الكريم قراءة خاطئة، لبعده عن أرض العلم الشرعي، الذي لم ينتشر بعد الانتشار الكافي، فدعاه هذا إلى أن يرسل إلى عثمان رضي الله عنه بضرورة نسخ نُسخٍ معتمدة من القرآن الكريم؛ ثم استشهاد عثمان وحذيفة والياً على المدائن، ثم مات كما قلنا سنة ست وثلاثين^(٢).

إن بلداً هذا حاله أمكن أن يقع فيه تحريف غير مقصود في قراءة القرآن، فإنه يمكن أيضاً أن تقع فيه أمور أخرى منكرة، دعت حذيفة إلى اتخاذ مبدأ سد الذرائع التي قد تؤدي إلى البدعة، خشية من الغرق في مستنقع البدع الضالة، فذكر ما ذكر مما يفهم منه أنه لا يجب أن يأتي بيت المقدس، حتى لو كان بينه وبينه فرسخ أو فرسخان، من أجل ألا ينساق الناس إلى بعض البدع؛ وهذا لا يبعد على مثل حذيفة العارف بالشر والبدعة أكثر من غيره، كما شهدت له كثرة أسئلته للنبي ﷺ عن الشر، كما ورد في حديث البخاري المشهور.

وأما البدعة التي من الممكن أن يكون حذيفة قد خاف من وقوع الناس فيها، وأما هل للأئمة كلام يشبه كلام حذيفة بالإجمال، فهذا ما نقرؤه في هذا النص عن ابن تيمية رحمه الله تعالى..

يقول ابن تيمية: «وكذلك نُقل عن مالك كراهة المجيء إلى بيت المقدس، خشية أن يُتخذ السفر إليه سنة، فإنه كره ذلك لما جعل لهذا وقت معين كوقت الحج الذي

(١) سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، تحقيق وتخريج شعيب الأرنؤوط، (٢/٣٦٦، ٣٦٩).

(٢) تُنظر ترجمة حذيفة وتفاصيل حياته رضي الله عنه في: حذيفة بن اليمان أمين سر رسول الله،

تأليف إبراهيم العلي.

يذهب إليه جماعة..»^(١).

إنه لا يُبعد أن يُفسر كلام حذيفة مثل هذا التفسير، خاصة أن حذيفة كان يعيش في أرض بعيدة عن العلوم الشرعية، وهي المدائن، فلربما رأى من الناس تجاوزا لبعض المؤلفات الشرعية، فقال ما قال، إرادة منه أن يمنع أنواعا من الخلل أن تتسرب إلى صفاء المجتمع الإسلامي.

هذا شيء، وثمة شيء آخر..

إننا ذكرنا موجزا لحياة حذيفة ومكان إقامته البعيد عن موطن العلوم الشرعية في ذلك الحين، واستخرجنا رؤية ما من واقعه ذلك، ونستخرج رؤية أخرى من ذلك الواقع أيضا فنقول:

إنه من الطبيعي في مثل واقع حذيفة رضي الله عنه أن تغيب بعض الأحاديث عنه،

فحذيفة يعيش معظم فترة ما بعد رسول الله ﷺ بعيدا عن الحجاز، مركز العلوم

الشرعية في ذلك العهد، مؤديا واجبات الجهاد في سبيل الله، وقائما بأمر الولاية

التي تولاهما، فلا بد أن يغيب عنه بعض حديث رسول الله ﷺ، بل لا بد أن تغيب

عنه بعض الأحكام التي ربما لا تغيب عن آحاد المسلمين في أيامنا، وهذا ليس شأنه

وحده، بل هو شأن معظم الصحابة رضي الله عنهم الذين ماتوا في تلك الفترة

القريبة عهدا برسول الله ﷺ، فلا بد إذن أن لا يكون قد سمع حديث المصطفى في

شد الرحال إلى بيت المقدس، فقام كلامه الذي نقله قسطنطين على هذا.

ولقد ثبت عنه كما سيقراً القارئ الكريم في هامش قريب، أنه لم يكن يعرف أن

رسول الله ﷺ نزل وصلى في بيت المقدس، مع أن آحاد المسلمين اليوم يعرفون

هذه الصلاة؛ ولم يكن يعرف أيضا الحديث الذي يذكر أنه عليه السلام ربط البراق

في الحلقة التي يربط بها الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، وهي من الشهرة بمكان، وما

هذا إلا بسبب حياته البعيدة مكانا عن الحجاز، وبسبب قرب وفاته نسيبا من وفاة

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى بها وخرّج أحاديثها عامر الجزار وأنور الباز،

الرسول ﷺ.

ولا بد أن نبين أن أحاديث المصطفى ﷺ لم تكن قد وصلت في الجيل الأول من الصحابة، بل ومن التابعين أيضا إلى جميع الصحابة والتابعين، فكان الصحابي أو التابعي بناء على ذلك، ينطق بحكم من الأحكام أو برؤية من الرؤى، في الأمر الذي حسمه حديث من أحاديث المصطفى التي لم تبلغه، وربما يصرُّ على موقفه الذي وقفه، لأنه لم يجد حين نطقه به من يروي له الحديث الذي يغير نظرتَه أو اجتهاده، وقد يموت هذا الصحابي أو التابعي دون أن يغير نظرتَه^(١).

(١) ولا داعي إلى سرد أمثلة كثيرة على ما نقول، لكننا نذكر للقارئ مثالين فحسب، سبب الخلاف في مسألتيهما أو الموقف من مضمونهما هو عدم وصول الحديث إلى الصحابي أو التابعي. المثال الأول الذي نذكره هنا، له صلة بالبحث حول بيت المقدس وحذيفة تحديدا، وبه يتبين أن حذيفة رضي الله عنه كان غائبا عن بعض الأحاديث المتعلقة ببيت المقدس ذاتها، رغم أن هذه الأحاديث معروفة لدى غيره في عصره..

روى الإمام أحمد والترمذي عن زرِّ بن حُبَيْش عن حذيفة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتيتُ بالبراق وهو دابة أبيض طويل يضع حافره عند منتهى طرفه، فلم نزايل ظهره أنا وجبريل حتى أتيتُ بيت المقدس، ففتحت لنا أبواب السماء ورأيتُ الجنة والنار)، قال حذيفة: ولم يصلِّ في بيت المقدس، قال زرُّ: قلتُ له: بلى قد صلى، قال ما اسمك يا أصلع؟ فإني أعرف وجهك ولا أعرف اسمك، فقلت: أنا زر بن حبيش، قال: وما يدريك أنه صلى؟ قال: فقلت: يقول الله عز وجل: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)، قال: فهل تجده صلى؟ لو صلى لصليتُم فيه كما تصلون في المسجد الحرام، قال زر: وربط الدابة بالحلقة التي يربط بها الأنبياء عليهم السلام، قال حذيفة: أو كان يخاف أن تذهب منه وقد آتاه الله بها؟

يُنظر هذا الأثر في مسند الإمام أحمد، طبعة القاهرة، تحقيق حمزة أحمد الزين، (١٦/٥٩٣، ح: ٢٣٢٢٥)، قال محققه: إسناده صحيح؛ ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، (٥/٣٠٧، ح: ٣١٤٧).

هذا مع أن الروايات الصحيحة صريحة في أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى في بيت المقدس ليلة الإسراء، وربط البراق بالحلقة التي يربط بها الأنبياء؛ روى مسلم في صحيحه بشرح النووي،

(٢/٢٦٣، ح: ٤٠٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أُتيتُ بالبراق فركبته حتى أُتيتُ بيتَ المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلتُ المسجد فصليتُ فيه ركعتين)

والمثال الآخر حول عمر رضي الله عنه، وبه يتبين أن عمر الذي لم يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم مذ أسلم قد غاب عنه بعض ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم. روى مالكٌ والبخاري ومسلمٌ رضي الله عنهم واللفظ لمسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنت جالسا بالمدينة في مجلس الأنصار، فأتانا أبو موسى [الأشعري] فرعا أو مذعورا، قلنا: ما شأنك؟ قال: إن عمر أرسل إلي أن آتية، فأتيتُ بابه فسلمتُ ثلاثاً فلم يرد عليّ، فرجعتُ فقال: ما منعك أن تأتينا؟ فقلتُ: إني أتيتك فسلمتُ على بابك ثلاثا فلم يردوا عليّ فرجعتُ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع)، فقال عمرُ: أقم عليه البيّنة وإلا أوجعتك، فقال أبي بن كعب: لا يقوم معه إلا أصغر القوم، قال أبو سعيد: قلتُ: أنا أصغر القوم، قال: فاذهب به.

وعند البخاري ومسلم أن عمر رضي الله عنه قال: خفي علي هذا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألهاني عنه الصفقُ بالأسواق، وفي مسلم قوله رضي الله عنه ردّاً على اعتراض أبي علي قوله لأبي موسى: سبحان الله، إنما سمعتُ شيئاً فأحببتُ أن أتثبت، وفي الموطأ قوله رضي الله عنه: أما إني لم أهتمك، ولكن خشيتُ أن يتقول الناس على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. يُنظر هذا الأثر في موطأ الإمام مالك، (٢/٩٦٤)، وصحيح البخاري مع فتح الباري، (٤/٣٤٩، ح: ٢٠٦٢)، و(١١/٢٨-٢٩، ح: ٦٢٤٥)، و(١٣/٣٣٢-٣٣٣، ح: ٧٣٥٣)، وصحيح مسلم، (٧/٢٥٣-٢٥٦، ح: ٢١٥٣-٢١٥٤).

ويُنظر مزيد من الأمثلة في مواقف لعمر رضي الله عنه تدل على غياب بعض السنة عنه، تحت عنوان: تثبت عمر بن الخطاب في قبول الأخبار، من كتاب: السنة قبل التدوين، للدكتور محمد عجاج الخطيب، (١١٣-١١٦).

وواضح من هذا المثال غياب حديث صحيح عن عمر، كان يعرفه صحابي صغير، بل يعرفه كثير من آحاد المسلمين في أيامنا. ولا يتشكك متشككٌ فيدعي أنها ضاعت مستدلاً بقصة عمر رضي الله عنه، فإن ما فات عمر وغيره كان موجوداً لدى غيرهما.

فأين قسطنطين المستشرق اليهودي من واقع حال حذيفة رضي الله عنه، وأين يذهب كلامه إذن، حينما شاء أن ينتقي من كلام حذيفة ما يشاء ليفسره كما يشاء، مستندا عليه في محاولته الرامية إلى ادعاء أن ثمة روايات تهمون من مقام بيت المقدس؟!!

(٥) عن أبي ذر قال: «لأن أصلي على رملة حمراء أحب إلي من أن أصلي في بيت المقدس»، نقله قسطنطين عن ابن أبي شيبَةَ أيضا، وهو فيه بإسناد صحيح عن أبي ذر رضي الله عنه^(١).

ولقد فسّر فضيلة الأستاذ المُحدّث الشيخ محمود سعيد ممدوح^(٢) الرملة الحمراء في أثر أبي ذر هنا برمل المدينة، ومعنى هذا أن أبا ذر يُفضّل الصلاة في المدينة عليها في بيت المقدس، وعليه، فما قلناه في الجواب عن بعض الآثار التي جاءت في تفضيل الصلاة في المدينة النبوية عليها في بيت المقدس نقوله هنا، إذ تفضيل الصلاة في مكان ما لا يعني خلواً أماكن أخرى من هذا الفضل، بل يعني إعلاء مكان على مكان، قد يكون هو ذاته عالياً.

إن كثيراً من الكلام الذي قلناه فيما نقله قسطنطين عن حذيفة صالح لأن يقال هنا، ولذا فلا داعي لإعادته.

وفيما يتعلق بما ورد عن أبي ذر رضي الله عنه مما قد يوهّم رفضه لمقام بيت المقدس، مما تمسك به المستشرق اليهودي قسطنطين للتدليل على وجود تيار أو اتجاه يقلل من مقام بيت المقدس، يكفي فيما يتعلق بكل هذا أن نذكر ما صح عن أبي ذر نفسه، رداً على المستشرق قسطنطين ومن شايعه:

(١) مصنف ابن أبي شيبَةَ، (٢/٢٦٧)، تحقيق سعيد اللحام.

(٢) وذلك عبر مكالمة هاتفية أجريتها معه يوم الأربعاء ١٧/١٢/٢٠٠٣م.

(١) روى الحاكم^(١) وصححه وأقرّه الذهبي على تصحيحه، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل: مسجد رسول الله ﷺ أو مسجد بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه^(٢))، ولنعم المصلّي هو، وليوشكن لأن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعا)، أو قال: (خير من الدنيا وما فيها)، وهذا يكشف عن عاطفة غامرة وشوق طاغ للمسجد الأقصى في أيام آتية بعد رسول الله ﷺ، سببها وقوع طغيان منع المسلمين من الوصول إليه..

ثم، ما كان هذا التذاكر الذي شارك فيه أبو ذر رضي الله عنه في أيهما أفضل: مسجد الرسول ﷺ أو المسجد الأقصى، إلا لما وقر في نفوس هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم من مقام سام للمسجدين الأقصى والنبوي، ذلك أنه لا يسأل سائل عن الأفضل بين شيئين ما لم يكونا فاضلين في نفسه. إن مشاركة أبي ذرّ في هذا التذاكر في أيهما أفضل مسجد الرسول أو الأقصى يدل على مقام المسجد الأقصى عنده.

(٢) وروى الإمام أحمد^(٣) عن الأحنف بن قيس قال: دخلت بيت المقدس، فوجدت فيه رجلا يُكشر السجود، وذكر قصة هذا الرجل، وإذا به أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، وقد مضى الحديث وتفصيل تخريجه في فصل: تأسيس نصوص الوحي لمقام بيت المقدس عند المسلمين من الباب الثاني.

(١) الحاكم في المستدرک، (٤/٥٠٩).

(٢) ستبين لنا لاحقا تحقيق الكلام في مقدار فضل الصلاة في المسجد الأقصى.

(٣) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بتحقيق حمزة أحمد الزين، (٥٣١/١٥)، ح: (٢١٣٤٤)، قال محققه: إسناده صحيح؛ وقال محققا طبعة مؤسسة الرسالة للمسند، الشيخ شعيب الأرنؤوط، والشيخ عادل مرشد، (٣٥٨/٣٥)، ح: (٢١٤٥٣): إسناده صحيح على شرط مسلم، قالوا: وهو في مصنف عبد الرزاق، (٣٠٦١، ٤٨٤٧).

إن أبا ذر رضي الله عنه في الرواية السابقة جلس في عهد الرسول ﷺ يتذاكر وإخوان من الصحابة رضي الله عنهم مكانة بيت المقدس، وفي هذه الرواية يذهب إلى بيت المقدس ويكثر من السجود فيه، والروايتان صحيحتان؛ فكيف إذن يصح أن يستند قسطنطين على الرواية التي ذكرها، والتي فسرها على وجه يوهم أن أبا ذر يُهون من مقام بيت المقدس، ثم ينسى هاتين الروايتين الصحيحتين؟! إنه منهج الانتقاء الذي تميز به المستشرقون عن غيرهم أيما تميز، وإلا فالأمانة تقتضيه أن يلفت النظر على الأقل إلى أن ثمة ما يخالف هذا الذي ذكره عن أبي ذر مما صح

سنده!

الفصل الخامس: نظرة في كتب فضائل بيت المقدس

إن فنون الكتابة في تراث الإسلام كثيرة وغزيرة، وإن رُوِّدَ الكتابة في تاريخ الإسلام والعربية، قد أبدعوا واخترعوا وتفننوا، حتى أفرزت جهودهم كثيرا من العلوم والفنون في مجالات الحياة الإنسانية كلها، ابتداءً بفلسفة الوجود ومعناه وحق الموجد، وانتهاءً بجماليات الحياة ورونقها الجذاب، الذي داعبته العقول العربية والمسلمة، فأنشأ لها، وطور من أجلها، ألوان الفن وحصص الإبداع.

وكان من جميل ما أبدعته يد الكاتب والباحث العربي: الكتابة في علوم الفضائل، فضائل القرآن والبُلدان، والأصحاب والخِلائن، والأيام والأزمان، والعلم والعرفان؛ وسوى ذلك من سائر الألوان..

ونالت الكتابة في فضائل البلدان حصة كبيرة، لا يستطيع مُحصِّص أن يُحصيها، ونالت كثير من البلدان مكانة لم تنلها سواها في فضائل متعددة، ولكن البلاد التي تربعت على عرش علم الفضائل هي تلك التي فازت باهتمام الوحي أولا، ثم باهتمام أمة الوحي ثانيا؛ ومن هذه البلدان بيت المقدس، التي توجهت إليها قبلة المسلمين من بداية البعثة إلى أوائل السنة الثانية من الهجرة النبوية المشرفة، وعليه، فقد صلى إليها رسول الله ﷺ أكثر مما صلى إلى الكعبة المشرفة.

هذا، ولم تُفحَم بيت المقدس في البلدان التي نالت المكانة العالية إقحاما، بل وجدت مكانها سلسلا صافيا لا تجرؤ على منافستها إياه كل بلدان الدنيا، ما خلا مكة والمدينة، فلم تنل بلدة ما نالت هذه البلدان الثلاثة من الفضل في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وتسابقت بلاد كثيرة لتنال ما نالت من أصول الفضائل، فلم تنل تلك البلدان ما نالته بيت المقدس، من أصول الفضائل العائدة إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله، ولئن وقفت القدس تتحدث عن نفسها، لأقرتها كل بلدان الدنيا، ففضائل القدس فضائل

قدسية، ذات مصدر قرآني ونبوي، فأَيّ مدينة نالت ما نالت من هذه المصدرية الشريفة؟!)

إننا إذن أمام أصل عظيم، تفخر به القدس ومكة والمدينة، وهو أن فضائلها ترجع إلى الوحي الشريف..

ولهذه الصلة الوثقى بالوحي الشريف، التي تمتعت بها بيت المقدس، فإنها ستكون دوماً أعلى من جهود البشر، «ومهما كتب الكتاب، وألف المؤلفون عن القدس، تبقى هذه المدينة أكبر من المؤلفات والمؤلفين الذين يكتبون عنها لأسباب مختلفة، وتبقى أسبابنا في الكتابة عنها عبادة نتقرب بها إلى الله، بالإضافة إلى الأهداف الوطنية والسياسية الأخرى»^(١).

إن جهود البشر التي أفرزت خلال التاريخ الطويل للقدس ألواناً من الكتابة عنها، إنما تسعى إلى المقاربة مع مكانة بيت المقدس وقدسيتها، وهي لا تستطيع أن تؤدي إلى بيت المقدس حقها، وهي مهما أسهمت فهي في سبيل الوصول، ولما تصل بعداً!

ولقد كنا قدّمنا في الفصل الأول من هذا الباب دراسة حول أحاديث فضائل بيت المقدس، بينا فيها أصلاتها وانتسابها إلى الوحي السماوي مباشرة عبر رسول الله ﷺ، وقمعنا قول طائفة من المستشرقين من اليهود وغيرهم الذين حاولوا أن ينسبوا أحاديث فضائل بيت المقدس إلى اليهود.

والآن حين الشروع في دراسة أخرى تدور حول كتب فضائل بيت المقدس، والله المعين..

سينقسم الحديث في هذا الفصل إلى مبحثين اثنين:

المبحث الأول: حركة الكتابة في الفضائل المقدسية.

(١) القدس الإسلامية، للأستاذ رفيق شاكر النشأة، من التقديم.

المبحث الثاني: مجمل مضامين التأليف في الفضائل المقدسية

المبحث الأول: حركة الكتابة في الفضائل المقدسية

إن حركة الكتابة في فضائل بيت المقدس كانت مشار شبهات حاول بعض المستشرقين بثها، كما هي عادتهم في دراساتهم لأديان الشرق، خاصة الإسلام، ولتاريخ الشرق ولغاته وعاداته وتقاليده؛ لقد حاول فريق من المستشرقين الإيهام بأن ما ادّعى أنه قلة في التأليف في فضائل بيت المقدس، يرجع إلى أن مقام المدينة المقدسة ذاته غير ذي مستوى يدعو إلى التأليف الكثير بشأنها، ونحن قد نقرُّ، كما سيرى القارئ الكريم، أن ثمة قلة فعلا في التأليف في فضائل بيت المقدس، غير أن الشيء الذي لا يمكن أبدا إقراره، هو اعتبار هذا دليلا على التهوين من مقام بيت المقدس عند أهل الإسلام؛ ذلك أن أهل الإسلام ينبعثون في رؤاهم وتزليلهم للأشياء منازلها من نصوص الشرع الحنيف، التي أعطت بيت المقدس مقاما عاليا.

والآن حين مباشرة الحديث في هذه المسألة:

١ - كُتِبَ الكثير عن بيت المقدس ومسجدها، في كتب التفسير والفقهِ والحديث والسيرة والعقائد، والتاريخ والجغرافيا والرحلات والأدب والشعر؛ ثم إنها أُفردت بالكتابة، مما سيكون لنا فيه حديث شبه تفصيلي في هذا الفصل.. إنه يجب ألا يغيب عن البال أن فضائل البلدان، وخاصة فضائل القدس والشام، ماثوثة بشكل واضح، ومع التوسع أحيانا، في كتب أخرى غير متخصصة بالفضائل، ككتب الحديث الموسوعية وكتب التفسير والتاريخ والجغرافيا، وكتب فتوح البلدان، وكثير من كتب الأدب^(١)، بل لعل هذه الكتب هي المصادر التي

(١) ككتاب العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، فقد تحدث عن بيت المقدس وفضائلها ومسجدها في كتابه (٦/٢٦٣-٢٦٥)، رغم أنه كتاب في الأدب. ملحوظة: نبه على ما في العقد الفريد من ذكر لفضائل بيت المقدس الدكتور عفيف عبد الرحمن، فقد ذكر ذلك في مقاله: (القدس ومكانتها لدى المسلمين، وانعكاس ذلك من خلال كتب التراث)،

يرجع إليها مؤلفو كتب الفضائل، وأرى أن الباحث في الفضائل يجب عليه أن يعود إلى هذه الأصول، أو إلى بعضها على الأقل، إذ لم يستوعب كلُّ كتابٍ في الفضائل كلَّ ما هو موجود في مصادر فضائل البلدان، التي أشرنا إليها.

بل لقد رأيت من الكتب التي وُضعت أصلاً في فضل مكة المكرمة وزائريها وأحكام الحج والعمرة.. إلخ، رأيت من هذه الكتب ما وُضِع فيه باب خاص يشمل ذكر فضائل بيت المقدس تحديداً، فلقد جعل الإمام الحافظ أبو العباس أحمد بن عبد الله محب الدين الطبري ثم المكّي، جعل الباب الأربعين من كتابه القُرَى لقاصد أم القُرَى^(١) تحت عنوان: في فضل الحرمين وبيت المقدس، ورغم المساحة القصيرة التي جعلها المؤلف لفضل بيت المقدس، إلا أن ذكر هذا العنوان في كتاب يدور موضوعه على أحكام مكة وفضلها، له دلالة على أن فضائل بيت المقدس ليست واردة بالضرورة تحت عناوين تذكر بيت المقدس أو المسجد الأقصى صراحة، فليس شرطاً إذن أن يكون الحديث من أحاديث الفضائل وارداً تحت عنوان: فضائل كذا، على سبيل المثال، بل قد تأتي أحاديث الفضائل تحت عناوين أخرى، كالحديث الذي سنذكره في محله من هذا البحث، والذي يبين أن أول مسجد وُضِع في الأرض هو الكعبة الشريفة^(٢)، وأنه تلاه بعد أربعين عاماً المسجد الأقصى، فقد رواه البخاري في موضعين من كتاب (أحاديث الأنبياء) من صحيحه، ورواه مسلم في

الذي نُشر في أعمال المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، المنعقد في الجامعة الأردنية بعمان في الفترة بين ١٤-١٩ نيسان ١٩٨٠م، (٢٣١/١).

(١) يُنظر كتاب القُرَى لقاصد أم القُرَى، للمحب الطبري، (٦٣٥ و ٦٩٢-٦٩٩)، وهو هنا جارٍ على ما أشرنا إليه من ذكر فضائل الشام في فصل خاص بعد ما ذكر من فضائل بيت المقدس، وفضائل الشام التي ذكرها تتضمن فضل بيت المقدس ضرورة كون بيت المقدس جزءاً من الشام.

(٢) سيأتي هذا الحديث معنا في بحثنا هذا، وعلى جميع الأحوال هو في: البخاري مع فتح الباري، (٤٦٩/٦، ح: ٣٣٦٦) و (٥٢٨/٦، ح: ٣٤٢٥)، وهو في مسلم بشرح النووي، (٣٢٦/٣، ح: ٥٢٠).

كتاب (المساجد) من صحيحه، ولم يذكره مثلاً فيما أورده من أحاديث في فضائل البلدان.

٢- أحصى الدكتور المقدسي كامل جميل العسلي في كتابه مخطوطات فضائل بيت المقدس^(١) تسعة وأربعين كتاباً في فضائلها، ألف أكثرها في الفترة بين القرن الخامس والقرن الرابع عشر الهجري، وألف أربعة منها قبل القرن الرابع الهجري؛ ومضمون هذه الكتب يدل على مبلغ حب المسلمين لبيت المقدس، وعلى مكانتها في أفكارهم ووجدانهم، تلك المدينة التي عُرِفَت في التراث الإسلامي وفي الأدبيات الإسلامية بأرض الإسراء والمعراج، وبأنها تحتضن أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين؛ إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف عنها..

٣- ولا بد أن نؤكد أن الحافظ الديني هو الدافع الأهم من بين الدوافع الأخرى للكتابة في فضائل بيت المقدس، بل هو السابق زمنياً؛ ذلك أنه يستند على معانٍ دينية مبثوثة في القرآن والسنة، ومجمل ما طرحه النصوص ذو معنى ديني بحت؛ وهذا الدافع الديني "يُتَّضح دونما شكٍّ من قراءة مقدمات كتب الفضائل ومادتها"^(٢)؛ هذا رغم طروء عوامل أخرى تدفع إلى الكتابة في الفضائل المقدسية، لعل أهمها بعد الحافظ الديني: الحافظ الوطني، الممزوج بالحافظ الديني نفسه، بل المنبثق عنه؛ ولعل هذا

(١) يُنظر كتاب مخطوطات فضائل بيت المقدس، للدكتور كامل جميل العسلي، ومما ينبغي بيانه أن الدكتور العسلي من أكثر الناس خدمة لتاريخ القدس في العصر الحديث، ومن أتراهم عطاءً لها من جهده وقلمه، ولا بد أن نذكر ولو القليل من كتاباته المتعلقة بالقدس وتاريخها، فنذكر على سبيل المثال: مخطوطات فضائل بيت المقدس، أجدادنا في ثرى بيت المقدس، القدس في التاريخ، بيت المقدس في أدب الرحلات، هذا غير الأبحاث وأوراق العمل التي قدمها للمؤتمرات المتخصصة بتاريخ القدس وبلاد الشام.

وعليه فمن حق القدس على محبيها أن تنحني هاماتهم اعترافاً بجهود هذا العلم الكبير في خدمة بيت المقدس.

(٢) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (١٣٧).

الحافظ تمثل أكثر ما تمثل أيام الاحتلالات التي وقعت فيها بيت المقدس بيد أعدائها، كما حدث أيام الصليبيين، وكما هو حاصل الآن من وقوعها تحت الاحتلال اليهودي؛ رغم أن بعض ما كُتب أيام الاحتلالات لم يكن بأيدي مقدسية، إنما بأيدي إسلامية من بلاد شتى، مما يدل على أن الدافع الوطني هو ذاته ديني بحث في أصل منشأه، إلا إذا اعتبرنا بيت المقدس: وطن المسلمين أجمعين..

لكن وقوع بيت المقدس تحت الاحتلال، وكون ذلك دافعا إضافيا على الكتابة في فضائلها، إن ذلك لا يجوز أن يصور فضائل بيت المقدس والكتابة فيها كما لو كانت استجابة بحتة لأحداث تمر بها، متجاوزا حقيقة مقامها الديني في الإسلام، وكونه هو الدافع الأكبر والأول في الكتابة في الفضائل المقدسية.

٤- لا أحد يستطيع أن يُحصيَ جميع ما كُتب في فضائل بيت المقدس، والذي ذكره الدكتور العسلي حفظه الله تعالى هو ما اطلع هو عليه أو قرأ عنه، أو بالأحرى: هو ما وصل بذاته أو بذكره إليه؛ ولم يقل الدكتور العسلي إنه ذكر في كتابه كل ما هنالك من كتب تحدثت في فضائل بيت المقدس؛ ذلك أن المعروف حاليا من التراث الإسلامي أقل كثيرا من الذي وجد فعلا؛ فثمة مكتبات خاصة في العالم العربي والإسلامي، بل في أوروبا؛ ومكتبات في مساجد ودور علم ومكتبات متناثرة هنا وهناك وهناك، لم يُكشف النقاب بعد عن محتوياتها؛ ولقد اطلعت على بعض البرامج في قناة الجزيرة الفضائية، تحكي قصة دور كتب في أفريقيا، موريتانيا وتانزانيا خاصة، ملأى بالكتب، التي يرثي لها الزمان.

٥- فات الأستاذ الدكتور العسلي ذكر كتاب: فضائل بيت المقدس^(١)، للوليد بن حماد أبي العباس الرملي، وهو من علماء القرن الثالث الهجري، وقد ذكر كتابه هذا

(١) تعرّف على هذا الكتاب من خلال كتاب: مدينة الرملة، للدكتور صادق أحمد داود جودة،

الذهبي في السير، وقال الذهبي عن الوليد بن حماد^(١): «بقي إلى قريب الثلاث مائة»، أي أنه عاش أيام حياته في القرن الثالث الهجري. وكذلك فات الدكتور العسلي ذكره مما من الممكن أن يكون في فضائل بيت المقدس كتاب: ملء العيبة فيما جُمع بطول العيبة، في الوجهتين الكريميتين إلى مكة وطيبة، لمحمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، وقد كانت رحلته التي كتب عنها كتابه هذا فيما بين ٦٨٣-٦٨٦هـ، وهذا الكتاب من سبعة أجزاء، جعل مؤلفه الجزء الرابع منه خاصا بلقاءاته ودروسه ومحاوراته في بيت المقدس وبلاد الشام، غير أن هذا الجزء تحديدا مفقود للأسف، ولا يعرف أحد عنه شيئا^(٢).

٦- وإنما قلت: إن ما ذكره الأستاذ الدكتور العسلي هو ما وصله بذكره أو بذاته، لأن التراث الإسلامي تعرّض إلى نفس ما تعرّضت له أرض بيت المقدس وشعبها من عدوان صليبي ينتمي بطبعه إلى همجية القرون الوسطى الأوروبية، التي يبدو لنا أن أوروبا والعالم الغربي برّمته لم يتخلّ عنها، إن كان المستهدف هو الإسلام والعروبة وأوطان المسلمين، حتى في القرن الحادي والعشرين.. أقول: إن التراث الإسلامي والعربي نفسه قد تعرّض إلى مثل ما تعرّضت له الشعوب العربية والمسلمة من قتل وإتلاف وحرق، حتى ضاع الكثير منه، وحتى بدت الحضارة العربية الإسلامية كما لو كانت غائبة عن الحياة، مما يعني أنه لا بد أن يكون كثير مما كُتب عن بيت المقدس صودف بالضياع المتعمد أو الإتلاف أو السرقة.

إن عشرات الآلاف، بل مئات الآلاف من مخطوطات تراثنا الإسلامي في كل نواحيه، قد ضاعت في ظل صراعات الإسلام وأعدائه، وفي ليل مؤامرات ولصوص

(١) في كتابه: سير أعلام النبلاء، (١٤/٧٨-٧٩).

(٢) يُنظر مقال القدس وإشعاعها الثقافي في المغرب والأندلس، من خلال الرحلات العلمية، للدكتور محمد الحبيب الهيلة، ضمن البحوث التي نشرها المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، المنعقد في الجامعة الأردنية في الفترة بين ١٩-٢٤ نيسان ١٩٨٠م، (١/٢٩٥).

المخطوطات والتراث الإسلامي عامة، وفي عتمة الجهل بقيمة هذا التراث الذي أقل ما فعل، أي هذا التراث: أنه بني حضارة في أرض الله، ترفع اسم الله، وتنشر الخير والعدل بين عباد الله، وتكشف عن مكنونات كون الله سبحانه وتعالى. ولا بأس أن نذكر شيئاً من هذا، وإن كنا سنخرج بذكره بعض الشيء عن مضمون بحثنا..

تذكر الأستاذة الكبيرة، الدكتورة عائشة عبد الرحمن رحمها الله تعالى، وبمرارة طاغية، كثيراً مما تعرض له تراثنا العربي الإسلامي في كتابها: تراثنا بين ماضٍ وحاضرٍ، فتقول من بين ما تقول، مما تعرض له تراثنا يوم سقوط بغداد: «وعكف رجال العربية والإسلام، بعد الموقعة الظاهرة الحاسمة في عين جالوت، يفتشون بين الخرائب والأطلال عن ذخائر تراثنا في بيت الحكمة والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية، وغيرها من دور الكتب العامرة وصروح العلم الشاخنة، فإذا النار قد أكلت منها حتى شبت فقذِفَ بالباقي إلى النهر، فيقال: إن الكتب سدَّت مجرى دجلة، وجاز الناس عليها ما بين شطيه، كأنها جسر معقود»^(١)؛ وواصلت الأستاذة المكلمة عرض قضايا كثيرة تتعلق بتراثنا، منها ما هو موضع مفخرة، ومنها ما هو من المحازن!

ويذكر الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى أن مكتبة بني عمار في طرابلس الشام كانت تحتوي مليون كتاب، ثم يذكر بعد ذلك أن بعض المؤرخين يقدّر ما أتلّفه الصليبيون في طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد، وقد وصف المؤرخ كلود كاهن عملية تدمير مكتبة طرابلس التي قام بها الصليبيون، بأنه كان «تدميراً منتظماً»^(٢).

هذا كلُّه فضلاً عما حصل لمكتبات القدس وغزة وعسقلان^(٣)، مما يتحدث عنه

(١) يُنظر كتاب الأستاذة الكبيرة عائشة عبد الرحمن: تراثنا بين ماضٍ وحاضر، (٣٥-٣٦).

(٢) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تأليف: كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشيخ، (١١٢).

(٣) يُنظر: من روائع حضارتنا، للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى، (١٢٤).

التاريخ وهو يبكي ضيعة العلم، وهوان منابره على همجية أوروبا الصليبية. ولقد أحرقت أوروبا الهمجية في يوم واحد في ميدان غرناطة ما يقدره بعض المؤرخين بمليون كتاب^(١)، وذلك بعد سقوط الأندلس، فكان العدوان على الكتاب موازيا تماما للعدوان على الإسلام.

وأحرق رجل الدين الصليبي، عدو العلم والإسلام والعرب، الكاردينال كيسيمينس في باب الرحلة في غرناطة مليوناً وسبعين ألف كتاب مكتوبة باللغة العربية^(٢)، ويذكر الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه أجنحة المكر الثلاثة أن مجموع ما انتقل إلى مكتبات أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي يصل إلى ربع مليون مجلد^(٣).

هذا، وبعض الكتب الكبيرة ضاع منها جزء واحد أو أجزاء، فبقيت مبتورة، وبعض هذا الضياع كان مقصوداً، وكمثال على ضياع جزء من بعض الكتب: الكتاب الذي ذكرناه قريباً بعنوان: ملء العيبة فيما جُمع بطول العيبة، لمحمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، وهو من سبعة أجزاء، جعل مؤلفه الجزء الرابع منه خاصاً بلقاءاته ومحاوراته في بيت المقدس والشام، وللأسف هو الجزء الذي ضاع من هذا الكتاب.

إن هذا يعني أن كثيراً من أصول العلوم الإسلامية قد ضاعت، أو أحرقت أو سُرقت، ولا بد أن من هذا الضائع والمحروق والمسروق ظلماً وعدواناً، لا بد أن منه كتباً في بيت المقدس وفضائلها، كانت تتبخر بين أيدي طلاب العلم، وعلى رفوف المكتبات، فأصابها عدوان أوروبا وهمجية الصليبية.

هذا، ولربما جاء بعد دهر قوم من الناس، تعلموا على ترانثنا، ثم انتحلوه ونسبوه إلى

(١) يُنظر: المرجع نفسه، (١٢٤).

(٢) التراث الإسلامي والاستشراق، كتبه بسام داود عجك، ونشرته مجلة كلية الدعوة الإسلامية، الصادرة في طرابلس ليبيا في عددها السابع عام ١٩٩٠، (١٦٦).

(٣) نقلاً عن المرجع نفسه، (١٦٦).

أنفسهم، كفعل الخائن الذي يخون الأمانة، أو السارق يسرق الشيء فيجعل عليه لافتة تنسبه إليه دون صاحبه؛ وكمثال على هذا الذي نقول: إنه تبين أخيرا أن كوبرنيكس الذي تنسب إليه نظرية دوران الأرض حول الشمس، قد أخذ هذه النظرية عن كتب لعلماء مسلمين، وما كانت هذه الحقيقة تُعرف، لولا ما اكتُشف أخيرا من مخطوطاتٍ لكتب عربية اكتُشفت في مسقط رأس كوبرنيكس، وهي تتضمن نظرية دوران الأرض حول الشمس^(١)..

لقد أخرجنا الألم على فعل الهمج في حق كثير من تراثنا عن موضوعنا في الحديث عن كتب فضائل بيت المقدس، ولنُعد إليه..

٧- إنه على ما مضى من الشرح الوجيز، حول سرقة أو تخريب أو ضياع أو انتحال كثير من تراثنا، فهل من الممكن أن يقول أي قائل: إن هذه التسعة والأربعين كتابا في أحد عشر قرنا، التي ذكرها الأستاذ الدكتور كامل جميل العسلي، هي وحدها ما بثته قريحة وعاطفة المسلمين نحو القدس؟ الجواب: لا يمكن ذلك أبدا، فالقدس في موضع الذروة من الاهتمام العربي الإسلامي، وبكفيها فخرا ألما حركت وحي السماء جبريل عليه السلام، ليحمل رسولَ الله ﷺ إليها في رحلة لا يعرف البشر لها نظيرا، شهدها من أهل الأرض ومن أهل السماء من شهدها، ولينطلق بعدها في رحلة إلى السماوات العلاء، مما يمكن أن يُكسب هذه الرحلة بحق لقب: الفتح الروحي لبيت المقدس، ثم يكفي القدس فخرا ألما حركت عمر بن الخطاب رضي الله عنه من عاصمته المدينة المنورة، ليضمها إلى دار الإسلام، ثم حركت بعده بخمسة قرون ونصف جحافل جيش الأمة لتطهيرها من جديد، أيام صلاح الدين،

(١) يُنظر مقال أسطفان يعقوب زحريا، فضل الحضارة العربية الإسلامية، نشرته جريدة القدس، ١١/٣/١٩٩٦م، وفيه أيضا أن المستشرق ديفيد كنج بين في مقال له بعنوان (الشخصيات العلمية) أنه ثبت عام ١٩٥٠م أن كثيرا من النظريات الفلكية المنسوبة إلى كوبرنيكس قد أخذها عن العالم المسلم علاء الدين ابن الشاطر!

ثم هي الآن بمكانها العظيم، تحشد أفئدة المسلمين، ولعلها قريباً تحرك جيوش المسلمين لتطهيرها.

٨- وعلى ما مضى، فإننا ننطلق إلى الرد على ما حاوله الدكتور إسحاق حسون، محقق كتاب فضائل البيت المقدس للواسطي، الذي عاش من أواخر القرن الرابع إلى النصف الأول من القرن الخامس الهجري^(١)؛ فقد حاول حسون أن يجعل من هذا الكتاب أول كتاب ألف في فضائل بيت المقدس، وذلك ليمهد لطرح أفكاره التي يريد بثها، في إطار الإجابة عن تساؤلات طرحها بعد تأكيده أن كتاب الواسطي هذا هو أول كتاب ألف في فضائل بيت المقدس؛ غير أننا وبعد رجوعنا إلى كتاب مخطوطات فضائل بيت المقدس للدكتور العسلي، تبين أن هذا الكتاب مسبق **بعده كتب**؛ فإذا كانت ولادة صاحبه الواسطي أواخر القرن الرابع، وكانت وفاته في حدود النصف الأول من القرن الخامس، فإن من المفترض أن يكون ألفه في الفترة بين أوائل هذا القرن ومنتصفه، وعليه فهو مسبق، حسب ما عُرف مما وصل إلى عصرنا، بأربعة من الكتب، ألف أولها، وهو كتاب فتوح بيت المقدس لإسحاق بن بشر البخاري، إما في أوائل القرن الثالث الهجري، أو في أواخر القرن الثاني الهجري، ذلك أن صاحبه مات سنة ٢٠٦هـ؛ وفي هذا ردُّ على المستشرق حسون الذي ذكر في مقدمته لتحقيق فضائل الواسطي أنه ^(٢) «لم يؤلف تاريخ لبيت المقدس أو كتاب في فضائله، في نهاية القرن الثاني للهجرة وفي القرن الثالث»^(٢)؛ وكذلك يُردُّ على حسون بذكر الكتاب الذي أشرنا إلى أنه فات الدكتور العسلي، فلم يذكره، وهو كتاب فضائل بيت المقدس، للوليد بن حماد أبي العباس الرملي،

(١) مخطوطات فضائل بيت المقدس، للدكتور العسلي، (٢٧).

(٢) مقدمة المستشرق إسحاق حسون المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس للواسطي، (٢٨)؛ هذا، ولا بد أن تلقي هنا بأقل من سطرين نظرة خاطفة لأمر سنفضله بعد قليل: إن كتب فضائل الشام هي في ذاتها كتب في فضائل القدس، فمن يريد جمع المؤلفات في فضائل القدس، فلا يكفي أن يحصي ما في اسمه كلمة بيت المقدس مثلاً لاعتبارها في فضائل القدس.

وهو من علماء القرن الثالث الهجري، قال الذهبي^(١): «بقي إلى قريب الثلاث مائة».

وألف في القرن الثالث أيضا كتاب (من نزل فلسطين من الصحابة) ومؤلفه هو موسى بن سهل الرملي، المتوفى سنة ٢٦١هـ، وقد ذكره العسلي في مخطوطات بيت المقدس^(٢)، مما يعني أن الكتاب أُلّف قبل هذا التاريخ، وثمة كتابان آخران ذكرهما العسلي أُلّفا في القرنين الثالث والرابع الهجري؛ وكل هذا الذي مضى يعني لنا أن الكتابة في فضائل القدس لم تبدأ كما ادّعى المستشرق حسّون بكتاب فضائل البيت المقدس للواسطي، الذي أُلّف كتابه في القرن الخامس الهجري، حسب ما ذكرنا من تاريخ وفاته، وإنما بدأت قبل ذلك بثلاثة قرون على التقريب^(٣)، وعليه فلا معنى لدعوى المستشرق اليهودي حسون^(٤) «أن علماء المسلمين، كانوا على خلاف فيما بينهم بشأن مكانة بيت المقدس، وهذا وحده كافٍ لعدم تشجيع العلماء على تصنيف كتب خاصة في هذا الموضوع»^(٤)، فقد رأينا الأمر على خلاف مقاله؛ وليس الاختلاف في أمر بين علماء الإسلام. بمانع من التأليف فيه، وإلا فدونك كتب الخلافات الفقهية والعقيدية والنحوية.. إلخ، وردود بعض العلماء على بعض، وقد عُرف أن الخلاف بين العلماء يُثري العملية التأليفية في المسائل التي اختلفوا فيها ولا يقتلها.

٩- وها نحن هنا نكشف عن سوءة استشراقية يهودية، تتعلق بمخطوطة فضائل البيت المقدس للواسطي نفسها والتي حققها إسحاق حسون، فهي في الحقيقة من التراث العربي الإسلامي الذي سرقه اليهود من جامع الجزائر في عكا، وهي النسخة

(١) في كتابه: سير أعلام النبلاء، (١٤/٧٨-٧٩).

(٢) مخطوطات فضائل بيت المقدس، للدكتور كامل جميل العسلي، (٢٥).

(٣) المرجع نفسه، (٢٥-٢٦).

(٤) من تقديم إسحاق حسون المستشرق اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت

المقدس) للواسطي، (٢٩-٣٠).

الوحيدة التي كانت معروفة لهذا الكتاب، ولقد سرقتها اليهود فيما سرقوا من مخطوطات وجدوها في هذا الجامع، وكان الأستاذ عبد الله المخلص هو أول من تحدث عنها في مقال له نشرته مجلة المجمع العلمي العربي عام ١٩٣٠م، وقد وصفها بالنفاسة؛ وفي مقال كتبه الأستاذ عصام الشنطي توضيح لهذه المسألة^(١).

ولا ينبغي أن يتعجب أحد من هذا الكشف الذي نفضحه هنا وفضحه قبلنا غيرنا، إذ لا يُستغرب على من قامت دولتهم على سرقة الأراضي أن يسرقوا التراث، بل إن سرقة التراث لم تكن عملا فرديا قام به أفراد دون رأي دولتهم، إذ إن هذه الدولة ذاتها سرقت أثناء حرب حزيران عام ١٩٦٧م كميات كبيرة من المخطوطات المعروفة باسم مخطوطات البحر الميت من متحف فلسطين^(٢). وهذا المسلك مقصود ومسلوك من قبل ناس آخرين، فلقد كان المستشرق الألماني يوهان لودفيغ بوركهارت، المتوفى سنة ١٨١٧م، والذي تخفى بزي مسلم هندي، وتسمى باسم عربي (الشيخ إبراهيم بن عبد الله) كان هذا قد نقل إلى جامعة كامبريدج البريطانية ثمانمائة مخطوط عربي، لا يُعلم كيف حصل عليها^(٣)، وقد استطاع المستشرق البريطاني إدوارد بوكوك خلال إقامته في الشرق أن يحصل على عدد كبير من المخطوطات، والتي اشترتها فيما بعد مكتبة البودليان المعروفة في

(١) يُنظر مقال الأستاذ عصام الشنطي (فضائل البيت المقدس لأبي بكر الواسطي) ص ٩-٤٢، من مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٣٦، ج ٢/١، جمادى الآخرة وذو الحجة، ١٤١٢هـ/ يناير ١٩٩٢م، وللأسف، فلا أملك هذا المقال، وإنما ذكرته نقلا عن: أدب فضائل الأعمال في دراسات المستشرقين المعاصرين، لعبد اللطيف زكي أبو هاشم، نُشر على موقع: باحث للدراسات، <http://www.bahethcenter.org>.

وتجدر الإشارة إلى أن حسون ذكر أثناء وصفه لمخطوطة فضائل الواسطي، (٣٧)، أنه محتوم على الصفحة الأولى من المخطوط: وقف مكتبة المدرسة الأحمدية في جامع أحمد باشا الجزائر، في عكا المُجدِّدة سنة ١٣٢٣.

(٢) يُنظر: آثار فلسطين، لعمر حسين حمادة، (٧٨).

(٣) يُنظر: المرجع نفسه، (٧٠).

جامعة أكسفورد^(١).

هل بإمكاننا بعد هذا الاستعراض الوجيه أن نطرح السؤال التالي: ما دام الباحثون الإسرائيليون قد سرقوا مخطوطات من مسجد الجزائر بعكا، من ضمنها مخطوطة فضائل البيت المقدس، فهل نستطيع أن نقول: إن ثمة سرقة ممنهجة موجّهة خاصة إلى مخطوطات بيت المقدس، حصلت في ليل الغفلة والضعف الذي عاشه المسلمون، دون انتباهٍ منهم؟!

١٠- ونحن هنا مسوقون إلى بيان أمر بالغ الأهمية في هذا المضمّار، وهو أن الأستاذ الكبير الدكتور كامل جميل العسلي لم يذكر ضمن ما ذكر من مخطوطات فضائل بيت المقدس، تلك المخطوطات والكتب التي أُلّفَت في فضائل بلاد الشام، إلا كتابا واحدا ذكره منها، وهو كتاب: فضائل الشام وفضل دمشق للربيعي^(٢)، وذكر هو نفسه أثناء استعراضه لكتاب الربيعي هذا أن كثيرا من كتب فضائل الشام الكثيرة «كانت تتحدث عن بيت المقدس، ولو باقتضاب»^(٣)، ومع ذلك لم يذكرها ضمن ما أُلّف من كتب في فضائل بيت المقدس، وأنا لا أعلم سبب هذا الإحجام عن ذكرها، فهو رغم ذكره أحدها، وهو كتاب الربيعي المشار إليه، لم يذكر سائرهما؛ كل هذا رغم أن كتاب الربيعي لم يختلف عنها بالمحمل، فهي جميعا تتحدث عن فضائل الشام، وهي بمجملها إلا قليلا، تتحدث عن بيت المقدس وفضائله، كجزء من بلاد الشام، بل لعل وجود بيت المقدس في الشام كان مستند كثير من أصحابها على فضائل الشام ذاتها؛ وسنفضل القول في مضمون الفضائل الشامية في المبحث التالي، لنبيّن بالشواهد أنّها في غالبها: فضائل مقدسية، وأن فضائل بيت المقدس في كثير من هذه الكتب تدوب في فضائل الشام.

(١) يُنظر: المرجع نفسه، (٧٢).

(٢) مخطوطات فضائل بيت المقدس، للدكتور كامل جميل العسلي، (٣٠-٣٤).

(٣) المرجع نفسه، (٣٠).

١١- ومع كل ذلك، ورغم أن فضائل الشام هي في ذاتها في كثير من الأحيان فضائل بيت المقدس، كما سيأتي بيانه عند استعراضنا بعض أحاديث فضائل الشام؛ أقول مع كل ذلك، فإننا مضطرون إلى الاعتراف بأن ما وصلنا من كتب في فضائل بيت المقدس قليل إلى جانب مكانة هذه المدينة عند المسلمين^(١)، ولا أحسب أن من الضروري تفسير هذا العدد القليل نسبياً بتراجع مكانة بيت المقدس عند المسلمين، فمظاهر مكانة المدن لا تكمن في كثرة التأليف عنها فحسب.

ولئن شئنا أن نحتمل إمكانية حصول تراجع لمكانة بيت المقدس في نفوس بعض المسلمين، فإن هذا التراجع هو في ذاته تخلف عن أصول الإسلام والعروبة، وهو نفسه التخلف عن الإسلام في كثير من قضايا الأمة، وعلى رأسها: الإبداع الحضاري..

نقول هذا الكلام، لأنه سيأتي معنا في فقرات قادمة أن بيت المقدس تغلغت في ثنايا كتب المسلمين تغلغلاً كبيراً، فهي ماثورة في كتب السنة والتفسير وسواها من الكتب، وبتفصيلات كثيرة، سيأتي بيان بعضها في الباب الرابع الذي عقدهناه بعنوان: معالم قدسية بيت المقدس، وفيه يتضح مدى كثرة الحديث عن بيت المقدس في مؤلفات الفقه والحديث والتفسير، التي هي المراجع الأصلية عموماً لثقافة المسلم

(١) ونحن نتأسف كما نتأسف الأستاذ رفيق شاعر النتشة، حينما نظر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، فلم يجده حظي بكتاب عربي واحد ألف في بيت المقدس، رغم ظهور ٥٠٠٠ كتاب عنها في الفترة بين ١٨٠٠-١٨٧٨م باللغات الأوروبية؛ يُنظر كتاب القدس الإسلامية، للأستاذ رفيق شاعر النتشة، (١٥)، ولم يذكر الأستاذ النتشة مصدره، وأراني أستبعد هذا العدد الهائل الذي ذكر أنه ألف باللغات الأوروبية حول بيت المقدس في القرن التاسع عشر، وربما كان الحديث عن مقالات وما شابه، ولكن، وحتى على هذا الاعتبار، فثمة مفارقة كبيرة بين المنشور بالعربية في فضائل بيت المقدس وبين المنشور باللغات الأوروبية في الفترة المذكورة.

ثم هذا الذي تأسف له الأستاذ النتشة وتأسف معه له، هو في تقديري عائد إلى أثقال التخلف التي أحاطت الأمة بمجملها بغلافها الكثيف في ذلك القرن، بل قبله بكثير، وهو غير ذي صلة بمكانة القدس في نفوس المسلمين.

عبر تاريخه، ومن هنا، فإننا نرفض إطلاقاً فكرة جماعة من المستشرقين الذي حاولوا أن يفسروا قلة التأليف في فضائل بيت المقدس بتراجع مكائنتها عند المسلمين. وإن الاحتفال السنوي برحلة الإسراء إلى بيت المقدس، لإحدى الدلائل على المقام السامي الذي تحتله بيت المقدس في نفوس المسلمين.

١٢- وعليه، فلا بد من محاولة تفسير قلة التأليف في فضائل بيت المقدس خاصة.. إن أهم ما يجب أن يقال، هو ما أكدناه قبل فقرات أن ما وصلنا من كتب في فضائل بيت المقدس ليس كلُّ ما أُلِّف فيها، وثمة كتب كانت مفقودة ثم وُجِدَت^(١)، فلا يبعد على هذا أن تكون كتب عديدة، بل كثيرة في فضائل بيت المقدس خاصة، أُلِّف ولم يصل بعد..

فلا ترجع المسألة إلى ما زعمه المستشرق حسون من اختلاف في مكانة المدينة المقدسة عند المسلمين، ولا إلى تراجع الاهتمام بها في العهد العباسي، كما زعم هو أصلاً^(٢)، بل لا بد أن الأمر يعود إلى معانٍ أخرى يرجع إليها السبب في القلة النسبية لهذه الكتب فيما وصلنا من التراث الإسلامي، ومنها ما لا زلنا نتحدث عنه في هذه الفقرة من ضياع أو عدم وصول كتب أُلِّفَت..

١٣- وها هنا أ طرح مسألة ذات أهمية، قد تستطيع أن تتضمن بعض الجواب، وهي ما أشرنا قريباً إليه، وهو أن الحروب الصليبية كانت بالغة العنف ضد البشر، ويعترف التاريخ الغربي بأن الصليبيين قتلوا في ساحة المسجد الأقصى سبعين ألف مسلم حتى سالت الدماء أثماراً، وكانت هذه الحروب قد أدت إلى احتلال القدس عام ٤٩٢هـ، واستمر هذا الاحتلال تسعين عاماً؛ ألا يمكن أن تكون كثير من الكتب المؤلفة في فضائل بيت المقدس قبل هذا التاريخ، قد قُصِدَت من الصليبيين تحديداً، على اعتبار أن بيت المقدس، التي هي محور الصراع الصليبي الإسلامي، كانت بؤرة

(١) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (٧٤-٧٥).

(٢) يُنظر تقديم المستشرق اليهودي حسون، لكتاب (فضائل البيت المقدس) للواسطي، (٢٩).

موضوعاتها، ففاضت عليها الدماء، أو أتى عليها الخراب الصليبي، أو أحرقتها يد العدوان، على اعتبارات دينية خرافية سيرت جحافل الصليبيين إلى بيت المقدس، أو سرقتها أوروبا الصليبية، وقد رأينا نماذج من سرقة المخطوطات قبل قليل!^(١) وكمثال على بعض ما ضاع من كتب فضائل بيت المقدس أثناء تلك الحروب الهمجية الأوروبية نذكر ما كتبه الشيخ العلامة مكّي بن عبد السلام الرميلي؛ قال التاج السبكي: «**شرح في تاريخ بيت المقدس وفضائله، وجمع فيه شيئا**»، وقد قتله الصليبيون فيمن قتلوا من أهل الإسلام ببيت المقدس عام ٤٩٢هـ^(٢)، قال الأستاذ المقدسي كامل جميل العسلي عما شرح فيه الرميلي من فضائل بيت المقدس: «**هذا الكتاب لم يتم، لأن المؤلف قُتل قبل أن يُنهي الكتاب، وذهب كتابه معه**»^(٣)، وهذا يعني أن كتابه ضاع باستشهاده.

ربما نكون هنا قد قاربنا الإجابة الصحيحة على هذا السؤال الذي طرحناه، ولعل مزيدا من البحث في هذه المسألة ذاتها يلقي مزيدا من أنوار البيان عليها.

١٤- وقد يكون السبب في قلة التأليف في فضائل بيت المقدس، إن كانت فعلا قليلة، هو ما يرجع إلى أن فضائلها مبثوثة معروفة شهيرة في كتب شتى، من تفسير وفقه وحديث وأدب وتاريخ وجغرافيا، كما أشرنا قريبا؛ فلربما رأى المؤلفون شهرة مقام بيت المقدس، فلم يجدوا ضرورة في بعث ما هو شهير في نفوس المسلمين، خاصة ما يتعلق من هذه الشهرة بكون القدس قبلة المسلمين الأولى، وأنها ثالث الحرمين، وأنها إليها أُسري بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأنها إليها وإلى الحجاز تُشدّ الرحال؛ فلعل شهرة هذه المعاني حال دون الإكثار في تعريف الناس بما يعرفون^(٣).

(١) طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي، (٥/٣٣٢-٣٣٣).

(٢) مخطوطات فضائل بيت المقدس، للدكتور كامل جميل العسلي، (٣٩).

(٣) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (٧٧-٧٨)، وكان

إنني قد أطرح مثل هذا التفسير متقدِّماً به ومتحيراً فيه في الوقت ذاته، فلربما لا يكون معقولاً، غير أنه حريٌّ بالبحث، وقد أعترف أنها ظاهرة يصعب تفسيرها، وكان الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم رحمه الله تعالى طرَحَ هذه الرؤية في محاولة تفسير ما سماه تأخر الكتابة في فضائل بيت المقدس؛ إلا أنني أراه صالحاً لإمكانية تفسير قلة التأليف في فضائل بيت المقدس، وأراه أقرب بكثير من ذلك التفسير الذي يطرحه المستشرق حسون، والذي يدَّعي فيه أن السبب في قلة التأليف فيها يرجع إلى تراجع مكانة بيت المقدس عند المسلمين.

١٥- وعليه، فلا بد أن نقرّر أن مقياس فضائل المدن ليس محصوراً في كثرة الكتابة عنها، بل في نوع الرؤية التي يراها عليها المُفضَّلون لها، فإذا كانت كثير من المدن، من أمثال واسط وبغداد والبصرة، قد نالت كثرة في التأليف فيها، فإن هذا التأليف في فضلها لا يُرجع ما نالته من الفضل إلى مكانة دينية نالتها هذه المدن، إذ ليس يصح في فضل أي من هذه المدن حديث صحيح واحد، وإنما مجمل ما طُرِحَ في فضائلها: مقامها العلمي في مرحلة من المراحل، وجغرافيتها وتاريخها، وذكر من تخرَّج فيها أو زارها من العلماء والشعراء والفضلاء، ولم يرد في فضلها كما ذكرنا حديث صحيح واحد؛ وسيأتي بعض تفصيل لنوع الفضل الذي نالته بيت المقدس في المبحث التالي إن شاء الله تعالى.

١٦- ومن هنا، فإننا سنكون عارفين لكيفية تناول ما نقله المستشرق إسحاق حسون محقق كتاب فضائل البيت المقدس للواسطي عن المقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم، فقد نقل عنه قوله عن بيت المقدس إنها: «**قليلة العلماء كثيرة**

الدكتور محمود إبراهيم رحمه الله يتحدث هنا عن شيء سماه: تأخر الكتابة في فضائل بيت المقدس، وهو طرح ما ذكرته أعلاه في الإجابة عن هذا التأخر، وأنا رأيتُه صالحاً للحديث في قلة كتب فضائل بيت المقدس بعامه، ولقد كنت ذكرتُ ما يدلُّ على أن الكتابة في فضائل بيت المقدس ابتدأ منذ العهد الأولي، وذلك في فقرة سابقة.

النصارى»^(١)، ثم خرج حسون بهذه النتيجة: «وفي شهادة شاهد من أهل المدينة عن حالتها في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، الكفاية للتأكد من نظرة الدولة الإسلامية إلى بيت المقدس آنذاك، وإهمال الحكام المسلمين إياه، الأمر الذي لا بد وكان له تأثير سلبي على احتمال تأليف الكتب في فضائله»^(٢)، وإنها نتيجة كبيرة للغاية، أن يصل إلى أن الدولة الإسلامية، العباسية يومئذ، كانت تهمل بيت المقدس في ذلك الزمان، وهو كما يتضح، يستند على وهمه هذا ليؤكد أن التأليف في فضائل بيت المقدس لم ينل حظاً كافياً يناسب مكانها المدعى عند المسلمين.

ثم إن تعرض كثير من العلماء للمحن يكفي لتأكيد أن أهواء الحكام لم تكن هي المحدد لمضمون المؤلفات.

ونحن أرجأنا الجواب عن موقف الدولة العباسية من بيت المقدس، وعن دعوى قلة علماء بيت المقدس في العصر العباسي في فصلين خاصين سيأتيان في الباب الخامس الآتي فيما بعد، فلا نسرع إلى الحديث فيهما هنا، إذ إن موضوعنا هنا خاص بالحديث في كتب فضائل بيت المقدس.

لكن لا بد أن نبين أن التأليف في فضائل القدس ليس خاصاً بأهل القدس، حتى تؤثر قلة علماء القدس في زمان المقدسي صاحب كتاب التقاسيم والأنواع، على قلة التأليف في فضائل بيت المقدس، وإن كان من المحتمل أن يكون أهل بيت المقدس هم أكثر من ألف في فضائله، مما يدعوننا إلى التأكيد على ما فعله الصليبيون واليهود من إخفاء أو سرقة كتب التراث الإسلامي، والتي منها كتب في فضائل القدس، كما قد ذكرنا قريباً.

فالقدس كما ينبغي التأكيد، ليست خاصة بأهل بيت المقدس، والتأليف فيها ليس خاصاً بأهلها المقيمين فيها، وبالتالي فلا تأثير كبير أصلاً لدعوى قلة علماء القدس

(١) من تقديم المستشرق اليهودي حسون من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس)

للواسطي، (٣٠).

(٢) المرجع نفسه، (٣٠).

في القرن الرابع الهجري في عدد المؤلفات في فضائلها.

وكدليل على أن التأليف في فضائل بيت المقدس ليس خاصا بأهل القدس^(١)، نذكر كتاب فتوح بيت المقدس لإسحاق بن بشر البخاري المتوفى سنة ٢٠٦هـ، وهو بالمحمل أول كتاب معروف يخصّ بيت المقدس تحديدا؛ وكتاب فضائل القدس لابن الجوزي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧هـ، وروضة الأولياء في مسجد إيلياء، لمحمد بن محمود بن الحسن البغدادي الملقب بمحب الدين، المولود في بغداد والمتوفى بها سنة ٦٤٣هـ.

١٧- قام بتحقيق بعض كتب فضائل القدس محققون يهود ونصارى، وحاول بعضهم فيما كتب أو حقق أن يدّعي أن مكانة القدس وفلسطين بين المسلمين وفي التراث الإسلامي مكانة متواضعة، مدّعيًا أن اليهود هم الذين أعطوا القدس مقامها السامي ومكانتها العالية، وأن ثمة خلافا دائرا بين المسلمين حول مكانة القدس في الإسلام، وقد مضى ذكر كثير من المفارقات التي وقع فيها أرباب هذا التيار، أثناء البحث في نظرة كل من المسلمين واليهود إلى بيت المقدس. وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم رحمه الله تعالى أن «من بين ثلاثة وعشرين شخصا ممن نشروا بعضا من مخطوطات فضائل القدس، أو ترجموها كليًا أو جزئيًا، أو أعدوا دراسات عنها، تبيننا أن العرب يُكوّنون أقلّ النسب، إذ كان عددهم ستة أشخاص، في حين أن السبعة عشر الآخرين كانوا من الأجانب، ومن بين هؤلاء الأجانب نسبة عالية من اليهود»^(٢).

١٨- كثرت في العصر الحديث الكتب التي تحدثت عن فضائل القدس وعن فلسطين عموما، والتي ألفها عرب ومسلمون صدق انتماءؤهم إلى قضايا العروبة والإسلام،

(١) تُنظر البيلوغرافيا التفصيلية لمخطوطات فضائل بيت المقدس، للدكتور العسلي، ليُعرف من

حلالها على مواطن مؤلفي الفضائل.

(٢) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (١٣٥).

ولا أملك إحصائية أو أرقامًا تساعد على التعرف على حجم هذه الكتب؛ ولعل حالة الصراع المرير الذي تشهده القدس وفلسطين عموماً أسهمت إسهاماً كبيراً في دفع العلماء والكتّاب إلى تخصيص كتب في بيت المقدس خاصة، وفلسطين عامة، وأذكر من هذه الكتب على سبيل المثال: بيت المقدس والمسجد الأقصى، للأستاذ محمد محمد شرّاب، والأرض المقدسة للأستاذ إبراهيم العلي، وبيت المقدس وما حوله للدكتور محمد عثمان شبير، والقدس قضية كل مسلم لفضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، والقدس إسلامية للأستاذ رفيق شاكر التنشّة، والكتاب الموسوعي الكبير الجامع: واقدها، أو تذكير النفس بحديث القدس، للدكتور سيد حسين العفاني، وهو من أربعة مجلدات؛ وغيرها كثير.

١٩- وإنني أقترح هنا أن يقوم أهل العلم والبحث في عالمنا العربي والإسلامي، وخاصة رواد بحوث التراث، وأخص أيضاً باحثي وعلماء بلاد الشام ومصر في المجالات المتعددة من الدينية والتاريخية والجغرافية والأدبية وغيرها؛ أقترح أن يقوموا جميعاً بالبحث جماعاتٍ وأفراداً في فضائل وخصائص بيت المقدس خاصة وفلسطين عامة، كلٌّ في مجاله، وأن يحاولوا دائماً استخراج المعاني الجديدة، التي لا بد وأن عقول الباحثين عامرة بها؛ ذلك أن مثل هذه المواضيع من أهم ما يُسهم في إنجاح قضية الحق في حالة الصراع التي يحياها المسلمون اليوم في فلسطين، وهي من أهم ما يدعو المسلمين إلى التثبّت بأرضهم المقدسة بيت المقدس وفلسطين.

المبحث الثاني: نظرة في بعض مضمون كتب فضائل المقدسية

لا بد أن إشارات إلى بعض مضمون كتب فضائل بيت المقدس قد مضت في المبحث السابق، وسأفصل هنا الحديث في بعض متعلقات هذا المضمون، ليس قصدا في تفصيل جميع مضمون كتب فضائل بيت المقدس، بل قصدا للإشارة إلى ما أراه ضروريا في سياق هذا البحث، إذ سيأتي تفصيل مضمون فضائل بيت المقدس في فصول وأبواب لاحقة، رغم مضي القول في بعض مضامين فضائلها في فصول سابقة، وعليه، فكلامي هنا وجيز، رغم ما يضطرني إلى تفصيل مناسب لبعض القضايا:

١- إن ما ورد في فضائل بيت المقدس من نصوص الوحي الشريف، هي تلك التي أُخذت فيما بعد دليلا على فضائل الشام ذاتها، حتى ذابت فضائل بيت المقدس في كثير من الكتب تحت عناوين شامية غير مقدسية، رغم أن محور الغالب منها، والمستند إلى نصوص الوحي وارد في فضائل بيت المقدس ومسجدها..

٢- وتأخذنا هذه الناحية إلى كتب فضائل الشام نفسها، فغالبيتها في الحقيقة صالح ليكون في فضائل بيت المقدس ذاتها، وهي مسألة أشرنا إليها في المبحث السابق؛ فبيت المقدس جزء من الشام، بل لعل الشام ما نالت الفضل العظيم الذي تتمتع به إلا لوجود بيت المقدس فيها، رغم ما ورد من الصحيح في فضائل دمشق خاصة، ولكن إذا نزعنا بيت المقدس من الشام، لم تنل دمشق منفرداً من الفضل إلا القليل، ولم ينل مكاناً من الشام فضلا خاصا به عن سائر الشام، فكلها شام، ولا ينبغي للحديث الذي يذكر فضل الشام أن يفسر لصالح فضل دمشق، إلا إن تضمن معنى غير موجود إلا في دمشق، أو تضمن نصا على دمشق عينها؛ وسيرى القارئ كثرة الأحاديث التي تذكر فضل بيت المقدس، فإذا قارنهما بما ورد في فضل دمشق، تبين له أن دمشق ما نالت إلا القليل من الفضل، فيما إذا قيس ما ورد بشأنها في الصحيح بما ورد في شأن بيت المقدس.

إنني أقصد هنا أن الأحاديث التي ذكرت الشام عموماً، هي في الحقيقة تذكر بيت المقدس، لشمول اسم الشام: بيت المقدس، وعليه، فكثير من الكتب التي صُنفت في فضل الشام تصلح أن تكون في فضل بيت المقدس ذاتها، لما ذكرناه من اعتماد مجملها على وجود بيت المقدس فيها؛ وقد لاحظ هذه الظاهرة المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي، وقد أثنى الدكتور محمود إبراهيم على رؤى هذا المستشرق فيما يتعلق منها بحديثه في فضائل بيت المقدس؛ إن المستشرق الروسي كراتشكوفسكي لاحظ^(١) أن من خصائص ما أسماه بالأدب الفلسطيني في الفترة الأولى التي ترجع إلى عهد سابق لصلاح الدين، أن فلسطين تدخل ضمن بلاد الشام في هذا الأدب، ولا تُدرس باعتبارها وحدة مستقلة عنه، ويضرب على ذلك أمثلة من كتب تحمل عنواناً عن بلاد الشام، ولكنها تعالج في مادتها أموراً عن فلسطين^(٢). وثمة أمثلة تدل على صدق هذه النظرة..

فهذا كتاب: فضائل الشام للسمعاني، الذي ذكره الأستاذ العسلي عند تفصيله الحديث عن كتاب فضائل الشام للربيعي^(٣)، كمثال من أمثلة الكتب التي تناولت فضائل الشام؛ لقد كانت معظم الأحاديث التي ذكرها السمعي تتحدث عن الشام عموماً، رغم أن بعضها قابل ليُخصص ببعض الشام، أي ببيت المقدس فحسب؛ هذا، وليس فيها إلا بضعة أحاديث تخص دمشق وحدها^(٤)، وعليه فيجب أن يحسب الكتاب في فضائل بيت المقدس لا في فضائل الشام، ويجب أن يسمى فضائل بيت المقدس.

وكمثال آخر على ما نقول، كتاب تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر، فمن نظر في الجزء الأول من هذا الكتاب، فسيرى كثرة ما فيه من الأحاديث التي تشيد بالشام وأهله، مبتدءاً بأحاديث كثيرة تتضمن قول رسول الله ﷺ في أثنائها:

(١) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (١١٣).

(٢) مخطوطات فضائل بيت المقدس، للدكتور كامل جميل العسلي، (٣١).

(٣) يُنظر: فضائل الشام للسمعاني، حققه عادل بن سعد، ضمن مجموع عن فضائل الشام.

(عليك)، أو (عليكم بالشام)، منها حديث عبد الله بن حوالة وعبد الله بن عمر ووائل بن الأسقع رضي الله عنهم، مرفوعاً: (سُجِّنَدُونُ أَجْنَادًا مَجْمَدَةً، جَنَدًا بِالشَّامِ وَجَنَدًا بِالْيَمَنِ وَجَنَدًا بِالْعِرَاقِ) وأنه قال فيه: (عليكم بالشام)، وفيه: (فإن الله تعالى قد تكفل بالشام وأهله)^(١)، وسيأتي معنا هذا الحديث أثناء البحث؛ وقد ذكر ابن عساكر بعد ذلك أحاديث أخرى تتضمن الحضر على سكنى الشام؛ أو تبين فضل الشام.

هذا ولقد أخذت أحاديث فضائل الشام هذه من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ما يقارب المائة وخمسين صفحة^(٢)، ومن الأمثلة التي تؤكد هذا المعنى الذي ذكرناه، ما يرد في تاريخ مدينة دمشق من ذكر لمكان وفاة كثير من الناس، فهو يذكر في كثير من الأحيان أن فلاناً توفي بالشام، رغم أنه يذكر في مواقع أخرى من ترجمة نفس هذا الذي ذكر وفاته بالشام، يذكر أنه توفي ببيت المقدس، كما يراه القارئ في ترجمة الصحابي عبادة بن الصامت، فلقد ذكر الحافظ ابن عساكر أنه توفي بالشام^(٣)، ثم ذكر بعد ذلك أنه توفي ببيت المقدس، وقال مرة: مات بفلسطين الشام^(٤)، مما يدل بوضوح أن الحديث النبوي، بل حديث كثير من العلماء عن الشام هو في حقيقته عن بيت المقدس.

ويؤكد هذا المعنى الذي نقوله ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إحدى روايات قصة إسلامه، أنه قال: «..فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه

(١) ينظر تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، تحقيق: محيي الدين أبي سعيد عمر بن غرامة

العُمري، (٥٦-١٠٠).

(٢) المرجع نفسه، (٥٦-١٩٩).

(٣) المرجع نفسه، (١٨٣/٢٦).

(٤) المرجع نفسه، (١٨٤/٢٦).

وبين الشام..^(١)، فهذا هو عمر رضي الله عنه يذكر أن صلاة النبي ﷺ كانت إلى الشام، وهو لا يعني الشام كلها، بل يعني بيت المقدس من الشام، لِمَا عَلِمَ أن رسول الله ﷺ كان يصلي تحديداً إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة.

وإذا أُضيف إلى ذلك ما اشتهر في عصرنا من إطلاقات لاسم الشام قد تصرف القدس عن دخولها في المقصود، إذ شاع في عصرنا إطلاق أهل سورية اسم الشام على دمشق، وكذلك شاع في العصر الحديث عند كثير من أهل الأردن وفلسطين والعراق والجزيرة العربية، وربما مصر والمغرب أيضاً، إطلاق اسم الشام على سورية تحديداً؛ إذا أُضيف إلى ما تقدم هذا الذي شاع في عصرنا، فإن القارئ لأي كتاب أو حديث حول الشام سينصرف ذهنه إلى غير بيت المقدس، رغم أن بيت المقدس هي في الحقيقة بؤرة البركة في الشام.

هذا، وسيأتي مزيد إيضاح لهذه المسألة في ثنايا البحث..

والمقصود أن كتب فضائل الشام والأحاديث الحاضرة على سكنى الشام أو الرباط فيها هي نفسها تشمل فضل بيت المقدس، فهي إذن في ناحية من نواحيها أحاديث وكتبٌ في فضائل بيت المقدس تحديداً؛ بل إن بعضها ما ذكر إلا بيت المقدس، وعُدَّ من أحاديث فضائل الشام على اعتبار أن بيت المقدس جزء من الشام. أقصد من هذا الكلام الذي طال معنا، أن كتب فضائل بيت المقدس أكثر بكثير من الكتب التي ذكرها الأستاذ الدكتور العسلي، فكتب فضائل الشام هي في جانب كبير منها شاملة لفضائل بيت المقدس، بل بعضها إن لم يكن معظمها، يستند على أحاديث فضائل بيت المقدس نفسها ليستدل بها على فضائل الشام.

٣- كثرت للأسف الأحاديث شديدة الضعف والموضوعة، بل والخرافات، في كتب فضائل البلدان عامة، بما فيها كتب فضائل بيت المقدس، وهي ناحية خلل في كتب

(١) رواه ابن إسحاق في سيرته، تُنظر: السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق جمال ثابت ومحمد محمود

وسيد إبراهيم، (١/٢٨٥)، قال محققو هذه السيرة: «سنده مرسل وله شواهد».

الفضائل عموماً، إلا ما حفظه الله منها فلم يسمح لخرافة أن تجدلها فيها زاوية تتخذها منبراً لشيطانها الذي اخترعها.

وهذا الخلل موجود في الكتب القديمة التي تحدثت في الفضائل أكثر منها في الكتب الحديثة، بل يتجه الكُتّاب المُحدَثون إلى تنقية عقل المسلم منها، فعلى سبيل المثال: تخلو الكتب المؤلفة حديثاً، والتي ذكرتها في المبحث السابق من الخرافات والأحاديث الموضوعية، وهذا فضل الله تعالى، والأمل بالله سبحانه وتعالى أن تمتد الأيدي الوضيئة والنفوس المشرقة بأنوار المصطفى ﷺ، إلى تنقية كتب الفضائل القديمة من هذه الخرافات، ولو كان ذلك على الأقل: بشكل تلخيص هذه الكتب، أو تحقيقها تحقيقاً يكشف عن كل خرافة أو حديث موضوع فيها.

٤ - وكنا قد قررنا أن نتعرض في بحثنا هذا لموضوع الخرافات والموضوعات والإسرائيليات التي أُدخِلت في بعض كتب الفضائل تفصيلاً، غير أن البحث سيطول جداً، ولعله أن يكون لنا فيه بحث خاص فيما يأتي من الزمان إن شاء الله تعالى.

هذا، ولا زال البحث في فضائل بيت المقدس في حاجة إلى مزيد من الخدمة والتوسع والتعمق والإضافة، مع ربط الماضي بالحاضر، ومحاولة اكتشاف الحاضر من خلال بعض نصوص الماضي الموثوقة.

٥ - يجب ألا يوقعنا هذا الذي ذكرناه من اقتحام الأحاديث الموضوعية والخرافات الوضيعة كتب الفضائل، يجب ألا يوقعنا هذا في انحراف عن حديث المصطفى ﷺ، ذلك أن كذب الكذابين وخرافة المنكوبين في عقولهم، يجب ألا تصد المسلم والعاقل كليهما عن صدق الصادقين، وعمما تقره العقول السليمة المستنيرة بنور الوحي الشريف؛ فالأحاديث الصحيحة والمحتملة في أبواب الفضائل عامة، وباب فضائل بيت المقدس خاصة، بالغة الكثرة..

وإن كان من شأن العاقل أن يستخرج درر اللآلئ من بطون الصخور، وكنوز

المعادن النفيسة من الصحراء الموحشة، والتبرّ من التراب، رغم صعوبة المسلك ووعورة الطريق ووحشة الغاب؛ فإن من شأنه إن شاء أن يتناغم مع نفسه، أن ينتقي الصحيح والحسن والمقارب من كتب كنوز السنة، ليتعرف على جمال وحُسن أقوال المصطفى ﷺ، رغم أن الشأئين مختلفان أيما اختلاف، فليس كل باحث في التراب واجدا ذهباً، وليس كل حافر في التربة مصادفا معدنا نفيسا، وإن وجد كل منهما بغيته، فهو أقل بما لا مقارنة، إذا ما قيس بما يجده الباحث من الأحاديث الصحيحة والحسنة فضلا عن المحتملة، في بطون كتب السنة، مما هو في فضائل القدس، فهو كلما مد يده اغترف، وكلما اغترف ازداد إلى المزيد شوقا، ولن تخرج يده خاوية أبدا!

٦- إن نوع الفضل الذي نالته بيت المقدس، هو من ذلك النوع العائد إلى مقامها الديني، وإلى صلتها بالسماء، وإلى نبيلها مرتبة القداسة، ووصفها بالبركة في القرآن الكريم، وما خُصّصت به من أحكام انحصار شدّ الرحال إلى مسجدها مع المسجدين الأولين مرتبة: مسجد مكة ومسجد المدينة، وكذا إلى ما ستتاله هذه المدينة المقدسة من مقام عالٍ في نهاية الدنيا، حيث إنها الأرض التي يُجثّث عليها الشرّ وينتصر فيها التوحيد، ويأوي الناس إلى أمنها، فضلا عما وازى ذلك كله من أنواع الفضل الأخرى، ككونها مركزا علميا منظورا إليه، وكونها ذات تاريخ باهر وجغرافيا جميلة.

الباب الثالث:

**القدسية والمكانة من بيت المقدس إلى
الشام**

سنحاول في هذا الباب المكون من فصلين، أن نتحدث في موضوع لم نرَ أحداً تحدث فيه، ألا وهو: ما درج عليه كثير من العلماء المتحدثين في الفضائل، من استيعاب فضائل القدس في فضائل الشام، مما جعل بيت المقدس كما لو كانت هي التابعة لمكانة الشام، أو كما لو كانت ذاتبة في الشام، وسنرى أن الأمر على العكس من ذلك تماماً، إذ سيتبين لنا أن المقام العالي الذي تتمتع به الشام، إنما يقوم في غالبه على وجود بيت المقدس فيها؛ ورغم أننا نرى أن دمشق تنفرد بمكانة مخصوصة في النصوص الإسلامية، إلا أننا لا نستبعد تبعية هذه المكانة أصلاً لمكانة القدس، حيث إن المنصوص عليه في الفضائل الصحيحة الورود، إنما هو في غالبه لبيت المقدس تحديداً، مع إمكانية حمل بعض ما ورد فيها من فضائل معنى يجعل منها مركزاً لبركة تتسع لتشمل في توسعها مدينة دمشق ذاتها..

إن ما ورد من نصوص في دمشق خاصة قليل إذا ما قورن بما ورد في بيت المقدس، مما يدعونا إلى تأكيد أن معظم مكانة الشام يعود إلى احتضانها بيت المقدس.

وسنرى إن شاء الله تعالى أن بيت المقدس اختصت دون غيرها من مدن الأرض بوصف التقديس في القرآن الكريم، مما يمهد لمكانة خاصة لها بين مدن الإسلام.

وسيشمل هذا الباب على فصلين هما:

الفصل الأول: بيت المقدس مركز البركة الشامية.

الفصل الثاني: اختصاص مدينة القدس بوصف القدسية في القرآن الكريم.

الفصل الأول: بيت المقدس مركز البركة الشامية

لا أقصد من إيراد هذا الفصل التهوين من مقام الشام، بل قصدت أن أبين أصل الفضل الذي تتميز به الشام عن غيرها من البلدان. وسيرى القارئ الكريم أنني أنطلق في كل كلمة من كلمات هذا الفصل، كما هو شأني في سائر فصول هذا البحث، من نصوص الوحي الشريف، قرآنا وسنة، فهي المنهج الذي سرت معه حيث سار.

لقد رأيت أنه لا بد من استعراض بعض النصوص التي تُذكر في فضل الشام، رغم أنها بالأصالة واردة في فضل بيت المقدس؛ لأنطلق منها إلى تفسير فكرة أحاديث فضائل الشام عامة، والتأكيد بأن معظمها يستند إلى وجود بيت المقدس فيها.

وسأبين في بحثٍ تالٍ من هذا الفصل المكانة الخاصة بدمشق، حتى لا يتسرع إنسان فيحكم عليّ بأنني نزعته من دمشق ما ثبت في فضلها.

وسينقسم هذا الفصل إلى مبحثين اثنين، هما:

المبحث الأول: ذوبان مكانة بيت المقدس في مكانة الشام عند كثير من العلماء.

المبحث الثاني: فضائل دمشق خاصة والشام عامة.

المبحث الأول: ذوبان مكانة بيت المقدس في مكانة الشام عند كثير من العلماء

إذا كان العلماء والأئمة ينحون إلى تعميم البركة المذكورة في القرآن على الشام كله^(١)، فإننا نرى، رغم تأييدنا لهذا التعميم، أنه ناتج في نهاية المطاف عن انبعاث شعاع منيّر من بؤرة إشعاع ثرية، ومن مركز تنوير لا يكِلُّ، هو بيت المقدس، إلى أطراف سعِدت بهذا الإشعاع، وبهذا النور، لفوزها بالجوار المقدسي.

إن مُحمّل ما نقرؤه من آيات القرآن التي استُند عليها في الإفصاح عن مكانة الشام، إنما يذكر بيت المقدس فحسب، وهي بلا ريب جزءٌ من الشام.

ولننظر إلى استدلال الإمام ابن تيمية على بركة الشام في فتاواه، فهو حين تحدث عن استئثار الشام بالفضل العظيم، تراه يقول^(٢): «وقد دلّ القرآن العظيم على بركة الشام في خمس آيات، قوله: (وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها)^(٣)، والله تعالى إنما أورث بني إسرائيل أرض الشام^(٤)، وقوله: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)^(٥)،

(١) في معجم البلدان (٣/٣٥٤) لياقوت وهو يتحدث عن الشام قوله: «وأما حدّها: فمن الفرات إلى العريش، وأما عرضها فمن جبل طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم»؛ وفي قوله تعالى: (وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها)، يقول الإمام المفسر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (٩/٧٧): والأرض هي أرض الشام، وهي الأرض المقدسة، وهي تبتدئ من السواحل الشرقية الشمالية للبحر الأحمر، وتنتهي إلى سواحل بحر الروم، وهو البحر المتوسط، وإلى حدود العراق وحدود بلاد العرب وحدود بلاد الترك.

(٢) مجموعة الفتاوى، مرجع سابق، (ج٢٧/٢٩).

(٣) الأعراف: (١٣٧).

(٤) مع أن مُلك إسرائيل لم يشمل جميع الشام، بل ربما لم يتجاوز ما نسميه الآن: الضفة الغربية.

(٥) الإسراء: (١).

وقوله: (ونجيناہ ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين)^(١)، وقوله: (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها)^(٢)، وقوله تعالى: (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة)^(٣)، فهذه خمس آيات نصوص، والبركة تتناول البركة في الدين والبركة في الدنيا، وكلاهما معلوم لا ريب فيه، فهذا من حيث الجملة والغالب.

فابن تيمية إذن ككثير من الأئمة رضي الله عنهم، يستند إلى هذه الآيات المذكورة على اختصاص الشام بالبركة، رغم أن هذه الآيات واردة في فضل بيت المقدس؛ ونحن نرى أنه لا غبار على هذا الاستدلال، فإن فضل بيت المقدس فضل للشام، لكونها جزءا منها؛ ولقد شملت إحدى هذه الآيات على فضل الشام فيما يشبه الصراحة، وهي قوله تعالى: (الذي باركنا حوله)، تلك الآية التي وسّعت دلالتها حتى بلغت الشام كله.

إن تفسير هذه الآيات التي استند عليها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى باعتبارها نصوصا في فضل الشام، إنما يأتي تبعا لاحتضان الشام لبيت المقدس، إذ جميعها يتحدث في الحقيقة عن بيت المقدس أصالة، وما مقام الشام عامة فيها إلا تبعا لمقام بيت المقدس.

وليس أدل على هذا المعنى من آية الإسراء، التي هي في فضل بيت المقدس خاصة، وما للشام من فضل فيها إلا أنها مما حول المسجد الأقصى، فهي بناء على هذا الجوار المقدسي، نالت البركة التي جعلها الله حول المسجد الأقصى بقوله تعالى: (الذي باركنا حوله)، وهذه الآية، أعني آية الإسراء، ذُكرت عند العلماء رضي الله عنهم كدليل على فضل الشام، مما أخفى لدى كثير من الناس لبَّ فضل القدس.

(١) الأنبياء: (٧١).

(٢) الأنبياء: (٨١).

(٣) سبأ: (١٨).

وكذلك إبراهيم ﷺ إنما هاجر إلى بيت المقدس، قال ابن كثير الدمشقي في تفسير قوله تعالى: (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها)^(١): «يقول تعالى مُخبراً عن إبراهيم إنه سلّمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم، مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها»، وقول ابن كثير: «إلى الأرض المقدسة منها»، يدل بوضوح أن هجرة إبراهيم ولوط عليهما السلام كانت إلى جزء من بلاد الشام، هو ما يُسمى: الأرض المقدسة، ولقد رجحنا في فصل سابق تحت عنوان: مفهوم الأرض المقدسة، أن الأرض المقدسة هي بيت المقدس.

ويقول الأستاذ عبد الحميد طهماز^(٢)، وهو من مدينة حماه السورية: «والأرض التي بارك الله فيها للعالمين هي أرض بلاد الشام، بيّن ذلك سبحانه في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله..)»، ويقول أيضاً: «وفلسطين هي أفضل أرض في بلاد الشام، لأن فيها أولى القبلتين المسجد الأقصى ومسرى رسول الله ﷺ وهي الأرض المقدسة التي ذكرها سبحانه في قوله الكريم على لسان نبيه موسى ﷺ: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا تتردوا على أديباركم فتقلبوا خاطرين).

وعندما جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام سأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، .. وهي أرض فلسطين».

وهذا من أستاذنا الشيخ عبد الحميد طهماز توسيع لمعنى الأرض المقدسة، لتشمل عنده فلسطين كلها.

وبنو إسرائيل إنما هاجروا إلى الأرض المقدسة، وذلك بعد موت موسى وفي عهد تلميذه وفتاه يوشع بن نون عليه السلام، ولعله يدل على هذا المقصد المقدسي في دعوة

(١) مختصر تفسير ابن كثير، اختصار الشيخ محمد علي الصابوني، (٢/٥١٤).

(٢) في كتابه سبيل السعادة في سورة طه وكلمة التوحيد وأمة التوحيد في سورة الأنبياء، (٦٦-٦٨).

موسى عليه السلام قومَه إلى دخول الأرض المقدسة، ما رواه الإمام أحمد^(١) رحمه الله تعالى في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الشمس لم تُحسب على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس)، ومعروف أن يوشع بن نون سار إلى الأرض المقدسة التي أمر الله بني إسرائيل بدخولها، والحديث هنا يقول إنه سار إلى بيت المقدس، مما يعني أن الأرض المقدسة التي أمر الله بني إسرائيل بدخولها هي نفسها بيت المقدس.

وسليمان عليه السلام إنما ملك بيت المقدس وقليلًا مما حولها، وعليه، فالأرض التي بارك الله تعالى فيها الوارد ذكرها في قوله تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها)^(٢)، هي بيت المقدس.

وإن كثرة الوارد في بيت المقدس وفضائله ليسمح لنا أن نعتبر تلك الأحاديث الواردة في فضل الشام، هي أولاً وقبل كل شيء آتية في فضل بيت المقدس خاصة^(٣)، لما عُرف من الأحاديث التي تذكر بيت المقدس خاصة.

ونرى فيما يجب أن نختتم به هذا الموضوع، أن نشير إلى أن كل ما ورد في فضل الشام شامل لبيت المقدس، بخلاف ما ورد في بيت المقدس، فلا يشمل الشام عموماً

(١) المسند للإمام أحمد، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، رحمهما الله تعالى، (٢٧٥/٨، ح: ٨٢٩٨)، وظاهر كلام الشيخ شاكر تحسين أو تصحيح إسناده، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٥٥/٦) عن رجال إسناده: محتجٌّ بهم في الصحيح، وقد مضى تفصيل القول فيه في الفصل الذي جعلناه لمفهوم الأرض المقدسة.

(٢) الأنبياء: (٨١).

(٣) لقد فُسر التعبير بجزيرة العرب في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: (لا يجتمع في جزيرة العرب دينان) بالحجاز، من باب ذكر العام وإرادة الخاص به، ولا ندع الخيال يجري بنا إلى اعتبار المقصود بالشام بيت المقدس تحديداً، من نفس الباب؛ لسبب واضح هو ورود أحاديث تخص دمشق تحديداً، كما قد ذكرنا.

بالضرورة، ذلك أن بيت المقدس جزء من الشام، بل لا نَبُعدُ في القول إن قلنا: إن أصل البركة التي تعم الشام عائد إلى مركز بركتها المقدسي.

ولهذا، فإننا حين نقرأ في فضل الشام عند علماء الجغرافيا المسلمين، سنراها في أهم ما فيها راجعة إلى فضل بيت المقدس، وننقل قطعة من نص لشمس الدين المقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم..

يقول المقدسي تحت عنوان: إقليم الشام:

«إقليم الشام جليل الشان، ديار النبيين ومركز الصالحين، ومعدن البدلاء ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى، وموضع الحشر والمسرى، والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة، والثغور الجليلة والجبال الشريفة، ومُهاجر إبراهيم وقبره، وديار أيوب وبئرهِ، ومحراب داود وبابه، وعجائب سليمان ومدنه، وتربة إسحاق وأمه، ومولد المسيح ومهدهِ، وقرية طالوت وفهرهِ، ومقتل جالوت وحصنه، وجُبُّ أرميا وحبسه، ومسجد أوريا وبيته، وقبة محمد وبابه، وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحيى، ومشاهد الأنبياء وقرى أيوب، ومنازل يعقوب، والمسجد الأقصى، وجبل زيتا...»^(١)، إلى آخر ما ذكر المقدسي، مما نقره على بعضه وننقده في بعضه، فليس من شأننا أننا إذا أحببنا بلدا، أو اعتقدنا فيها فضلا أو قدسية، أن نبحت عما أصل له، فننسبه إليها، وإن عظمة المكان والزمان عندنا، تصدر من الثابت الصحيح، وما لا يثبت بالثابت الصحيح، فلا حاجة للبلد المعظمة إليه، والله المستعان.

وأنت ترى في النص الذي ذكرنا بعضه، أنه مذكور عند المقدسي تحت عنوان: إقليم الشام، وهو يذكر ما يراه في الشام من القدسية والفضل، وأرجو أن تلتفت عزيزي القارئ الكريم إلى أن أهم ما ذكره المقدسي في هذا النص يخص بيت المقدس، التي هي جزء من الشام، ويظهر أنه لأجل أن فضل بيت المقدس فضل منتشر فسيح الأبعاد، يظهر أنه لذلك يمتد هذا الفضل عند هؤلاء الفضلاء ليشمل الشام كله، ونحن في الحقيقة مع هذا الامتداد،

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لشمس الدين، أبي عبد الله محمد المقدسي، (١٥١).

لكن الحقيقية تطلب منا أن نرجع بالفضل إلى أصله ومركزه وبؤرته، التي هي سببه الأصيل، وهي معدنه النفيس، وهو هنا بيت المقدس.

إن الأحاديث الصحيحة القليلة التي تذكر دمشق خاصة، لا يمكن أن تسمح بتزييل الأحاديث التي تذكر اسم الشام عامة على دمشق، أي لا تسمح بتفسير كلمة الشام فيها بأثما دمشق، وذلك لسببين:

١ - قلة الأحاديث الصحيحة التي تذكر دمشق، فيما إذا قورنت بالأحاديث الصحيحة التي تذكر بيت المقدس خاصة.

٢ - إننا رأينا أن معظم فضل الشام كامن في رسالتها التي تؤديها في أواخر الزمان، وهذا ما ذكره ابن تيمية فيما نقلناه عنه إذ يقول^(١): «ودلت الدلائل المذكورة على أن ملك النبوة بالشام، والحشر إليها، فإلى بيت المقدس وما حوله يعود الخلق والأمر، وهناك يُحشر الخلق، والإسلام في آخر الزمان يكون أظهر بالشام»؛ وإن الأحاديث الصحيحة التي تذكر جوانب من هذه الرسالة، تذكر أن مسرح سريان مفعول هذه الرسالة هو بيت المقدس؛ فهذه الأحاديث، وبعضها متواتر، هي نفسها التي تذكر تخليص البشر من الأعرور الدجال ويأجوج ومأجوج، وصلاة عيسى ﷺ في بيت المقدس بعد نزوله في دمشق، وكون بيت المقدس مكان تجمع المسلمين أيام الدجال، وكون مسجد الأقصى معصوماً من فتنة الدجال، ونزول الخلافة في بيت المقدس آخر الزمان.. إلخ، إن مسرح كل هذه الأحداث هو بيت المقدس وما حولها؛ وهي ذاتها الرسالة التي تحملها الشام.

إننا لا نقصد الانتقاص من فضل الشام، ولكننا أيضاً لا نرضى بطريقة كثير من العلماء الذين يذكرون ما جاء في فضل بيت المقدس خاصة، فيجعلونه في فضائل الشام

(١) مجموعة الفتاوى، تأليف: ابن تيمية، اعتنى بها، وخرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز

عامّة، ويُسدّلون على بيت المقدس ستارا يُنسي أن الشام ما نالت هذا الفضل العظيم المذكور في الأحاديث وبعض الآيات إلا ببيت المقدس.

المبحث الثاني: فضائل دمشق خاصة والشام عامة

ولا ينبغي للقارئ الكريم أن يخرج من كلامنا السابق بنتيجة هي أننا نُهوّن من مكانة الشام أو دمشق، وما كان لنا أن نفعل ذلك بعد أن جاءت الأحاديث الصحيحة تبين هذا الفضل وتؤكدده، وإن ملاحظتنا القاضية بأن ما جاء في فضل الشام عامة يشمل بيت المقدس، وأنه لا يصحُّ احتزاله في بلد أو بقعة محدّدة من الشام؛ وإن ملاحظتنا الأخرى أن ما جاء في فضائل بيت المقدس خاصة أكثر بكثير مما جاء في فضائل الشام عامة، وأن هذه الفضائل يجب أن تُذكر كفضائل لبيت المقدس أصالة، وأنها إن ذُكرت كفضائل للشام، فيجب أن يكون ذلك تبعاً لكون بيت المقدس جزءاً من الشام؛ إن كل ذلك لا ينبغي أن يوقع القارئ الكريم في وهم أننا نُهوّن من مكانة الشام، فهي لا تصيب الشام بهوان، ومعاذ الله أن نفعل ذلك..

فللشام عامة مكانة أشادت بها الأحاديث الصحيحة، وتحدث عنها العلماء كثيراً، ولا نغض من قدرها في الإسلام ولا من قدر دمشق أبداً.

ونحن نبين هنا مكانة الشام عامة بأحاديث صحيحة، حتى لا يهيم القارئ خلاف ذلك عنا، ونقول ابتداءً: إن ما تملكه الشام من رصيد النهاية الملتزمة بأصول البداية الحجازية تجعل للشام عامة فضلاً ليس لغيرها من بقاع الأرض قاطبة، وإننا نرى أن نبداً هنا بذكر حديث صحيح، نستل من داخله ما يدل على مقصدنا هنا.

يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي^(١): (بيننا أنا نائم رأيت عمود الكتاب احتُمِل من تحت رأسي،

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٧٨/١٦، ح: ١٦٣٠) من طبعة دار الحديث بالقاهرة، وصحح إسناده محققه حمزة أحمد الزين؛ ورواه الحاكم، (٥٠٩/٤)، ولقد ذكر الألباني أنه رواه أيضاً الطبراني في الكبير والأوسط، وذكر الأستاذ الألباني رواية أحمد في صحيح الترغيب والترهيب، (٣/١٩٥)، ح: (٣٠٩٤).

فظننتُ أنه مذهب به، فأتبعته بصري، فعمدَ به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حين تقع
الفتن بالشام؛ قال الإمام العز بن عبد السلام^(١): «والمعني بعمود الإسلام: ما تعتمد أهل
الإسلام عليه»، وقال ابن تيمية^(٢): «وعمود الكتاب والإسلام: ما يعتمد عليه، وهم
حَمَلته القائمون به»، ونرى تفصيلا لقولهما أن عمود الكتاب هو ثوابت الشرع بصفتها
وُبُعدها عن اللوث والدخل والدخن، مع ما يلزم هذه الثوابت من علماء وأئمةٍ يحملونها
حملا صادقا.

ويظهر لي أن المقصود بالفتن التي ذكر الحديث وقوعها، هي فتن آخر الزمان، ومنها
فتنة المسيح الدجال وأجوج ومأجوج، وفتن أخرى الله بها عليهم، وحينما ذكر الرسول
ﷺ أن عمود الكتاب احتمال من تحت رأسه، وُعِدِي به إلى الشام، وبما أنه ذكر أن الإيمان
حين تقع الفتن سيكون بالشام، فإن هذا يُنبئ عن أن رسالة الشام الحقيقية هي رسالة
الزمان الأخير في عمر كوكب الأرض، ذلك الزمان الذي لا نستطيع تحديد أوان
إتيانه، ولا نستطيع تحديد مدة وجوده.

وفي حديث انتقال عمود الكتاب إلى الشام أيضا إشارة إلى أن هذه الفتن لن تكون
بمأمن من سطوة عمود الكتاب، فعمود الكتاب ما انتقل إلى الشام إلا لأجل مواجهة هذه
الفتن؛ وفيه أن أهل الشام محفوظون من الفتن، لانتقال عمود الكتاب إليهم؛ وهذا ما
أفهمه مما يوحيه كلام الرسول ﷺ حينما ذكر انتقال عمود الكتاب إلى الشام، أعني قوله:
(ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام).

وإنما لم نفسر الفتن بتلك التي وقعت في عهد الصحابة رضي الله عنهم، لأن الإيمان
كان أيامها في الحجاز لا في الشام، فالشام كانت أيامها مع العراق أرض الفتن، وكانت
الجيوش الشامية تمثل الفئة الباغية حينها، مما يؤكد لنا أن الحديث لا يتحدث عن

(١) في رسالته: ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تحقيق إياد خالد الطباع، (١٨).

(٢) مجموعة الفتاوى، ابن تيمية، (ج٢٧/٢٨).

أيامها، بل عن أيام بعدها، جاء في الأحاديث الأخرى بيان لها، من خلال بيان دور الشام في آخر الزمان.

وثمة أحاديث اشتهرت في فضل الشام، نذكر منها حديث الترمذي^(١): (إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وواضح منه أن أهل الشام مقياس عالمي للصالح والفساد؛ فالفساد لن يكون طاماً إلا بفساد أهل الشام، فإن فسدوا فلا خير في أحد؛ وإن صلحوا فالخير مأمول، وما دام رسول الله قد ذكر أن الشام خيرة الله من بلاده يصطفي إليها خيرته من خلقه، فإن هذا دالٌّ على استمرار الصلاح في أرض الشام.

ومما يؤكد استمرار الشام على الهدى والصالح، ما صدر عن رسول الله ﷺ من توجيه وجهه به أحد صحابته إلى اللحاق بجند الشام، فلقد روى أبو داود وأحمد^(٢) عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة: جند بالشام وجند باليمن وجند بالعراق)، قال ابن حوالة: خرّ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، فقال: (عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم، فعليكم بيمنكم، واسقوا من غدركم، فإن الله قد توكل لي بالشام وأهله)، وقال أحد رواة هذا الحديث معلقاً على الجملة الأخيرة منه: «ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه».

(١) رواه الترمذي (٤/٤٨٥، ح: ٢١٩٢)، ورواه الإمام أحمد: (١٢/٢٤٣، ح: ١٥٥٣٣، ١٥٥٣٤)، طبعة دار الحديث بالقاهرة، وصححه الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام للربيعي (ص١٧).

(٢) أبو داود، مع شرحه عون المعبود، (٧/١١٦، ح: ٢٤٨٠)، ومسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (١٣/٢٣١، ح: ١٦٩٤٢)، وصححه إسناده محققه حمزة أحمد الزين، وقال الأستاذ الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام للربيعي (١٢): حديث صحيح جداً.

فهذه الأحاديث وغيرها مما تناثر في كتب السنة تناثر اللؤلؤ، يجعل من الشام أرض صلاح في نهاية الزمان، فعلى بقعة منها هي بيت المقدس وأكنافه يُجثت الفساد، وينكسر احتجاج أهل الصليب بعبسى، وفي ساحتها ينبثق ميزان التفريق بين الصلاح والفساد؛ كل ذلك بسبب ما عُجنت به طينة هذه الأرض من معالم الإيمان، ومن تراث النبوة الأولى.

ولذا نرى ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول^(١): «فكان الإسلام في الزمان الأول ظهوره بالحجاز أعظم، ودلت الدلائل المذكورة^(٢) على أن ملك النبوة بالشام، والحشر إليها، فإلى بيت المقدس وما حوله يعود الخلق والأمر، وهناك يُحشر الخلق، والإسلام في آخر الزمان يكون أظهر بالشام، وكما أن مكة أفضل من بيت المقدس، فأول الأمة خير من آخرها، وكما أنه في آخر الزمان يعود الأمر إلى الشام، كما أسري بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فخير أهل الأرض في آخر الزمان أئمتهم مهاجر إبراهيم، عليه السلام، وهو بالشام».

ومما يدل على ما قاله الإمام ابن تيمية من أن الأمر في آخره هو للشام، ما رواه الإمام أحمد^(٣) عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه ثم قال: (يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك)،

(١) مجموعة الفتاوى، تأليف: ابن تيمية، اعتنى بها، وخرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز (ج٢٧/٢٨).

(٢) كان ابن تيمية قد ذكر أحاديث متعددة حول هذا الموضوع في فتاواه، قبل الفقرة التي ذكرناها.

(٣) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (١٦/٣٢٢، ح: ٢٢٣٨٦)، قال محقق هذه الطبعة الأستاذ حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح؛ ورواه أيضا أبو داود، (٢/٣٥٨، ح: ٢٥٣٥)، والحاكم في المستدرک، (٤/٤٢٥)، وصححه الأستاذ الألباني رحمه الله تعالى في صحيح أبي داود، (ح: ٢٢١٠) كما نقله عنه الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدّم، في كتابه: المهدي وفقه أشراف الساعة، (هـ-٧٢٩)، وصحّحه الأستاذ الألباني في صحيح الجامع الصغير، (٢/١٢٩٣-١٢٩٤، ح: ٧٨٣٨).

فهذا الحديث يُنبئ عن أن آخر موطن للخلافة الإسلامية سيكون في الأرض المقدسة، وهي من الشام قطعاً، ولكنها ليست الشامَ كلّها، بل هي بيت المقدس تحديداً كما رجّحنا في فصلنا ذلك، وإن رأينا من يفسر الأرض المقدسة في هذا الحديث بالشام، فالأمر لا يخرج عن بيت المقدس أيضاً، فهي على جميع الأحوال جزء من الشام.

والأحاديث في فضل الشام كثيرة، ولا يتسع لها المقام هنا، وليرجع القارئ الكريم إلى كتب فضائل الشام، فهي كثيرة ووافرة، وسيرى فيها كثرة ما ورد في الشام عامة.

غير أنني أؤكد أنه لا يجوز تفسير الشام في هذه الأحاديث بدمشق، ولئن صحّ تفسيرها بمدينة شامية على وجه الخصوص، فلا يصلح أن تكون هذه المدينة غالباً إلا بيت المقدس، لما ورد من خصوصياتها التي قرأ القارئ منها ما قرأ، وسيقرأ المزيد إن شاء الله تعالى.

وأما دمشق، فثمة أحاديث نبوية تشيد بها خاصة في آخر الزمان، وهي رغم قلتها إلى جانب ما صح في فضل بيت المقدس، إلا أنها ترفع من مكانة دمشق إلى أن تجعلها مأوى المسلمين في زمان ادهمت فيه الفتن؛ يقول ﷺ من حديث أبي الدرداء عند أبي داود وأحمد والحاكم وصححه وأقرّه الذهبي على تصحيحه^(١): (فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يقال لها: العوطة، فيها مدينة يقال لها دمشق، خير منازل المسلمين يومئذ)، وقال شارح سنن أبي داود شمس الحق العظيم آبادي^(٢): «فسطاط المسلمين: أي حصن المسلمين الذي يتحصنون به وأصله من الخيمة، الملحمة: المقتلة العظمى في الفتن الآتية، والعوطة: موضع بالشام كثير الماء والشجر»، وقال العلامة عبد الرؤوف المناوي:

(١) مسند أحمد طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٧٥/١٦، ح: ٢١٦٢٢) ورواه أبو داود (عون المعبود شرح سنن أبي داود) حديث رقم: (٢٧٣/١١، ح: ٤٢٨٦)، ومستدرک الحاكم، (٤/٤٨٦)، وقال الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام للربيعي (٣٧): حديث صحيح. ويُنظر لشرح الحديث: (فيض القدير) للعلامة عبد الرؤوف المناوي، (٤/٤٣٩).
(٢) عون المعبود لشمس الحق الفيروزآبادي، (٢٧٣/١١).

«أصل العُوطة كل مكان كثير الماء والشجر»، ونقل شارح أبي داود عن العلقمي: «وهذا الحديث يدل على فضيلة دمشق وعلى فضيلة سكانها في آخر الزمان، ومن فضائلها أنه دخلتها عشرة آلاف عين رأت النبي ﷺ».

وأرى أن الحديث يشير إلى فضل دمشق في فترة محدّدة بزمان الملحمة الكبرى، وهي الملحمة التي تقع بين المسلمين والروم، والتي يظهر على أثرها الأعور الدجال، كما ورد في الأحاديث النبوية؛ بخلاف بيت المقدس التي جاءت الأحاديث تتحدث عن فضلها في مساحة زمانية واسعة، لعل أوضحها ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وفيه ذكر الطائفة الظاهرة بالحق، المستمرة وجودا إلى أن يأتي الله بأمره، وأنها بيت المقدس وأكنافه، وسيأتي هذا الحديث بمكانه من هذا البحث؛ كل هذا فضلا عن الأحاديث التي تخص المسجد الأقصى بمكانة وقدسيتها خاصة، دونما حصرها بزمان معين.

الفصل الثاني: مدينة القدس مختصة بوصف القدسية في القرآن الكريم

إن بيت المقدس تشكّل مع مكة والمدينة، أقدس مقدسات الإسلام على هذه الأرض، ففي هذه البلاد الثلاثة أعظم مساجد الإسلام من حيث الفضل والمكان بين جميع عمارات الأرض قاطبة، يقول ابن خلدون: «فهذه المساجد الثلاثة قرّة عين المسلمين، ومهوى أفئدتهم، وعظمة دينهم، وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها، كثير معروف..»^(١).

وقد وُصفت هذه المدينة بالتقديس في كتاب الله تعالى، وذلك بقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطبا قومه بني إسرائيل^(٢): (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم^(٣))، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين)، والأرض المقدسة هنا هي بيت المقدس خاصة أو فلسطين عامة كما بيّنا في الفصل الرابع من الباب الأول، ولئن وجدنا من يقول: هي الشام، فإن كلامه آتٍ من باب التوسع في المعنى والمفهوم.

(١) تاريخ ابن خلدون، (٤٣٦/١)، وهذا الجزء الأول هو نفسه المعروف بمقدمة ابن خلدون.

(٢) سورة المائدة، الآية (٢١).

(٣) كانت هذه الكتابة حينما كان بنو إسرائيل يمثلون صيغة الإيمان، على دَخَلٍ كثير فيهم، ذلك أن الله لا يعد بالأرض إلا لمن يستحقها إيمانيا، قال تعالى: (وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)، وقال: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)، فهذا هو منطقنا الإيماني، وليس الله متحيزا لنسل من الأنسال، أو لعرق من العروق، لأن الله ليس عنصريا، وعلى هذا فليس لبني إسرائيل -إن وُجدوا حاليا- أي حق في الأرض المقدسة، لأنهم لا يمثلون حاليا إلا صورة الظلم بأشد صيغته تطرفا ووحشية، وإنما امتحن المسلمون باليهود في هذه الأرض ليطمئن أمر الله بتخليص العالم منهم فيها.

ولنا مناقشة مفصلة لدعوتي الحق التاريخي والوعد الديني، أصلنا أثناءها لرؤية تنطلق من أصول الشرع، وذلك في بحثنا: انتماء فلسطين بين دعاوى التوراتيين وحقائق الماضي والحاضر.

ووصف هذه الأرض بالقدسية في هذه الآية الكريمة، جعلها تزهر في الرصيد الروحي على معظم بلاد الأرض، وفي نفوس الأمة الإسلامية؛ بثوب من الجلال الخاص؛ ذلك أنه لم توصف أرض في القرآن الكريم بالقدسية كما وُصفت بيتُ المقدس خاصة أو فلسطين عامة.

ولقد جاء هذا الوصف لِمَعَانٍ اختارتها لها السماء تحديداً، وعجنتها بمسيرتها ورصيدها من تراث النبوة، ولقد كنا ذكرنا آية المائدة، التي تنص على قدسية هذه الأرض، وكذا أحاديث نبوية في فصول سابقة وستأتي أخرى في فصول لاحقة، تُسهم كلها في معنى التقديس هذا وتتضمنه.

ويكفي أن نشير إلى أن مدينة بيت المقدس هي المدينة الوحيدة من مدن الإسلام سُميت تسمية قدسية، لها أثر شريف في نشر بركة تقديسها على ما حولها، فحق لها أن يُطلق عليها بيت المقدس.

وأرجو أن ينتبه القارئ الكريم إلى أن حديثنا هنا عن مدينة مختصة بوصف القدسية في القرآن الكريم وهي بيت المقدس، أو عن منطقة ومساحة كبيرة تشمل مدناً كثيرة، وهي فلسطين عموماً، وأن هذا الوصف بالقدسية يرجع في أساسه إلى وجود المسجد الأقصى، وقد سمحت آية الإسراء بانبعث أقدار من بركة مسجد هذه المدينة على ما حولها من الأرض.

ولا ينافي هذا الذي نقوله من اختصاص مدينة بيت المقدس خاصة أو فلسطين عامة بوصف القدسية المُشعَّة، لا ينافي ما جاء في القرآن الكريم من وصف بُقعة أخرى بالقداسة، وهي البقعة المباركة التي كلم الله موسى وهو في واديهها، وهي من أرض سيناء وتسمى الطور، وذلك في قوله تعالى ذاكرة قصة موسى عليه السلام حينما كان يبحث عن جذوة نار في طريقه بعد خروجه بأهله من مدين: (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً، فقال لأهله امكثوا، إني آنست نارا لعلني آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى، فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس

طُوى^(١)، وهي القصة نفسها الوارد ذكرها في سورة النازعات^(٢)، وفي سورة القصص^(٣)، ففي قوله تعالى من سورة القصص: (فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين..).

وهذه القصة الشريفة من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، التي يخاطب الله تعالى فيها نبيه وكليمه موسى ﷺ، والتي فيها بُلغ هذا النبي الكريم نُبوته من الله تعالى؛ هذه القصة تصف مكانا غير بيت المقدس بالتقديس، وهو الذي سمته الآية (طُوى)، وهو وادٍ في سفح الطور كما ذكر ذلك الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور^(٤)، فهل هذا يعارض ما قلناه من أنه لم تُقدّس مدينة في القرآن إلا بيت المقدس؟

ونتعرف أولا على هذه البقعة الشريفة، ف (طُوى) الواردة في القرآن الكريم، إن فسرناها باعتبارها بقعة، فهي كما يقول أبو عبّيد البكري^(٥): «اسم وادٍ في أصل الطور بالشام»، وثمة أقوال أخرى في معناها، وذلك كقول بعضهم^(٦): هو اسم مصدر مثل هدى، أي هو مطويّ طُوى، أي طواه موسى بالسير في تلك الليلة، كأنه قيل: إنك بالواد المقدس الذي طويته سيرا، وقيل: هو أمر لموسى بأن يطوي الوادي ويصعد إلى أعلاه لتلقي الوحي، وقيل غير ذلك.

(١) سورة طه، (٩-١٢).

(٢) سورة النازعات (١٥-١٦).

(٣) سورة القصص (٢٩-٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (١١٢/٢٠).

(٥) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، تأليف: أبي عبّيد عبد الله بن عبد العزيز البكري

الأندلسي، تحقيق: مصطفى السقا، (٣/٨٩٦).

(٦) يُنظر تفسير الآية (١٢) من كتب التفسير، خاصة تفسير: التحرير والتنوير، للإمام الطاهر بن

عاشور (١٦/١٩٨).

والطور كما يقول البكري^(١): «جبل بيت المقدس، ممتد ما بين مصر وأيلة^(٢)،...، وهو الذي نودي منه موسى، قال تعالى: (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا)، وهو طور سيناء، قال تعالى: (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين) وقال تعالى في موضع آخر من كتابه: (والتين والزيتون وطور سينين)، ومعناها واحد».

وفي الدر المنثور: أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: «وإِ بِفلسطين قُدس مرتين».

وفي معجم البلدان^(٣): «ويقال لجميع بلاد الشام الطور»، وفيه: «وبالقرب من مصر عند موضع يسمى مَدَّين: جبلٌ يسمى الطور، ولا يخلو من الصالحين،...، وعليه كان الخطاب الثاني لموسى عليه السلام»، وفيه: «وبلسان التَّبَط: كل جبل يقال له الطور».

ولا يبعد في نظري من بعض ما ذكرناه أن تكون قدسية هذه البقعة التي خاطب فيها موسى ربه امتدادا لقدسية الأرض المقدسة فلسطين نفسها، وهذا ما يمكن أن نفهمه مما نقلناه عن الدر المنثور للسيوطي.

وعلى هذا فإن دعوانا أن التقديس لم توصف به في القرآن منطقة في الأرض، إلا أرض بيت المقدس، هي دعوى ذات وجه معقول ومقبول، وذلك على اعتبار أن «طوى» التي هي جزء من الطور التي قدّسها الله في القرآن، هي في ذاتها من بيت المقدس، وليست خارجة عن بيت المقدس، فوصفها بالتقديس هو وصف لبيت المقدس نفسه بالتقديس.

على أن من العلماء من له في «طوى» وتفسيرها وتفسير تقديسها قول آخر، يصرفها عن أن تكون اسم بقعة دائمة التقديس؛ فهذا أبو حيان الأندلسي ينقل في البحر المحيط، عن (قُطْرِب) قوله: «طوى من الليل، أي ساعة، أي قُدس لك في ساعة من الليل، لأنه

(١) معجم ما استعجم (٣/٨٩٧).

(٢) أيلة: مدينة تقع أقصى شمال الجزيرة العربية على البحر الأحمر، وهي غير إيلات، الواقعة عند أول مياه البحر الأحمر، المسمى عربيا: خليج العقبة.

(٣) معجم البلدان، لياقوت (٤/٥٣).

نودي بالليل فلحق الواديَ تقديسٌ محدّدٌ، أي إنك بالوادي المقدس ليلاً، هذا ولم يتعقب أبو حيان قول قطرب هذا، وكأنه مقر له به.

أي أنه جاء في هذا الوادي الموصوف بالتقديس في القرآن الكريم، جاء ما يجعل هذا التقديس منحصرًا في ساعة من الساعات، وهي الساعة المباركة التي كلّم الله تبارك وتعالى موسى حينها، أي أن قوله تعالى: (إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى)^(١)، أي فاخلع نعليك إنك بالوادي الذي قُدّسَ طوى، أي ساعة من الليل.

ولربما يصح أن نقول: إن طوى ليست من بيت المقدس، بل هي بقعة أخرى ليس لها بيت المقدس صلة، ولكننا نقول في الوقت ذاته: إن طوى نفسها قد ذُكرت في القرآن الكريم في سورة القصص بوصفها البقعة المباركة، قال تعالى^(٢): (فلما أتاهما نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين)، والبقعة المباركة هنا هي ذاتها (الوادي المقدس طوى)، كما ورد في آية سورة طه التي تلونها قبل قليل، ويظهر لي أن ذكرها باسم (البقعة) عائد إلى أن هذه البركة التي حظيت بها، وهذه القدسية التي نالتها، محصورة في جزء قليل من الأرض التي هي جزء منها، دون أن يكون لها امتدادٌ إلى سائر هذه الأرض.

فلقد ذكر اللغويون والمفسرون في تفسير كلمة (البقعة) ما يُمكننا أن نفهم منه هذا الفهم، ففي القاموس المحيط^(٣) هي: «القطعة من الأرض على غير هيئة التي بجنبها»، وينقل في معجم مقاييس اللغة^(٤) عن الخليل القول نفسه الذي نقلناه عن القاموس المحيط،

(١) سورة طه، (١٢).

(٢) سورة القصص، (٣٠).

(٣) القاموس المحيط، للفيروز آبادي (٩٠٩).

(٤) معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا (٢٨١/١).

وفي عمدة الحفاظ^(١): «البقعة: الموضع الخاص»، ثم نقل عن الليث نفس ما نقلناه عن الفيروزآبادي والخليل في معجم المقاييس.

وفي التحرير والتنوير^(٢): «هي القطعة من الأرض المتميزة عن غيرها، والمباركة لما فيها من اختيارها لتزول الوحي على موسى».

وهذا يعني في تقديري أن هذه البركة، وصنوها القدسية، إنما اختصا بقعة صغيرة هي ذلك الوادي الغائر في سفح جبل الطور، دون أن يشمل هذا التقديس والتبريك ما حولها، وإلا، فما السر في استخدام القرآن الكريم كلمة (البقعة المباركة) هنا وهي ذاتها (الواد المقدس) وهي -أي البقعة- التي بينا تفسيرها على النحو الذي نقلناه عن كتب اللغة والتفسير، لم تخرج عن أن تكون مكانا اختلف عما حوله، ولم يؤثر بما جاوره، ولم يقل الأرض المباركة، كما قال عن بيت المقدس، فالوادي المقدس هو هذه البقعة المباركة، والبركة والتقديس محصور فيها دون انسحابهما على ما حولها.

وهذا بخلاف بيت المقدس الذي أعطاه الله خصوصية المباركة الشاملة لما حوله، فطارت بركته إلى آفاق الشام كله، ووصف الله أرضه عموما بوصف التقديس، حينما أمر بني إسرائيل بدخول: (الأرض المقدسة) دون أن يقتصر على وصفها بالبقعة المقدسة، مع ما نالته الأرض المقدسة من رصيد ذكرنا بعضه، لم تنله تلك البقعة المباركة؛ فلا نعلم للوادي المقدس والبقعة المباركة من رصيد سوى ما عرفناه من قصة موسى واختيار الله له نبيا، وتكليم موسى فيه، وأنعم به من فضل، وأكرم به من تقديس، وأعظم به من بركة؛ لكن ما نعرفه من رصيد الأرض المقدسة أكثر بكثير مما نعرفه من رصيد هذه البقعة المباركة.

بعد هذه الجولة في معنى (الوادي المقدس طوى) لا بد أن نقول:

(١) عمدة الحفاظ، للسمين الحلبي (١/٢٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/١١٣).

إن وصف بيت المقدس بالأرض المقدسة، وصف يخصها كمدينة، بل لا مانع أن ينسحب هذا الوصف حتى يشمل فلسطين كساحة من الأرض شملت مدنا أكرمها الله تعالى بهذا الجوار المنيع تكويننا، الكريم أهلا، الفسيح صدرا، الندي ملمسا، الجميل مبسما، العلي مكانا، الغائر في أعماق الدهر وُجودا، الزاهي بجمال من النور توصله بالسماء، الثري مخزوننا فكريا وثقافيا، السني نورا، الأبدى مكانةً.

وهذا بخلاف الوادي المقدس طوى، الذي دار معناه بين أن يكون قُدس ساعة من الساعات؛ أو أن يكون بقعة منفصلة عما حولها دون اكتسابها معنى يجعل القدسية تنتشر من حولها؛ أو أن تكون قدسيته امتدادا لقدسية لبيت المقدس.

هذا ويجب أن نبين أننا لا نقصد أن نجتهد في كلامنا هذا من أجل إلغاء كرامة أكرم الله بها قطعة من الأرض، وإنما سار بنا البحث هذه السيرة في سبيل كشف معاني القرآن المتعلقة ببحثنا، فالقرآن قائدنا في كل حال.

الباب الرابع:

معالم قدسية بيت المقدس

لا بد من بيان أن بيت المقدس ليست في مكان ذي وضع مائي متميز، وليست ذات خصوبة خاصة في أرضها، تجعلها بساتين ذات بهجة، وليست سهلاً ممتداً يسهل السير فيه؛ كما أنها ليست أرضاً بترولية أو ذات مناجم ذهبية، وما إلى ذلك مما يمكن أن يُعتبر صفة تختال بها كثير من مدن الدنيا على غيرها، بل هي في ذلك كسواها من البقاع التي حولها^(١)، التي ليس فيها ما يميزها عما سواها من البلدان، ثراءً أو زرعاً أو ماءً؛ ولكنها رغم ذلك كله كسبت إليها أفئدة المؤمنين بها من أصحاب الأديان عامة وأهل الإسلام خاصة، فهي تهوي إليها؛ لتفهر بذلك نظريات أرضية مبتورة عن السماء، تدّعي أن الإنسان لا ينساق إلا إلى ما فيه إشباع غرائزه المتعلقة بالمادة فحسب، وأن هذا الإشباع لا تظهر سطوته إلا في تعلقه بهذه المادة.

ويلوح لي أن مصدر قدسية الأرض المقدسة متعدد الروافد والشرابين، لكنها تستقي كلُّها من نبع واحد، هو علاقة خاصة بالسماء، أسهمت في غرسها وغرزها أيدٍ موصولةً بالله سبحانه، وواصلَ سقيها على مدى العصور صديقون ومجاهدون وصالحون، مما جعل منها دوحة يحكي حفيفُ غصونها أحاديثَ الأنبياء، وينشر عبرها جهود الضنى التي بذلها أتباعهم على مدى العصور والدهور، وتحدث مسالكها عن خطوات النور المنبعث في آفاق الدنيا.

(١) وهذا الذي نقوله عن بيت المقدس، يذكرنا بمكة المكرمة التي قال الله عنها على لسان سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) سورة إبراهيم، آية (٣٧) وكان الله سبحانه شاء أن يقهر أهواء الناس لينساقوا إلى ما لا هوى لنفوسهم فيه، من مادة أو زرع أو ماء أو ما شابه ذلك، ولسان حالهم يقول: إن ثمة أشياء تدعو الناس إلى التمسك بالأرض غير ثرائها الاقتصادي أو موقعها الجغرافي، وما سوى ذلك.

وسأعرض هنا إن شاء الله تعالى لبعض المعاني التي جعلت من بيت المقدس أرضاً مقدسة، فألبسها تاج الوقار هذا، لتتعرف جميعاً على يواقيته ياقوتةً ياقوتة، قدر ما مكّني الله تعالى.

ولا أدعي أبداً أنني استوعبت كل ما هنالك، فالموضوع أكبر من بحث الباحثين.

وسيتكون هذا الباب من عشرة فصول:

الفصل الأول: ارتباطها في أول منشئها بالسماء.

الفصل الثاني: اجتماع الفضائل الكبرى في مسجدها الأقصى.

الفصل الثالث: كونها أرض الأنبياء، ومسرح دعوات السماء.

الفصل الرابع: اختصاصها بفتحها على يد الفاروق عمر.

الفصل الخامس: اختصاصها بتخليص البشر من أعدائهم.

الفصل السادس: اختصاصها بدوام الطائفة الظاهرة بالحق.

الفصل السابع: اختصاصها بكثير من الصحابة والمجاهدين والأولياء.

الفصل الثامن: كونها أرض المحشر.

الفصل التاسع: كونها بأفقهها الشامي أرض رباطٍ دائم.

الفصل العاشر: كونها آخر أرض تشهد الخلافة الإسلامية على الأرض.

الفصل الأول: ارتباطها في أول منشئها بالسماء

وهذا في تقديري أصل المعاني الآتية في الفصول التالية، فهذه الأرض ابتدأت أول ما ابتدأت حين نشأتها بشفافية الإيمان، وارتبطت أول ما ارتبطت بأنوار التوحيد، فهي المكان الذي بُني فيه ثاني بيتٍ وضعَ اللهُ على الأرض، فالقرآن الكريم قرر أن الكعبة أول بيت بُني على هذه الأرض، فقال: (إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين)^(١)، والحديث النبوي الصحيح ذكر القرب الشديد تاريخياً بين بناء المسجد الحرام وبناء المسجد الأقصى، فقد روى البخاري ومسلم^(٢) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ: أي مسجد وُضع في الأرض أول^(٣)؟ قال: (المسجد الحرام) قلت: ثم أي؟ قال: (مسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلِّه فإن الفضل فيه).

ولقد ثبت لدينا في بحثنا عن انتماء فلسطين بين دعاوى التوراتيين وحقائق الماضي والحاضر، أن الكعبة المشرفة بُنيت أول ما بُنيت في عهد آدم عليه السلام^(٤)، وذلك في حالة كون البانين الأوائل لها هم البشر لا الملائكة عليهم الصلاة والسلام، إذ ورد في روايات ذكرها الحافظ ابن حجر وغيره، وسيأتي بعضها قريباً إن شاء الله، أن البناة الأوائل

(١) سورة آل عمران، (٩٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري، (٤٦٩/٦، ح: ٣٣٦٦)، ورواه مسلم بشرح النووي، (٣٢٦/٣، ح: ٥٢٠)، والإمام أحمد في مسنده، (٥١٠/١٥، ح: ٢١٢٧٩)، (٤٩٤/١٥، ح: ٢١٢٣٠)، من طبعة دار الحديث بالقاهرة.

(٣) هكذا في هذه الرواية، وفي روايات أخرى: أوّلاً بدل أول.

(٤) أرجو أن أنتهز هذه الفرصة لأشيد بكتابين كريمين كتبهما المؤرخ العربي الفلسطيني الأستاذ محمد محمد حسن شرّاب، وقد استفدتُ منهما فوائد ذات أهمية في تحقيق نسبة بناء الكعبة المشرفة إلى آدم عليه السلام، هذان الكتابان هما: بيت المقدس والمسجد الأقصى، (٢٩٨-٣٠٥)، وكتاب: في أصول تاريخ العرب الإسلامي، (٢٢٩-٢٣٤).

للكعبة المشرفة هم الملائكة عليهم الصلاة والسلام، ولا يضيرنا القول بأن الملائكة هم بُناة الكعبة قبل آدم عليه الصلاة والسلام، بل هو يُسْهِم في بيان عمق الوجود التوحيدى في القدس الشريف، إذ الأقصى مبني بعد الكعبة بأربعين عاما، كما مضى في الحديث الصحيح الذي ذكرناه آنفا، وإذا كان هذا الحديث يتحدث عن أربعين عاما، هي الفترة الزمنية الفارقة بين بناء الكعبة وبناء المسجد الأقصى، فإن هذا يعني في تقديرنا أن المسجد الأقصى بُني في عهد آدم عليه السلام، في حال كون الملائكة هم بُناة الكعبة المشرفة، إذ يكون الملائكة بنوا الكعبة، لتركوا لآدم بناء الأقصى؛ أو يكون بناء الأقصى في عصر آدم عليه السلام، أو في بداية الجيل الأول من أبنائه الصُّلبيين، في حال كون آدم هو باني الكعبة المشرفة.

وإن إغراق الأقصى في القدم إلى عهد آدم يعني أنه القدس كمدينة لم تكن قد وجدت بعد، ويعني أيضاً أنها بُنيت على شرف الأقصى، مما يدل على أن القدس موصولة في نواتها بالسماء، إذ إن نواتها هي المسجد الأقصى ذاته.

هذا، ولا يصح أن يقال: إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الباني الأول للكعبة المشرفة، لأن الله تعالى قال على لسانه عليه الصلاة والسلام: (ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرّم..)، والمقصود بقوله: (من ذريتي) هو ولدُه الذي أسكنه إبراهيم في هذا الوادي غير ذي الزرع وهو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، يوم أن كان وليداً رضيعاً، وهذا يعني أن البيت كان مبنياً في يوم ما قبل هذا البناء الذي نسبه الله تعالى إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بقوله سبحانه: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيلُ..)، وهو يعني أن بناء إبراهيم وإسماعيل كان بناءً تجديدياً للبيت المحرّم، لا بناءً تأسيسياً، كما يقال: بنت قريش الكعبة، وإنما هو إعادة بناء، لا تأسيس بناء.

ونحب أن نستقي من بحثنا المشار إليه ما يلي من التحقيق حول زمان بناء الكعبة المشرفة، وذلك بشيء من التصرف:

روى البخاري^(١) في سياق قصة إبراهيم عليه السلام حين أسكن ولدَه إسماعيلَ عليه السلام وهو رضيع في مكة، أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء، فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: (نعم) قالت: إذن لا يضيّعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا هؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم..)، حتى بلغ: (..يشكرون)»، قال ابن عباس: «...فشربت وأرضعت

(١) البخاري مع الفتح (ح: ٣٣٦٤، ج ٦/٤٥٦-٤٥٧)، ورواه الإمام أحمد مختصرا جدا ذاكراً أجزاء منه في أكثر من موضع، منها في (٣/٣٨٧-٣٨٨، ح: ٣٢٥٠) وفي (٣/٤٣٠-٤٣١، ح: ٣٣٩٠) وذلك من الطبعة التي حققها الأستاذ أحمد شاكر، وأتمها الأستاذ حمزة أحمد الزين، وهي طبعة دار الحديث بالقاهرة، وقال الأستاذ المحدث أحمد شاكر معلقا (٣/٣٨٨) بعد أن ردّ على ابن كثير دعواه أن هذا الحديث «.. كأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات» قال -أي الأستاذ أحمد شاكر-: «وهذا عجبٌ منه، فما كان ابن عباس ممن يتلقى الإسرائيليات، ثم سياق الحديث يُفهم منه أنه مرفوع كُله، ثم لو سلمنا أن أكثره موقوف، ما كان هناك دليلٌ أو شبه دليل على أنه من الإسرائيليات، بل يكون الأقرب -أي من هذه الدعوى- أنه مما عرفته قريشٌ وتداولته على مر السنين، من تأريخ جدّتهم إبراهيم وإسماعيل، فقد يكون بعضُه خطأً وبعضُه صوابا، ولكن الظاهر عندي أنه مرفوع كُله في المعنى»؛ ومعنى قول أحمد شاكر: «قد يكون بعضُه خطأً»، يعني أن بعض ما ينقله هؤلاء عن آبائهم قد يكون خطأً، غير أن الحديث جاء ليؤكد ما هو صوابٌ منه؛ وأما قول ابن كثير في نفي كون البناء قبل إبراهيم، فهو ما قاله في قصص النبيين (١٧١)، فقد قال: «ولم يجئ في خبر صحيح أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام»، ولقد اتضح معنا أن نص ابن عباس هو من المعصوم عليه الصلاة والسلام حروفاً أو معانٍ، ثم إن قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) (إبراهيم: ٣٧) يكفي في الرد على كلام ابن كثير.

ولدها، فقال لها الملك: (لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله) وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله..)، وقال ابن عباس في آخره: (..ثم قال -أي إبراهيم-: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر) قال: (فاصنع ما أمرك ربك) قال: (وتعيني؟)، قال: (وأعيتك)، قال: (فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتا -وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها- قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت..).

وواضح من النظر في مواضع أربعة من هذا الخبر الشريف -قد ميزناها بخط متصل يجري من تحتها- عن ابن عباس أن البيت كان موجودا حينما قدم إبراهيم إلى مكة، كقوله: (حتى وضعها عند البيت..)، وقوله: (استقبل بوجهه البيت)، وقول إبراهيم في دعائه: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم)، وقول ابن عباس: (وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله..)^(١)، لكن قد يُعكّر على هذا الاستدلال ما ورد في سياق الخبر نفسه من قول الملك لأم إسماعيل (لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله)، وقول إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل: (فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتا -وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها- قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت..).

(١) وأستغرب لما وقع من الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي رحمه الله تعالى في كتابه بلوغ الأمان شرح الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني، فلقد ذكر رحمه الله رواية البخاري هذه عن ابن عباس، وقال بعد قول ابن عباس عن إبراهيم عليه السلام: (واستقبل بوجهه البيت)، قال: (أي موضعه)، ووجه الاستغراب أنه أول كلاما صريحا دون أن يكون داع يدفعه إلى هذا التأويل، وكأنه عندما اعتمد أن البيت لم يبنه إلا إبراهيم، وأنه لم يكن مبنيا قبله؛ كأنه رأى أن يؤول ما يخالف قوله، فقال ما قال، وأرى أن الأمر بخلاف ذلك تماما، وإلا فكيف يؤول دعاء إبراهيم الذي جاء مباشرة تماما لذكر استقباله البيت وهو قوله: (رب إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم)، وأرى أن محاولة التأويل هنا بالغة الضعف، بل لا داعي إليها. والشيخ رحمه الله تعالى مال هنا إلى قول ابن كثير في تاريخه أن إبراهيم هو أول من بنى البيت، وأقول: لِمَ المصيرُ إلى هذا القول، والحال أن النص النبوي هنا يفيد خلافا، وما الداعي إلى ذلك؟

هنا بيتا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت..)، فهذان الموضوعان اللذان اقتطفناهما من السياق لا يدلان بوضوح على ما نحن بسبيله، بل أحدهما وهو الثاني قد يشير إلى خلاف المقصود، أي أنه ربما يُشعر أن البيت لم يكن موجودا، وأن الذي أوجده هو إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، لكن هذا الفهم غير مستقيم مع سائر الخبر، فقول إبراهيم هذا، وكذا قول الملك من قبله، محتمل من حيث المعنى أحد أمرين: أولهما: أن يكونا هما فعلاً قد بنياه، وثانيهما: أن البيت كان مبنيا سابقا، ولكنه هُدم، وأن إبراهيم أعاد البناء، فسمى إعادة البناء بناءً؛ إذ إنه يصح لمن أعاد بناء شيء كان مبنيا سابقا وانهدم، أن يقال إنه قد بناه، ولهذا يقال: بنت قريش البيت، وبناه ابن الزبير، رغم أنه وقريشا إنما أعادا بناءه، فما دام قول إبراهيم هذا يحتمل^(١) معنيين، فإننا نُفسره بما ورد في سياق الخبر نفسه، من كلام إبراهيم، ومن كلام الملك، ومن دعاء إبراهيم نفسه، وهو القطعي غير المحتمل من حيث الدلالة، [تُنظر العبارات التي أجرينا تحتها خطأ متواصلا]، فهو لا يحتمل إلا معنى وجود البيت قبل إبراهيم، وأن إبراهيم ورد مكة والبيت مبني أصلا، ولعله كان قد هُدم غير أنه معروف أن ثمة بيتا كان هناك؛ فلأنه ورد في الخبر نفسه ما هو قطعي من حيث الدلالة، ومفيد أن إبراهيم ورد مكة والبيت مبني أصلا، لكن ربما انهدم، فإن كلامه مع ولده إسماعيل [تُنظر العبارات التي سارت تحتها خطوط متقطعة] يكون بمعنى إعادة البناء، وهذا واضح، فإن القطعي دلالة هو الذي يفسر المحتمل، لا العكس..

ثم إن سياق الخبر يدلّ بوضوح أنه لا أحد كان بمكة يومئذ، فهي غير عامرة بالبشر، يتضح ذلك مما يلي: قال ابن عباس: «..وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا،

(١) وكما ذكر قاضي مكة الحافظ أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكّي في كتابه (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١/١٤٧) أنه «لا شك أن الكعبة المعظمة بُنيت مرات،... ومنها بناء الحجاج بن يوسف الثقفي، وإطلاق العبارة بأنه بنى الكعبة تجوُّزاً، لأنه لم يبنِ إلا بعضها..».

فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ..» ولهذا دلالة، فإن كون مكة تخلو من البشر حينها، بل ومن الماء، فإن في ذلك دلالة أنها قد فرغت من البشر قديماً، قبل عهد إبراهيم عليه السلام بكثير، فإن الماء لا ينقطع مرة واحدة غالباً، وبالتالي، لا تخلو البلاد من أهلها دفعة واحدة، بل في حالتنا هذه تكون قد فرغت منذ زمان قديم جدا يعلمه الله، ولربما كان بعد الطوفان، إن صحَّ مثلاً أن الطوفان وصل إلى مكة، فإن لم يكن في مكة أحد، وكانت قواعد البيت التي أقام إبراهيم عليها البناء موجودة، بما صح من رواية ابن عباس، وكانت مكة قد فرغت قديماً من الناس، بما ذكرنا من تحقيق، فإن البيت يكون قد أقيم في بنائه الأول قديماً، في زمان يعلمه الله، قد يكون زمان آدم نفسه، كما سننقل بعد قليل.

والقول إن الكعبة قديمة البناء جدا، وربما يصل تاريخ أول بناء لها إلى عهد آدم أو إلى آدم نفسه عليه السلام، هذا القول هو قول الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى.

فقد قال في شرحه لهذا الحديث من فتح الباري: «وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «لما كان زمن الطوفان رُفِعَ البيتُ، وكان الأنبياء يجحونهُ، ولا يعلمون مكانه، حتى بوّاه الله لإبراهيم وأعلمه مكانه» قال ابن حجر: «وروى البيهقي في الدلائل من طريق أخرى عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: (بعث الله جبريل إلى آدم، فأمره ببناء البيت فبناه آدم، ثم أمره بالطواف به، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت وُضِعَ للناس) قال: «وروى عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء: «إن آدم أول من بنى البيت، وقيل: بنته الملائكة قبله» وعن وهب بن منبه: «أول من بناه شيث بن آدم» قال الحافظ ابن حجر: «والأول أثبت»^(١).

(١) فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٦/٤٦٣)، هذا ومن المعروف أن الحافظ ابن حجر لا ينقل في كتابه الفتح شيئاً على سبيل الاستدلال إلا أن يكون ما نقله قد صح الاحتجاج به عنده، وواضح من سياق كلام الحافظ أنه نقل ما نقل هنا مما يدل على زمن بناء البيت الحرام، وأنه

وقال الحافظ أيضا: «في رواية أحمد^(١) عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن سعيد عن ابن عباس: «القواعد التي رفعها إبراهيم كانت قواعد البيت قبل ذلك»،...، ومن طريق سعيد بن جبير عند ابن عباس: «رفع القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك» ومن طريق عطاء قال: «قال آدم: يا ربّ إني لا أسمع أصوات الملائكة، قال: ابن لي بيتاً ثم احفّف به كما رأيت الملائكة تحفّفُ بيّتي الذي في السماء» وفي حديث عثمان وأبي جهم «فبلغ إبراهيم من الأساس أساس آدم، وجعل طوله في السماء تسعة أذرع وعرضه في الأرض -يعني دوره- ثلاثين ذراعاً»،...، وفي حديثه أيضا: «إن الله أوحى إلى إبراهيم أن اتّبع السكينة^(٢)، فحلّقت على موضع البيت كأنها سحابة، فحفرا يريدان أساس آدم الأول» وفي حديث علي عند الطبري والحاكم: «رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلّمه فقال: يا إبراهيم: ابن علي ظلّي -أو علي قدري- ولا تزِدْ ولا تنقص، وذلك حين يقول الله: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) الآية^(٣)».

وعند شرحه حديث أبي ذرّ الذي ذكرناه قريبا، ذكر الحافظ ابن حجر حديث عبد الله بن عمرو عند النسائي، وهو قوله ﷺ: (أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلافا ثلاثة..)^(٤)، عند ذلك ذكر ابن حجر قول ابن الجوزي: «..أن الإشارة^(١) إلى

كان في زمن آدم عليه السلام، واضح أنه إنما نقله على سبيل الاحتجاج به، فيكون صالحا للاحتجاج به عنده، وهو الإمام الذي ألفت إليه الأمة من بعده أمانة علم الحديث فكان لها نعم ما كان...

(١) قال الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى: بسند صحيح، يُنظر كتابه الموسوعى (سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ١/١٨١).

(٢) قال مصحح تفسير القرطبي (١٢٢/٢) أن السكينة هنا هي الريح الخجوج، أي سريعة الممرّ.

(٣) فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٤٦٧/٦-٤٦٨).

(٤) وسيأتي تمامه قريبا إن شاء الله تعالى، والحديث رواه النسائي، (٣٦٤/٢)، ح: ٦٩٢) ورواه

أيضا الإمام أحمد، (٢٠١/٦-٢٠٢ ح: ٦٦٤٤)، وابن ماجه بنحوه، (١٧٣/٢)، ح: ١٤٠٨)، والحديث قال فيه الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله تعالى: «إسناده صحيح».

أول البناء ووضع أساس المسجد، وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة، ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس، فلقد روينا أن أول من بنى الكعبة آدم ثم انتشر ولدُه في الأرض، فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيت المقدس، ثم بنى إبراهيم الكعبة بنص القرآن^(١)، وكذا قال القرطبي: «إن الحديث لا يدل على أن إبراهيم وسليمان لما بنيا المسجدين ابتداء وضعهما لهما، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما»، ثم ذكر بعد ذلك قريبا أن الاحتمال الذي ذكره ابن الجوزي موجه..^(٢).

وواضح أن الحافظ ابن حجر لم يتعقب النقول التي نقلها، والتي تفيد أن آدم عليه الصلاة والسلام أول من بنى البيت الحرام، وواضح أنه بعدم تعقبه إياها، أنه يعتمدُها، إما لتعاضدها وكثرتها، وإما لأنه ثبت لديه صحة بعضها، وذلك على ما عُرِف من خطأ ابن حجر في كتابه الفتح.

وإن القول بأن آدم عليه السلام هو باني الكعبة المشرفة، هو قول العلامة ابن خلدون في المقدمة التي استهل بها تاريخه المشهور، فقد قال: «فأوليتها فيما يقال أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور، ثم هدمها الطوفان بعد ذلك، وليس فيه خير صحيح يعول عليه، وإنما اقتبسوه من محمل الآية في قوله: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل)..^(٣)»، وقول ابن خلدون إنه ليس في بناء آدم للكعبة خير صحيح، أي بانفراده وإلا فكثرة الاخبار فيه يقوي بعضها بعضاً، ويظهر أن القول بأن آدم هو أول بانٍ للكعبة المشرفة هو القول الذي تواردت عليه الأدلة التي يتقوى بعضها ببعض، قال الحافظ ابن حجر: «وقد وجدتُ ما يشهد له، ويؤيد قول من قال: إن آدم هو الذي أسس كلا

(١) أي أن الإشارة الواردة في حديث أبي ذر (أي مسجد وضع في الأرض أول)، وقول الرسول (المسجد الحرام)، ثم سؤال أبي ذر: (ثم أي)، وقول الرسول: (مسجد الأقصى).

(٢) فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٦/٤٧٠-٤٧١).

(٣) تاريخ ابن خلدون، (١/٤٣٦)، وهذا الجزء الأول هو نفسه المعروف بمقدمة ابن خلدون.

المسجدين، فذكر ابن هشام في (كتاب التيجان) أن آدم لما بنى الكعبة أمره الله بالسير إلى بيت المقدس، وأن بينيه، فبناه وَنَسَكَ فيه، وبناء آدم للبيت مشهور..^(١).

ولذا فأنا أميلُ إلى قول من قال إن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم، لما قرأنا قريبا من حديث ابن عباس عند البخاري؛ ثم هو قول القرطبي في تفسيره، فلقد قال مفسراً قوله تعالى من الآية التي نحن بصددِها: (عند بيتك المحرم): «يدلُّ على أن البيتَ كان قديماً، على ما روي قبل الطوفان..»^(٢)، وهو كلام الآلوسي في روح المعاني^(٣) وقول أبي السعود^(٤) وقول أبي حيان الأندلسي^(٥) في تفسيره، فقد قال: «والظاهر أن قوله: (عند بيتك المحرم) يقتضي وجود البيت حالة الدعاء، وسبقه قبله»، وهو كذلك قول الإمام المُحدِّث محمد بن يوسف الصالحى الشامى الذي ردَّ^(٦) على الحافظ ابن كثير في نفيه أن يكون البيت مبنيًا قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: «وفيه نظر، لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة».

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٤٧١/٦).

(٢) تفسير القرطبي (٣٧١/٩).

(٣) في تفسيره روح المعاني (٢٣٦-٢٣٧/١٣)، فلقد ساق كثيرا من رواية ابن عباس المشار إليها أعلاه، وساق قوله: «..استقبل بوجهه البيت، وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول،...، ثم دعا بهذه الدعوات: ربنا...»، دون أن يحاول تفسيرها مجازيا، كما قد فعل من بعد الأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا، حين قال في قول ابن عباس عن إبراهيم: (استقبل بوجهه البيت)، قال: أي موضعه؛ فعدمُ فعلِ الآلوسي فعلَ البنا هنا فيما بعد، يدل على أنه يرتضي الأمر حسب السياق دون دخول في عالم المجازات التي لا يُلجأ إليها إلا حين الضرورة المقتضية، بل أكثر من ذلك، فقد قال الإمام الآلوسي عند تفسيره لقوله تعالى: (عند بيتك المحرم)، قال: «..وسماه بيتاً باعتبار ما كان، فإنه كان مبنيًا من قبل..»، ونقل رأياً آخر بصيغة: وقيل.. التي تقتضي التضعيف.

(٤) في تفسيره (٥٢/٥) فإنه ذكر أن تسميته إذ ذاك بيتا «..باعتبار ما كان من قبل، فإن تعدد بناء

الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه، وإنما الاختلاف في كمية عدده..».

(٥) البحر المحيط، (٤٢١/٥).

(٦) في كتابه الموسوعي: سبل الهدى والرشاد، (١٧٢/١).

إن المسجد الأقصى هو النواة التي تأسست حوله مدينة القدس، بل هو النواة الأولى للمدينة ذاتها، فما يعني أنها مرتبطة في أول منشئها بالسماء.

الفصل الثاني: اجتماع الفضائل الكبرى في مسجدها الأقصى

وهذا الشريان امتداد أو انبثاق عن ذلك النبع الأول الذي فصلنا القول فيه، وجعلناه في الفصل السابق تحت عنوان: ارتباطها في أول منشئها بالسماء، بل كأن ما في هذا الفصل هو نفس ذلك النبع، وإنما الاختلاف في زاوية الرؤية.

فلقد بيّنا أولاً أن القدس توحيدية المنشأ، وذلك مما أثبتناه من كون الأقصى الموجود فيها قد نشأ وتأسس أول مرة منذ أوائل الوجود البشري على الأرض، ونودُّ أن نبين هنا مسألة أخرى تتعلق بالأقصى ذاته، ألا وهي: كون الأقصى مجمع فضائل متفوّقة على ما جمعته بيوت الله في الأرض، ما خلا بيتين كريمين، سبقا الأقصى فضلاً، وهما: المسجد الحرام، والمسجد النبوي..

وكوننا ذكرنا أن المسجد الحرام والمسجد النبوي سبقا المسجد الأقصى في الفضل، فإن هذا المعنى لا يُنغصُ على مكانة الأقصى، فالأمكنة تتفاضل كما تتفاضل الأزمنة والأشخاص والأحوال، وكون مكانٍ أفضلَ من مكانٍ آخر، لا يعني أن المفضول ذاهبُ الفضل، أو أن قدسيته تلاشت، بل الأمر غير ذلك تماماً، فلقد فضّل محمد ﷺ على كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكنّ تفضيل محمد على الأنبياء، لم يزل مكانة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فكذلك لا يجوز أن تنزل مكانة الأقصى بسبب فضل المسجدين الحرام والنبوي عليه.

بل إن للأقصى من الفضائل ما ليس للحرمين الشريفين بمكة والمدينة، فهو وحده من بين بيوت الله اجتمع فيه الأنبياء جميعاً للصلاة، كما ورد في أحاديث الإسراء والمعراج.

والآن حين الشروع في بيان الفضائل التي تجمعت في المسجد الأقصى:

أولاً: تشریف الأقصى برحلة الإسراء من مكة إليه، وبالانطلاق منه إلى السماء

ولقد كانت رحلة الإسراء والمعراج بالروح والجسد، ورغم أن الأئمة رضي الله عنهم نقلوا أن ثمة خلافاً وقع في موضوع الإسراء والمعراج هل كانا بالروح والجسد، أم كانا بالروح فقط^(١)؟ فإنني أرى أن مثل هذا الخلاف ينبغي أن يُدْفَن مع ما يُدْفَن من بقايا الآراء البدعية، ومن بقايا الاجتهادات التي كان سببها الأساس: عدم وصول النص إلى ذوي الرأي أو الاجتهاد الشاذ؛ فثمة مسائل تسبب عدم وصول النص الحاكم فيها إلى بعض الأئمة، إلى الاجتهاد الخاطئ في تصوّر حقيقة ما نُقِل إليهم منها، فانبثق عن مثل هذه الحالة آراء لو علم الإمام صاحب الاجتهاد المخالف بالنص الذي ورد فيها، ما رآها.

ومسألتنا هنا تدور حول أحد هذين النوعين من الاجتهادات، فإما أن السبب الذي دفع أصحاب الرأي القائل: إن الإسراء كان بالروح فحسب هو نفثة بدعية أملت برأيه، وإما أن يكون السبب أن النصوص المبيّنة لم تصله، فقال ما قال.

وبعد أن كتبتُ هذه السطور، سَعِدْتُ بقريب من فحواها بل بأفضل منها، للحافظ ابن حجر العسقلاني، الذي قال في استهلاله شرح كتاب الصلاة، باب: كيف فُرِضت الصلاة ليلة الإسراء؟ من صحيح البخاري، قال: «وهذا مصيرٌ من المصنف إلى أن المعراج كان في ليلة الإسراء^(٢)، وقد وقع في ذلك اختلاف فقيل: كانا في ليلة واحدة، في يقظته

(١) يُنظر في بيان هذه المسألة: شرح النووي على صحيح مسلم، (ج٢، ص: ٢٦١)، ويُنظر أيضاً: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (ج: ١، ص: ٥٤٨، ج: ٧، ص: ٢٣٧).

(٢) وجه الدلالة على هذا، هو أن البخاري رحمه الله تعالى جعل في الترجمة التي ذكرناها قبل ذكرنا لهذا النص من كلام ابن حجر، جعل فرض الصلاة حاصلًا في ليلة الإسراء، وبما أن الصلاة فُرِضت أثناء معراجه صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، فإن هذا يدل عند البخاري أن ليلة الإسراء

ﷺ، وهذا هو المشهور عند الجمهور^(١)، ثم ذكر الخلاف في: هل الإسراء والمعراج رحلتان أو رحلة واحدة، إحداهما للإسراء والأخرى للمعراج، وهل كانت إحداهما مناما والأخرى يقظة، أو هل كانتا يقظة.. إلخ، ثم قال بعد كل ذلك: «والذي ينبغي ألا يجري فيه الخلاف أن الإسراء إلى بيت المقدس كان في اليقظة، لظاهر القرآن، ولكون قريش كذبتة في ذلك، ولو كان مناما لم تكذبه فيه ولا في أبعده منه»^(١)، وقال أيضا في شرحه لحديث الإسراء من كتاب مناقب الأنصار: «فمنهم من ذهب إلى أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد المبعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء الحديث والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك..»^(٢).

وعلى كل حال: قطعت جهيزة قول كل خطيب، فلقد وردت الأحاديث الصحيحة التي تكاد تصرّح أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد.

ومن أجل البركة التي نتوخاها لبحثنا هذا، فإننا نورد رواية واحدة من روايات حادثة الإسراء والمعراج، نقصد من وراء إيرادها أن نقذف بأنفسنا وبالقارئ الكريم إلى الانغماس في أنفاس الرسول الكريم ﷺ، تبركاً وتعلماً.

فلقد روى مسلم^(٣) رحمه الله تعالى في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيتُ بالبراق، فركبته، حتى أتيتُ بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلتُ المسجد فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريل عليه السلام ياناء من خمر وإناء من لبن، فاخترتُ اللبن، فقال جبريل

هي نفسها ليلة المعراج، وهو الحق الذي عليه جماهير الأمة، والذي لا يصلح الخلاف فيه.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ بن حجر العسقلاني، (١/٥٤٨).

(٢) المرجع نفسه، (٧/٢٣٧).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، (٢/٢٦٢-٢٦٥، ح: ١٦٢)، ورواه أيضا البغوي،

(١٣/٣٤٣-٣٤٤، ح: ٣٧٥٣).

ﷺ: اخترت الفطرة؛ ثم عَرَجَ بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه؛ ففتح لنا فإذا أنا بآدم، فرحَّبَ بي ودعا لي بخير؛ ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثاني، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكرياء، صلوات الله عليهما، فرحَّبًا ودعوا لي بخير؛ ثم عَرَجَ بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أُعطي شطرَ الحسن؛ فرحَّبَ ودعا لي بخير؛ ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا يادريس ﷺ، فرحَّبَ ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: (ورفعناه مكانا عليًّا)؛ ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحَّبَ ودعا لي بخير؛ ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحَّبَ ودعا لي بخير؛ ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ، مُسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفَ ملكٍ لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال؛ قال: فلمَّا غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرضَ عليَّ خمسين صلاةً في كل يومٍ وليلة،

فترلتُ إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرضَ ربُّكَ على أُمَّتِكَ؟ قلتُ: خمسين صلاةً، قال: ارجع إلى ربِّكَ فاسأله التخفيف، فإن أُمَّتَكَ لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوتُ بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعتُ إلى ربي فقلت: يا ربِّ خففْ على أُمَّتي، فحطَّ عني خمسا، فرجعتُ إلى موسى فقلتُ: حطَّ عني خمسا، قال: إن أُمَّتَكَ لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربِّكَ فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى، وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلة، لكل صلاةٍ عشرٌ، فذلك خمسون صلاةً، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها، لم تُكتب شيئا، فإن عملها، كُتبت سيئة واحدة؛ قال: فترلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف^(١)، قال رسول الله ﷺ: فقلتُ: قد رجعتُ إلى ربي حتى استحيتُ منه).

إن هذا الحديث كريم، وإن هذه لرحلة مباركة، صعدت بمحمد إلى المألى الأعلى، فرأى من عجائب العلى ما رأى، فما كذب الفؤاد ما رأى، وما زاغ البصر وما طغا، وما رجع محمد من السماء إلى الأرض إلا محمَّلا بهدية الرحمن إلى أهل الأرض.

وإنه قد اختار الفطرة في هذه الرحلة الكريمة، في المسجد الأقصى نفسه، وقد ورد في الحديث الذي ذكرناه في قصة الإسراء: (ثم دخلتُ المسجد فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترتُ اللبن، فقال جبريل ﷺ: اخترتَ الفطرة، ثم عرَّجَ بنا إلى السماء..).

(١) وفي مراجعة موسى لمحمد صلى الله عليهما وسلم في مسألة التخفيف هذه، دليل واضح على ما جُبلت عليه نفوس الأنبياء من الخير للبشر، ومن عدم التحاسد بينهم، فلو كان في موسى حسد، لترك محمدا صلى الله عليه وسلم يتعب مع أُمَّته كما تعب موسى، ولكنه آثر أن يعرفه على تجربته مع بني إسرائيل، حتى لا يقع في مثلها محمد صلى الله عليهما.

قال الإمام النووي: «فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة، ومعناه والله أعلم: اخترت علامة الإسلام والاستقامة»^(١).

وهذه الفضيلة تعود في تقديري إلى علاقة بأصل نشأة بيت المقدس ومسجدها الأقصى، اللذين نشأ أول ما نشأ على التوحيد والفطرة، وهو ما قرّره قريبا، فكأن ما كان من دعاوى أهل الكتاب مما يخالف الفطرة، وهم يتخذون الأرض المقدسة مأوى لدعواهم، كأن ذلك كان يقتضي أن ترسخ معالم الفطرة في هذا المكان ذاته، فجاء اختياره صلى الله عليه وسلم للبن على ما سواه تأكيدا للفطرة، ورفضاً للانحراف عنها، في المكان ذاته الذي يدّعيه المنحرفون عن الفطرة.

ولئن سألتني عزيزي القارئ الكريم عن ممر الرسول بين الأرض والسماء، فسأقول لك: إنه المسجد الأقصى ببيت المقدس، تكريما من الله تعالى لهذا الموطن الشري بعظيم عطائه الهادي إلى الرحمن، وكأنه تذكير بما لهذا الموطن من الفضل والخير العميمين في تراث النبوة الأولى.

ولقد نزل القرآن يحمل ذكرى إلى الأبد، تقذف في قلوب المؤمنين معالم ذلك الربط المحكم بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى والسموات العلى، «وبالتالي فإن هذا المسجد الأقصى شارك المسجد الحرام، بورودهما معا في آية واحدة، مما يدل على أنهما يتشاركان أيضا من حيث الأهمية الدينية، ولو لم يكن الأمر كذلك، لما اختار الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ العروج من السماوات العلى من المسجد الحرام بمكة المكرمة عبر المسجد الأقصى ببيت المقدس، وأنه بمجرد اختيار هذا المسجد الأخير لهذه النقطة النبوية من الأرض إلى السماء، اتضحت معالم القدسية الروحية له، بوصفه معبدا إسلاميا، يتمتع بخصوصيات دينية متميزة، تجعل له عند المسلمين مكانة لا يضارعه فيها غيره من المساجد الأخرى، حاشا المسجد الحرام، الذي فيه الكعبة المعظمة، قبلتهم في صلاتهم، وحوّلها

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، (٢/٢٦٣).

مطافهم في حجهم»^(١)، وحاشا المسجد النبوي، الذي يضم جسد المصطفى ﷺ أفضل من مشى على الأرض.

وانبعثت البركة تنتشر وتمتد وتتوسع دائرتها حول المسجد الأقصى، لتكون بيت المقدس أول ما نال من ذلك التكريم حظه الوافر، وهذا ما يمكن أن يُفهم من آية الإسراء، قال الشيخ شمس الدين محمد بن شهاب المنهاجي السيوطي حول الآية الأولى من سورة الإسراء^(٢): «فلو لم يكن لبيت المقدس من الفضيلة غير هذه الآية، لكانت كافية، وبجميع البركات وافية، لأنه إذا بورك حوله فالبركة فيه مضاعفة، ولأن الله تعالى لما أراد أن يعرج بنبيه محمد ﷺ إلى سمايه^(٣) جعل طريقه عليه، تبييناً لفضله، وليجعل له فضل البيتين وشرفهما، وإلا فالطريق من البيت الحرام إلى السماء كالطريق من بيت المقدس إليها».

وعليه، فلقد نال الأقصى بهذا الاختيار شرفاً لم ينله مكان آخر.

ولقد امتدَّ هذا الشرف ليشمل بفضله مساحة كبيرة هي على قول كثير من المفسرين: جميع المنطقة الواقعة بين الفرات والنيل، فلئن أعلنت الرحلة النبوية المباركة فضل المسجد الأقصى، فلقد أعلنت الآية الكريمة فضله وفضل الذي حوله بقوله تعالى: (الذي باركنا حوله).

(١) المساجد في الإسلام، للشيخ طه الولي، (٤٢٠).

(٢) إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تأليف شمس الدين محمد بن شهاب المنهاجي السيوطي، تحقيق: أحمد رمضان أحمد، (١/٩٥)، وهذا المنهاجي السيوطي هو غير جلال الدين السيوطي المشهور صاحب الدر المنثور في التفسير، والألفية في الحديث، والمزهر في اللغة، فصاحب هذه الكتب مات سنة (٩١١)، أما صاحبنا وصاحب إتحاف الأخصا، فقد مات سنة ٨٨٠.

(٣) أي: سمائه.

ولقد كنا اكتفينا بما نقلناه من حديث مسلم في الإسراء والمعراج، فلا نرى ضرورة سرد قصتهما، رغم ما نرجوه من بركتها؛ ذلك أن هذه القصة غاية في الشهرة بين المسلمين، ونخشى من التطويل على القارئ الكريم.

غير أننا لن نترك مقام ذكرها دون أن ننبه إلى بعض ما تتضمنه هذه القصة من مسائل الجلال المرتبط ببيت المقدس طهره الله تعالى..

إن رب السماء والأرض سبحانه وتعالى قادر على أن يُصعد محمداً ﷺ إلى السماوات من مكة المكرمة، لكنّه سبحانه جعل طريق محمد إلى السماء يمر ببيت المقدس، لتظهر مكانة بيت المقدس، وليجعلها الله تعالى جزءاً من الدين، ثم ليصحّ بعد ذلك أن نصف بيت المقدس بأنها مدينة محمد ﷺ، فهي المدينة التي شرفها الله تعالى بهذه الرحلة الفدّة إليها، وبإمامة محمد الأنبياء صلى الله عليهم وسلم فيها، وبعروجه منها إلى السماوات، ليرى من آيات ربه الكبرى.

إن هذه المعاني كلها، مع ما لهذه المدينة من فضائل سنذكر ما يتيسر لنا منها، تؤسس في نفس المسلم سياحاً يحميه ويحمي المدينة المقدسة معاً..

فهو يحمي المدينة من إمكانية أن ينساها المسلمون، فيدفعهم ذكرها المشوِّث في الآيات والأحاديث إلى توجيه جهودهم للمحافظة عليها، وصد العدوان عنها، لا على اعتبارها أرض الإسلام والمسلمين فحسب، بل على اعتبار إضافي آخر، فهي في الإسلام أرض موصولة بالسماء، وهي فيه أرض الأنبياء، وهي أرض الإسراء، وهي ذات الرصيد الإيماني الكبير؛ ولقد نالت في الإسلام خصائص شرعية وقدرية لم تنلها أرض أخرى..

إن هذا هو الحال الطبيعي لهذه الأرض في عقيدة المسلم، حتى إذا أظلت المسلمين غمامة سوداء، فضاعت منهم المدينة المقدسة، وآواها الحال إلى أيدي شذاذ البشر وقاتلي الإنسانية؛ حتى إذا وقعت مثل هذه الكارثة الفجيعة، طلعت على المسلمين

آيات القرآن وأحاديث الرسول، تبين مقام المدينة، وتبثُّ في أنفسهم العزيمة كل يوم بل كل ساعة لأجل تطهيرها، فمقام هذه المدينة في الدين، مقام لم تنله مدينة أبداً، ولن سبقت مكة والمدينة في مجمل الفضل، فلقد سبقت بيت المقدس في بعض ألوان الفضل.

ثم إن هذا السياج يحمي النفس المسلمة من عار نسيان المدينة إذا أصابها رجس من الأرجاس، فيمنعه مقامها الديني الرفيع، وميراث النبوات فيها، من أي قرار من شأنه تضييع انتسابها إلى الإسلام والعرب، وكأنها تحكم على من يفعل هذه الجريمة بأنه قطع صلة نفسه بالإسلام والعرب معاً.

وفي هذه الرحلة المباركة إلى بيت المقدس، استلم محمد ﷺ الراية من الأنبياء، إذ صلى بهم إماماً في المسجد الأقصى، وكان لسان حالهم يقول ما قالتها الصحابة يوم السقيفة عن أبي بكر رضي الله عنه: رضيه رسول الله لديننا، أفلا نرضاه لديننا، فكأن رُسل الله صلى الله عليهم وسلم يقولون حين صلوا مأمومين وراء محمد: رضيك الله لديننا أفلا نرضاك لديننا، وقتش بعدها عن غزير المعاني التي تحملها تلك الصلاة، لتقودك إلى أن محمداً ﷺ هو إمام البشر أجمعين، وأين نال محمد ﷺ الإقرار بهذه الريادة والقيادة؟ إن قصة الإسراء والمعراج لتخبرك خبر العارف المتيقن: إنه ناله في بيت المقدس؛ لتفهم ما يمكن أن تفهمه من قوله تعالى واصفاً الأرض المقدسة: (.. التي باركنا فيها للعالمين)، فحينها بإمكان الإنسان أن يفتح على معنى جليل من معاني الإسراء والمعراج: إنه تنصيب هذه الأمة لخير البشر، في الأرض المقدسة، فهي الأمة الوارثة، وهي الأرض المباركة للعالمين.

ولقد روى الإمام أحمد في مسنده^(١) كلام ابن عباس رضي الله عنهما الذي يذكر فيه صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنبياء في المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت ثم التفت، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه).

(١) من مسند الإمام أحمد، تحقيق وتخريج أحمد محمد شاكر، (٣/٦٤، ح: ٢٣٢٤)، طبعة دار

ثانياً: فضل الصلاة فيه

وردت أحاديث متعددة تجعل للصلاة في المسجد الأقصى مقاما عاليا رفيعا، ومن هذه الأحاديث:

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وهو عند النسائي^(١) بإسنادٍ صحيح، وهو قوله ﷺ: (أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثة، سأل الله عز وجل حُكما يصادفُ حكمه، فأوتيه؛ وسأل الله عز وجل ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتيه؛ وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد، لا ينهزه^(٢) إلا الصلاة فيه، أن يُخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه).

وهذا الحديث يتضمن تكفير ذنوب من يقبل على المسجد الأقصى، وليس له من غاية سوى الصلاة فيه، وفي رواية الإمام أحمد^(٣): (فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل أعطاه إياه)، في هذه الرواية ما يبين أن الله تعالى قد أكرمه بما فعلا، فرجاء الرسل لا يخيب.

الحديث بالقاهرة، قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح).

(١) هذه رواية النسائي لهذا الحديث، وهي فيه (٣٦٤/٢، ح: ٦٩٢)، ورواه أيضا الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٢٠١/٦-٢٠٢، ح: ٦٦٤٤) بنحوه، غير أنه قال: (..سأل الله ثلاثا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون له الثالثة..)، والثالثة في رواية الإمام أحمد هي نفسها في رواية النسائي، وقال في آخرها: (فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل أعطاه إياه)، قال محققه الأستاذ الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح؛ ورواه أيضا ابن ماجه بنحوه، (١٧٣/٢، ح: ١٤٠٨) غير أنه قال فيها: (أما الشتان فقد أُعطيَهُما، وأرجو أن يكون قد أُعطيَ الثالثة).

(٢) لا ينهزه: أي لا يدفعه.

(٣) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٢٠١/٦-٢٠٢، ح: ٦٦٤٤)، قال الشيخ

أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ولربما يشهد لوقوع هذه المغفرة التي رجا محمد ﷺ أن يستجيب الله دعاء سليمان بتحقيقها لقاصدي الصلاة في المسجد الأقصى، ربما يشهد لوقوع هذه المغفرة ما ورد فيما رواه النسائي وابن ماجه والإمام حمد رحمهم الله تعالى عن عاصم بن سفيان الثقفي أنهم «غزوا غزوة ذات السلاسل، فقاتهم الغزو فرابطوا، ثم رجعوا إلى معاوية وعنده أبو أيوب وعقبة بن عامر، فقال عاصم: يا أبا أيوب، فاتنا الغزو العام، وقد أخبرنا أنه من صلى في المساجد الأربعة غُفر له ذنبه، فقال: يا ابن أخي، أدُّلك على أيسر من ذلك: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (من توضأ كما أمر، وصلى كما أمر، غُفر له ما قدّم من عمل)، أكذلك يا عقبة؟ قال: نعم»^(١)؛ قال السندي في شرح قول عاصم: المساجد الأربعة: «لعل المراد بها مسجد مكة والمدينة ومسجد قباء والمسجد الأقصى»^(٢)، ويظهر لي أنه ينبغي أن تكون المساجد الأربعة التي يقصدها عاصم هي المسجد الحرام والنبوي والأقصى، ثم يضاف إليها مسجد قباء، فهي المساجد الأكثر قداسة ومكانة وأهمية في الإسلام، وللمساجد الثلاثة الأولى مكانة خاصة جعلت منها مجموعة إذا ذُكر طرف منها، ذُكر بالتالي طرفه الآخران، ضرورة ما بينها من تقارب في نوع الفضل.

أما شاهدنا في قصة عاصم التي ذكرها، فهو قوله: «وقد أخبرنا أنه من صلى في المساجد الأربعة غُفر له ذنبه»، فعاصم هذا تابعي على الأرجح، قال فيه الحافظ ابن حجر^(٣): صدوق، ومثله إذا ما قال: أخبرنا، فإن كلامه يعود إلى الصحابة رضي الله عنهم، وهذا في تقديري كافٍ في الاستئناس بالمغفرة لمن قصد المسجد الأقصى لأجل الصلاة.

(١) رواه النسائي، (٩٨/١)، ح: ١٤٤، واللفظ له، والإمام أحمد، (٤٦/١٧)، ح: ٢٣٤٨٦، طبعة دار الحديث باقاهرة، قال محققها أحمد الزين: إسناده صحيح، ورواه ابن ماجه، (١٦٥/٢)، ح: ١٣٩٦، وحسنه الأستاذ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٢٨٣/١)، ح: ٣٩٦.
(٢) حاشية الإمام السندي على سنن النسائي، المطبوع بهامش سنن النسائي، (٩٨/١).
(٣) تقريب التهذيب، للحافظ ابن حجر، (٣٤٠).

بل أكثر من ذلك: فكلام هذا التابعي الجليل يدل على أن أمر هذه المغفرة مستفيض ومشهور في جيل الصحابة.

ومنها ما رواه الحاكم^(١) وصححه وأقره الذهبي على تصحيحه، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل: مسجد رسول الله ﷺ أو مسجد بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلّي هو، وليوشكن لأن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعاً)، أو قال: (خير من الدنيا وما فيها)، وجاء الحديث في صحيح الترغيب والترهيب للأستاذ الألباني عليه رحمة الله كما يلي: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلّي، هو أرض الخشر والمنشر، وليأتين على الناس زمان، ولقيد سوط -أو قال: قوس- الرجل حيث يرى منه بيت المقدس، خير له أو أحب إليه من الدنيا جميعاً)^(٢).

ومنها ما ذكره الحافظ ابن حجر^(٣) مما رواه البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: (الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة بمسجدي

(١) الحاكم في المستدرک، (٥٠٩/٤).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب، للأستاذ الألباني رحمه الله تعالى، (٤٧/٢)، ح: (١١٧٩)، واعتبره الأستاذ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة له، (٩٥٤/٦)، ح: (٢٩٠٢): أصح ما جاء في فضل الصلاة في المسجد الأقصى، وانتقد الأستاذ الألباني تضعيف محققي طبعة دار ابن كثير للترغيب والترهيب، (١٧٦-١٧٧، ح: ١٧٨٠)، معتمدين على أن راويه هو البيهقي فحسب، فضعموا روايته، رغم أن الحديث مروى في المعجم الأوسط للطبراني أيضاً، ورجال الطبراني رجال الصحيح، فكان حكمهم على الحديث قاصراً على طريق واحد من طرقه، رغم أن له طريقاً أخرى صحيحة.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٨١/٣).

بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة)، قال البزار: إسناده حسن^(١)، ورواه أيضا البيهقي في شعب الإيمان عن جابر^(٢)، ورواه ابن خزيمة في صحيحه^(٣).

ثم إن شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعد أن نقل أن ثمة رواية بأن الصلاة في المسجد الأقصى بخمسين صلاة فيما سواه، وأخرى بأنها بخمسمائة صلاة، قال عن هذا الرواية الثانية: «وهو أشبهه»^(٤).

ومنها حديث ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ، وهو عند الإمام أحمد وابن ماجه وأبي داود والطحاوي^(٥)، أنها، أي ميمونة، سألته عليه السلام فقالت: أفتنا في بيت

(١) وذكر تحسين البزار لإسناده أيضا المنذري في الترغيب والترهيب، (١٧٥/٢)، ح: (١٧٧٦).

(٢) إعلاء السنن، ظفر أحمد العثماني، (١٤٧/٥).

(٣) عن: الترغيب والترهيب، للمنذري، (١٧٥/٢)، ح: (١٧٧٦).

(٤) فتاوى ابن تيمية، (٨/٢٧).

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (١٨/٦٠٥-٦٠٦)، ح: (٢٧٤٩٨)، قال مكمل تحقيقه حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح، ورواه ابن ماجه، (١٧٢/٢-١٧٣)، ح: (١٤٠٧)، وقال البوصيري عن إسناده ابن ماجه في كتابه مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، (١/٤٥٤): وإسناده طريق ابن ماجه صحيح، رجاله ثقات؛ ورواه أيضا الطحاوي في شرح مشكل الآثار، (٢/٦٩-٧٠)، ح: (٦١٠)، وقال محققه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، ورواه أبو يعلى في مسنده، كما ذكر ذلك الحافظ البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة، (٣/٣٧١)، وقال البوصيري: إسناده صحيح.

ولقد نقل الأستاذ محمود سعيد ممدوح في كتابه (التعريف، ٦٢/٣) تصحيحه عن الحافظ العلائي وابن التركماني أيضا.

والحديث أيضا في سنن أبي داود، (١/١٨٦)، ح: (٤٥٧)، لكن دون قوله: فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه، لكن، قال أبو الحسن السندي الحنفي في حاشيته على ابن ماجه عن إسناده ابن ماجه: وهو أصح من طريق أبي داود، والسبب في ذلك كما ذكر السندي أن إسناده أبي داود لم يُذكر فيه الراوي الذي سمع الحديث من ميمونة، وهو عند ابن ماجه عثمان بن أبي سودة، وهو نفس كلام البوصيري في الموضع نفسه الذي ذكرناه في هذه التعليقة.

المقدس، فقال: (أرض المنشر والحشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاةً فيه كآلف صلاة فيما سواه)، قالت: أرأيتَ من لم يُطيق أن يتحمّل إليه أو يأتيه؟ قال: (فليُهد إليه زيتا يُسرجُ فيه، فإن من أهدى له كان كمن صلى فيه)، وفي رواية أبي داود قوله عليه السلام: (وكانت البلاد إذ ذاك حرباً)، ويظهر لي أن هذه العبارة مدرجة من قول أحد الرواة، ولا أحسبها من الحديث، فلا يبعد في تقديري أنهما من قول ميمونة نفسها، أو من قول من رواه عنها.

والقارئ ملتفتٌ إلى أن فضل الصلاة في بيت المقدس جاء في هذه الأحاديث التي أوردناها على ثلاث مراتب، فأولها ارتفع فضل الصلاة فيه حسبها إلى مائتين وخمسين صلاة، والثانية ارتفع إلى خمسمائة صلاة، والثالثة علا بها الفضل إلى ألف صلاة، أي إلى مثل فضل الصلاة في مسجد النبي ﷺ، فهل ثمة تناقض؟

رأى الإمام الطحاوي^(١) أن هذه الروايات جاءت على سبيل النسخ لبعضها، فنسخ أعلاها فضلاً مضمون أفلها، حتى جاء الحديث الثالث الذي جعل للصلاة في البيت المقدس فضل ألف صلاة فيما سواه، جاء ناسخاً مضمون الحديثين السابقين، اللذين جعلوا فضل الصلاة في المسجد الأقصى لا يتجاوز نصف الألف أو ربع الألف، ورأى الطحاوي أن هذا من الله تعالى رحمة لعباده.

ورغم أنني أقل ميلاً إلى اعتبار النسخ فيما حمله مضمون هذه الأحاديث، حتى نسخ حديث فضل الصلاة بألف صلاة في الأقصى، نسخ الأحاديث التي جعلت فضل الصلاة في الأقصى أقل من الألف؛ أقول: رغم أنني لا أرى ميلاً في نفسي إلى هذا الاعتبار، إلا أنني لا أستحيله، فالقائل به إمام كبير في الفقه والحديث، اعتمده الأئمة من بعده.

على كل ما مضى، فلا حجة للأستاذ الألباني في تضعيف الحديث في ضعيف سنن ابن ماجه وضعيف سنن أبي داود له، بعد أن ذكرنا تصحيح الأئمة: البوصيري والعلائي وابن التركماني له، وكذلك ذكرنا تصحيح الأرئوط له.

(١) في كتابه شرح مشكل الآثار، (٦٧/٢-٧١).

لكنني لا أستبعد، والأحاديث التي ذكرتها في فضل الصلاة في الأقصى صحيحة كما رأى القارئ الكريم، لا أستبعد أن يكون الفضل المذكور فيها آتيا على سبيل التدرج الذي يناسب الحال الذي كان عليه المسلمون حين نطق رسول الله ﷺ بهذه الأحاديث الشريفة؛ فلعل الفضل علا وارتفع على اعتبار ما حصل تاريخيا من بداية الصراع مع الروم، المسيطرين يومها على المسجد الأقصى، فحمل الحديث الذي يجعل فضل الصلاة في الأقصى بفضل ألف صلاة معنى تحريضا، ليُقبل المسلمون فيما بعد على فتح بيت المقدس، لما يعلمونه مما سمعوه من رسول الله ﷺ من الفضل العظيم والثواب الكبير لمن صلى فيه، والله تعالى أعلم.

يبين هذا المعنى الذي قصدته، ما ورد في رواية أبي داود في سننه لحديث ميمونة بنت سعد الذي ذكرته قريبا، والذي يتضمن الأمر بإتيان بيت المقدس والصلاة فيه، ويتضمن فضل الصلاة فيه وأنها تساوي ألف صلاة؛ ورد في رواية أبي داود هذه، قوله ﷺ: (وكانت البلاد إذ ذاك حربا)، وقد ذكرت هذه الرواية في حينها، وهي وإن رأيت في غالب ظني أنها مدرجة من قول الراوي الصحابي أو التابعي، لكن كونها غير مرفوعة إلى النبي ﷺ لا يضر الاستناد إليها، فالصحابي أو التابعي؛ كانا يعرفان الأحوال في ذلك الزمان، ويتحدثان عما شاهدا، أو عما تُحدثت أمامهما.

ورغم ما في هذه الزيادة من ضعف أشرت إليه في تخريج رواية أبي داود، غير أنه ضعف يسير؛ وهذا يعني في تقديري أن هذا الحديث ورد في حالة اندلاع الحروب بين الروم والمسلمين، وهذا إنما حصل في غزوتي مؤتة وتبوك، وكلا الغزوتين اشتعلتا بعد فتح مكة، وبما أن الرسول ﷺ نطق بالحديث الذي يذكر ستا بين يدي الساعة ومنها فتح بيت المقدس في غزوة تبوك؛ فإن هذا كله يؤكد المعنى التحريضي الذي نحن في صدد ذكره، والذي اقتضى أن يجرّض الله ورسوله المسلمين إلى الإقبال على بيت المقدس، بإعظام فضل الصلاة فيه.

وهذا الحديث الذي نقصده، ونرى أنه صالح للإسهام في هذا المعنى، هو ما ورد في صحيح البخاري^(١) في ذكر أشياء تكون بين يدي الساعة، تبدأ بموته ﷺ، وتنتهي بغدر الروم؛ فعن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له في غزوة تبوك: (أُعَدُّ ستا بين يدي الساعة: مَوْتِي، ثم فتح بيت المقدس..)، الحديث؛ وغزوة تبوك هذه وقعت في شهر رجب من العام التاسع للهجرة النبوية، ومعلوم أن سببها هو معلومات وصلت المسلمين أن الروم تُعَدُّ لغزو المسلمين^(٢)، وإن بيت المقدس جزء من الأرض العربية الواقعة تحت سيطرة الروم، المُذَلِّين للعرب، والمعادين للإسلام.

إنني أريد أن أقول: إن حديث ميمونة جاء في فترة حرب بين المسلمين والروم، وقد اقتضت حالة الحرب تحفيز المسلمين إلى غزو بيت المقدس التي في يد الروم حينها، فكان هذا التحفيز عبر تضعيف الصلاة في بيت المقدس بألف صلاة، والله تعالى أعلم.

وختاماً، لا بد أن أشير إلى أن تضعيف الأجر يحمل معانٍ كبيرة، تدفع المسلم دفعا إلى الاعتراف منه، وإلى المجاورة في المكان الذي تُضاعف فيه الأعمال، وهذا ما حصل في بيت المقدس فيما بعد.

ولكن، لا بد أن أذكر وأنا في ختام هذه المسألة، أن تضعيف الأجر شيء، وأن احتساب عظمة الأجر عن صلوات فاتت الإنسان شيء آخر، فإن تعظيم الأجر لا يعني أن

(١) صحيح البخاري، مع فتح الباري، (٦/٣٢٠، ح: ٣١٧٦)، وهو في مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، ولكن بغير طريق البخاري، (١٦/١٥٨-١٥٩، ح: ٢١٨٩١)، و(١٧/١٨٧-١٨٨، ح: ٢٣٨٥٣)، و(١٧/١٩٤، ح: ٢٣٨٦٧)، وهو في جامع الأصول لابن الأثير، (١٠/٤١١-٤١٢، ح: ٧٩٢٧)، وعلى كتاب ابن الأثير استندنا في النص الذي أثبتناه، وتتمة الحديث: (..ثم مُوتانٌ يأخذ فيكم كقُعاص الغنم، ثم استفاضة المال، حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً)، ومعنى كلمة غاية: أي راية، وكأن الناس الذين يرفعون الراية يتخذون من رايتهم غاية يلتفون حولها، وينصرونها، لما ترمز إليه.

(٢) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، للإمام محمد أبي زهرة، (٢/١٢٩١).

من عليه صلاة فإن هذه الصلاة تكون قد سقطت من عالم الفرضية في حقه، بسبب صلاةٍ صلاها حُسبت له بألف صلاة، بل هو زيادة أجر فحسب؛ يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «ثم إن التضعيف المذكور يرجع إلى الثواب ولا يتعدى إلى الإجزاء باتفاق العلماء، كما نقله النووي وغيره، فلو كان عليه صلاتان فصلى في أحد المسجدين صلاةً، لم تُجزَّه إلا عن واحدة»^(١).

وآخر شيء أذكره هنا هو ما قاله الشيخ المحدث الفقيه الهندي ظفر أحمد العثماني^(٢) رحمه الله تعالى: «ثم اعلم أن هذا التضعيف في الصلاة مختص بالفرائض، وبالنوافل التي شرعت جماعة، والدليل على الأول ما رواه مسلم عن زيد بن ثابت مرفوعاً في حديث طويل: (فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)»، ثم ذكر الشيخ حديث أبي داود عن ابن عمر مرفوعاً: (صلاة أحدكم في بيته أفضل من صلاته في مسجدي إلا المكتوبة)، ونقل قول الحافظ العراقي: إسناده صحيح.

وهذا يعني أن صلاة الرجل في بيته أفضل من الصلاة في المساجد الثلاثة، إلا الفريضة وما شرع من النوافل جماعةً.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٨٢/٣).

(٢) إعلاء السنن، ظفر أحمد العثماني، (١٤٨/٥).

ثالثاً: فضل شد الرحال إليه

إن أول من شد رحلَه إلى المسجد الأقصى هو الرسول ﷺ ليلة الإسراء، وذلك حين ركب البراق متوجهاً إليه، ثم جاء الأمر النبوي داعياً المسلم إلى الاقتداء به عليه السلام، وذلك ليركب المسلم براق الهمة، فيصل إلى المسجد الأقصى، مركز البركة من أرض الأنبياء.

روى البخاري^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا تُشدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى)، والرحال في اللغة: جمع رَحْلٍ، وهو للبعير كالسرج للفرس^(٢)، قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث فضيلة هذه المساجد ومزيتها على غيرها لكونها مساجد الأنبياء»^(٣).

ولقد ورد في سنن النسائي واللفظ له، وموطأ الإمام مالك^(٤)، كليهما بإسناد صحيح، قصة زيارة أبي هريرة رضي الله عنه إلى الطور، ولقائه بعد الزيارة ببصرة بن أبي

(١) صحيح البخاري، مع فتح الباري عن أبي هريرة، (ج: ٧٦/٣، ح: ١١٨٩)، وهو فيه أيضاً عن أبي سعيد الخدري، (٨٧/٤، ح: ١٨٦٤) و (٢٨٣/٤، ح: ١٩٩٥)، ورواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أيضاً، (٢٣٤/٥، ح: ٨٢٧)، والإمام أحمد في مسنده في مواضع منها: عن أبي سعيد الخدري، (٢٥/١٠، ح: ١٠٩٨١)، (١١٠/١٠، ح: ١١٢٣٣)، (١٤٢/١٠، ح: ١١٣٤٧)، كلها بأسانيد صحيحة، وهو في المسند أيضاً عن أبي هريرة في مواضع منها: (٣٩/٧، ح: ٧١٩١)، (٨٧-٨٦/٧، ح: ٧٢٤٨)، وورد عن أبي سعيد في سوى هذه المواضع أيضاً، والترمذي عن أبي سعيد الخدري، (١٤٨/٢، ح: ٣٢٦)، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة، (١٧٤/٢، ح: ١٤٠٩)، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي سعيد الخدري، (١٧٥/٢، ح: ١٤١٠).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ بن حجر العسقلاني، (ج: ٧٧/٣).

(٣) المرجع نفسه، (ج: ٧٨/٣).

(٤) سنن النسائي، (١٢٧/٣-١٢٨، ح: ١٤٢٩)، ورواه مالك في الموطأ، (١٠٨/١-١١٠)، وروى الطحاوي في شرح مشكل الآثار، (٥٧، ٥٦/٢) كلام أبي بصرة الغفاري لأبي هريرة حول

بصرة، ونَهَى بصرة لأبي هريرة عن شد الرحال إلى الطور، مستدلاً بحديث شد الرحال هذا الذي نحن بصدده، وفي مسيرة أبي هريرة تلك حصل حوار بينه وبين كعب الأحمار حول فضل يوم الجمعة، وقد تحاورا فيما بينهما مقارنين بين الوارد في التوراة وبين الوارد عن الرسول ﷺ في فضل الجمعة، وفي القصة يتبين أن أبا هريرة عرف حديث شد الرحال هذا من الصحابي الجليل بصرة رضي الله عنه، وقد ذكرناه في صفحات سابقة، عند حديثنا عن حصانة الإسلام من ضلالات التوراة، ونذكر هنا فقط نص رواية بصرة، تلك التي عرفها منه أبو هريرة رضي الله عنهما، قال أبو هريرة: «فخرجتُ فلقيتُ بصرة بنَ أبي بصرة الغفاريَّ فقال: «من أين جئت؟»، قلتُ: «من الطور»، قال: «لو لقيتُك من قبل أن تأتيه لم تأتِه»، قلتُ له: «لم؟»، قال: «إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (لا تُعملُ المطيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا ومسجد بيت المقدس)، وقد وافق أبو هريرة إنكار بصرة عليه ما قام به من شدَّ رحله إلى الطور^(١).

وقد روى هذا الحديث أيضاً الصحابي الجليل أبو الجعد الضمري رضي الله عنه، وهو صحابي روى له أصحاب السنن الأربعة في سننهم، وقال فيه الحافظ ابن حجر العسقلاني: «قيل: قُتل يوم الجمل»^(٢)، وروايته لحديث شد الرحال إلى المساجد الثلاث موجودة في شرح مشكل الآثار للطحاوي^(٣)، وفي رواية الصحابي أبي الجعد الضمري لهذا الحديث

زيارة أبي هريرة للطور، ونسب كلام أبي بصرة لحميل بن بصرة، ورواه أيضاً أبو داود الطيالسي في مسنده، كما ذكره الحافظ البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، المطبوع بهامش المطالب العالية للحافظ ابن حجر، (٣/٣٧٩).

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ بن حجر العسقلاني، (ج: ٣، ص: ٧٨).

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب، الطبعة التي حققها أستاذي الشيخ

محمد عوامة حفظه الله تعالى، (٧٢٧).

(٣) شرح مشكل الآثار للطحاوي، (٢/٥٩)، قال محققها الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن،

وذكر أنه رواه عنه الطبراني في الكبير والبخاري في مسنده، ونقل قول الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح.

دليل على انتشار فكرة تعظيم المسجد الأقصى في العصر الأول، إذ إن هذا الصحابي استشهد أواخر عام ٣٦هـ، في معركة الجمل، أي قبل تولي عبد الملك بن مروان الخلافة بثلاثين عاماً، إذ تولاها سنة ٦٦هـ، وفي هذا ردُّ على من ادَّعى من المستشرقين أن حديث شد الرحال موضوع من قبل الزهري الذي وُلد عام ٥١هـ، ذلك أن الحديث معروف قبل ميلاده بخمسة عشر عاماً على الأقل.

وما نطيل في ذكر بعض من روى هذا الحديث إلا لنرد على أولئك المستشرقين من اليهود وغيرهم، أولئك الذين ادَّعوا أن هذا الحديث مكذوب، وأن واضعه الصحابي الكبير الجليل أبو هريرة رضي الله عنه، أو الإمام التابعي الكبير محمد بن شهاب الزهري؛ وذلك إرضاءً منهما لبني أمية، ولقد رأى القارئ الكريم أن جماعة من الصحابة رووا هذا الحديث إضافة إلى أبي هريرة، مما لا يسمح أبداً بفكرة أن يكون أبو هريرة واضعه، هذا إن حاكمنا أبا هريرة كمحاكمتنا لأهل الريب، فما بالك لو نظرنا إلى أبي هريرة بمنطق المعروف عنه من الصدق والأمانة والحفظ؟ إذن فلا نحتاج إلى إثبات صحة الحديث بما ذكرناه من أن رواية غير أبي هريرة رووه! بل لو لم يروِه سوى أبي هريرة، لكان ذلك كافياً في صحته.

وما ذكرنا ما ذكرناه إلا لإلزام المكذِّبين بأنوار الشمس حين سطوعها، وما أظنهم يصمتون عن غيِّهم، ولو ملأنا آفاق الدنيا بما يصدِّق أبا هريرة ويكذبهم! وعودة إلى من روى الحديث غير أبي هريرة..

فلقد ذكر الأستاذ المؤرخ محمد محمد شرَّاب^(١) أن ستة من الصحابة رووا هذا الحديث، أعني حديث شد الرحال، وذكر الستة وهم: أبو سعيد الخدري وأبو بصرة الغفاري وعبد الله بن عمر وعلى بن أبي طالب وأبو نصر الغفاري وأبو هريرة، وفاته ذكر أبي الجعد الضمري الذي ذكرناه قبل قليل، وأضاف الأستاذ محمود سعيد ممدوح:

(١) في كتابه بيت المقدس والمسجد الأقصى، (٣١٧-٣٢٠).

جابر بن عبد الله ووائلة بن الأسقع والمقدام بن معدي كرب وأبا أمامة الباهلي وعمرو بن الخطاب رضي الله عنهم، ووصف الأستاذ ممدوح هذا الحديث بالتواتر^(١)، وذكر من خرَّج الحديث بروايات كل هؤلاء الصحابة، وذكر طرقها..

وذكر الأستاذان شرَّاب وممدوح من روى هذا الحديث من طبقة محمد بن شهاب الزهري من التابعين أو أتباع التابعين، (وربما ذكر أحدهما من لم يذكره الآخر): عبد الملك بن عمير وقتادة وإبراهيم بن سهل ومجالد بن سعيد وعبد الحميد بن بهرام والليث بن سعد وأبان بن ثعلبة ويزيد بن أبي حبيب وهشام وسلمة بن كهيل ويزيد بن أبي مریم ومحمد بن عمرو وعمران بن أبي أنيس وموسى بن عقبة وهشام بن الغاز وسفيان بن عيينة ومحمد بن عمرو بن علقمة وأيوب بن مدرك الحنفي وزيد بن زرعة والزهري.

فهؤلاء اثنا عشر صحابيا رَوَوْا هذا الحديث، وحوالي عشرين تابعيا أو تابع تابعي رَوَوْا هذا الحديث، وتتابعت الطرق إليهم حتى بلغت مبلغ التواتر.

أفصحُ بعد كل هذا أن يقول قائل: إن أبا هريرة هو وحده من روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، وإنه وضعه لصالح بني أمية، أو إن الزهري وضعه لصالحهم أيضا؟ إن هذه الكثرة من الرواة لهذا الحديث تؤكد أن الحديث مستفيض عن غير أبي هريرة رضي الله عنه، بل لقد رأينا أن أبا هريرة لم يكن يعرفه، وإنما رواه عن غيره، مما يؤكد أن هذا الحديث معروف لجماعة من الصحابة قبل أن يعرفه أبو هريرة نفسه.

(١) يُنظر للتعرف على مصادر طرق حديث شد الرحال وتفاصيل هذه الطرق: رفع المنارة في تخريج أحاديث التوسل والزيارة، محمود سعيد ممدوح، (٣٦١-٣٧٦)، وللإشارة إلى معظم هذه الطرق باختصار يُنظر: الهداية في تخريج أحاديث البداية، لأبي الفيض أحمد بن محمد الصديق العُمري، (١٦٠/٦-١٦١، ح: ١١٠٣).

إننا لسنا في حاجة إلى كل هذه الطرق لإثبات أن أبا هريرة والزهري لم يكذبا، فهما من هما في الرواية والحفظ والصدق، ولكن أردنا أن يكون لدى القارئ ما يملكه من الحجة ليصد به هجمات المشككين بالصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، ولن يكون حول تسيهر ولا أذياله أكثر منا حرصا على سلامة الرواية عن رسول الله ﷺ.

هذا، ولقد آثرنا تأجيل الحديث تفصيلا في الرد على دعاوى المستشرقين وغيرهم، الذين ادَّعوا أن هذا الحديث من وضع الزهري إلى الفصل الذي خصصناه للحديث في الهدف من بناء قبة الصخرة، إذ للموضوع صلة بالدعوى.

رابعاً: فضل الإذلال بالعمرة منه

ورد في ذلك حديث تنازع الحفاظ في تصحيحه وتضعيفه، ولا نحسن الدخول فيما بينهم في هذا الأمر، غير أننا ننقل عنهم بعض ما قد قالوا، لتبين الأمر منهم..

فلقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه^(١) رحمهم الله تعالى عن أم حكيم السلمية، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنه قال: (من أحرم من بيت المقدس عُفْرَ له ما تقدم من ذنبه)، وفي رواية^(٢): (من أهلَّ من المسجد الأقصى بعمرة أو بحجّة عُفْرَ له)، ولفظ أبي داود: (من أهلَّ بحجّة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، عُفْرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أو وجبت له الجنة)، شك أحد الرواة آتيتها قال.

هذا، وإن كان إسناد الرواية الأولى عند الإمام أحمد لهذا الحديث ضعيفاً، فإمكانية الاستناد على إسناد ابن ماجه له واردة، فقد صحح المنذري في الترغيب والترهيب إسناد ابن ماجه^(٣)؛ وحسّن إسنادَه السيوطيُّ في الجامع الصغير، وقال المناوي: إسنادُه حسن^(٤)،

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق حمزة أحمد الزين، (٢٦٠/١٨)، ح: ٢٦٤٣٦، قال محققه: إسناده صحيح، وهذا منه مستغرب، ففي إسناد رواية الإمام أحمد لهذا الحديث ابن لهيعة، وقد احتلظ بعد حرق كتبه، فلا يُرضى تصحيح حديثه؛ ورواه أبو داود، (١١٤/٥)، ح: ١٧٣٨ مع عون المعبود؛ ورواه ابن ماجه، (٤٦١/٣)، ح: ٣٠٠١، ٣٠٠٢؛ وفي الحقيقة إن اعتمادنا هنا على رواية ابن ماجه وعلى الرواية الثانية للإمام أحمد، لا على روايته الأولى، فليُنظر إذن ما نقلناه في تعليقه قريبة قادمة عن أم حكيم التي عليها مدار إسناد الحديث عند ابن ماجه والإمام أحمد، وذلك بعد أن تكون قرأت أعلاه ما نقلناه عن المنذري في تصحيح إسناد ابن ماجه.

(٢) للإمام أحمد، (٢٦٠/١٨)، ح: ٢٦٤٣٧، طبعة دار الحديث بالقاهرة، قال محققها حمزة أحمد الزين: إسناده حسن، وقال محققو طبعة مؤسسة الرسالة، (١٨١/٤٤)، ح: ٢٦٥٥٨: إسناده ضعيف، ويُنظر تعليقنا القدام قريباً حول أم حكيم التي عليها مدار هذا الحديث.

(٣) الترغيب والترهيب، (١٣٩/٢)، ح: ١٧٠٧.

(٤) في كتابه التيسير شرح الجامع الصغير، (١٤٢/٦)، تحقيق مصطفى محمد الذهبي، طبعة دار

ودافع الغماري عن تصحيح الحديث^(١)، وقال مُلا علي القاري في شرحه على مشكاة المصابيح: «ثم اعلم أن حديث المتن رواه البيهقي وآخرون، ومقتضى كلامهم أنه حسن»^(٢)، ثم نقل عن النووي أنه ليس بالقوي، ثم بيّن القاري أن قول النووي إن إسناده ليس قويا، لا ينافي تحسين العلماء له، قال القاري^(٣): «ولا تنافي بينهما، لأن الحسن لغيره يقال فيه: إن إسناده ليس بقوي»^(٤)، وعليه فيبدو لي أن بالإمكان الاحتجاج بهذا الحديث^(٥).

الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(١) المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي، للحافظ الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري، (٢٢٢/٦).

(٢) مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح، ملا علي القاري، (٤٠٤/٥).

(٣) المرجع نفسه، (٤٠٤/٥).

(٤) أي أن إسناده الحديث الحسن لغيره هو في الأصل إسناده ضعيف، وإنما جاءت القوة من إسناده آخر تقوى به، فصار حسنا لغيره، فهو باعتبار النظر في إسناده معاً حسن لغيره، وباعتبار النظر في أحد الإسنادين وحده غير قوي.

(٥) وقد ضعّفه الأستاذ الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، (٣٥٧/١، ح: ٧١٩)، وضعفه محققو الجزء (٤٤) من المسند الذي أصدرته مؤسسة الرسالة بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، قال محققو هذا الجزء من الطبعة المشار إليها: إسناده ضعيف، وضعّفوا إسناده أيضاً لما وصفوه بجهالة حال أم حُكيم، الراوية عن أم سلمة، ولما فيه من اضطراب، يُنظر: المسند طبعة مؤسسة الرسالة، (١٨٠/٤٤، ح: ٢٦٥٥٧).

ومدار رواية ابن ماجه والرواية الثانية عند الإمام أحمد على أم حكيم السلمية، وهي حكيمة بنت أمية، وهي علة الحديث عند الأستاذ الألباني؛ فقد ذكر في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، (٣٧٨/١، ح: ٢١١) أنها غير مشهورة، وأنه لم يوثقها غير ابن حبان؛ وهذا يعني باصطلاح الحديثين أنها: مجهولة الحال، أي أنها غير معروفة من حيث التوثيق أو عدمه، لأنه لم يُنقل عن أحد توثيقها، ولا تضعيفها؛ ومنهج ابن حبان في كتابه الثقات قائم على توثيق من حاله كهذا الذي نشره، فما لم يرد فيه جرح فهو عنده ثقة، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، في حال ما إذا سلم الراوي من الفسق الظاهر؛ ونقل الشيخ ظفر أحمد العثماني التهانوي رحمه الله تعالى في كتابه قواعد في علوم الحديث،

وجعل البيهقي في سننه أحد أبواب كتاب الحج منه بعنوان: باب فضل من أهلك من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام^(١)، وروى بإسناده الحديث الذي نحن بصدده، ومداره عنده على أم حكيم أيضا.

وفيما يبدو لي بعد كل ما نقلته عن الأئمة، أن الحديث محتمل للتحسين، إن لم يكن حسنا فعلا؛ فلقد نقلت أقوال جمع من الأئمة فيه؛ ثم غاية ما يمكن قوله في هذا الحديث إن سلمنا بضعفه إنه ضعف يسير، أو هو ضعف محتمل، لا يصلح لإلغاء الاستناد عليه في مثل ما نحن فيه من بيان فضائل المسجد الأقصى، فليس في مضمونه فيما أرى شيئا يوجب الإنكار؛ وعليه، فيمكن العمل به، خاصة أنه في فضائل الأعمال، والجمهور على الأخذ بالحديث الضعيف إذا لم يشتد ضعفه في فضائل الأعمال.

وحول معنى الحديث يقول الطيبي^(٢): «إنه لا أعلى ولا أفضل من ذلك، لأنه أهل من أفضل البقاع ثم انتهى إلى الأفضل»، قال أبو داود بعد روايته للحديث: «يرحم الله وكيعا، أحرم من بيت المقدس، يعني لمكة»^(٣)، قال الخطابي: «وقد فعله غير واحد من الصحابة، وكره ذلك جماعة»^(٤)، وروى البيهقي في معرفة السنن والآثار وفي سننه الكبرى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أهل من بيت المقدس^(٥)، وذكر الخطابي أن عمر

(١٢٥)، عن ابن حبان قوله: «والناس على أحوالهم على الصلاح والعدالة، حتى يتبين منهم ما يوجب الجرح»؛ وقال الحافظ ابن حجر في التقريب، (٨٥٤) عن أن حكيم هذه: مقبولة، وقال في التهذيب، (٤١١/١٢): ذكرها ابن حبان في الثقات، ولم يذكر فيها جرحا؛ وقال الذهبي في الكاشف، (٤٦٨/٣): وثقت.

هذا، وباقي رجال إسناده ابن ماجه ثقات.

(١) السنن الكبرى، للبيهقي، (٤٤/٥).

(٢) نقلا عن: فيض القدير للمناوي، (٩١/٦).

(٣) سنن أبي داود، مع عون المعبود، (١١٤/٥)، ح: (١٧٣٨).

(٤) معالم السنن لأبي سليمان الخطابي، مطبوع بمامش مختصر سنن أبي داود للمنذري، (٢٨٤/٢).

(٥) معرفة السنن والآثار، للبيهقي، (١٠٣/٧)، والسنن الكبرى للبيهقي أيضا، (٤٥/٥).

بن الخطاب رضي الله عنه أنكر على عمران بن الحصين رضي الله عنه إحرامه من البصرة، مما قد يوهم أن الإحرام من خارج نطاق المواقيت غير جائز، ولكن ذكر البيهقي أن إسناده منقطع^(١)، أي لا تقوم به حجة؛ وذكر ابن القيم أن عمر قد يكون كره ذلك حتى لا يقع المحرم من مسافة بعيدة في آفة تفسد إحرامه^(٢).

قال الملا على القاري: «واعلم أن تقديم الإحرام على المواقيت ومن دُوَيْرَةِ أهله أفضل عندنا، والشافعي رحمه الله في أحد قوليه الذي صححه الرافعي وغيره، وهذا إذا كان يملك نفسه بأن لا يقع في محذور، وإلا فالتأخير إلى الميقات أفضل»^(٣).

وأرى أن الحديث يواصل ما بدأت به آية الإسراء وأحاديث أخرى من الربط الوثيق بين المسجد الأقصى والكعبة المشرفة، فرغم الكراهية المعروفة عند كثير من العلماء للإحرام من مكان أبعد من المواقيت المحددة شرعاً، إلا أن هذه الكراهة تزول إذا كان الإحرام من المسجد الأقصى، لفضيلة خاصة تربط المسجدين معاً.

ولا شك أن تفضيل الإحرام من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام يدل على فضل المسجد الأقصى، وقال بعض العلماء: إن هذا التقديم للإحرام جاء إرغاماً ونكاية باليهود الذين يحجون إلى بيت المقدس^(٤)، فعلى قولهم يبدو أن الشرع أراد أن يجعل بيت المقدس مبدأً للحج لا نهايته، مخالفة لليهود الذين يجعلون بيت المقدس نهاية الحج لا بداية له.

ويُسهم هذا الحديث مع غيره في إعلاء شأن المسجد الأقصى وبيت المقدس.

(١) معرفة السنن والآثار، للبيهقي، (١٠٤/٧).

(٢) تهذيب الإمام ابن قيم الجوزية، مطبوع بهامش مختصر السنن للمنذري، (٢٨٥/٢).

(٣) مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح، ملا علي القاري، (٤٠٤/٥).

(٤) هذا ما يفهم من: مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح، ملا علي القاري، (٤٠٣/٥).

خامسا: فضل الصخرة النبي فيه

روى ابن ماجه^(١) بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن مهديّ، قال: حدثنا المُشَمَّعِلُ بن إياس المُرَبِّي، قال: حدثني عمرو بن سُلَيْم، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (العجوة والصخرة من الجنة)، قال عبد الرحمن بن مهديّ: «حفظتُ الصخرة من فيه»، أي من فم المُشَمَّعِلِ، يريد بذلك أن يجيب عمن روى تشككا من المُشَمَّعِلِ، هل قال: الصخرة أو الشجرة، فيؤكد بن مهديّ أنه قال: الصخرة.

(١) سنن ابن ماجه، (٩٦/٤)، ح: ٣٤٥٦، ورواه الإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده، منها: (١٨٦/١٥)، ح: ٢٠٢٢٣، قال محققه الشيخ حمزة أحمد الزين عن رواية هذا الموضع: إسناده صحيح، ورواه أحمد في (١٨٥/١٥)، ح: ٢٠٢٢٢، وفيها ذكر شك المُشَمَّعِلِ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (العجوة والصخرة، أو قال: العجوة والشجرة، في الجنة)، لكن رواية الحاكم في مستدركه، (١٢٠/٤) جاءت مشابهة تماما لما في ابن ماجه، ولما ذكرناه أولا عن رواية الإمام أحمد، أي جاءت رواية الحاكم بالجزم: (العجوة والصخرة من الجنة)، قال الحاكم في روايته هذه: صحيح الإسناد، وأقرّه الذهبي في تعليقه على المستدرک على صحة هذه الرواية الجازمة والخالية من الشك، بل قد رواه الحاكم من طريق أخرى عن المُشَمَّعِلِ بنفس اللفظ دون شك، مما يؤكد أن لا مقام للشك الذي ورد في إحدى الروايات عند الإمام أحمد، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة، (١٢٢/٣): «هذا إسناده صحيح رجاله ثقات»، وقال: «ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده، ثنا أبو خيثمة ثنا عبد الرحمن بن مهدي، فذكره كما رواه ابن ماجه، وقال في آخره: قال عبد الصمد: (الصخرة والشجرة)، ورواه من طريق المُشَمَّعِلِ كما رواه ابن ماجه»، ويبدو أنه ثبت لدى السيوطي ذكر الصخرة والعجوة والشجرة، فجمع بين هذه الروايات هكذا: (العجوة والصخرة والشجرة من الجنة)، وأشار عليه بالصحة، (يُنظر فيض القدير للمناوي، ٣٧٦/٤)، ومما تنبغي الإشارة إليه أن محدث الشام الأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى ضعّف هذا الحديث بالطريقة التي جمع فيها السيوطي بين الصخرة والعجوة والشجرة، وذلك في كتابه، أي الألباني، ضعيف الجامع الصغير، (٥٦٢)، ولا أعلم إن كان يقصد تضعيف الحديث نفسه الذي في سنن ابن ماجه ومستدرک الحاكم ومسنده أحمد، فإن كان يقصد تضعيفه، فلعل فيما بيننا ما هو كافٍ في الجواب.

والحديث ظاهر الصحة، كما شرحناه تفصيلاً في الهامش، وعليه فلا يصح كلام الإمام ابن قيم الجوزية^(١): «وكل حديث في الصخرة فهو كذب مفترى»، فإذا علمنا قول البوصيري والحاكم النيسابوري والذهبي في تصحيح هذا الحديث، عَلِمْنَا مدى الخطأ في كلام الحافظ الإمام ابن قيم الجوزية، ولُنَيْظِر التفصيل في الهامش.

أما الصخرة الواردة في الحديث، فقد قال ابن الأثير في كتابه النهاية^(٢) في غريب الحديث: «يريد صخرة بيت المقدس»، وهو كذلك قول المناوي في فيض القدير^(٣)، وهو ظاهر كلام فضيلة الشيخ العلامة المحدث والفقير الكبير عبد الفتاح أبي غدة^(٤)، إذ أورد قول ابن الأثير وسكت عليه أثناء ردّه على الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية في دعواه أن كل حديث في الصخرة كذب مفترى.

وقال الخطابي: الصخرة هي بيت المقدس نفسه، وذلك كما نقله عنه البكري في كتابه معجم ما استعجم^(٥).

وإذا كان الحديث صحيحاً كما أكدنا ورحّحنا، فإن هذا يجعل للصخرة فضلاً زائداً على كونها جزءاً من المسجد الأقصى، ولعله من هنا كان بعض العلماء والصالحين يخصّون الصخرة المشرفة بمجاورة خاصة، يقرؤون فيها كتاب الله تعالى ويتعبّدون، فهذا سفيان الثوري الإمام المحدث والفقير الكبير المتوفى سنة ١٦١ هـ، يختم القرآن الكريم في القبة التي

(١) ورد كلام الإمام ابن القيم في كتابه: المنار المنيف، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، (٧٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (١٥/٣)، ونقل محققه الأستاذ محمود محمد الطناحي قولاً آخر عن الدر النثير للسيوطي نقلاً عن الكتاب المُلخّص: وقيل الحجر الأسود، ولا يصح هذا في تقديري، فلم يُعرف عن الحجر الأسود أنه يطلق عليه اسم الصخرة، والصخرة في الحقيقة هي الصخرة المعروفة، ولا علم لي بكتاب الملخص هذا الذي نقل عنه السيوطي القول الآخر.

(٣) فيض القدير للمناوي، (٣٧٦/٤).

(٤) يُنظر كلامه في التعليق على كلام الإمام ابن القيم في كتابه: المنار المنيف، (هـ-٧٨).

(٥) معجم ما استعجم، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، تحقيق مصطفى السقا،

(١٢٦/٣).

بُنيت على الصخرة^(١)، ولعله فعل ذلك قاصدا الصخرة ذاتها التي هي من الجنة كما قال رسول الله ﷺ.

وأما ما ورد عن عطاء الخراساني عن أكثر من راوٍ أنهم حدّثوه أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما صلى هو ومن معه ببيت المقدس، ثم قعدوا على رواحلهم، ولم يأتوا الصخرة^(٢)، فهذا لا يدل على أن ابن عمر لم يذهب إلى الصخرة رفضا منه لقصدها، بل كل ما فيه أنه لم يذهب إليها، وقد يتضمن هذا معنى أن ابن عمر رضي الله عنهما كان رافضا للتوجه إلى الصخرة لموقف من التوجه إليها فعلا، لكن هذا الفهم يحتاج إلى دليل.

فإن كان ابن عمر رضي الله عنهما قاصدا عدم التوجه إلى الصخرة، لموقف له من التوجه إليها فعلا، فلعل ذلك منه لعدم بلوغ الحديث إليه؛ وواضح أن عطاء قصد بقوله إن ابن عمر لم يأت الصخرة، قصد الاستنكار على بعض من كان يأتيها قاصدا إياها، فلعل الحديث الذي نحن بصدده لم يثبت لعطاء أيضا، ولربما وجد مبالغة في تخصيص الصخرة ببعض العبادات، مما دفعه إلى استنكار هذا التخصيص، فروى عن ابن عمر ما روى.

هذا، وللصخرة المشرفة وظيفة خاصة في آخر الزمان، تأتي مزيدا على هذا الفضل الذي ذكرناه لها، فهي التي ينادي منها المنادي ليخرج الناس من قبورهم..

ففي تفسير قوله تعالى: (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج)^(٣)، يقول الإمام القرطبي في تفسيره: «وهي صيحة يوم القيامة، وهي النفخة الثانية، والمُنَادِي جبريل، وقيل: إسرافيل»، ثم قال القرطبي: «وقيل:

(١) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، شهاب الدين المقدسي، (٣٥٣)، وإعلام الساجد بأحكام المساجد، بدر الدين الزركشي، (٢٨٨)، وفضائل بيت المقدس، لأبي المعالي المشرف بن المرجي، (٢٣٥).

(٢) فضائل بيت المقدس، لأبي المعالي المشرف بن المرجي، (٣٣٦).

(٣) سورة ق، (٤١-٤٢).

المكان القريب: صخرة بيت المقدس»^(١)، وكان الطبري^(٢) قبله قد قال: «وذكر أنه ينادى بها من صخرة بيت المقدس»، وينقل الآلوسي تفسير المكان القريب وأنه صخرة بيت المقدس عن يزيد بن جابر وكعب وابن عباس وبريدة وقتادة^(٣)، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز عن كعب وقتادة^(٤)، وابن كثير ونسبه الخازن في تفسيره إلى المفسرين^(٥)، وهو أيضا ما ذكره صديق حسن خان القنوجي البخاري في تفسيره السلفي: فتح البيان في مقاصد القرآن^(٦)، وهو إن التزم بما قاله في مقدمة تفسيره أنه إنما يذكر فقط أرجح الأقوال، فإن هذا يعني أن هذا القول هو الراجح؛ وهو ما ذكره من المعاصرين الشيخ أبو بكر الجزائري في تفسيره أيسر التفاسير^(٧)، ولم يتعقب واحدًا من هؤلاء الذين ذكرناهم هذا القول، ولما نقل السيوطي كلام القائلين بأن المكان القريب هو صخرة بيت المقدس، في كتابه الدر المنثور^(٨)، لما نقل ذلك فإنه أسند بعضها إلى تفسير الطبري وبعضها إلى تفسير ابن أبي حاتم، وبعضها إلى فضائل بيت المقدس للواسطي وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر؛ ومن الأقوال التي ذكرها السيوطي، وذكر أنه رواه ابن جرير^(٩) وابن أبي حاتم والواسطي قول قتادة، الذي نقله أيضا الماوردي في تفسيره^(١٠): «كنا نحدث أنه ينادي من بيت المقدس من الصخرة وهي أوسط الأرض: يا أيتها العظام البالية، قومي لفصل القضاء،

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٢٧/١٧)، ومثل هذه الأقوال في: البحر المحيط لأبي حيان، (١٢٨/٨-١٢٩)، .

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن، لشيخ المفسرين ابن جرير الطبري، (١٨٣/٢٦).

(٣) روح المعاني للآلوسي، (١٩٤/٢٦).

(٤) المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، (١٦٩/٥).

(٥) تفسير الخازن، (٢٠٠/٦).

(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان القنوجي البخاري، (٤٠٨/٦).

(٧) أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري، (٣١٤/٤).

(٨) الدر المنثور في التفسير المأثور، للحافظ جلال الدين السيوطي، (١٣٢-١٣١/٦).

(٩) جامع البيان في تأويل آي القرآن، لشيخ المفسرين ابن جرير الطبري، (١٨٣/٢٦).

(١٠) تفسير الماوردي المسمى: النكت والعيون، (٣٥٨/٥).

وما أُعِدَّ من الجزاء»، وذكر قول قتادة هذا ابن أبي حاتم في تفسيره^(١)، وأما قول التابعي الجليل يزيد بن جابر، فقد رواه بإسناده الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق^(٢)، يقول يزيد في تفسير قوله تعالى: (واستمع يوم ينادي المناذ من مكان قريب): «يقف إسرئيل على صخرة بيت المقدس فيقول: يا أيتها العظام النخرة، والجلود المتمزقة، والأشعار المتقطعة، إن الله يأمرك أن تجتمع لفصل الحساب»، قال القرطبي: «ويقف حبريل أو إسرئيل على الصخرة، فينادي بالحشر»، وقال في معنى قوله تعالى من الآيتين اللتين نقلناهما: (ذلك يوم الخروج)^(٣): «أي الخروج من القبور»^(٤)، وفي قوله تعالى: (يوم تشقق الأرض عنهم سواعا): أي يخرجون سراعاً «إلى المناذ صاحب الصور، إلى بيت المقدس أرض المحشر»^(٥)، ونقل ابن الجوزي^(٦) عن المفسرين قولهم: «والمناذ إسرئيل، يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: يا أيها الناس هلموا إلى الحساب، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء؛ وهذه هي النفخة الأخيرة؛ والمكان القريب: صخرة بيت المقدس».

ولم ينقل هذا القول، بأن المكان القريب هو صخرة بيت المقدس كل من الشيخ محمد علي الصابوني في مختصر تفسير ابن كثير، ولا الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

(١) تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، (٣٣١٠/١٠)، ط ٢، المكتبة العصرية،

١٩٩٩.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، (١٣٦/٦٥).

(٣) سورة ق، (٤٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٢٧/١٧)، ومثل هذه الأقوال في: البحر المحيط لأبي حيان،

(١٢٨/٨-١٢٩).

(٥) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، (٢٢٩)، وكذلك: الجامع لأحكام القرآن،

(٢٧/١٧)، وكلاهما للقرطبي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري، المتوفى سنة ٦٧١هـ،

غير أنه لم يذكر في التفسير كلمة: أرض المحشر، وإنما ذكرها في التذكرة.

(٦) في تحقيقه لمسند الإمام أحمد، بهامش (٣/٣٨٨) من المسند الذي طبعت دار الحديث بالقاهرة.

في تقييده لتفسير الطبري، رغم وجود هذا القول في كل من الأصلين للكتابين المشار إليهما، ولعل ذلك منهما راجع إلى اعتبارهما هذا القول من الإسرائيليات، وكذا لم يذكر هذا القول الأستاذ المحقق الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، ولا الأستاذ الشهيد سيد قطب في ظلاله.

إنني أرى أن اقتصار هؤلاء الأئمة الذين نقلنا عنهم القول بأن المكان القريب المذكور في آية سورة ق هو صخرة بيت المقدس؛ إنني أرى أن اقتصارهم هذا على هذا القول دالٌّ على أصل قوي لهذا القول عندهم، ولم أرَ من تعقب منهم هذا القول ناسبا إياه إلى الإسرائيليات، ولم أرَ من تعقبه بتضعيف؛ ثم لا أرى داعيا لافتراض أنه من الإسرائيليات، فابن عباس هو أحد الذين قالوا هذا القول، كما في الطبري والدر المنثور وغيرهما، ولقد قال فيه الأستاذ المحدث أحمد شاكر معلِّقا على بعض ما روي عنه من الآثار في غير هذا الموضوع^(١): «فما كان ابن عباس ممن يتلقى الإسرائيليات»، وعليه فلا أرى داعيا لرفضه بحجة عدم ورود مرفوعا إلى رسول الله ﷺ، ذلك أن ورود قول عن الصحابة مما لا يُعرف بالرأي والاجتهاد، له حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ.

وقد يُستأنس لصحة كون هذا النداء من صخرة بيت المقدس فعلا، بما ورد في الصحيح من أن بيت المقدس أرض المحشر والمنشر، وأن الناس سيأتون بيت المقدس، وسيُنشرون من قبورهم إلى بيت المقدس؛ وسيأتي تفصيل هذا في مكانه من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

إن صحة الأحاديث التي تذكر أن بيت المقدس هي أرض المحشر والمنشر، قد تدل على هذا القول، وهي تُسَمِّم مع أقوال أئمة التفسير الذين نقلنا عنهم في تقويته، وفي إمكانية الاعتماد عليه.

(١) إقرأ هذا الكلام للأستاذ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على المسند للإمام أحمد، طبعة دار

الحديث بالقاهرة، (٣/٣٨٨).

هذا، والذي يدعو الله تعالى للاستماع إليه في قوله: (يوم ينادي المنادي) أحد أمور،
فإما أن يكون الشيء الذي تدعو الآية إلى سماعه هو نفس نداء المنادي بالخروج من
القبور، وهو هنا الملك على ما نقلناه قبل قليل، وإما أن يكون نداء الكافر بالويل
والثبور والهلاك^(١)، وإما أن يكون الصيحة نفسها، أي: واستمع الصيحة يوم ينادي
المنادي^(٢)، أو واستمع إلى الملك يوم ينادي، أو استمع إلى نداء الكافرين بالويل والثبور؛
ويظهر لي أن الصحيح أن الأمر لا يعدو أحد شيئين: إما هو دعوة إلى سماع الصيحة، أو
دعوة إلى الاستماع إلى الملك، وكلا الصوتين صادر من مكان قريب هو صخرة بيت
المقدس.

ثم إننا لم نحب الاستناد على قول كعب الأحبار المنقول عند كثير من المفسرين عن
الصخرة: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا، فهو إن صح عنه فلم يصح
عندنا، بل هو في تقديرنا من الإسرائيليات، التي لم ير كثير من العلماء حرجا في نقل ما لا
يتنافى منها مع الأصول، ولعلمهم لم يجدوا ما يدل على اختلافه مع الأصول، ولكننا في
عصرنا هذا نجد تنافيا بين هذا القول وبين الثابت في علم الفلك، فعلم الفلك يناقض
هذا المنقول عن الصخرة تناقضا تاما، إذ الأبعاد بين الأرض والأفلاك تلزمنا أن نخرج
هذا المنقول عن كعب من دائرة النظر إلى دائرة الخرافات.

أما القول بأن الصخرة وسط الأرض، فكما أفاد محقق زاد المسير أن هذا جاء في
تفسير البغوي^(٣) والخازن بلا إسناد في كليهما، وأنه مروى في الطبري عن كعب الأحبار

(١) الدر المصون، للسمين الحلبي، (٣٦/١٠).

(٢) التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٣٢٩/٢٦)، وذكر ابن عاشور أن ابن عطية
فسر قوله تعالى: (واستمع) تفسيرا مجازيا، أي: وانتظر، «لأن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن
يستمع في يوم النداء، لأن كل من فيه يستمع، وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار، فقبل محمد صلى الله
عليه وسلم: تحسس هذا اليوم وارتقبه..»، قال الإمام ابن عاشور: ولم أر من سبقه إلى هذا المعنى،
ومثله في تفسير الفخر وتفسير النسفي، يُنظر: المرجع نفسه، (٣٢٩/٢٦).

(٣) هو في تفسير البغوي، (٢٢٠/٥).

وُبريدة رضي الله عنهما^(١)، ولهذا عَقَّب أبو حيان الأندلسي على ما نُقل عن كعب الأحبار من قوله في تحديد المسافة بين الصخرة والسماء، وكون الصخرة وسط الأرض، عقب أبو حيان على هذا المنقول بقوله: «ولا يصح ذلك إلا بوحى»^(٢)، ويمثل قول أبي حيان قال الألوسي الذي أضاف: «ثم إن كونها وسط الأرض مما تأباه القواعد في معرفة العروض والأطوال»^(٣).

خلاصة الأمر أن كل ما مضى مما سوى ما فنَّدناه يُثبت لصخرة بيت المقدس مكانة وفضلا، فهي من الجنة، على ما روينا من السنة في هذا المعنى، وهي التي ينادي منها المنادي إلى الحشر، فيقوم الخلائق من قبورهم، وتبدأ الآخرة بقوانين العدالة الربانية، والرحمة الإلهية.

(١) هامش زاد المسير في علم التفسير، للحافظ المفسر أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، (٢٤/٨-٢٥).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، (١٢٩/٨).

(٣) روح المعاني للألوسي، (١٩٤/٢٦).

الفصل الثالث: كونها أرض الأنبياء، ومسرح دعوات السماء

وهذا يعني أنها ذات صلة وثقى بالسماء، يتعاهد بها الوحي في كل مرة، حتى لا يطول عليها الأمد، فتكُوبُ في مسيرتها، أو تنبؤ حجتها، أو تعوجَّ طريقها؛ وما إن ينتهي عهد نبي حتى يُطلَّ عهد آخر، وقد يتلقَّى الوحي الربانيَّ فيها أنبياء عديدون في زمانٍ واحد، إلى أن جاء عيسى ﷺ وزمانه، فتنشأ إرادة الله تعالى أن يفتر وحي السماء، فينقطع عن الأرض، لترك الأرض وكأنها في هذا الحال الظامئ إلى رحمة الله تعالى تتطلع راجية رها أن يكرمها بدوام نعمة النبوة فيها، فتأتي النبوة في الحجاز، لا لتقطع عن بيت المقدس، بل ليسري الله بنبيه إلى بيت المقدس، وليربط بين دُرَّتَي الأنبياء: الكعبة والأقصى؛ ثم ليحدد الله تعالى صلة بيت المقدس بالسماء، بعودة عيسى عليه السلام إلى الأرض مرة ثانية، نازلا من السماء، يحمل في جعبته الثرية إبطال باطل الصليب على هذه الأرض المقدسة، ويُنهى على ظهرها أعظم فتنة عرفها البشر قاطبة، فيقتل الدجال.

إن مسلسل النبوة هذا لا يترك الأرض المقدسة حتى يعود إليها، إلى أن يأذن الله تعالى بقيام الساعة على شرار الناس، حيث لا خير ولا نبوة.

إن بيت المقدس جوهره النبوة من قديم العهود، قال عطاء الخراساني: «بيت المقدس بنته الأنبياء، وعمرته الأنبياء، ووالله ما فيه موضع شبر إلا وقد سجد فيه نبي»^(١)، ويقول الإمام الألوسي رحمه الله تعالى في سبب كون البركة في الأرض المباركة ذات البؤرة المقدسية، شاملة العالمين، إن «أكثر الأنبياء عليهم السلام بُعثوا فيها، وانتشرت في العالم شرائعهم التي هي مبادئ الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية»^(٢).

فقدماً هاجر إليها إبراهيم ولوط عليهما السلام، قال تعالى: (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ٧١) مما جعلها مقصد النبوة.

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد، بدر الدين الزركشي، (٢٨٣).

(٢) الإمام الألوسي في تفسيره (روح المعاني) (ج ٧٠/٩).

ولقد رجا موسى ﷺ ربه عز وجل أن يُدفن قريبا من بيت المقدس رمية بحجر، كما هو وارد عن أبي هريرة رضي الله عنه، فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما^(١) أن موسى عليه الصلاة والسلام لما حضرته الوفاة: (سأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجر)، وورد عند مسلم والبخاري^(٢) مرفوعا من قول رسول الله ﷺ ناظرا قول موسى عليه الصلاة والسلام: (ربِّ أمتي من الأرض المقدسة رميةً بحجر)، وهي أشواق ملأت صدر موسى عليه الصلاة والسلام، حتى إذا لم تتحقق في حياته بسبب تمرد قومه، سأل الله تعالى إنفاذ أشواقه ساعة وفاته.

ولقد جاء عهد سليمان عليه السلام، فوجدها ترفل بأثواب زكية، خاطبتها خطوات الأنبياء، ووجد المسجد الأقصى ينتظر جهدا جديدا يقدمه له نبي صالح، فقام سليمان عليه السلام بتقديم هذا الجهد، فأعاد بناءه، ليكون ذكرى تدوم مع الدهر، أن هذه الأرض أرض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وليست أرض أعدائهم من ناشري الكفر والإباحية، ولقد ذكرتُ في فصل مضى من هذا الباب الذي نحن فيه حديث النسائي والإمام أحمد^(٣) بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ: (أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثة..)، وهو يعني هنا أنه أعاد بناءه وجدده، لا أنه أسس بناءه ابتداءً، وكنت قد حققت هذه المسألة في أوائل الفصل الأول من هذا الباب.

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري، (٢٤٥/٣، ح: ١٣٣٩)، و(٥٠٨/٦، ح: ٣٤٠٧)، صحيح مسلم، (٤٦١-٤٦٢، ح: ٢٣٧٢)، ورواه أيضا النسائي، (٤٢٥/٤، ح: ٢٠٨٨).

(٢) صحيح مسلم، (٤٦١-٤٦٢، ح: ٢٣٧٢)، والبخاري في شرح السنة، (٢٦٥-٢٦٦، ح: ١٤٥١).

(٣) رواه النسائي، (٣٦٤/٢، ح: ٦٩٢)، وهو عند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٢٠١-٢٠٢، ح: ٦٦٤٤)، وابن ماجه بنحو رواية النسائي، (١٧٣/٢، ح: ١٤٠٨)، وذكرنا تمام الحديث في فقرة سابقة من هذا الفصل.

إن ما نقلناه من رحلة محمد ﷺ إليها، مما ستأتي الإشارة إلى بعض بركاتها هنا، وإن رجاء موسى عليه الصلاة والسلام بالدفن فيها، وإن ما ذكره عطاء والألوسي من صلاة وبعثة معظم الأنبياء في الأرض المباركة، وإن ما سيأتي من ذكر لهجات أنبياء كبار إليها؛ إن كل ذلك يجعل لهذه الأرض مكانة لم تنلها أرض أخرى، وعليه، فليس عبثاً أن توصف بأنها أرض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ولقد رأى بعض الأساتذة الباحثين أن موقع هذه الأرض المتوسط بين بلاد العالم هو «أحد الأسباب الرئيسة لاختيارها مبعثاً للعديد من الأنبياء ومستقراً للرسالات الإلهية»^(١)، ونعمة الموقع هذه لا يختارها ويحددها إلا الله تعالى.

وكان من نعمة الله تعالى على هذه الأرض، ومن تأكيد الله تعالى لبركة الأنبياء ودعوتهم فيها، ما جرى من صلاة محمد ﷺ بالأنبياء^(٢) فيها ليلة الإسراء، فلقد أخرج الإمام أحمد رحمه الله تعالى في قصة الإسراء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «فلما دخل النبي المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت ثم التفت، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه»^(٣).

وهذا ليس جديداً على هذه الأرض، فهي مهاجر إبراهيم ﷺ، ثم لن يكون محمد عليه السلام آخر الأخيار المقبلين عليها، إذ سيأوي إليها خيار الناس فيما بعد، كما سيأتي معنا قريباً إن شاء الله تعالى.

(١) بيت المقدس وما حوله، للدكتور محمد عثمان شبير، (١٤-١٥).

(٢) يُنظر مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد علي الصابوني، تفسير قوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً..)، ففيه قصة الإسراء والمعراج مفصلة، وصلاة الرسول صلى الله عليه وسلم بالأنبياء بعد رجوعه إلى الأرض من السماوات.

(٣) مسند الإمام أحمد، تحقيق وتخريج الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله، (٣/٦٤، ح: ٢٣٢٤)، طبعة دار الحديث بالقاهرة، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وَيُسْنَدُ مَعْنَى كَوْنِهَا أَرْضَ الْأَنْبِيَاءِ، مَا سَتَشْهَدُهُ هَذِهِ الْأَرْضُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ جَوْلَةٍ عَيْسَى ﷺ فِيهَا، وَقَتْلَهُ الدَّجَالَ فِي مِيدَانِهَا الْمُتَخَصَّصَ بِتَخْلِيصِ الْبَشَرِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَكَأَنَّ عَوْدَةَ عَيْسَى إِلَيْهَا جَاءَتْ فِيمَا جَاءَتْ مِنْ أَجْلِهِ، لِتُؤَكِّدَ مَقَامَهَا الْمُرْتَبَطَ بِالسَّمَاءِ، وَالَّذِي نَالَتْ بِهِ لِقَبِ أَرْضِ الرِّسَالَاتِ الْإِلَهِيَّةِ.

هَذَا، وَسَتَتَعَقَّدُ فِي مَسْجِدِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى إِمَامَةً أُخْرَى تُسْنَدُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ الْمَهْدِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِيُؤَمَّ هَذَا الرَّجُلُ سَيِّدَنَا عَيْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حَيْثُ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَدِّمُ لِلْإِمَامَةِ فَيَأْبَى لِمَا يَرَاهُ مِنْ اسْتِحْقَاقِ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِهَذِهِ الْإِمَامَةِ، يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (..فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يَصَلِّي بِهِمْ الصُّبْحَ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ الْمَسِيحِ، فَرَجَعَ ذَلِكَ الْإِمَامُ يَنْكُصُ، يَمْشِي الْقَهْقَرَى لِيُقَدِّمَ عَيْسَى يَصَلِّي، فَيَضَعُ عَيْسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتْفَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَقَدَّمَ فَصَلِّ، فَإِنَّمَا لَكَ أَقِيمَتْ، فَيَصَلِّي بِهِمْ إِمَامًا..)^(١)، وَدَلِيلُنَا أَنَّ هَذَا الْإِمَامَ الَّذِي يَصَلِّي بِعَيْسَى هُوَ الْمَهْدِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا رَوَاهُ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي أُسَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَسْنَدِهِ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَتَزَلُّ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمُ الْمَهْدِيُّ: تَعَالَ صَلِّ بِنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَهُمْ أَمِيرُ بَعْضٍ، تَكْرَمَةَ اللَّهِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ)، وَقَدْ حَكَّمَ الْحَافِظُ ابْنَ قَيْمٍ الْجَوْزِيَّةَ^(٢) عَلَى إِسْنَادِهِ بِالْجُودَةِ.

وَهَذَا نَبِيٌّ عَنْ أَدَبِ جَمِيعِ نَبِيِّينَ بِهِ عَيْسَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَوْقَ زَيْنَتِهِ؛ حَيْثُ إِنَّهُ رَغِمَ نَبِيُّتُهُ، وَرَغِمَ تَلْقِيهِ الْأَمْرِ مِنَ اللَّهِ بِالصَّلَاةِ وَهُوَ فِي الْمَهْدِ صَبِيٍّ، إِلَّا أَنَّهُ أَبِي التَّقَدُّمِ لِلْإِمَامَةِ أَقِيمَتْ لِرَجُلٍ سِوَاهُ وَهُوَ غَيْرُ نَبِيٍّ.

(١) ابن ماجه، (٤٠٦/٤، ح: ٤٠٧٧)، قال الحدّث الهندي الشيخ محمد أنور شاه الكشميري في كتابه: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، (١٥٦): (وإسناده قوي)، والحق أنه حديث صحيح بغير إسناد ابن ماجه، كما سيأتي بيانه نقلا عن الدكتور عامر حسن صبري في الفصل العاشر من هذا الباب.

(٢) في كتاب المنار المنيف في الصحيح والضعيف، (١٤٨).

وثمة أحاديث تذكر سببا آخر لإبلاء عيسى عليه الصلاة والسلام لهذه الإمامة، وهو اعتراف هذا النبي الكريم عيسى ﷺ بشرف الأمة المحمدية، ذلك الشرف الذي أنكره عليها أذعياء أتباعه طيلة قرون توالى؛ روى مسلم وأحمد^(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمي على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فيترنل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله هذه الأمة).

إن عيسى يأتي إلى هذه البلاد لينصر عقيدة التوحيد؛ إنه يقتل فيها الأعرور الدجال مدعي الألوهية، ويكسر فيها الصليب، لتكسر بكسره عقائد المشركين النصارى، وفي هذه البلاد يرفض عيسى عليه السلام من الناس كل العقائد إلا الإسلام، بعد أن انكشف زيف المُثلثين ممن ادعوا انتماءهم إليه طيلة عهود وعصور وقرون، قال رسول الله ﷺ مبينا بعض ما يقدمه عيسى ﷺ في حديث الإمام أحمد^(٢): (.. فيدقّ الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية^(٣))، ويدعو الناس إلى الإسلام، فيهلك الله الملل كلها إلا الإسلام..).

إن رصيد النبوة في هذه الأرض المباركة المقدسة، إبراهيمية ويعقوبية وإسحاقية ويوسفية وموسوية وداودية وسليمانية وعيسوية ومحمدية؛ إن هذا الرصيد بفجره الصادق ووحيه الصحيح، هو رصيد الإسلام رغم تحريفات التوراتيين.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (٢/٢٤٩، ح: ١٥٦)، ومسنند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (١٢/٧٩، ح: ١٥٠٦٥)، وصحيح ابن حبان، (١٥/٢٣١، ح: ٦٨١٩).

(٢) مسنند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٩/١٥٧، ح: ٩٢٤٢)، وصحح محققها الأستاذ حمزة أحمد الزين إسناده.

(٣) معنى كل ذلك: أن عيسى يلغي ما ادّعتته النصرانية من إباحة الخنزير، ويلغي عقيدة الصلب، ويرفض قبول الجزية؛ بسبب ظهور الحق ظهورا كاملا بشهادة من ادعى النصارى أنهم يتبعونه.

الفصل الرابع: اختصاصها بفتحها على يد الفاروق عمر

إن أي بلد لم تنل فضل انفتاحها لأهل الإسلام على يد خليفة راشدي هو الفاروق رضي الله عنه، غير بيت المقدس، وهذا في الحقيقة تبع لبداية فتحها الروحي برحلة رسول الله ﷺ من الأرض إلى السماء، مروراً بها.

إنها بلاد ثلاثة فحسب، نالت فتح رسول الله ﷺ لها، وهي مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس بفتحها المتمثل برحلة الإسراء إليها.

ثم هي بلد واحد فقط فتحت أبوابها وصدورها ومدّت ذراعها للخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولا نحتاج هنا إلى التفصيل في هذين الفتحين، ففي المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا الباب تحدثنا بتفصيل تناسب وموضوع البحث عن رحلة الإسراء، وفي فصل آتٍ في الباب الخامس بعنوان: قضايا تاريخية وحضارية مقدسية، فصلنا القول في الفتح العمري للمدينة المقدسة، وفي معناه.

ونحن هنا نعلن أن من أكثر الشخصيات شهرة في تاريخ الإسلام بعد عصر الخلفاء الراشدين، هي تلك الشخصيات المجاهدة التي كان لجهادها علاقة ببيت المقدس، فليُنظر القارئ الكريم: هل يري شخصية أعظم حضوراً في نفسه من شخصية نور الدين زنكي وقطرز وصلاح الدين الأيوبي؟ إنها في نفسه تجاوزت جميع الشخصيات المجاهدة في تاريخ ما بعد العصر الراشدي من تاريخ الإسلام.

وليس عبثاً أن ترسم ريشة الفنان رسماً لبيت المقدس ممثلاً بقبة الصخرة المشرفة، ثم

يكتب تحت رسمه هذا: فتحها عمر، وحرّرها صلاح الدين، فمن لها الآن؟!!

الفصل الخامس: اختصاصها بتخليص البشر من أعدائهم

لقد تميّزت بيت المقدس وأكنافها عن غيرها من الأراضي والبقاع بتخليص البشر فيها من أعداء الحق، ممثلين بالأعور الدجال؛ ومن أعداء الإنسان ممثلين بيأجوج ومأجوج، وما كان قبل ذلك من تحطيم قوى الشر العالمية ممثلة بالتتار والصليبيين فيها، وما يتبعه من اختصاصها بقتال اليهود فيها، أولئك الذين ما عرفوا في البشر أقوىاء إلا عرفوا ظالمين جبارين، وما عرفوا ضُعفاء إلا كانوا أذلاء مُهانين.

إنه كما فُضِّل المجاهدون على القاعدين، فقد فُضِّلَت بيت المقدس على ما سواها من البلدان في هذه الناحية، لِمَا لها من خصوصية في مجاهدة عتاة البشر في ميدانها الذي يتأجج شوقاً كلما طلعت شمسهِ وغربت، إلى ساعة تحقيق المجاهدة هذه.

إن تخصيص بيت المقدس بتخليص البشر من العتاة والطغاة وأشرار الخلق، يشبه تماماً تخصيص المجاهدين من البشر بفضيلة تخليص البشر من القتلة على أيديهم.

ومن الأحاديث الدالة على هذا، حديث ذكرناه في الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا البحث، وهو ما رواه الإمام أحمد^(١) بإسناد صحيح عن سمرة بن جندب من خُطبة رسول الله ﷺ يوم أن كسفت الشمس، وفيها عن الأعور الدجال: (وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس، وإنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس،

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة (ح ٢٠٠٥٤، ج ١٥/١٤٥)، وقال محقق هذه الطبعة حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح، ورواه الحاكم في مستدرکه، (ج ١/٣٣٠-٣٣١)، وقال، أي الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرّجاه، وأقرّه الذهبي في تلخيصه قائلًا: على شرطهما.

فَيُزَلْزَلُونَ زَلْزَالًا شَدِيدًا، ثُمَّ يُهْلِكُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّىٰ إِنْ أَصَلَ الْحَائِطُ لَيْتَادِي^(١)، يَا مُسْلِمًا، أَوْ قَالَ: يَا مُؤْمِنًا، هَذَا يَهُودِيٌّ، أَوْ قَالَ: هَذَا كَافِرٌ، تَعَالَى فَاقْتُلْهُ).

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ أُخْرَى عَلَى مَقَامِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَدْسِيَّتِهَا، فَفِيهِ أَنَّ صَاحِبَ الْفِتْنَةِ الْكَبْرَى وَمَدَّعِي الْأُلُوْهِيَّةِ الْأَعْوَرِ الدِّجَالِ، سَيَكُونُ عَاجِزًا عَنِ دُخُولِهَا وَعَنِ دُخُولِ أَرْضِ الْحَرَمَيْنِ^(٢)، رَغْمَ عَيْثِهِ وَفُجُورِهِ وَانْتِشَارِ ضَلَالِهِ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا، وَفِي الْحَدِيثِ مَا فِيهِ مِنْ رِبْطٍ آخَرَ بَيْنَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، فَارْتِبَاؤُهُمَا بِالصَّلَةِ الْوَثْقَى بِالسَّمَاءِ مِنْ أَوَّلِ أَيَّامِ الدُّنْيَا، حَمَاهُمَا مِنْ فِتْنَةِ الدِّجَالِ.

وَوَرَدَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى ﷺ يَقْتُلُ الْأَعْوَرَ الدِّجَالَ فِي بَابِ مَدِينَةِ اللَّدِّ، وَهِيَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ أَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَتَبَرُّكَ مَا بَأَنْفَاسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَرَانِي مَقْبَلًا عَلَى تَسْجِيلِ كَلَامِهِ الْكَاشِفِ عَنِ جَانِبِ مِنَ الْغَيْبِ، فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي تَغْمَرُهَا الْفِتْنُ.

(١) وَهَذَا يَعْنِي عَوْدَةَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسِجَامَ وَاللِّتْحَامَ بَيْنَ الْأَرْضِ وَمُظَاهَرَهَا، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ، وَذَلِكَ حِينَمَا يَخْتَفِي بِالْبَهْرَجِ الْمَزِيْفِ، وَتَتَكشَفُ الْحَقِيقَةُ، فَيُذَا بِالْكَافِرِ، أَوْ الْيَهُودِيِّ، يَشْكَلَانِ شَدُودًا عَلَى الْأَرْضِ ذَاتَهَا، وَإِذَا بِالْأَرْضِ تَنَادَى الْمُسْلِمُ، الْمُتَّحِدُ مَعَ الْأَرْضِ وَأَصْلُ الْخَلْقَةِ الْإِيْمَانِيَّةِ، لِيُؤَدِّيَ وَاجِبَهُ فِي مُوَاجَهَةِ الشَّاذِينَ الْخَارِجِينَ الْمُغْتَصِبِينَ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ بِالْمُنَاسِبَةِ مِنْ أَحَدِ الْعَامَّةِ كَلَامًا أَغْرَانِي بِكُتَابَتِهِ هُنَا، فَلَقَدْ قَالَ مَعْلَقًا عَلَى الْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ: (حَتَّىٰ يَقُولَ الْحَجْرُ وَالشَّجَرُ يَا مُسْلِمًا يَا عَبْدَ اللَّهِ: هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي تَعَالَى فَاقْتُلْهُ) يَقُولُ هَذَا الْمَعْلُوقُ: حَتَّىٰ إِنْ الشَّجَرُ وَالْحَجْرُ يَضْجَانِ لظَلَمَ هَؤُلَاءِ، فَيَدْعُونَ الْمُسْلِمَ لِلتَّخْلِصِ مِنْهُمْ، وَأَرَى أَنَّ ذَلِكَ غَايَةُ الْإِتِّحَادِ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْكَوْنِ.

(٢) ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنَ حَجْرٍ الْعَسْقَلَانِيَّ فِي الْفَتْحِ (ج ١١٢/١٣) أَنَّ فِي حَدِيثِ جَنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمِيَّةٍ عَنِ الدِّجَالِ: (يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، يَبْلُغُ سُلْطَانَهُ كُلَّ مَنْهَلٍ، لَا يَأْتِي أَرْبَعَةَ مَسَاجِدَ: الْكَعْبَةَ، وَمَسْجِدَ الرَّسُولِ وَمَسْجِدَ الْأَقْصَى وَالطُّورِ) قَالَ الْحَافِظُ: أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَرَجَّاهُ ثِقَاتٌ. وَيُنْظَرُ: الْقِنَاعَةُ فِيمَا يَحْسُنُ الْإِحَاطَةَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، لِلْحَافِظِ السَّخَاوِيِّ، (٣٤-٣٥).

فلقد روى مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه^(١)، عن النّوأس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداةٍ، فحفّض فيه ورفع، حتى ظنّناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: (ما شأنكم؟) قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداةً، فحفّضت فيه ورفعته، حتى ظنّناه في طائفة النخل^(٢)، فقال ﷺ: (غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم؛ إنه شابٌ قَطَطٌ^(٣))، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزّي بن قطن^(٤)، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف؛ إنه خارجٌ خلةً بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، يا عباد الله فاثبتوا)، قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: (أربعون يوماً: يومٌ كسنة، ويومٌ كشهرٍ ويومٌ كجمعةٍ، وسائر أيامه كأيامكم) قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفيها فيه صلاة يومٍ؟ قال: (لا، أفدروا له قدره)، قلنا: يا رسول الله، وما إسرأه في الأرض؟ قال: (كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيستجيون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعاً وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردّون دعوته عليه، فينصرف عنهم فيصبحون محلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم؛ ويمرُّ بالخربة فيقول

(١) رواه مسلم بشرح النووي، (١٩١/٩-١٩٥، ح: ٢٩٣٧)، والترمذي، (٥١٠/٤-٥١٤، ح: ٢٢٤٠)، وابن ماجه، (٣٩٩/٤-٤٠٣، ح: ٤٠٧٥)، كلاهما بنحو وطول رواية مسلم، ورواه أبو داود مختصراً، (١٠٠/٤-١٠١، ح: ٤٣٢١).

(٢) أي في ناحية بساتين النخل بقرب المدينة كأنه حضر الآن؛ قاله الأستاذ المرحوم عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على التصريح بما تواتر في نزول المسيح لإمام العصر محمد أنو شاه الكشميري، (١٠٧).

(٣) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم، (١٩١/٩): «أي شديد جعودة الشعر».

(٤) هو رجل من خزاعة، هلك في الجاهلية؛ ذكر ذلك الأستاذ المرحوم عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على التصريح بما تواتر في نزول المسيح لإمام العصر محمد أنو شاه الكشميري، (١٠٩).

لها: أخرج كَنُوزِك، فستبعه كَنُوزُها كيعاسيب النحل^(١)، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا، فيضربه بالسيف فيقطعُه جَزَلَتَيْنِ رمية الغرض^(٢)، ثم يدعوهُ فيقبل ويتهلل وجهه يضحك؛ فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيحَ بنَ مريم، فيتزلُّ عند المنارة البيضاء شرقيَّ دمشق، بين مَهْرودَتَيْنِ^(٣)، واضعاً كفيهِ على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدرَ منه جمانٌ كاللؤلؤ^(٤)، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات^(٥)، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه باب لُدِّ فيقتله؛ ثم يأتي عيسى ابنَ مريمَ قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسحُ عن وجوههم^(٦)، ويُحدثهم بدرجاتهم في الجنة؛ فبينما هو كذلك إذ أوحى اللهُ إلى عيسى: إني قد أخرجتُ عبادا لي لا يدان لأحدٍ بقتالهم^(٧)، فحرزَ عبادي إلى الطور^(٨)؛ ويبعثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم من كلِّ حدب ينسلون، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخروهم فيقولون: لقد كان بهذه

(١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم، (١٩٢/٩): «هي ذكور النحل، هكذا فسرها ابن قتيبة وآخرون»، ثم ذكر غير هذا القول.

(٢) قال النووي في المرجع نفسه، (١٩٣/٩): «أي قطعتين، ومعنى رمية الغرض: أنه يجعل بين الجزلتين مقدار رميته».

(٣) قال النووي في المرجع نفسه، (١٩٣/٩): «ومعناه لابس مهرودين، أي ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران».

(٤) قال النووي في المرجع نفسه، (١٩٣/٩): «.. والمراد: يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفاته، فسُمِّي الماء جمانا، لشبهه به في الصفاء والحسن».

(٥) قال النووي في المرجع نفسه، (١٩٣/٩): «أي لا يمكن ولا يقع».

(٦) قال النووي في المرجع نفسه، (١٩٣/٩): «قال القاضي: يحتمل أن هذا المسح حقيقة على ظاهره، فيمسح على وجوههم تبركا وبرا، ويحتمل أنه إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف».

(٧) قال النووي في المرجع نفسه، (١٩٤/٩): «قال العلماء: معناه لا قدرة ولا طاقة».

(٨) هو الجبل الذي ناجى فيه سيدنا موسى ربه؛ قاله الأستاذ المرحوم عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على التصريح بما تواتر في نزول المسيح لإمام العصر محمد أنو شاه الكشميري، (١١٨).

مرة ماءً؛ ويُحصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدِهِم خيراً من مائة دينارٍ لأحدِكُم اليوم، فيرغبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه، فيُرْسِلُ اللهُ عليهم النعْفَ^(١) في رقابِهِم، فيصبحون فرسى كموتِ نفسٍ واحدةٍ، ثم يهبطُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضعَ شبرٍ إلا ملاءَ زهْمُهُم ونَتْنُهُم^(٢)، فيرغبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيُرْسِلُ اللهُ طيراً كأعناقِ البخت، فتحملُهُم فتطرحُهُم حيث شاء اللهُ، ثم يُرْسِلُ اللهُ مطراً لا يَكُنُّ منه بيتٌ مَدَرٍ ولا وبر، فيغسلُ الأرضَ حتى يتركها كالزلفَةِ^(٣)، ثم يُقالُ للأرض: أنبي ثمرتكِ ورُدِّي بركتكِ، فيومئذٍ تأكلُ العصابةُ من الرمانة، ويستظلُّون بِقِخْفِهَا^(٤)؛ ويباركُ في الرِّسْلِ حتى إن اللقحةَ من الإبل لتكفي الفئامَ من الناس^(٥)؛ واللقحةُ من البقر لتكفي القبيلةَ من الناس؛ واللقحةُ من الغنم لتكفي الفخذَ من الناس؛ فبينما هم كذلك إذ بعث اللهُ ريحاً طيبةً، فتأخذُهُم تحت آباطِهِم، فتقبضُ روحَ كلِّ مؤمنٍ وكلِّ مسلمٍ؛ ويبقى شرارُ الناس، يتهارجون فيها تهارجَ الحمُرِ^(٦)، فعليهِم تقومُ الساعةُ).

إننا هنا أمامَ فِتْنٍ وقُدَرَاتٍ هائلةٍ لم يتعوّدها البشر، يمتلكها هذا الفَتَّانُ: الأعور الدجال، بمقدورها أن تُسيِّرَ بركاتِ الأرضِ من ورائها، مما يوقعُ الناسَ في شرِّ الجوعِ

(١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم، (١٩٤/٩): «وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم».

(٢) قال النووي في المرجع نفسه، (١٩٤/٩): «أي دسّمهم ورائحتهم الكريهة».

(٣) ذكر النووي في المرجع نفسه، (١٩٤/٩) أنّها رويت بالقاف والفاء، وذكر أنّ لها أكثر من معنى، منها: المرأة.

(٤) قال النووي في المرجع نفسه، (١٩٥/٩): «هو مقعّر قشرها».

(٥) ذكر النووي في المرجع نفسه، (١٩٥/٩) أنّ الرسل هو اللبن، وأنّ اللقحة هي الولود قريبة العهد بالولادة، وأنّ الفئام هي الجماعة الكثيرة من الناس.

(٦) قال النووي في المرجع نفسه، (١٩٥/٩): «أي يجامع الرجالُ النساءَ علانيةً بحضرةِ الناس، كما يفعل الحمير».

والعطش، ولا يعصم الإنسان إلا إيمانه؛ وهو مع ذلك يقتل إنساناً ثم يحييه بإذن الله تعالى، وهو يأتي ومعه ماء حارٌّ في ظاهره لمن لم يؤمن به، وماء بارد في ظاهره لم آمن به^(١)، وأنى لإنسان أن يرضى بالحارِّ ويترك البارد ظاهراً إلا إن بلغ إيمانه مبلغاً يعصمه؛ وهو يطوف الأرض كلها فلا تستعصي عليه إلا مكة والمدينة وبيت المقدس، كما في أحاديث متعدّدة، فيرى الناس جميعهم فتنته القاهرة، ويتخذونه رباً لهم من دون الله، إلا من عصمه الله تعالى؛ إنه هو الذي قال فيه الرسول ﷺ: (ما من نبي إلا وقد أنذر أمتَه الأعور الكذاب)^(٢)، ولأجل ذلك أمر الرسول ﷺ من سمع به أن ينأى عنه، فلقد روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير^(٣) له، أن رسول الله ﷺ قال: (من سمع بالدجال فليأمن به، فوالله إن الرجل ليأمن به وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات)، إن هذه الفتن الهائلة لن تجد من مكان تتلاشى فيه سوى الأرض المقدسة، المتخصصة بفعل تراثها المنتمي إلى السماء بتخليص البشر من هذه الفتنة الهائلة الكبيرة.

وما دام النهي قد ورد بالنأي عنه، فكيف يقاتله أهل الإسلام كما ورد في أحاديث أخرى؟

الظاهر لي أنهم إنما يتجرءون على مقاتلته بعد أن يكونوا قد أمّنوا فتنته وتضليله، وهذا إنما يكون حينما يتزل عيسى عليه السلام، فيكون الدجال مطارداً، مشغولاً بنفسه خشية مسيح الهدى عيسى ﷺ، وحينما يكون المؤمنون ومعهم هذه الطائفة الظاهرة بالحق بمعية عيسى، ويرون أن الدجال هارب بنفسه، خائف من انكشاف أمره، ويرون عيسى عليه السلام يطارده، فحينها أحسب أن المؤمنين يأمنون فتنة الدجال، لأنها تكون

(١) هذا ما رواه مسلم، (١٨٨/٩)، ح: (٢٩٣٤)، والبخاري، (٣٤٥٠) وأحمد.

(٢) رواه البخاري، (٧١٣١، ٧٤٠٨)، ومسلم بشرح النووي، (١٨٧/٩)، ح: (٢٩٣٣) وأحمد والترمذي وأبو داود وابن حبان.

(٣) صحيح الجامع الصغير للأستاذ الألباني رحمه الله، (١٠٨٠ / ٢)، ح: (٦٣٠١).

قد خَبَّتْ وخابت، والدجال حينها يكون على أبواب العقاب الرباني والنبوي، فأني لمؤمن
أن يخاف حينئذ فتنته والحال كما ذكرنا؟ اللهم اعصمنا من الدجال ومن الفتن ما ظهر
منها وما بطن.

الفصل السادس: اختصاصها بدوام الطائفة الظاهرة بالحق فيها

سنرى إن شاء الله تعالى في هذا الفصل أن اختصاص بيت المقدس بالطائفة الظاهرة بالحق، يُمكن لضربٍ من ضروب القوة والثقة في النفس المسلمة أيام الحن العاتية، في هذه الأرض المقدسة.

إن كثيرا من المتساقطين في الطريق، ما سقطوا إلا لفقدانهم اليقين بمستقبل مشرق ينبثق رغم الظلمات، على هذه الأرض التي طمع فيها أعداء الله تعالى.

سنتحدث تفصيلا في منزلة الحديث الوارد في هذا الموضوع، وفي معناه وبعض متعلقات هذا المعنى، لنرى في نهاية المطاف تلك النعمة العظمى التي تتمتع بها هذه الأرض دون غيرها من أرض الإسلام، خاصة في آخر الزمان، الذي تتراكم وتتكاثر وتتكتف فيه الحن والفتن.

وسأجعل هذه التفصيلات في مباحث متعددة..

المبحث الأول: حديث الطائفة الظاهرة بالحق ومرتله.

المبحث الثاني: شرح حديث الطائفة الظاهرة بالحق.

المبحث الثالث: المصادقية التاريخية لهذا الحديث.

المبحث الأول: حديث الطائفة الظاهرة بالحق ومنزلته

إن من فضائل هذه الأرض: اختصاصها بالطائفة الظاهرة بالحق، القاهرة للباطل، المحتثة لجذوره وإن طال زمانه؛ وذلك أن اختيارها من قبل الله تعالى لتكون أرض الأنبياء، وأرض الإسراء، والأرض التي تضم في مركز الروح منها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، مما يقتضي تطهيرها حسب فهمنا لمكان المقدسات في الإسلام؛ مع علم الله تعالى بطرود الظالمين عليها مدتسين ترابها ومسممين هواءها؛ وعلمه كذلك بضخامة قوة الكفر المغتصبة والمساندة من قبل قوى الشر العالمية؛ ثم مع علمه سبحانه أيضا بتقل المنكرات التي سيقترفها فيها أعداء الله تعالى؛ إن هذا المزيج من المعاني المتعاضدة المتعلقة بهذه الأرض، يستأهل أن يرصد رب العزة سبحانه لها مُطَهِّرين لهم بما تعلق خاص، يُخَلِّصُونَهَا مما يعتريها من قدر المنفلتين عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ ضرورة إبقاء وصف القدسية لازما لها..

إن شرحنا لحديث الطائفة الظاهرة بالحق سيكشف عن بعض ما له صلة بين الطائفة الظاهرة وبين استمرار وجود الحق على هذه الأرض المقدسة، رغم الحن والابتلاءات..

روى مسلم في صحيحه والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود وابن ماجه جميعا عن ثوبان رضي الله عنه، والإمام أحمد^(١) في مسنده واللفظ له عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (٦/٥٤٤، ح: ٤٩٢٧)، ومسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (١٦/٢٧٠، ح: ٢٢٢٢٠)، قال محققه حمزة أحمد الزين: إسناده حسن؛ ورواه ابن ماجه في سننه عن ثوبان، (١/١٤، ح: ١٠)، والترمذي عن ثوبان أيضا، (٤/٥٠٤، ح: ٢٢٢٩).

أمر الله وهم كذلك)، زاد الإمام أحمد: قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: (بيت المقدس وأكناف بيت المقدس).

وفي رواية مسلم: (ظاهرين على الحق)، وعند الترمذي: (على الحق ظاهرين)، وفي رواية الإمام أحمد: (على الدين ظاهرين)، وفي البخاري^(١) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)؛ ومما جاء في وصفهم في رواية الترمذي: (لا يضرهم من يخذلهم).

والحديث قبل زيادة الإمام أحمد التي تتضمن بيان موطن هذه الطائفة هو حديث صحيح، فلقد رواه مسلم، وذكرنا ما رواه البخاري بعد ذكرنا لما رواه مسلم، ولا كلام لنا في محاولة إثبات دوام الطائفة الظاهرة بالحق، فمجرد ذكر ذلك في الصحيحين، وأن هذه الطائفة مستمرة إلى قريب من يوم القيامة؛ كافٍ لدى كل من يعلم منزلة أحاديث الصحيحين.

بل لقد نص العلماء على تواتره تواترا معنويا، أي على تواتر المعنى الذي تتضمنه الأحاديث التي تبشر بدوام الطائفة الظاهرة على الحق حتى يأتي أمر الله، وهو ما يسميه العلماء: التواتر المعنوي، ومعظم الأحاديث التي قيل إنها متواترة، هي من هذا النوع المعنوي، والمعنى الذي تواترت عليه الروايات والأحاديث المختلفة هو معنى قطعي من حيث الثبوت..

وقد نصَّ على تواتر أحاديث الطائفة الظاهرة بالحق العلامةُ الشيخ محمد بن جعفر الكتّاني رحمه الله تعالى، وذلك في كتابه نظم المتناثر من الحديث المتواتر، وذكر أن الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى نص على تواترها في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم^(٢).

(١) صحيح البخاري، الفتح، (٣٠٦/١٣)، ح: (٧٣١١).

(٢) نظم المتناثر من الحديث المتواتر، للشيخ الفقيه المُحدِّث أبي عبد الله محمد بن جعفر الكتّاني،

(١٤١-١٤٢).

وكلام ابن تيمية الذي أشار إليه الشيخ الكتاني هو: «بل تواتر عنه ﷺ أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة»^(١).

وعلى هذا، فهذه الأحاديث تحمل جميعها بشرى واحدة، هي بقاء طائفة من الأمة ظاهرة بالحق، وما دامت طائفة من الأمة باقية وظاهرة بالحق، فالأمة باقية، والحمد لله رب العالمين، وليس في هذا جدال، وإنما يدور النقاش حول هذه الطائفة الظاهرة بالحق: ماهيتها ومكانها.

إن هذا القول الذي ذكرته حول تواتر حديث الطائفة الظاهرة بالحق، لا يشمل الزيادة الواردة في رواية الإمام أحمد في مسنده، والتي يقول فيها رسول الله ﷺ مينا مكانها: (ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس)؛ إذ هي ليست موجودة في صحيح مسلم، بل رواها الإمام أحمد بإسناده عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وقد وجد هذا الحديث بهذه الزيادة عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب أبيه وبخطه، وهذا ما يسمى في علم الحديث: الرواية بالوجدادة، وهي مقبولة في حال ثقة الواحد الثقة بنسبة الخط إلى من كتبه، والراوي هنا هو عبد الله بن أحمد ابن حنبل، وقد رأى الحديث بخط أبيه، وهو بلا شك أعرف الناس بخط أبيه، فهي على هذا وجدادة صحيحة.

وهذه الرواية صحيحة الإسناد، لا غبار على إسنادها الوارد في مسند الإمام أحمد، رغم ما دار من التزاع عند بعض الأئمة حول أحد رواة هذه الزيادة، وهو عمرو بن عبد الله الحضرمي، وهو عند التحقيق ثقة لا يصح تضعيف من ضعفه، ولا تجهيل من جهله؛ كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى، مع ما سيأتي من شاهد لرواية الإمام أحمد عند الطبراني في معجمه الكبير.

وبناء على ما مضى، وعلى ما سيأتي مما رأيته شواهد لمعنى هذه الزيادة، بناء على كل ذلك، فقد ملتُ إلى ترجيح تحسينها على الأقل..

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، للإمام ابن تيمية، تحقيق ناصر بن عبد الكريم العقل، (١/٦٩).

إنه لدى النظر في كتابين من الكتب الأصول التي يرجع إليها المُحدِّثون في تعديل أو تجريح الرواة، يتَّضح أن عمرو بن عبد الله الحضرمي، راوي الزيادة عند الإمام أحمد، خالٍ من أوصاف التجريح والتعديل.

ففي التاريخ الكبير للإمام البخاري رحمه الله تعالى، اقتصر صاحبه بأن قال فيه: روى عنه يحيى بن أبي عمرو السيباني الشامي^(١)؛ وكذلك قال ابن أبي حاتم الرازي رحمه الله تعالى في كتابه الجرح والتعديل^(٢)؛ دون أن ينقل أيًّا منهما جرحاً أو تعديلاً في حقه.

ولقد حقق الأستاذ العلامة عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى أن خلوَّ ترجمة الراوي في مثل هذين الكتابين عن الجرح والتعديل، يُعدُّ تعديلاً له، وذكر على ذلك عشرات الأمثلة، ذاكراً تفسيراً بعض جهابذة الحفظ والنقد^(٣) ونقل الشيخ أبو غدة رحمه الله تعالى عنهم أنهم «فهموا من تتبَّع صنيع البخاري وعاداته ودراسة أحكامه في الرجال، أن من سكت عنه لا يُعدُّ مجروحاً ولا مجهولاً»^(٤)؛ ثم ذكر الشيخ عشرات الأمثلة من كلام الأئمة، خاصة من كلام الحافظ ابن حجر في بيا معنى خلوَّ ترجمة جماعات من الرواة من تجريح أو تعديل، وأشار إلى مواضع عشرات من كتاب تعجيل المنفعة للحافظ ابن حجر^(٥)؛ تؤكِّد هذا الفهم.

(١) التاريخ الكبير للإمام البخاري، (٣٤٩/٦)، ترجمة رقم: (٢٥٩٧).

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي، (٢٤٤/٦)، الترجمة رقم: (١٣٥٢).

(٣) كمجد الدين ابن تيمية، (جدَّ شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية)، والمنذري والذهبي، وابن القيم وابن عبد الهادي والزيلعي، وابن كثير والزرکشي، والهيتمي والحافظ ابن حجر العسقلاني.

(٤) من تعليق العلامة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة رحمه الله تعالى على كتاب الرفع والتكميل لأبي

الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، (هامش صفحة ٢٣٢).

(٥) وأنا ذاكر هنا مثالا واحداً، يصلح أن يكون أنموذجاً لجميع هذه الأمثلة المشار إليها: فقد نقل الحافظ ابن حجر في كتابه تعجيل المنفعة، أن الحافظ ابن حمزة الحسيني الدمشقي رحمه الله تعالى، جهَّل في كتابه التذكرة برجال العشرة أحدَ الرواة واسمه سُقَيْرُ العَبْدِي، قال الحافظ: «ولم يُصِب في ذلك، فقد ذكره في حرف الصاد المهملة -أي صُقَيْر- ولم يذكر البخاري ولا ابن أبي حاتم فيه قدحاً»، فَتَفِي الحافظُ ابن حجرٍ صوابَ تجهيل سُقَيْر -صُقَيْر- العبدِي هذا، مستند فيما هو مستند عليه، على

وأمرٌ آخر، فقد نقل الشيخ أبو غدة رحمه الله تعالى، كلامَ ابن أبي حاتم الرازي في كتابه الجرح والتعديل، أن والده أبا حاتم الرازي، وهو أحد أئمة هذا الشأن، ذكر أن الراوي إذا كان مجهولاً نفعه رواية الثقة عنه^(١).

بل وأكثر من هذا، فقد نصَّ الحافظ ابن حجر في شرح النخبة أنه يُقبل على الأصحَّ حديث مجهول العين بأحد أمرين:
الأول: أن يوثقه غير من ينفرد عنه.

الثاني: وفي حال تركيته من قبل من روى عنه، فإن شرط هذا المُرَكَّب الراوي عنه أن يكون متأهلاً للتركية^(٢)، أي إذا كان هذا المتفرد من أئمة الجرح والتعديل، ثم زكَّى من انفرد بالرواية عنه، قبل حديثه^(٣).

عدم ذكر جرح فيه في الكتابين القديمين المرجعين الأصليين، تاريخ البخاري الكبير، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم.

على هذه الشاكلة تناول الحافظ ابن حجر وغيره من الأئمة، مسلك الإمامين البخاري وابن أبي حاتم حين لا يذكران في الراوي جرحاً ولا تعديلاً، فإذا بالحافظ ابن حجر يردُّ بنحبه، مستنداً على أن الإمامين البخاري وابن أبي حاتم لم يذكر في جرحاً ولا تعديلاً.

ويُنظر كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه تعجيل المنفعة له، وقد نقلته عن تعليقات الشيخ عبد الفتاح أبي غدة على كتاب الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للكنوي، (هامش صفحة ٢٤٠).
(١) نقلاً عن تعليق الشيخ أبي غدة رحمه الله تعالى على كتاب الرفع والتكميل للكنوي، (هامش صفحة ٢٣١)، وتُنظر تحقيقات العلامة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة بعنوان: سكوت المتكلمين في الرجال عن الراوي الذي لم يُجرح ولم يأت بمتنٍ منكر: يُعدُّ توثيقاً له، وذلك بهامش الصفحات (٢٣٠-٢٤٨) من كتاب الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، للإمام أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي.

(٢) يُنظر شرح النخبة، المُسمَّى: نُزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، للحافظ ابن حجر، (٩٩)؛ ويُنظر: تعليق محققه الأستاذ الدكتور نور الدين العتر في حاشية الصفحة نفسها.
(٣) منهج النقد في علوم الحديث، للدكتور نور الدين العتر، (٩٠).

وحالُ صاحبنا الحضرمي راوي زيادة الإمام أحمد ينطبق عليه الأمران معا، فقد وثَّقه العجلي ويعقوب بن سفيان الفسوي وابن حبان، وهم أئمة، وإن وُصِفَ الأول والثالث منهما بالتساهل في التعديل، فإن أوسطهما، وهو يعقوب بن سفيان لم يوصف بذلك، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

بعد هذه النقول لتلك التحقيقات، أرجع إلى الراوي محل النقاش، وهو عمرو بن عبد الله الحضرمي، فهو:

أولا: مذكور في التاريخ الكبير للبخاري، وفي الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي، ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا، مما يعني أنه لا يصح جرحهما، بل عدم ذكر جرحٍ فيهما هو تعديل له، كما قد حقق ذلك الشيخ أبو غدة، مستندا على ما نقله عن أئمة هذا الشأن، ونقلته أنا بدوري عنه.

وثانيا: روى عنه ثقة، وهو يحيى بن أبي عمرو السيباني، الذي قال عنه أحمد ابن حنبل: شيخٌ ثقة ثقة، ووثقه دُحَيْمٌ والعجلي ويعقوب بن سفيان^(١)؛ فلو كان مجهولا فعلا، لنفعه رواية الثقة مثل هذا الثقة عنه، ولجعله في مرتبة من مراتب التعديل؛ على ما نقله ابن أبي حاتم عن أبيه.

وعلى ما مضى جميعه، لا يصحّ تجهيل الحافظين الذهبي وابن حجر لعمرو بن عبد الله الحضرمي، إذ المتقدّمون لم يذكروا فيه جرحا ولا تعديلا، كما قد تبين، مما يعني أنه ثقة، خاصة مع توثيق العجلي وابن حبان ويعقوب بن سفيان الفسوي له، وهو آتٍ قريبا إن شاء الله تعالى.

ولئن صحّ تجهيل الحافظين الذهبي وابن حجر لهذا الراوي، لُقِّبَت روايته رغم جهالة عينه، إذ وثَّقه أحد الأئمة، ولقد قرأ القارئ الكريم أنه تُقبَلُ رواية مجهول العين، في حال توثيق أحد الأئمة له، كما ذكرته عن الحافظ ابن حجر قبل فقرات، فعلى هذا الأصل

(١) نقل هذه التوثيقات جميعها الحافظ ابن حجر في كتابه تهذيب التهذيب، (١١/٢٦٠-٢٦١).

يكون الحضرمي راوي هذه الزيادة مقبول الرواية، حتى على تجهيل الحافظ ابن حجر نفسه له.

وعليه، فلن يضراً عمرو بن عبد الله الحضرمي وصف الحافظ ابن حجر له بالجهالة، إذ بعد أن قال فيه في تقريب التهذيب: مقبول^(١)، عاد وقال كما ذكره مؤلفنا تحرير التقريب والتهذيب: بل مجهول، تفرّد بالرواية عنه يحيى بن أبي عمرو السيباني^{(٢)(٣)}.

ومع ذلك، فلا بد من الإشارة إلى أن التجهيل ليس تضعيفاً فعلياً، إذ غاية ما فيه عدم العلم بالراوي أو بحاله، مما يعني أنه قد يكون ثقة في واقع الحال^(٤)، فإذا جاء توثيقه عن إمام من الأئمة، زالت الجهالة عنه، وتبين رجحان التوثيق، خاصة فيما يتعلق بالرواية في عصر التابعين، فالغالب عليهم العدالة، فإن جهلت، كفاهم لبيان تعديلهم توثيق إمام لهم.

ثم لا يصحّ رفض الحافظ ابن حجر كما في تهذيب التهذيب قول الحافظ العجلي في عمرو بن عبد الله الحضرمي هذا: شامي تابعي ثقة^(٥)؛ ولا يصح قوله: وتوثيق العجلي لا يرفع الجهالة عنه، لما هو معروف عنه من التساهل^(٦)؛ إذ لم يقتصر توثيقه على العجلي، بل وثّقه أيضاً يعقوب بن سفيان الفسوي وهو أحد الأئمة الكبار في الجرح والتعديل، وسيأتي توثيقه له إن شاء الله تعالى.

(١) تقريب التهذيب، للحافظ ابن حجر، طبعة دار ابن حزم التي حققها وعلق عليها أستاذي العلامة الشيخ محمد عوامة، (٤٩٣).

(٢) تحرير تقريب التهذيب، للدكتور بشار عواد معروف والشيخ شعيب الأرنؤوط، (٩٩/٣).

(٣) سيأتي قريباً قول الذهبي أن ثمة من روى عنه غير يحيى بن أبي عمرو، مما يعني أن الجهالة قد رُفعت.

(٤) تُنظر مقدمة الأستاذ الشيخ محمد عوامة لتقريب التهذيب، للحافظ ابن حجر، (٥٠).

(٥) تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر، (٦٨/٨).

(٦) تحرير تقريب التهذيب، (٩٩/٣).

كل هذا من الحافظين ابن حجر والذهبي رحمهما الله تعالى، أدى فيما يبدو إلى
تضعيف بعض العلماء المعاصرين لزيادة الإمام أحمد: (بيت المقدس وأكناف بيت
المقدس)، وذلك بسبب تجهيلهما - أعني الحافظين الذهبي وابن حجر - لأحد رواتهما، وهو
عمرو بن عبد الله الحضرمي.

من هؤلاء العلامة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، فقد ضعّفها
فقال عنها إنها رُويت بإسناد ضعيف عن أبي أمامة^(١).

وكذلك ضعّفها محققو طبعة مسند الإمام أحمد التي أصدرتها مؤسسة الرسالة ببيروت
بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، وذلك للسبب نفسه^(٢).

وضعّف سندها عند الإمام أحمد كذلك الأستاذ العلامة محدث العصر الشيخ محمد
ناصر الدين الألباني رحمه الله عليه، لما قيل إن أحد رواتهما مجهول، وهو عمرو بن عبد الله
الحضرمي^(٣)، وسأنقل قريبا إن شاء الله تعالى الشاهد الذي ذكره الأستاذ الألباني رحمه الله
تعالى لزيادة الإمام أحمد، وهي عند الطبراني في الكبير.
وعودا إلى الحضرمي..

فلقد قرأ القارئ الكريم ترجيح توثيق الحضرمي هذا، وبيّنتُ الموقف من تجهيله،
وكيفية التعامل مع بعض من يقال فيهم: إنهم مجهولون، ونقلتُ ذلك عن ابن حجر.
والأساس في هذا، كما نقلته قريبا، هما كتابا البخاري وابن أبي حاتم، فبناء على ما
مضى مما نقلته عن الشيخ أبي غدة من تحقيقات، فإن عدم ذكر ترجيح الراوي في كتابهما
لا يعني بتاتا جرح هذا الراوي، بل يعني توثيقه.

(١) الأضواء الكاشفة، للشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني، (١٢٩).

(٢) مسند الإمام أحمد، تحقيق جماعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة
الرسالة، بيروت، (٦٥٧/٣٦، ح: ٢٢٣٢٠).

(٣) سلسلة الصحيحة للأستاذ الألباني رحمه الله تعالى، (٤/٥٩٩، ح: ١٩٥٧).

وذكرتُ قريبا أن العجلي ليس وحده من وثقَّ الحضرمي هذا، بل وثقه أيضا يعقوب بن سفيان البسوي، ويقال: الفسوي، في كتابه المعرفة والتاريخ، إذ قال في سياق إسناد ذكر فيه عمرو بن عبد الله الحضرمي؛ قال واصفا الحضرمي هذا: «شامي ثقة»^(١). وكذلك ذكره الحافظ ابن حبان في الثقات، كما في تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزني^(٢)، الذي اكتفى بذكر توثيق ابن حبان له، دون أن يذكر في جرحا ولا تعديلا.

ولئن كان العجلي وابن حبان متساهلين في التوثيق، فماذا نفعل بتوثيق يعقوب بن سفيان، الذي قال وصفه الحافظ الذهبي بقوله: «الإمام الحافظ الحجة»، ووصف كتابه المعرفة والتاريخ بأنه «جمّ الفوائد»^(٣)، ونقل عن أبي زرعة الدمشقي قوله فيه: «يعجز أهل العراق أن يروا رجلا مثله»^(٤)، وقال فيه الحافظ بن حجر: «ثقة حافظ»^(٥)، فماذا نفعل بتوثيقه له، وهو على هذه المترلة العالية؟

إنه لأجل ما نقلت عن العجلي ويعقوب بن سفيان من توثيق الحضرمي أحد رجال هذا الحديث، لأجل ذلك انتقد الدكتور عامر حسن صبري قول الحافظ ابن حجر فيه: مقبول، وكذلك تجهيل الذهبي له^(٦).

-
- (١) المعرفة والتاريخ، تأليف يعقوب بن سفيان البسوي، ويقال: الفسوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، (٤٣٧/٢)، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١ م.
 - (٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لأبي الحجاج جمال الدين يوسف المزني، تحقيق بشار عواد معروف، (١١٧/٢٢)، ترجمة رقم: ٤٤٠٣.
 - (٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، (١٨٠/١٣).
 - (٤) سير أعلام النبلاء للذهبي، (١٨٢/١٣).
 - (٥) تقريب التهذيب، للحافظ ابن حجر، (٦٠٨).
 - (٦) قال الذهبي فيه في الميزان، (٢٧١/٣): ما علمتُ روى عنه سوى يحيى بن أبي عمرو السيباني، وهذا يعني في اصطلاح المحدثين أن هذا الراوي مجهول العين.

والغريب أن الإمام الذهبي الذي جهَّل الحضرمي هذا بقوله فيه في كتابه الميزان: ما علمتُ روى عنه سوى يحيى بن أبي عمرو؛ الغريب أنه هو نفسه الذي قال في حقه في كتابه الكاشف: روى عنه يحيى بن أبي عمرو وطائفة، وأضاف قوله فيه: وثق، فكيف يذكر الذهبي في الميزان أنه لم يروِ عنه سوى يحيى بن أبي عمرو، ثم يقول هو نفسه في الكاشف إنه روى عنه يحيى وطائفة^(١)؟ وعليه فإنه يصح أن نقول هنا: إن الإمام الذهبي رحمه الله تعالى قد وقع هنا في السهو أو سبق القلم، والكمال لله وحده.

ثم إن الإمام الذهبي نفسه رحمه الله تعالى قد أقرَّ الحاكمَ النيسابوريَّ على تصحيحه حديثاً على شرط مسلم^(٢)، رغم وجود الحضرمي نفسه في إسناد هذا الحديث، فكيف يقرّ الذهبي تصحيح الحاكم حديثاً على شرط مسلم، ثم يحكم هو نفسه على أحد رواياته بالجهل في كتابه الميزان؟!

إنني لا أعني أن إقرارات الذهبي رحمه الله لتصحيحات الحاكم صائبة بالمطلق ولا تُناقش، بل قصدتُ في كلامي إبراز التضارب في كلام الإمام الذهبي نفسه في راوٍ معين. إننا وفق جمعٍ بين كل ما مضى نقول: إنه لا يصحّ أبداً تجهيل الحضرمي؛ الذي لم يذكر فيه الكتابان الأصلان تاريخ البخاري والجرح والتعديل لابن أبي حاتم فيه جرحاً ولا تعديلاً، مما يقضي بتعديلهما له؛ والذي ذكره ابن حبان في الثقات، ووثقه العجلي ويعقوب بن سفيان الفسوي.

ولربما لأجل ذلك حكم الهيثمي على إسناد هذا الحديث بهذه الزيادة بقوله: «رواه عبد الله وجادة عن خط أبيه، والطبراني، ورجاله ثقات»^(٣).

(١) الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، (٢/٣٣٥).

(٢) تلخيص الذهبي لمستدرك الحاكم، بهامش المستدرك، (٤/٥٣٦-٥٣٧)، وفي الحقيقة لا يتأتى تصحيح ذاك الحديث على شرط مسلم، إذ لم يروِ مسلم للحضرمي في صحيحه، لكن يصلح تصحيحه دون أن يكون على شرط مسلم، لكونه ثقة.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي، (٧/٢٨٨).

وأيضاً لأجل ذلك قال الأستاذ حمزة أحمد الزين محقق طبعة دار الحديث للمسند تعليقا على الحديث مع هذه الزيادة حسب رواية الإمام أحمد: (إسناده حسن)^(١). ومع ما مضى جميعه، فلزيادة الإمام أحمد شاهد، وهو ما رواه الطبراني عن مُرَّة البهزي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم، وهم كالإناء بين الأكلة، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)، قلنا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: (بأكناف بيت المقدس)^(٢).

ولقد كنتُ نقلتُ تضعيف الأستاذ الألباني رحمه الله تعالى لسند رواية الإمام أحمد، التي تتضمن الزيادة التي نبحت فيها، ولكنه رغم ذلك فإنه قال عن رواية أبي أمامة التي تتضمن هذه الزيادة: «ولحديث أبي أمامة شاهد بنحوه رواه الطبراني»^(٣).

إن هذا القول من الأستاذ الألباني يمكن أن يكشف عما يقوي هذه الزيادة، إذ يعني هذا أن إسنادا آخر لهذه الزيادة تصلح شاهدها لها.

ولما قال الإمام الهيثمي في سند رواية الطبراني المشار إليها: «وفيه جماعة لم أعرفهم»، لم يُرض ذلك الأستاذ الألباني، بل تعقبه قائلا: «كذا قال، ومن لم يعرفهم مترجمون في تاريخ البخاري والجرح والتعديل لابن أبي حاتم، كما حققه صاحبنا الشيخ حمدي السلفي في تعليقه على المعجم».

وهذا من الأستاذ الألباني رحمه الله تعالى تقوية واضحة لهذه الزيادة، إذ لم يتعقبها بما يُسقطها كشاهد لزيادة الإمام أحمد.

ويبدو أنه لأجل شاهد الطبراني لرواية الإمام أحمد التي تتضمن قوله ﷺ: (بيت المقدس وأكناف بيت المقدس)، يبدو أنه لأجل شاهد الطبراني هذا صحح الحديث مع هذه الزيادة الأستاذ إبراهيم العلي رحمه الله تعالى فقال: الحديث صحيح لشواهد^(١).

(١) المسند طبعة دار الحديث، القاهرة، (٢٧٠/١٦).

(٢) المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، (٣١٨/٢٠).

(٣) سلسلة الصحيحة للأستاذ الألباني رحمه الله تعالى، (٤/٦٠٠، ح: ١٩٥٧).

ولهذا كله أعود إلى مجمل القول في رواية الإمام أحمد التي تتضمن أن الطائفة الظاهرة
بالحق موجودة ببيت المقدس وأكناف، فأقول وبالله التوفيق:

إنه لأجل ما ثبت من توثيق الحضرمي أحد رجال إسناده الإمام أحمد راوي هذه
الزيادة، على ما نقلته عن العجلي ويعقوب بن سفيان البسوي وابن حبان؛ وعلى ما
نقلتُ التأسيس لمثل حاله عن الشيخ أبي غدة رحمه الله تعالى، الذي تبين معنا فيه أن عدم
ذكر جرح أو تعديل في الراوي في كتابي التاريخ للبخاري والجرح والتعديل لابن أبي
حاتم، أنه ليس جرحاً له، بل تعديل وتوثيق؛ ولأجل ما ثبت من زوال جهالته برواية
طائفة من الرواة عنه كما نصَّ الذهبي رحمه الله تعالى على ذلك؛ ولأجل الشاهد من
رواية الطبراني في المعجم الكبير، والتي ذكرها الأستاذ الألباني، ونقلتها أخيراً عن معجم
الطبراني نفسه؛ ولأجل ما سيأتي من شواهدٍ لمعنى هذه الزيادة؛ إنه لأجل كل ذلك كان
لا بد من تأكيد أن هذه الزيادة الواردة في مسند أحمد قد بلغت مبلغ الصحيح أو
الحسن على الأقل.

ولقد روى هذه الزيادة أيضاً أبو بكر الواسطي في فضائل البيت المقدس، وذكر
الغماري أن رجاله ثقات، ثم قال: وقد خرَّجه الضياء في المختارة، والطبراني في الكبير،
وابن جرير الطبري في كتابه تهذيب الآثار^(٢).
وذكر الغماري من رواة هذه الزيادة يعقوب بن سفيان في مشيخته، وابن عساكر في
تاريخه، لكن رواية الطبراني وابن عساكر ويعقوب بن سفيان ضعيفة لضعف عباد بن عباد
أحد رواة هذه الزيادة عند هؤلاء الأئمة^(٣).

(١) الأرض المقدسة بين الماضي والحاضر، إبراهيم العلي، (١٤٢).

(٢) الأجوبة الصارفة لإشكال حديث الطائفة، للشيخ أبي الفيض الغماري، تحقيق: عدنان بن عبد
الله زُهار، (٢٥).

(٣) الأجوبة الصارفة لإشكال حديث الطائفة، للشيخ أبي الفيض الغماري، تحقيق: عدنان بن عبد
الله زُهار، (٢٩).

ولا بد من بيان أن ضعف رواية ابن عساكر والطبراني ويعقوب بن سفيان، لا تعني ضعف بقية الروايات ولا تغضُّ من قيمتها، فلقد تبين للقارئ الكريم صحة رواية الإمام أحمد، وهذا كافٍ، سواء بانتفاء قول من قال بجهالة أحد رواقها، أو بشاهدها عند الطبراني، أو بالأمرين معاً؛ ومعروف في علم الحديث أنه يكفي لصحة الحديث أن يأتي صحيحاً ولو من طريق واحد، أو من رواية واحدة، ولقد كثر في الأحاديث الصحيحة إتيان بعضها بروايات ضعيفة، كما هو الحال في حديث عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)^(١)، فهو رغم صحته، إذ رواه البخاري ومسلم وغيرهما، رحمهم الله تعالى، بإسناد صحيح عن عمر رضي الله عنه، إلا أن له روايات أخرى بأسانيد ضعيفة، فلم يضره هذا، إذ كفى وجود رواية صحيحة له لإثبات صحته.

نقل الإمام النووي عن الأئمة الحفاظ قولهم: «لم يصح هذا الحديث عن النبي ﷺ إلا من رواية عمر بن الخطاب..»^(٢)، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «ورد من طرق معلولة، ذكرها الدارقطني وأبو القاسم بن منده»^(٣).

إن ورود الحديث الصحيح بأسانيد أخرى غير التي تبين صحتها، لا يجعل الحديث ضعيفاً^(٤).

وبعد، فلقد ثبتت لديّ صحة زيادة الإمام أحمد التي تنصّ على أن الطائفة الظاهرة بالحق موجودة استمرارا ببيت المقدس وأكافه، ومن ها هنا قام احتجاجي بها في إثبات حصيصة من خصائص الأرض المقدسة، وهي أن بها الطائفة الظاهرة بالحق.

(١) رواه البخاري، (١٥/١، ح: ١)، من فتح الباري؛ ومسلم، (٥٣٤/٦، ح: ١٩٠٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، (٥٣٤/٦).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (١٧/١).

(٤) وإنما أطلت في بيان هذه المسألة رغم وضوحها واشتهارها، خشية من ظن يقتحم نفوس بعض القراء الكرام، وخشية من أن يتوهم متوهم بأن ما ذكرته من ضعف بعض طرق زيادة (بيت المقدس) الواردة في مسند أحمد، يؤدي إلى ضعف الحديث ذاته برواياته كلها.

ومع ذلك، فلقد رأيت أن معنى الحديث اعتضدَ بشواهد تقويّه، وهي في تقديري شواهد عديدة، وأنا ذاكرٌ قليلا منها..

الحديث الأول: إنه يُستأنس لهذه الزيادة عند الإمام أحمد بما رواه الإمام مسلم^(١) عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)، ولئن ذكر الإمام ابن تيمية عن الإمام أحمد في تفسير كلمة الغرب الواردة في هذا الحديث بالشام، وأقرّه ابن تيمية^(٢)؛ فإن يكون تفسير الغرب فيه: بيت المقدس أولى؛ فإن الواقع فعلا إلى جهة الشمال الغربي للمدينة المنورة هي فلسطين وعاصمتها بيت المقدس، وإن الشام تتجه بعد فلسطين إلى الشرق، حتى إذا وصلت حدود العراق مع الشام رأيت تلك المنطقة الحدودية واقعة تماما شمال المدينة المنورة، وهي التي أشار إليها ابن تيمية^(٣) كمنطقة مسامتة تماما لشمال المدينة المنورة، وعليه، فكلما سرنا إلى جهة الغرب من تلك المنطقة الحدودية، صار ما وصلنا إليه أكثر استحقاقا لوصفه غربا بالنسبة للمدينة المنورة، حتى إذا وصلنا فلسطين وبيت المقدس كنا فعلا في منطقة يصلح أن تكون غربا أو شمالا غربيا بالنسبة للمدينة المنورة. وما دامت الشام تميل شيئا فشيئا إلى جهة الغرب، لتكون شيئا فشيئا إلى جهة الشمال الغربي بالنسبة للمدينة المنورة، فإنه على هذا يكون أكثر أطرافها ميلا إلى الغرب هو فلسطين، فهي الأكثر غربيّةً بالنسبة للمدينة من سائر الشام، وإن عاصمتها، بل عاصمة الشام جميعا هي بيت المقدس، وهي الأقرب من سائر الشام إلى الغرب، بل هي أقرب من دمشق نفسها إلى الغرب بالنسبة إلى المدينة المنورة، أو هي إلى الشمال الغربي بالنسبة إليها، وعليه، فيصح أن توصف بأنها غرب بالنسبة لها، أي أن تفسير كلمة الغرب الواردة في الحديث ببيت المقدس أقرب وأولى.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (٦/٥٤٧، ح: ٤٩٣٥).

(٢) مجموعة الفتاوى، للإمام ابن تيمية، (٤/٢٧٣).

(٣) المرجع نفسه، (٤/٢٧٤).

إنه لأجل هذا الذي قلناه في تفسير كلمة الغرب الواردة في حديث الإمام مسلم الذي أوردناه، لأجل هذا رأينا ما فهمناه من مضمون هذا الحديث صالحا للاستئناس به، واعتبار هذا المضمون شاهدا لرواية الإمام أحمد التي تذكر بيت المقدس وأكنافه. ولقد جمع الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى بين الأحاديث التي تذكر الشام والأحاديث التي تذكر بيت المقدس، ^(١) «بأن المراد قومٌ يكونون ببيت المقدس، وهي شامية..»^(٢)، وكأن هذا من الحافظ ابن حجر تقوية لزيادة الإمام أحمد التي تذكر بيت المقدس.

الحديث الثاني: وقد روى أبو يعلى في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون علي أبواب دمشق وما حوله، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يضرهم من خذلهم، ظاهرين على الحق، إلى أن تقوم الساعة) قال الهيثمي في مجمع الزوائد^(٣): رواه أبو يعلى ورجاله ثقات؛ ولقد صححه الأستاذ إبراهيم العلي.

وفي هذا الحديث فوق ما فيه من ذكر بيت المقدس وطائفتها الظاهرة بالحق؛ فيه ذكر لدمشق، وأما أيضا تحظى بعصابة من أمة محمد ﷺ، وأما ظاهرة بالحق، إلى أن تقوم الساعة.

ولا يبعد في تقديري أن الطائفة الظاهرة بالحق ذات وجود مستمر في الشام، ولكن لها تعلقا خاصا ببيت المقدس، لخصوصيات تظهر جلية، تؤكد مقام بيت المقدس أيام الدجال تحديدا.

الحديث الثالث: ولقد يشهد لزيادة الإمام أحمد: (ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس)، ما رواه أبو داود والحاكم عن عمران بن الحصين أن رسول الله ﷺ قال: (لا

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، (٣٠٨/١٣).

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للإمام الحافظ نور الدين الهيثمي، (٦١/١٠).

تزال طائفة من أمّتي يقاتلون على الحقّ ظاهرين على من ناوهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال^(١).

إن هذه الطائفة المذكورة في هذا الحديث هي نفسها الطائفة المذكورة في الحديث الذي نحن بصدده، والذي زاد فيه أحمد في روايته له: (ببيت المقدس..)، فوصفها في هذا الحديث هو نفس وصفها في ذلك، وواضح ما في هذا الحديث من تعلق لهذه الطائفة ببيت المقدس وأكنافه، فهو يذكر أن آخرها سيقاتلون الدجال، وإن الدجال سيقتل فعلا بباب لدّ، كما نقلنا قريبا عن صحيح الإمام مسلم^(٢) في وصف عيسى: (..فلا يحلّ لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه -أي عيسى يطلب الأعرور الدجال- حتى يدركه بباب لدّ فيقتله).

واللد من أكناف بيت المقدس، إن لم تكن من بيت المقدس نفسه، وعليه، فيصلح مضمون هذا الحديث ليكون شاهدا لزيادة الإمام أحمد، التي نحن بصددها.

أي أن الطائفة الظاهرة بالحق ستكون ببيت المقدس وأكنافه، لأنها ستقتل الدجال ببيت المقدس وأكنافه؛ جمعا بين الأحاديث.

وهذا في تقديري يصلح شاهدا آخر لمعنى زيادة الإمام أحمد في مسنده: (ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس)، فساحة وميدان هذه الأحداث كائن لا محالة بإذن الله تعالى في بيت المقدس وأكنافه، تلك التي شهد لها الحديث أنها ستقاتل الدجال.

(١) رواه أبو داود في سننه، (٣٣٨/٢، ح: ٢٤٨٤)، والحاكم في المستدرک، (٧١/٢)، (٤٥٠/٤) وصححه في الموضوعين على شرط مسلم، وأقره الذهبي.

(٢) مضى بطوله قريبا، رواه مسلم بشرح النووي، (١٩١/٩-١٩٥، ح: ٢٩٣٧)، والترمذي، (٥١٠/٤-٥١٤، ح: ٢٢٤٠)، وابن ماجه، (٣٩٩/٤-٤٠٣، ح: ٤٠٧٥)، كلاهما بنحو وطول رواية مسلم، ورواه أبو داود مختصرا، (١٠٠/٤-١٠١، ح: ٤٣٢١).

الحديث الرابع: ولعله كالنص في معنى زيادة الإمام أحمد التي نحن بصدددها، ما رواه مسلم وأحمد^(١) أيضا عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فيترزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله هذه الأمة).

فهذا الحديث يذكر طائفة من أمة محمد ﷺ، لا تزال تقاتل على الحق ظاهرة إلى يوم القيامة، إلى أن يترزل عيسى ﷺ ويأتي إلى أمير هذه الطائفة بيت المقدس، فيرفض عيسى الصلاة به إماما، ويصر أن يكون مأموما به.

وهذا ظاهر في أن هذا الأمير لهذه الطائفة الظاهرة بالحق سيكون أيام عيسى بيت المقدس، وهو يدعو عيسى عليه السلام أن يصلي إماما بهم؛ وهذا كائن ببيت المقدس، كما سيأتي في حديث أم شريك التي سألت رسول الله ﷺ فأين العرب يومئذ، فقال: (جُلهم ببيت المقدس)، وذلك في الفصل العاشر من هذا الباب.

يقول الإمام السخاوي رحمه الله تعالى: «..ثم يخرج عيسى عليه السلام بمن معه من أهل دمشق، يتبع الدجال إلى أن يأتي بيت المقدس، فيجده مغلقا قد حصره الدجال..»^(٢)، ولقد نص الفقيه الهيثمي أن المهدي يصلي بعيسى في بيت المقدس^(٣).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (٢/٢٤٩، ح: ١٥٦)، ومسند الإمام أحمد، (١١/٥٢٤)، ح: ١٤٦٥٥، (١٢/٧٩، ح: ١٥٠٦٥)، ورواه أيضا ابن حبان في صحيحه، (١٥/٢٣٠، ح: ٦٨١٩) من ترتيب ابن بلبان.

(٢) القناعة فيما يحسن الإحاطة من أشراف الساعة، للحافظ السخاوي، (٢٤-٢٥)، وقال محققه الدكتور محمد بن عبد الوهاب العقيل، (٧٩-٨٠): وأكثر العلماء على أنه هو -أي المهدي عليه السلام- الذي يصلي بالناس في بيت المقدس، فيترزل عيسى عليه السلام ويقرؤه على إمامته.

(٣) القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، لابن حجر الهيثمي (٧٨-٧٩، و٨٦-٨٨).

إن هذه الشواهد النبوية لمعنى زيادة الإمام أحمد، وسواها مما في معناها كثير، كافية في تعضيد هذه الزيادة، رغم ما يجب أن تُذكر القارئ الكريم به من صحة هذه الزيادة أصلاً ومن عدم صحة القول بتضعيفها، وقد ذكرنا هذا تفصيلاً قبل صفحات.

هذا، ولا تقصد هذه الأحاديث معنى انحصار الطائفة المؤمنة الظاهرة بالحق في بيت المقدس فحسب دون ما سوى بيت المقدس من البلدان، وإنما يحمل ما فيها أن طائفة مؤمنة هذه مواصفاتها لا تزال ببيت المقدس وأكنافه، ولا يخلو منها بيت المقدس إلى أن تقوم الساعة، وذلك دون الإشارة إلى ما سوى بيت المقدس من البلدان.

المبحث الثاني: شرح حديث الطائفة الظاهرة بالحق

ولا بد من شرح هذا الحديث، فهو محور هام من محاور هذا البحث..

تعني كلمة الطائفة حسب معناها اللغوي: جماعة من الناس تُطيف بالواحد أو بالشيء، ولا تكاد العرب تحدّها بعدد معلوم، إلا أن الفقهاء والمفسرين يقولون فيها مرة: إنها أربعة فما فوقها، ومرة إن الواحد طائفة، ويقولون أيضا: هي الثلاثة^(١)؛ ولكننا غير ملزمين بهذا التفسير الفقهي، بل نرى الطائفة غير محدودة لغةً بعددٍ، وهي ليست من الأسماء الشرعية التي تُلزمنا بمعنى محدد، كما هو الحاصل في كلمات الصلاة والزكاة والحج مثلا، حين إطلاقها.

والقهر: كلمة تدل على العُلُوّ والغلبة، يقال: قهره يقهره قهرا، والقاهر: الغالب^(٢). والظهور الوارد في الحديث هو الغلبة، قال الحافظ ابن حجر في تفسير ما ورد في رواية البخاري: (وهم ظاهرون): «أي على من خالفهم، أي غالبون»^(٣). ويذكر الإمام أحمد في روايته أن هذه الطائفة على الدين ظاهرة، وعند مسلم والترمذي أنها على الحق ظاهرة، مما يعني أن الدين في هذا الحديث هو ذاته الحق، وأن الحق هو الدين، ومعنى كلمة الحق في اللغة هو: «إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل»^(٤)، وفي المفردات للراغب الأصفهاني: «أصل الحق للمطابقة والموافقة»^(٥)؛ وهذا كله يعني أن هذه الطائفة موافقة للدين، دونما خلل، فهو موافقة لإحكام، لا موافقة إجمال، وهي مطابقة لأصوله ومفاهيمه.

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، (٣/٤٣٢-٤٣٣).

(٢) المرجع السابق، (٥/٣٥).

(٣) فتح الباري للحافظ ابن حجر، (١٣/٢٠٧).

(٤) معجم مقاييس اللغة، (٢/١٥).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، (٦/٢٤٦).

حتى يأتي أمر الله: أميل في معناها إلى ما رجّحه الإمام النووي والحافظان ابن حجر العسقلاني والمناوي^(١) رحمهم الله تعالى..

رجّح هؤلاء الأئمة الثلاثة أن أمر الله هنا هو الريح التي تهبُّ من قِبَل اليمن، فتقبض مَنْ في قلبه مثقالُ ذرة من إيمان، ليبقى شرار الناس الذين عليهم تقوم الساعة بعد ذلك؛ وهو الموافق لتفسير عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما كما في صحيحَي مسلم وابن حبان^(٢) عن عبد الرحمن بن شماسة المهري، قال: كنت عند مسَلمة بن مُخَلد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شرُّ من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيءٍ إلا ردّه الله عليهم، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له مسَلمة: يا عقبة، اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال عصاة من أمتي يقاثلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك)، فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحا كريح المسك، مسُّها مسُّ الحرير، فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الخلق عليهم تقوم الساعة.

ويدلّ على صحة ترجيح ابن عمرو لمعنى: (حتى يأتي أمر الله..) ما ورد في صحيح مسلم من ذكر لهذه الريح، التي تخرج آخر أيام عيسى ابن مريم ﷺ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﷺ: (..) فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبضُ روح كلِّ مؤمنٍ وكلِّ مسلمٍ؛ ويبقى شرار الناس، يتهاجرون فيها تمّارج

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، (٦/٥٤٤-٥٤٥)، وفتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٣٠٨/١٣)، وفيض القدير للمناوي، (٦/٣٩٥).

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، (٦/٥٤٧، ح: ١٩٢٤)، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (١٥/٢٥٠، ح: ٦٨٣٦)، إلا أن ابن حبان قال: مسُّها مسُّ الخرز، بدل ما في مسلم: مسُّ الحرير.

الحُمْر^(١)، فعليهم تقوم الساعة^(٢)، أي بينما عيسى ومن معه من أهل الإيمان في هذه البركات العظيمة، إذ بعث الله تلك الريح الطيبة.

وجمع الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى بين الأجل المضروب في الحديث لبقاء الطائفة الظاهرة بالحق، وبين الأحاديث التي تصف آخر الزمان بأوصاف الشر والشرك والانفلات كَلِيَّة من دين الله تعالى، اعتقادا وسلوكا؛ جمع الحافظ بين الأمرين في فتحه بقوله: «ويمكن أن يكون المراد بقوله: (أمر الله): هبوب تلك الريح، فيكون الظهور قبل هبوبها...، فأما بعد هبوبها فلا يبقى إلا الشرار، وليس فيهم مؤمن، فعليهم تقوم الساعة، وعلى هذا فآخر الايات المؤذنة بقيام الساعة: هبوب تلك الريح»^(٣).

وهذا يعني أن أجل هذه الطائفة الظاهرة بالحق ينتهي حين خروج هذه الريح، فبعدها يبقى شرار الخلق لتقوم الساعة عليهم، إذ قد نص هذا الحديث أنه لا وجود لأهل الإيمان بعد خروج هذه الريح، مما يعني من باب أولى عدم وجود هذه الطائفة الظاهرة بالحق، وعليه يظهر رجوح هذا التفسير لجملة: (حتى يأتي أمر الله..).

ثم إن قوله صلى الله عليه وسلم: (فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة..)، صريح في أن الريح تنبعث وعيسى لا يزال موجودا، غير أن تعبيرات العلماء تتحدث عن أن هذه الريح ستخرج بعد موت عيسى ﷺ، قال الحافظ ابن حجر^(٤): «ثم بعد موت عيسى تمّ الريح المذكورة»، وقال تلميذه الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى: «وبعد موت عيسى عليه السلام تمّ ريح، فتقبض أرواح المؤمنين...، مع أنه لم يقع

(١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم، (٩/١٩٥): «أي يجامع الرجال النساء علانية بحضرة الناس، كما يفعل الحمير».

(٢) رواه مسلم بشرح النووي، (٩/١٩١-١٩٥، ح: ٢٩٣٧)، ورواه غيره أيضا، وقد مضى الحديث بطوله وتخريجه.

(٣) فتح الباري للحافظ ابن حجر، (١٣/٩١-٩٢).

(٤) المرجع نفسه، (١٣/٢٠٧).

الإفصاح هناك^(١) بكونه بعد موته^(٢)، وكأن هذا من السخاوي دليل على تردد عنده في وقت خروج هذه الريح، أي هل ستكون آخر أيام عيسى أو بعده؛ والله أعلم بالصواب.

أكناف بيت المقدس: أكناف الشيء هي نواحيه وجوانبه، والكنف: الجانب والناحية^(٣).

ولا بد أن نبين أن بعض الروايات ذكرت وصفا لهذه الطائفة، وهو: (لا يضرهم من يخذلهم)، ولقد جاء هذا الوصف في رواية الترمذي، كما ذكرناه في مكانه من تخريج هذا الحديث.

فما هو معنى الخذلان حسب اللغة؟

الخذلان يتأتى في الغالب ممن يُتصور أو يُتظَرُّ منه تأييد أو نصر، أي ممن ليس عدواً في أصل علاقته بالطائفة؛ أو هو يتأتى ممن ينبغي أن ينصرها ولكنه لم يفعل؛ قال الجوهري في معجمه اللغوي: الصحاح^(٤): «خذله خذلانا: إذا ترك عونته ونصرتة»، ونقل عن الأصمعي^(٥) أنه قال: «إذا تخلف الظبي عن القطيع قيل: خذل»، وقال ابن الأثير الجزري في كتابه النهاية في غريب الحديث والأثر^(٦): «الخذل: ترك الإغاثة والنصرة».

(١) يقصد بقوله: هناك، ما تقدم في كتابه القناعة من ذكر لقصة خروج يأجوج ومأجوج.

(٢) القناعة فيما يحسن الإحاطة من أشراف الساعة، للحافظ شمس الدين السخاوي، (٦٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف ابن الأثير الجزري، تحقيق محمود محمد الطناحي،

(٤/٢٠٥).

(٤) الصحاح تأليف: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (٤/١٦٨٢).

(٥) وهو أحد اللغويين الثقات واسمه عبد الملك بن قُريب بن علي بن أصمع الباهلي؛ قال أبو

الطيب اللغوي: كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، مات سنة ٢١٦هـ بالبصرة؛ يُنظر: الأعلام

للزركلي، (٤/١٦٢).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر

أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، (٢/١٦).

ولعله لم يتضح من هذه النقول التي نقلناها عن هذه المعاجم، ذلك المعنى الذي ذكرناه للخذلان، أو اعتبرناه جزءاً منه، ألا وهو كونه إنما يتحقق ممن يُتَوَقَّعُ منه النصر والتأييد، فلا يبدو هذا المعنى واضحاً فيما نقلناه مما قرأه القارئ الكريم، فمن أين أتينا به إذن؟

الجواب من جهتين: الأولى: تعبير هؤلاء الأئمة اللغويين القاضي بأن الخذلان هو: ترك العون والنصرة، مما يُشعر أن هذا الترك إنما هو كائن ممن عُرف عنه العون والنصرة، ووصفهم تخلُّفَ الظبي عن القطيع بالخذلان، إذ الأصل أن يكون الظبي مع قطيعه. والجهة الثانية: هي أنه لا يقال عن العدو: إنه خذل عدوه، بل يُقال إن قتله: قتل عدوه، أو إن تركه: عفا عن عدوه أو غضَّ الطرف عنه، وإن تركه لعدوٍّ آخر، فيمكن أن يقال: سلط عليه غيره.. إلخ.

ولعله من هنا جاء حديث المصطفى ﷺ: (المسلم أخو المسلم، لا يُسلمه ولا يخذله..)، ذلك أن المفترض في المسلم أن ينصر المسلم، فإذا ترك نصرته قيل: لقد خذله! وقصدنا من خلال هذا التفصيل في معنى الخذلان لغة أن نقول: إن جزءاً من وصف هذه الطائفة الظاهرة بالحق هو أنها يترك نصرتها من يفترض أن ينصرها، وأعني: كثيراً من أمتها التي تنتمي وإياها إلى اعتقاد واحد!

والأواء الواردة في بعض روايات الحديث هي: الشدة وضيق المعيشة^(١)، ورواية الإمام أحمد للحديث تنص على أن هذه الطائفة لا يضرُّها مخالفة غيرها، إلا أن الذي يضرُّها هو الأواء، ويظهر لي أن المنفي في الحديث هو ضرر الاستئصال الذي يقصد الحديث النصَّ على فشله بنصِّه على دوام هذه الطائفة؛ أما ضرر شدة المعيشة وضيقها، مما يتعرض له الناس عادة، فهذا ما لا يتضمن الحديث الوعد بعدم حصوله.

وكأن الحديث يقول: لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرُّهم عدوُّهم ضرر استئصال وإزالة، بل هم قاهرون له، وإنما إن أصابهم ضرر فهو ما

(١) يُنظر: المرجع نفسه، (٤/٢٢١).

يتعرّض له الناس عامة، فهم وعدوُّهم سواءٌ في احتمال الإصابة به، غير أنه ليس من عمل العدوِّ، إنّما من تقديرات الجبار سبحانه؛ والله تعالى أعلى وأعلم!

المبحث الثالث: المصادقية التاريخية لهذا الحديث

يتحدث التاريخ صريحا أن فترة الحروب الصليبية، واحتلال بيت المقدس الذي استمر تسعين عاما متواصلة، تنزى بمقاومة وجهادٍ إسلاميين، يقضُّ بهما أهل الإسلام مضاجع الصليبيين، وأما واقعنا المعاصر، فإننا نرى مصداق هذا الحديث بوجود هذه الطائفة ماثلا للعيان، مع ما تملكه من قدره هائلة في قهر أعداء الله والغلبة عليهم، ولوضوحه لا حديث لنا فيه، وإنما حديثنا في الفترات الأولى من الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، وهي غير معلومة لدى مجمل القراء الكرام، لنؤكد أن المقاومة للمحتل الصليبي الأوروبي لم تتوقف.. فقد ذكر المؤرخ الفلسطيني المتخصص بدراسة الحروب الصليبية الدكتور سعيد عبد الله البيشاوي أن أعمال الهجوم على الصليبيين كانت تتكرر يوميا في فلسطين^(١).

ويذكر المؤرخ الصليبي المعاصر للحروب الصليبية وليم الصوري في كتابه: الحروب الصليبية، يذكر المقاومة الشعبية في عهد بلدوين (بغدوين) الأول، الذي تولى الملك في مملكة بيت المقدس الصليبية بين العامين (٤٩٤-٥١١ هـ) ويقول: «كانت البلاد مليئة بالعصابات، ومن جرّاء ذلك أصبح الطريق بين الرملة والقدس محفوفًا بالمخاطر، وقد هاجم بغدوين الأول سكان المناطق المجاورة للقدس والرملة، وعاقبهم دون رحمة»^(٢)، ولا يضيرنا وصف رجال المقاومة الشعبية في ذلك الزمان بالعصابات، فوليم الصوري هنا ينطق بما ينطق به الإعلام الغربي والإسرائيلي المعاصر في وصف المجاهدين بالإرهاب وقتل الأطفال!

لكن الذي يفيدنا من كلامه أن الشعب الفلسطيني وأهل بيت المقدس ثاروا على العدوان والاحتلال الصليبي ثورة عارمة، انتزعت حياة الأمن من مملكة بيت المقدس

(١) نابلس، الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية،

للدكتور سعيد عبد الله البيشاوي، (٧٩).

(٢) الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٥٤٣/٣).

الصليبية، وهو جزء من مفهوم قهر العدو، كما فهمناه من حديث الطائفة الظاهرة بالحق.

وعند استعراضه لمملكة بيت المقدس وصلاتها بغيرها من ممالك الصليبيين، يقول أرنست باركر أحد مشاهير مؤرخي الحروب الصليبية^(١): «.. ومع ذلك، كان لزاما على الفرنج أن يحرصوا على المحافظة على ما امتلكوه من الأراضي في الشمال والجنوب، وأن يعملوا على حمايتها من الهجمات المتكررة التي لا تكاد تنقطع»^(٢).

وذكر الأستاذ العارف كلام الرحالة الروسي الراهب دانيال، الذي زار القدس سنة ١١٠٦م، الموافق لسنة ٤٩٩هـ، أي بعد حوالي سبع سنوات من الاحتلال الصليبي لبيت المقدس؛ ومما ذكره عن دانيال هذا قوله: «إن القدس مدينة كبيرة، تحيط بها أسوار منيعة عالية، وإن أسوارها بنيت بشكل مربع، أضلاعه متساوية، ومع ذلك فإن الحكم اللاتيني لم يكن موثدا الأركان إلا في داخلها، وأما في خارج الأسوار، فقد كان حبل الأمن مضطربا، وإن الثوار العرب كانوا منتشرين في جميع أنحاء البلاد»^(٣).

هذا، ويتحدث الراهب دانيال عن الطريق بين الناصرة وجبل طابور الواقع غرب بحيرة طبريا بقوله: «حيث الطريق متعب ضيق، وخطراً لوجود المسلمين الخطرين، الذين تنتشر قراهم فوق الجبال والسهول، وحيث إنهم يندفعون من بيوتهم ويذبحون المسافرين على تلك المرتفعات الفظيعة»^(٤)، وهو هنا يحاول تشويه صورة المقاومة، وهو هنا أستاذ

(١) الحروب الصليبية، لآرنست باركر، ترجمه: السيد الباز العريني، (٤٨).

(٢) المرجع نفسه، (٧٨).

(٣) تُنظر بعض أقوال هؤلاء السياح الأجانب الذين نقلنا عنهم ما نقلناه هنا، في كتاب: المفصل في تاريخ القدس، للأستاذ عارف العارف رحمه الله تعالى، (١٦٥-١٦٦).

(٤) وصف الأرض المقدسة في فلسطين، للحاج الروسي دانيال الراهب، ترجمة الدكتور سعيد عبد الله البشاوي ودود أبو هدية، (١٠١)، وتُنظر رحلة دانيال، (٨٢)، وأحيانا يتحدث دانيال أنه وصل إلى مكان كذا من فلسطين دونما خوف أو خطر، مما يوحي بوجود أسباب الخوف والخطر في تلك الأماكن، غير أنه فاز بالنجاة منها، تُنظر رحلته، (٩٤)، (١٠٦).

لإسرائيل وأمريكا في وصفهم للمجاهدين المعاصرين بأوصاف أهل الإرهاب؛ ويقول عن بيسان: «وعبور هذا المكان متعب وخطر حقا، حيث يقطن عدد كبير من المسلمين الأقوياء، الذين يستغلون مخاضات الأثمار لمهاجمة المسافرين»^(١).

وقد ذكر المؤرخ الفلسطيني المتخصص بدراسة الحروب الصليبية الدكتور سعيد عبد الله البيشاوي نورا عن الهجوم الذي قامت به قوات الموصل بقيادة صاحبها الأمير مودود، وقوات دمشق بقيادة صاحبها طغتكين عام ٥٠٧ هـ على الصليبيين داخل فلسطين، قال الدكتور البيشاوي، مستندا إلى مصادر عربية وغربية: «ونشبت معركة جسر الصنبرة، حيث هُزم الجيش الصليبي هزيمة ساحقة في الثلاثين من شهر يونية ١١١٣ م، الثلاثاء الموافق الثالث عشر من محرم سنة ٥٠٧ هـ، وغرق معظم الجند في بحيرة طبريا ونهر الأردن، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ثم ما لبثت قوات طرابلس وأنطاكية لنجدة الملك بلدوين، والتجأ الصليبيون إلى أحد التلال الواقعة غربي مدينة طبريا، فقام المسلمون بحصارهم في تلك المنطقة الوعرة، واستمر حصارهم نحو ستة وعشرين يوما، حاول المسلمون خلالها استدراجهم إلى القتال دون جدوى، ولهذا قام المسلمون بشن الغارات على البلاد الواقعة تحت السيطرة الصليبية بين عكا وبيت المقدس»^(٢)؛ وأيضا قامت هذه القوات الإسلامية بشن هجوم على مدينة نابلس ذات السكان الصليبيين حينها دون حدوث أية مقاومة، قال الدكتور البشاوي: «واشترك سكان القرى المجاورة لها بالهجوم على المدينة إلى جانب القوات الإسلامية»^(٣)، ونقل عن فوشيه الشارترى، المؤرخ الصليبي المعاصر لتلك الفترة أن هذا الهجوم الذي شارك فيه أهل قرى نابلس قد أدى إلى دمار المدينة ذات السكان الصليبيين^(٤).

(١) المرجع نفسه، (٩٣).

(٢) نابلس، الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية،

للدكتور سعيد عبد الله البيشاوي، (٧٨).

(٣) المرجع نفسه، (٧٨).

(٤) المرجع نفسه، (٧٩).

ومما يجب ذكره هنا أن هدف الأمير مودود من حملته الجهادية هذه كان فلسطين ذاتها^(١)، وأنه استدرج الملك بلدوين ملك بيت المقدس إلى أعالي نهر الأردن، ولقد أُسر ملك بيت المقدس بلدوين في هذه الموقعة، غير أنه لم يكن قد عُرف أنه هو ملك القدس، وفرَّ من الأسر^(٢)، هذا وكان عماد الدين مشاركا للأمير مودود في حملته هذه^(٣). ثم ينقل الأستاذ العارف عن تاريخ ابن ميسرة قوله: «بعد أن احتل الصليبيون بيت المقدس وأخذوها من الأفضل، لم ينفكّ المسلمون عن إزعاجهم ومناوأتهم بين كل آونة وأخرى»^(٤).

من هذا الاستعراض الذي يتضمن شهادات لجماعة من المؤرخين والرحالة، يتبين لنا أن قهر الصليبيين لم يتوقف في يوم من الأيام، وإن لم يكن لدينا علم ببعض التفاصيل، أو ببعض ما كان في فترات غير الفترات التي ذكرناها؛ فإن شهادة هؤلاء المؤرخين كافية في إبراز هذا الجانب، مما يؤكد المصادقية التاريخية لحديث الطائفة الظاهرة بالحق، الذي يؤكد استمرار القادريين على قهر أعداء الله تعالى في الأرض المقدسة.

ولا بد أن نؤكد هنا أن السكان المسلمين في فلسطين كانوا يعاونون فرق الجيوش الإسلامية القادمة في جوانب مهمة تفيد الجهاد الإسلامي الكردي والزنكي والعربي والإسلامي عامة في مواجهة الاحتلال الصليبي، يقول وليم الصوري أحد أهم المعاصرين لفترة الحروب الصليبية، وهو مؤرخ شهير، يقول عن الفلسطينيين الذين بقوا مقيمين في فلسطين بعد الاحتلال الصليبي: «إنهم علّموا عدوّنا كيف يدمّرنا، لأنهم يملكون معلومات كافية عن حالتنا، إذ لا يوجد أكثر دمارا وتأثيرا من وجود عدوّ داخل

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، للدكتور محمد سهيل طقوش، (٧٦).

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير، (٢٦٦/٨).

(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، للدكتور محمد سهيل طقوش، (١٢٩).

(٤) نقلا عن المرجع نفسه، (١٧٠).

أبوأبنا، وقد حوّلوا كل البلاد الفرنجية إلى مقاطعة من الرعب، حتى إنه لم يجرؤ أي شخص للخروج من التحصينات»^(١).

إن هذا الذي نقلناه عن هؤلاء المؤرخين والحجاج المسيحيين لبيت المقدس، يؤكد مصداقية هذا الحديث، في فترة لا يعرف كثير من الناس أنها كانت تتأجج ناراً على الصليبيين، وحينما ابتدأ حكم عماد الدين زنكي رحمه الله تعالى في الموصل عام ٥٢١هـ، اتجهت أنظاره إلى بيت المقدس، لينشأ صلاح الدين فيما بعد في كنفه أولاً ثم تحت قيادة ولده نور الدين زنكي رحمه الله، لتبدأ مرحلة جديدة من الجهاد ضد الصليبيين تؤكد مصداقية الحديث، وهي معروفة بمجملها لدى عامة القراء.

إن الحديث يضعنا أمام بشرى هائلة: فاشتداد المحنة، وسيطرة أراذل البشر وخبراء غسيل المخ العالميين على الإعلام العالمي، مع ما أوتي الأعداء شرفيين وغربيين من قدرات هائلة في عالم المال والتسلح، يحتاج إلى مقابل يقوي عزمات أهل الإيمان على الثبات على هذه الأرض، حتى لا يسقطوا في الطريق الذي سقط فيه الكثيرون ممن فقدوا هذا اليقين، وإن أهل الإيمان لينعمون من رب العزة بيقين لا يتزعزع، أنهم منصورون بإذن الله تعالى، وإن هذا الحديث من النصوص المسنّمة في هذا اليقين.

(١) نقلا عن الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٣/٥٤٣).

الفصل السابع: اختصاصها بكثير من الصحابة والمجاهدين والأولياء

وهذا مشهود ومعروف، وإمكانية حصره معدومة، فهذا تاريخ الأمة الطويل ممتلئ بعظماء الأمة وصالحيتها وصحابة نبيها، آثروا هذه الأرض على ما سواها من الأرض.

ولقد أسهمت نصوص عدة في دفع أولياء الأمة وعلمائها إلى بيت المقدس، ولعل كل نص من النصوص التي تعرضنا وستعرض لها وتعرض لها غيرنا، لعل كل نص من هذه النصوص يُسهم إسهاماً ما في دفع صحابة الرسول وعلماء الأمة ومجاهديها وأوليائها إلى بيت المقدس، غير أننا سنذكر هنا حديثين اثنين فحسب..

روى أبو داود في سننه واللفظ له، والحاكم في مستدركه^(١)، وقال صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (ستكون هجرة بعد هجرة، فخير أهل الأرض أَلزَّمهم مُهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها، تلفظهم أرضهم، وتقدّرهم نفس الله، وتحشرهم النار مع القردة والحنازير)، وبقریب من هذا المعنى روى أبو داود والإمام أحمد^(٢) عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة: جند

(١) سنن أبي داود، (٣٣٨/٢، ح: ٢٤٨٢)، ومستدرک الحاكم، (٥١٠/٤)، كلاهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو في مسند الإمام أحمد، (١١٥/٥، ح: ٢/٥٥٦٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وهي ثلاث طرق يقوي بعضها بعضاً، رغم أن إسناد الحاكم وحده يكفي لتصحيح الحديث، ولا يضر الحديث وجود شهر بن حوشب في سلسلة إسناده عند أبي داود والإمام أحمد، فقد رجحنا توثيقه، ومع ذلك فقد رواه الحاكم من غير طريق شهر بن حوشب، فلو كان فيه ضعف، لكانت رواية الحاكم شاهداً له، فكيف وقد ظهر لنا توثيقه؟.

(٢) أبو داود، مع شرحه عون المعبود، (١١٦/٧، ح: ٢٤٨٠)، ومسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٢٣١/١٣، ح: ١٦٩٤٢)، وصحح إسناده محققه حمزة أحمد الزين، وقال الأستاذ الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام للربيعي (١٢): حديث صحيح جداً.

بالشام وجند باليمن وجند بالعراق)، قال ابن حوالة: خرّ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، فقال: (عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم، فعليكم بيمنكم، واسقوا من غدركم، فإن الله قد توكل لي بالشام وأهله)، وقال أحد رواة هذا الحديث معلقا على الجملة الأخيرة منه: «ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه»، ويغلب على ظني أن المقصود بالشام هنا هو بيت المقدس تحديدا، وفي الفصل الأول من الباب الثالث الذي جعلناه بعنوان: بيت المقدس مركز البركة الشامية، بينا أن كثيرا مما ورد في الشام، إنما هو في حقيقته في بيت المقدس.

وأیضا لعله يُسَنِّمُ في دفع الصحابة والعلماء والأولياء والمجاهدين إلى بيت المقدس، ما ورد من أن الشام ومدائنهما وساحلها أرض رباط إلى يوم القيامة، وسيأتي ما ورد في ذلك في فصل تالٍ إن شاء الله تعالى.

وكان يجب أن أسوق شواهد عدة على هذا الإقبال من سادة الأمة إلى بيت المقدس، غير أنني آثرت تأجيل هذا الموضوع إلى فصل خاص عقده في باب تالٍ بعنوان: قضايا حضارية وتاريخية مقدسية، لمناسبة ستتضح للقارئ الكريم حين قراءته الباب والفصل المشار إليهما.

وعليه، فأرجو القارئ الكريم قراءة تفصيل ما قصده في هذا الفصل في حينه.

الفصل الثامن: كونها أرض المحشر

أرجو أن ينتبه القارئ الكريم إلى أن المقصود بالحشر هنا ليس هو الحشر الذي يكثر ذكره في القرآن الكريم، الذي يكون يوم القيامة، حين تُعرض الخلائق لربها يوم الحساب، إذ الحشر الذي نقصده هنا كائن في الدنيا قبل يوم القيامة، ولم يأت له في القرآن ذكر، سوى ما رآه القرطبي رحمه الله تعالى في تذكرته من تفسير للآية الثانية من سورة الحشر، إذ رأى أنها تتحدث عن هذا الحشر الدنيوي، كما سيأتي، غير أنه حشر مخصوص بأمة مخصوصة، وسيأتي ذكره في مكانه قريبا.

وحدثنا هنا مخصوص بالحشر الذي ذكر رسول الله ﷺ أنه يكون بيوت المقدس والشام، فهي أرض المحشر، كما ذكرت ذلك الأحاديث الصحيحة، أي أرض المحشر الذي يكون قبل يوم القيامة.

وابتداءً نشرح كلمتي المحشر والمنشر..

نقل الزركشي عن أبي بكر الزبيدي الأندلسي صاحب مختصر العين أن المحشر بالكسر والفتح: الموضع الذي يُحشر إليه الناس، والمنشر: موضع النشور، وهو قيام الموتى من قبورهم^(١)، ونقل الحافظ ابن حجر عن الإسماعيلي قوله إن النشر هو إخراج الخلق من القبور^(٢)، وذكر القرطبي في تذكرته أن معنى الحشر هو الجمع^(٣).

هذا معنى الكلمتين، وحول تعلق هذا الحشر والنشر ببيت المقدس يقول شيخ الإسلام ابن تيمية^(٤): «فإلى بيت المقدس وما حوله يعود الخلق والأمر، وهناك يُحشر الخلق»،

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد، بدر الدين الزركشي، (٢٩٠).

(٢) فتح الباري، (٣٨٧/١١).

(٣) التذكرة، للقرطبي، (٢٢٥).

(٤) مجموعة الفتاوى، تأليف: ابن تيمية، اعتنى بها، وخرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز

ويقول العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي^(١) في بيان معنى كون الشام أرض الحشر والمنشر: «أي البقعة التي يجتمع الناس فيها إلى الحساب، ويُنثرون من قبورهم ثم يُساقون إليها، وخصت بذلك لأنها الأرض التي قال الله فيها: (باركنا فيها للعالمين) وأكثر الأنبياء بُعثوا منها، فناسب كونها أرض الحشر والمنشر»، وكلام المناوي هنا عن الشام عامة، بما فيها بيت المقدس، وإن كنا نرى أن بيت المقدس هي مركز هذا الجمع، وأن الشام هي ساحته الكبيرة.

إنه لأجل أن الناس حينما يخرجون من قبورهم يوم القيامة «يساقون إلى بيت المقدس أرض الموقف، لينتظروا فصل القضاء بينهم»^(٢)، لأجل ذلك سميت بيت المقدس أرض الحشر والمنشر.

وعلى ما مضى، فإننا نفهم أن كون بيت المقدس خاصة، وأرض الشام عامة كما سيأتي من الأحاديث قريبا؛ هي أرض الحشر والمنشر، أما الأرض التي يجتمع الأحياء من الناس إليها، أو يُحشرون إليها قبل يوم القيامة، على ما سيأتي تفصيله؛ وأما الأرض التي يُنشر إليها الأموات، فيخرجون من قبورهم إليها، ليتها جميع ليوم الحشر الأكبر، الذي يكون على أرض غير هذه الأرض.

وحول الحشر إلى الشام عموما وردت أحاديث متعددة، نذكر منها التالي:

روى الإمام أحمد^(٣) بإسناد صحيح عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: (ها هنا تُحشرون، ها هنا تُحشرون، ها هنا تُحشرون، ركبانا ومشاة وعلى وجوهكم؛ توفون يوم القيامة سبعين أمة، أنتم آخر الأمم وأكرمها على الله تبارك

(ج ٢٧/٢٨).

(١) فيض القدير، تأليف العلامة: محمد عبد الرؤوف المناوي، (٤/١٧١).

(٢) بيت المقدس وما حوله، للدكتور محمد عثمان شبير، (٢٤).

(٣) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق حمزة أحمد الزين، (١٥/١٠٠)، ح:

(١٩٨٩٦)، قال محققه: إسناده صحيح.

وتعالى، تأتون يوم القيامة وعلى أفواهكم الفدام، أول ما يُعرب عن أحدكم فخذُه)، قال أحد رواة الحديث، وهو يحيى بن أبي بكير: فأشار بيده إلى الشام فقال: (إلى ها هنا تُحشرون)، وفي رواية للإمام أحمد^(١) بإسناد صحيح أيضا: (تُحشرون ها هنا، وأوماً بيده إلى الشام، مشاة وركبانا وعلى وجوهكم..)، وهذا الحديث يشير إلى الشام عموما، ولكنَّ القارئ الكريم قرأ في صفحاتٍ سابقةٍ حديثا يعتبر بيت المقدس أرض المحشر والمنشر، وليس الأمر في تقديري ببعيد، إذ ربما يكون المعنى أن المحشر يكون في بلاد الشام، لكنَّ مركز هذا التجمع البشري الهائل هو بيت المقدس من بلاد الشام، وربما نكون بهذا جمعنا بين هذه الأحاديث التي تصف الشام بأهما يُحشر إليها الناس، وبين هذا الحديث الذي يجعل الجمع في بيت المقدس.

ولا أرى مانعا من إعادة ذكر الحديث، الذي يصف بيت المقدس بأها أرض المحشر، وهو ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه وأبو داود والطحاوي^(٢)، أن ميمونة بنت سعد مولاة رسول الله ﷺ، سألته عليه السلام فقالت: أفئتنا في بيت المقدس، فقال: (أرض المنشر والمحشر، انتهوا فصلوا فيه، فإن صلاةً فيه كألف صلاة فيما سواه)، قالت: أرأيت من لم يُطبق أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال: (فليهد إليه زيتا يُسرج فيه، فإن من أهدى له كان كمن صلى فيه).

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق حمزة أحمد الزين، (١٠٤/١٥)، ح: ١٩٩٠٧، قال محققه: إسناده صحيح، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح، (٣٨٧/١١): أخرجه الترمذي والنسائي وسنده قوي؛ وروى الإمام أحمد عنه قريبا منها ولكن باختصار، (١١٢/١٥)، ح: ١٩٩٣٣، وأيضا قال محققه حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٦٠٥/١٨-٦٠٦)، ح: ٢٧٤٩٨، وابن ماجه، (١٧٢/٢-١٧٣)، ح: ١٤٠٧، وقال البوصيري عن إسناده ابن ماجه في كتابه مصباح الزجاجاة في زوائد ابن ماجه، (٤٥٤/١): وإسناده طريق ابن ماجه صحيح، رجاله ثقات. وقد مضى تفصيل الكلام فيه في الفصل الثاني من هذا الباب، حين تحدَّثنا عن فضل الصلاة في المسجد الأقصى.

وهذا ما عبّر عنه كثير من العلماء أنه الحشر الذي يكون في الدنيا قبل قيام الساعة.

قال القرطبي في تذكّره^(١) عن الحشر: «وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة»، ثم ذكر الاثنين اللذين في الدنيا، وأحدهما حشر بني النضير إلى الشام، وهو الذي كان بعد غزوة بدر ببضعة أشهر، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر..)^(٢)، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «من شك أن الحشر في الشام فليقرأ هذه الآية، وذلك أن النبي ﷺ قال لهم: (أخرجوا) قالوا: إلى أين؟ قال: (إلى أرض المحشر)»، ونقل قول قتادة: «هذا أول الحشر».

ثم ذكر القرطبي الحشر الثاني، واستدل له بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الإمامين مسلم والبخاري^(٣)، أن رسول الله ﷺ قال: (يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقٍ)^(٤): راغبين راهبين، واثنان على بعير وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير؛ وتَحْشَرُ

(١) التذكرة، للقرطبي، (٢٢٥).

(٢) سورة الحشر، الآية، (٢).

(٣) صحيح مسلم، (٩/١٢)، ح: (٢٨٦١)، ورواه أيضا البخاري المطبوع مع فتح الباري، (١١/٣٨٤، ح: ٦٥٢٢)، ورواه أيضا النسائي، (٤/٤٢٢، ح: ٢٠٨٤)، والبخاري، (١٥/١٢٥)، ح: (٤٣١٤).

(٤) ومعنى على ثلاث طرائق: أي ثلاثة أصناف، وهم، كما سيأتي أعلاه في حديث النسائي: الذين اغتتموا الفرصة وساروا باكرا قبل لحاق النار بهم، والثاني: الذين تعاقبوا ظهور الأبعرة، بسبب تأخرهم، فتقل الأبعرة، فيضطرون إلى تعاقبها اثنين اثنين أو أكثر، وأما الصنف الثالث فهم الذين عجزوا عن الحصول على الأبعرة بسبب تأخرهم؛ وعن هذا الصنف الثالث يقول الحافظ في الفتح، (١١/٣٨٨): «ولم يقع في الحديث بيان حالهم، بل يحتمل أنهم يمَشُونَ أو يُسْحَبُونَ فرارا من النار التي تحشرهم»، وهذا يعني أن هذا التقسيم في الحديث ليس قائما على اعتبارات الصلاح والفساد في هذه الأصناف الثلاثة، والله تعالى أعلم.

بقيتهم النار، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتُمسي معهم حيث أمسوا، وفي رواية البخاري: (وعشرة على بعير..).

وذكر القرطبي بعد ذلك الحشرين الثالث والرابع، وهما: الحشر إلى الموقف، والحشر إلى الجنة والنار^(١).

ولم يرضَ الحافظ ابن حجر اعتبارَ حشرِ بني النضير إلى بلاد الشام حشراً، ذلك أنه كان حشراً مخصوصاً لأمة مخصوصة، هم بنو النضير من بين إسرائيل؛ وأما الحشر الذي يكون قبل الساعة فهو على قول ابن حجر: حشر عام، وذكر الحافظ أنه لم يُسمَّ أحدٌ حشرَ بني إسرائيل إلى الشام في الزمن النبوي حشراً قبل القرطبي^(٢).

وهذا الذي اعتبره القرطبي حشراً، هو شيء خارجٌ عن موضوعنا، فإن موضوعنا هنا هو: حشر الناس قبل قيام الساعة إلى بيت المقدس خاصة وبلاد الشام عامة، وهو الذي يدل عليه حديث ميمونة الذي ذكرناه قبل قليل.

وعودة إلى حديث الشيخين، وهو الذي يذكر حشر الناس راغبين راهبين ويتعاقبون الأبعرة، ثم تَحْشُرُ بقيتهم النار، فقد قال النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: «وهذا الحشر في الدنيا قبيل قيام الساعة، وقيل النسخ في الصور»^(٣)، ودافع الحافظ ابن حجر في فتح الباري عن كون هذا الحشر هو الذي يكون في الدنيا في آخرها قبل الساعة، وذكر أنه قول الخطابي والقاضي عياض، وكان قد نقل كلام الخطابي: «هذا الحشر يكون قبل قيام الساعة، تُحشر الناس أحياءً إلى الشام»^(٤)، وقال السندي في حاشيته على سنن النسائي: «وغالب العلماء على أنه حشرٌ في الدنيا، وهو آخرُ أشرط القيامة»^(٥)، وذكر

(١) التذكرة، للقرطبي، (٢٢٥-٢٢٨).

(٢) فتح الباري، (٣٨٦/١١).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، (١٢٦/٩).

(٤) فتح الباري، (٣٨٧/١١).

(٥) حاشية الإمام السندي، مطبوعة بهامش السنن للنسائي، (٤٢٢/٤).

القرطبي أن كون هذا الحشر في الدنيا هو الأظهر^(١)، وهو ما قاله ابن تيمية والمنأوي فيما نقلناه عنهما قريبا.

واستدل الحافظ ابن حجر والسندي والقرطبي وغيرهم على أن هذا الحشر هو حشر الدنيا قبل قيام الساعة بما رواه النسائي^(٢) عن أبي ذرٍّ أن رسول الله ﷺ حدثه (أن الناس يُحشرون ثلاثة أفواج، فوجٌ راكبين طاعمين كاسين، وفوجٌ تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم النار، وفوجٌ يمشون ويسعون يُبقي الله الآفة على الظهر فلا يبقى، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة يعطيها بذات القتب لا يقدر عليها)؛ إن العبارة الأخيرة من الحديث تدل على أن هذا الحشر يكون في الدنيا، فهي التي يقع فيها مثل هذا التبادل من البيع والشراء، المذكورين في المثال الذي ضربه الرسول ﷺ فيما جعلنا تحته خطأ من حديث النسائي.

ووجه اعتبار الحشر إلى بيت المقدس دليلا على مكانتها التي تتبوأها، هو أنه ما كان الحشر إليها إلا أنها تكون أكثر أمانا من غيرها، ذلك أن النار إذا فشت في الأرض، فإن الشام عموما وبيت المقدس خاصة، أبعد عن تأثير النار، فتكون على ما قلنا دار أمن، لذا وجه الرسول ﷺ صحابته رضي الله عنهم إلى الشام فيما إذا لحقوا زمان ذلك الحشر.

ولا بد أن نبين أن الحشر المقصود هنا هو حركة بشرية اختيارية، تكون مندفعة نحو الشام عامة وبيت المقدس خاصة، من أجل تحصيل الأمن من تلك النار التي تنبعث أمواجها العاتية فينساق الناس بسببها إلى بيت المقدس، وهي ليست حركة لا إرادية، تحرك الناس تحريكا متجاوزا إرادتهم.

(١) التذكرة، للقرطبي، (٢٢٧).

(٢) سنن النسائي، (٤/٤٢٣)، ح: (٢٠٨٥).

وثمة رأي يرى أن النار المذكورة في هذه الأحاديث، والتي تحشر الناس إلى محشرهم هي نار الفتنة، وليست النار الحقيقية، يقول الحافظ ابن حجر: «وعلى تقدير أن تكون النار كناية عن الفتنة، فنسبة الحشر إليها سببية، كأنها تفسو في كل جهة، وتكون في جهة الشام أخفّ منها في غيرها، فكلُّ من عرف ازديادها في الجهة التي هو فيها، أحبَّ التحوُّلَ منها إلى المكان الذي ليست فيه شديدة، فتتوفّر الدواعي على الرحيل إلى الشام»، ويتابع الحافظ قوله: «ولا يمتنع اجتماع الأمرين، وإطلاق النار على الحقيقة التي تخرج من قعر عدن، وعلى المجازية، وهي الفتنة، إذ لا تنافي بينهما»^(١).

بعد هذا الشرح الوجيز، فإننا نستطيع أن نعتبر أن كون بيت المقدس أرض الحشر والنشر، هو شكل من أشكال الخير والبركة الراسخين فيها، على المعنى الذي ذكرناه من كونها الأقل فتنة يوم تفسو الفتن، أو أنها دار الأمن حين خروج النار ودفعها الناس إلى محشرهم، فهي الحشر الذي يندفع إليه الناس بفعل النار الخارجة، إذ الغاية من خروج النار سَوْقُ الناس إلى بيت المقدس، لا إحراق الناس بها، فلا داعي على هذا إلى دخول النار في بيت المقدس، بعد أن ساقَت النارُ الناسَ إليها، فهي الغاية التي من أجلها تخرج هذه النار.

إن تخصيص بيت المقدس في حديث ميمونة بأنها أرض الحشر والمنشر، أي الأكثر أماناً على ما فسرنا، هو في الحقيقة مكمّن معنى التفضيل.

(١) فتح الباري، (١١/٣٨٨).

الفصل التاسع: كونها بإطار أفقها الشامي أرض رباط دائم

والأمر لا يقتصر على ما ذكرنا من كونها حظيت ببشرى البقاء حتى النهاية على أصول الهداية الأولى، بل جُعِلت منذ عصور وأزمان أرض صراع مرير بين الحق والباطل؛ فأنظار الباطل لم تفتأ تنظر إليها طامعة، لا في هدمها وتخريبها فحسب، بل في سرقتها من أيدي أهلها، ومن سياقها الحضاري والديني واللغوي، بعد أن بنى هذا الباطل أهدافه على رؤى التحريف والتخريف، التي تجعل من هذه الأرض بؤرة لباطل يحكم العالم منها، سواء كان هذا الباطل يهوديا أو نصرانيا.

والمشاهد في تاريخ هذه الأرض المباركة، ليس كونها أرض صراع بين الحق والباطل فحسب، بل هي أرض انتصار للحق على الباطل وإن طال الصراع، أوليس يشهد العالم في تاريخه الطويل ما حل بها من صراعات انتهت بنصر أهل الحق وإن طال الزمان؛ منذ أن دخلها يوشع بن نون عليه السلام ببني إسرائيل الذين كانوا يمثلون أهل الحق حينها على كثير من الدخّل فيهم، ومرورا بانتصار داود على جالوت، ثم بفتوحات الإسلام فيها، ثم بانتصار الإسلام فيها على الصليبيين والتتر، رغم طول الزمان، وقلة يقين رعا ع الناس بالنصر المبين، وفي كل ما مضى بُشِرى لأهل الإيمان بانتصار الحق العربي الإسلامي على الباطل اليهودي الموجود فيها في عصرنا.

ولذا استحقت هذه الأرض من أهل الإسلام أن تُوجّه إليها أعظم اهتمامها، لصد العدوان المتعاضم، الذي لا يتوقف حتى يزول مُلك هذا العدوان، فإذا زال بأمر الله تعالى، وانتصر الإسلام والمسلمون على العدوان اليهودي الصليبي، اطمأنّ الناس مسلمين وكافرين، حتى إذا آذن الله تعالى بخروج الأعداء الدجال، آذن الله تعالى بزوال ملكه في هذه الأرض، التي ورد في ابن ماجه بإسناد صحيح كما ذكرنا أن جلّ العرب يكونون أيام الدجال فيها.

ولذا، رأينا الأحاديث تتناغم مع هذا التاريخ والواقع المشهود في هذه الأرض المباركة، ورأينا النصوص تدفع أهل الحق إليها دفعا..

فإذا كان أهل الباطل يسعون جاهدين في عصور شتى لسرقة هذه الأرض، فإن الأحاديث تدفع أهل الحق للوقوف سدا منيعا دون ضياعها، حتى إذا أضاعها جيل منفلت من أصول المنهج النبوي الكريم، قامت هذه الأرض بحشد أهل الحق نحو آثار ذلك التضييع!

وبما أنها أرض صراع دائم بين الحق المنتصر والباطل الواهم المغرور المنهزم، فلا بد أن تحشد النصوص أمة الإسلام للدفاع عنها، والمقام فيها، ومن هنا هي أرض رباط دائم.

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق^(١)، بإسناده عن معاوية بن يحيى عن حدثه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (أهل الشام وأزواجهم وذريتهم وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله، فمن احتل منها مدينة فهو في رباط، ومن احتل منها ثغرا من الثغور فهو في جهاد).

ورواه بنحوه أيضا من طريق أرطاة بن المنذر، قال: (فمن نزل مدينة من المدائن فهو في رباط، أو ثغرا من الثغور فهو في جهاد).

ثم قال ابن عساكر: وقد روي عن أبي الدرداء بإسناد آخر أمثل من هذا إلا أنه غريب، فذكر هذا الطريق راويا إياه بإسناده^(٢) عن شهر بن حوشب عن أبي الدرداء، عن

(١) تاريخ مدينة دمشق، تأليف: الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، (١/٢٨٢-٢٨٣)، وهذا إسناد ابن عساكر إلى معاوية بن يحيى: أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسن بن أبي الحديد، أنا جدي أبو عبد الله، أنا أبو بكر محمد بن عوف بن أحمد المزني، أنا أبو العباس محمد بن موسى بن الحسين بن السمسار، أنا محمد بن حُرَيْم، نا هاشم بن عمار، نا معاوية بن يحيى.

(٢) وهذا هو إسناد ابن عساكر: قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي العلاء المصيصي

النبي ﷺ قال: (سيفتح على أمتي من بعدي الشام وشيكا، فإذا فتحها فاحتلها فأهل الشام مرابطون إلى منتهى الجزيرة، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم وعبدهم، فمن احتل ساحلا من تلك السواحل فهو في جهاد، ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو في رباط).

ورواه أيضا الربيعي في فضائل الشام ودمشق^(١) وقال الألباني في تخريجه: قلت: حديث ضعيف، لأن راويه عن أبي الدرداء لم يُسمَّ، فهو مجهول، ومن طريقه رواه الطبراني كما في المجمع^(٢).

لكن الأستاذ الألباني رحمه الله تعالى لم يذكر في تخريجه للحديث رواية ابن عساكر التي ذكرناها، ولقد روى ابن عساكر الحديث من طريقين، مدار أحدهما على معاوية بن يحيى عن حدثه عن أبي الدرداء، ففيها مجهول هو الراوي عن أبي الدرداء كما هو الأمر عند الطبراني، لكن ابن عساكر قال كما ذكرنا إنه روي بإسناد آخر أمثل من هذا الإسناد وقال: إلا أنه غريب.

هذا ما قاله، ومدار الرواية الثانية على شهر بن حوشب، وفيه خلاف مشهور، لكن قال فيه الذهبي في السير^(١): والاحتجاج به مُتَرَجِّحٌ، وقال الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيقه لمسند الإمام أحمد فيه^(٢): وهو ثقة تكلم فيه بعضهم بغير حجة^(٣).

وأبو محمد هبة الله بن أحمد الأكفاني وأبو القاسم الحسين بن أحمد التميمي، وأبو إسحاق الحسين بن أحمد التميمي، وأبو إسحاق إبراهيم بن طاهر الخشوعي، قالوا: أنا أبو القاسم علي بن محمد بن أبي العلاء، أنا أبو بكر أحمد بن جرير بن أحمد بن حميس السلماسي، نا أبو الحسن المظفر بن الحسن، نا أحمد بن عمير بن يوسف بن جَوْصَا، نا عمرو بن عثمان، نا ابن حمير عن سعيد الجلي عن شهر بن حوشب.. إلخ.

(١) تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق، للربيعي، خرجها الأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، رحمه الله تعالى، (٢١).

(٢) مجمع الزوائد، تأليف نور الدين الهيثمي، (٦٠/١٠).

ولذا؛ فإننا نرى المعنى الذي يحمله الحديث، وهو أن أهل الشام في رباط إلى يوم القيامة؛ نرى هذا المعنى الوارد في هذا الحديث يرقى إلى درجة الصحة أو الحسن؛ وإنما ارتقى في نظرنا إلى درجة الاحتجاج به لما تبين لنا من ترجيح توثيق شهر بن حوشب، ولما قام حول معنى الحديث من شواهد تقويّه.

ولقد رأينا أن نتناول بعض الشواهد التي تقوي معنى الحديث.

-
- (١) سير أعلام النبلاء، تأليف الذهبي، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرنؤوط، (٤/٣٧٨).
- (٢) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة (١/٢٠٦) تعليقا على الحديث رقم: (٩٧) الذي جاء من طريق شهر بن حوشب، وقد تضمنت هذه الطبعة تحقيقات الأستاذ أحمد محمد شاكر رحمه الله تعالى، ثم أتم تحقيقها أحمد محمد الزين.
- (٣) ذكر الذهبي في الميزان (٢/٢٨٣-٢٨٥) طائفة من أقوال ذوي الشأن في علم الحديث، تدور حول الموقف من شهر الراوي عن أبي الدرداء، وأقوالهم تختلف في توثيق أو تضعيف شهر بن حوشب، لكنه ذكر ممن وثقه: البخاري، حيث نقل -أي الذهبي عن الترمذي عنه قوله: شهرٌ حسن الحديث، وقوي - أي البخاري- أمره (وقال البخاري كما في سير أعلام النبلاء للذهبي (٤-٣٧٤): إنما تكلم فيه ابن عون؛ ثم إنه روى عن رجل عنه)، ونقل عن العجلي قوله فيه: ثقة شامي، وعن يحيى بن معين: ثبت، وأيضا عنه: ثقة، وعن يعقوب بن شيبة: شهر ثقة طعن فيه بعضهم، وعن أحمد بن حنبل: ما أحسن حديثه، ووثقه، وعنه أيضا: ليس به بأس، وعن الفسوي: شهر وإن تكلم فيه ابن عون فهو ثقة، وعن ابن زرة: لا بأس به.
- هذا وإن نقل الذهبي عن شعبة بن الحجاج وأبي حاتم وابن عون والنسائي وابن عدي، تضعيف شهر بن حوشب، غير أننا نميل إلى أقوال أمثال البخاري والإمام أحمد، ومن قال مثل قولهما ممن ذكرنا عنهم توثيقه، وظهر لنا كما نقلنا عن البخاري أنه إنما ضعفه ابن عون، ولكنه رغم تضعيفه روى عن رجل عنه، فيكاد تضعيف ابن عون لا يقوم على ساق، ويظهر أنه لكل ذلك قال الذهبي في السير (٤/٣٧٨): الرجل غير مدفوع عن صدق وعلم، والاحتجاج به مُترَجِّح، مع قوله في مقدمة ترجمته في السير: كان من كبار علماء التابعين.
- هذا، ويبدو أن الأستاذ أحمد محمد شاكر لم ير في قول من ضعفوه حجة، فقال ما نقلناه عنه: وهو ثقة تكلم فيه بعضهم بغير حجة.

فمن ذلك أنه قد يُعبّر عن الرباط بالملازمة، ولعله بإمكاننا أن نفهم مدى إمكانية التعبير عن الرباط بالملازمة بعد أن نقرأ ما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود^(١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (ستكون هجرة بعد هجرة، فخير أهل الأرض أَلزُمُهُم مُهَاجِرَ إِبْرَاهِيمَ، ويبقى في الأرض أشرار أهلها، تَلْفِظُهُم أَرْضُهُمْ^(٢)، وَتَقْدِرُهُمْ^(٣) نفسُ الله، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير).

فالحديث يستخدم ما يمكن أن يكون تعبيرا آخر عن (الرباط)، فقد قال: (..أَلزُمُهُم مُهَاجِرَ إِبْرَاهِيمَ..)، والزرؤم أشبه ما يكون بمعنى الرباط؛ ولدى اطلاعنا على معنى كلمة الرباط في اللغة وفي الفقه، رأيناها تدور وتحوم حول معاني التثبيت والشد والدوام والزرؤم لشيء ما؛ يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة^(٤): «ربط: الرء والباء والطاء أصل واحد يدل على شدّ وثبات، من ذلك ربطت الشيء أربطه ربطا، والذي يُشدّ به رباط.

ومن الباب الرباط: ملازمة ثغر العدو، كأهم قد رُبطوا هناك فثبتوا به ولازموه، ورجل رباط الجأش، أي شديد القلب والنفس..».

وإذن؛ فلقد ذكر ابن فارس أن ملازمة الثغر رباطٌ، حيث إنه إن لم يكن الرباط هو الزرؤم فما هو الرباط إذن؟ وقوله: «ومن باب الرباط: ملازمة ثغر العدو، كأهم قد رُبطوا هناك فثبتوا به ولازموه..»، وعلى هذا فالملازمة رباط والرباط ملازمة.

(١) رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص، (٣٣٨/٢، ح: ٢٤٨٢)، والحاكم عن أبي هريرة، (٤١٠/٤-٤١١)، وصححه الألباني رحمه الله تعالى في صحيح الترغيب والترهيب، (١٩٤/٣، ح: ٣٠٩١).

(٢) تلفظهم أرضوهم: أي تقدفهم وترميهم، يقال: قد لفظ الشيء يلفظه لفظا إذا رماه.

(٣) تقدروهم: تكرههم، وقال الخطابي: تأويله أن الله يكره خروجهم إليها ومقامهم بها.. (عن

عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعلامة شمس الحق العظيم آبادي، (١١٤/٧).

(٤) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (٤٧٨/٢).

وحول معنى اللزوم نرجع إلى ما يقوله ابن فارس نفسه الذي نقلنا عنه معنى الرباط،
فماذا يقول في معنى اللزوم؟

إنه يظهر من تعبير ابن فارس عن معنى الجذر (لزم) أنه يكاد يكون لازماً من لوازم
الرباط؛ حيث يقول^(١): «اللام والزاء والميم أصل واحد صحيح، يدل على مصاحبة
الشيء بالشيء دائماً..»، فالملازمة مصاحبة والمرابطة مصاحبة أيضاً، وكلاهما يُعبر به عن
قرينه.

وفي الفقه نرى من أئمتنا من جنح إلى شرح الرباط بالملازمة للمكان المرابط فيه، ففي
فتح الباري^(٢) للحافظ ابن حجر عند شرحه باب فضل رباط يوم في سبيل الله من أبواب
صحيح البخاري، نقرأ أن الرباط هو: «..ملازمة المكان الذي بين المسلمين والكفار
لحراسة المسلمين منهم»، وفي الموسوعة الفقهية^(٣) نقرأ ما يلي: «الرباط والمرابطة: ملازمة
ثغر العدو، وأصله: أن يربط كل من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً..»،
ويقول الإمام السندي^(٤) في شرحه لحديث: (من رباط يوماً وليلة في سبيل الله ..): «من
رابط: أي لازم الثغر»، فهكذا دخلت ملازمة مكان ما في مفهوم الرباط دخولا طبيعياً
حسب المعنى المفهوم من اللغة.

ويقول الإمام ابن تيمية^(٥): «فقد أخبر أن خيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم،
بخلاف من يأتي إليه ثم يذهب عنه، ومهاجر إبراهيم هي الشام»، وهذا من الإمام ابن

(١) المرجع نفسه، (٢٤٥/٥).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تأليف الحافظ ابن حجر، كتاب الجهاد، شرح الحديث
رقم (٢٨٩٢، ج٦/١٠١).

(٣) الموسوعة الفقهية، إصدار: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت، (ج٢٢/٧٦).

(٤) حاشية السندي على سنن النسائي، مطبوع بهامش سنن النسائي، (٣٤٦/٦).

(٥) مناقب الشام وأهله، ابن تيمية، مطبوع بذييل تخريج فضائل الشام ودمشق للألباني والرابعي،

تيمية توضيح وتفسير لمعنى اللزوم، وهو على ما يفهم من كلامه: أخصُّ من معنى الرباط، إذ يمكن للمرابط أن يذهب ويجيء، من الأرض المرابط فيها وإليها، ولكنَّ اللزوم لا يسمح حسبما يفهم من كلام ابن تيمية بهذا.

أي أنه يصح أن يوصف الملتزم لمكان ما بأنه مرابط فيه في الوقت ذاته، ولا يصحَّ أن يوصف المرابط بهذا المكان بأنه ملازم له، لأنَّ اللزوم يشمل في معناه الرباط، والرباط لا يشمل اللزوم.

فإذا وُصفَ خيار أهل الأرض بوصف ملازمة مهاجر إبراهيم عليه السلام، فإنهم يكونون محسوبين مرابطين في مهاجر إبراهيم، لأنَّ الملازم مرابط، وليس المرابط ملازما.

فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان قد ورد في الشاهد الذي نحن بصدده ما يفيد أن خيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، وإذا كنا نؤكد أن الرباط ليس من الأسماء ذات المعنى الشرعي الخاص، بل معناه لا يخرج في الغالب عما في كتب اللغة؛ فما يمنعنا إذن من تفسير هذه الملازمة لمهاجر إبراهيم بالرباط، الذي هو في حد ذاته: ملازمة للشعر؟ فيكون هذا الحديث إخبارا بما سيكون من حال أهل الصدق من مرابطينهم، أي ملازمتهم، مهاجر إبراهيم.

والحديث يقرّر أن ثمة هجرات ستكون وستتتابع، ويقرّر أن خيار أهل الأرض هم أكثرهم التزاما لمهاجر إبراهيم عليه السلام، في الوقت الذي تقرر فيه أحاديث أخرى، ذكرنا بعضها، أن الرباط أفضل الأعمال، ولا يمتنع في تقديري أن يكون سبب خيرية الأكثر التزاما بمهاجر إبراهيم، هو التزامهم أفضل الأعمال، في معمعان الصراع مع الأعداء، وأفضل الأعمال حينها سيكون، كما هو كائن الآن: الرباط.

فيكون لازم معنى الحديث أن الملتزمين بالمقام في الشام، وهم بالضرورة مرابطون، هم خيار أهل الأرض، فيكون المقيمون في أرض الشام مرابطين، لأنَّ الالتزام هو الرباط، وذلك دون تقييد الرباط والالتزام لمهاجر إبراهيم بزمان معين، فيكون الالتزام

هو الالتزام الدائم إلى يوم القيامة، وهو مفهوم حديث ابن عساكر الذي نقلناه، والذي يقرر أن أهل الشام في رباط إلى يوم القيامة.

فهذا المكان إذن مكان لزوم، أي مكان رباط من باب أولى، مما يشهد لمعنى حديث شهر.

وبناء على هذا التمازج بين معاني أحاديث الرسول ﷺ التي يُصدّق بعضها البعض الآخر، فإننا نقول: إن حديث شهر بن حوشب الذي ذكرناه، والذي يتضمن أن أهل الشام مرابطون، قد عثر على شاهد لمعناه يتأيد به مضمونه، لينسحب على أهل الشام فضل يتجاوز فضل البلدان ذات الفضل بالمقام فيها، إلى الفوز بفضل الرباط في سبيل الله تعالى، مع ما لهذا الرباط من أجر وفضل خاصين.

فإذا أضفنا ما قد ذكرناه من أحاديث تكشف عن بقاء الفئدة الظاهرة بالحق في الشام، وفي بيت المقدس منه خاصة، مع الأحاديث التي تذكر أن جُلَّ العرب سيكونون أيام الدجال في بيت المقدس، وتلك الأحاديث التي تُبين أن مقتل الأعور الدجال سيكون في أكناف بيت المقدس، فإن كل هذه المعاني تؤكد أن الشام أرض رباط إلى يوم القيامة، لضرورة وجود هذا التجمع الإسلامي القادر على الصمود في وجه الفتن في هذه الأرض، إذ واقع حالها يكشف عن هذا الرباط، من خلال ملازمة المسلمين لها.

أما واقع حال الشام، وخاصة بيت المقدس، فهو يقتضي أن تكون فعلا أرض رباط من الناحية الشرعية، لأنها مطموع فيها من قبل الأعداء، والتاريخ شاهد كبير على هذا الطمع، فكان التكافؤ الطبيعي لها في الإسلام أن يُرغَّب الناس بالسكنى فيها، لحمايتها من الأعداء، وهذا هو الرباط.

وعليه، فإننا ننتهي إلى إمكانية الاستناد على حديث ابن عساكر الذي ذكرناه في فقرتنا هذه، لاعتبار أن أرض الشام عموماً، وأرض بيت المقدس خصوصاً، هي أرض رباط إلى يوم القيامة.

الفصل العاشر: كونها آخر أرض تشهد الخلافة الإسلامية على

الأرض

وقد ورد بهذا الحديث الصحيح، وفيه بشرى تنهاوى أمامها الحن المتراكمة، وتزول دونها مُزَلزلات النفوس.

وتتمثل هذه البشرى لأهل فلسطين خاصة وللمسلمين عامة في أن الاحتلال اليهودي القائم حالياً سوف يزول بإذن الله تعالى، وأرجو ألا يفهم أحد من كلامي حينما يقرأ ما سأذكره عن المهدي، أن زوال الاحتلال متعلق بزمانه عليه السلام، فإن هذا ليس من المفاهيم الصحيحة للإسلام، بل لنا بحثٌ أكّدتنا فيه أن خلافة المهدي مسبوقه بخلافة إسلامية راشدة قبله، سيصيها آخر أيامها ما أصاب سابقاتها من التزاعات التي يخرج على إثرها المهدي عليه السلام.

روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وقال: إسناده صحيح، وقال الذهبي في الحديث نفسه: صحيح، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير^(١) وكتب بجواره: صحيح، عن

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق: حمزة أحمد الزين، (٣٢٢/١٦)، ح: ٢٢٣٨٦، وأبو داود، (٣٥٨/٢)، ح: ٢٥٣٥، والحاكم في المستدرک، (٤٢٥/٤)، وهو في صحيح الجامع الصغير للأستاذ الألباني، (١٢٩٣-١٢٩٤)، ح: ٧٨٣٨؛ ونقل الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، في كتابه: المهدي وفقه أشراف الساعة، (هـ-٧٢٩)، تصحيحه عن صحيح أبي داود، (ح: ٢٢١٠)، للأستاذ الألباني رحمه الله تعالى.

وأنا مضطراً إلى تفصيل القول في إسناده هذا الحديث، لأجل أنه محورٌ بالغ الأهمية في هذا البحث. فمحققو طبعة مؤسسة الرسالة لمسند الإمام أحمد بإشراف الأستاذ شعيب الأرنؤوط ضَعَفُوا هذا الحديث، بحجة أن في إسناده معاوية بن صالح، رغم قولهم إنه ثقة، لكنهم أخذوا عليه أنه تفرّد به، وقالوا: إن بعض أهل العلم ذكروا أن له أفراداً، ولم يُتَابِعْ على حديثه هذا، وفي حديثه نكارة؛ تُنظر طبعة مؤسسة الرسالة لمسند الإمام أحمد، (٣٧/هامش ١٥١-١٥٢، ح: ٢٢٤٨٧).

وبالعودة إلى ترجمة معاوية بن صالح في بعض كتب التراجم والجرح والتعديل، وجدتُ أن حديثه لا

يتزل عن الحسن، فقد نقل الحافظ ابن حجر توثيقه عن ابن معين، ولكنه نقل عنه أيضا قوله فيه: ليس بمُرْضِي، ثم نقل توثيقه عن عبد الرحمن بن مهدي، والعجلي والنسائي وأبي زرعة وابن سعد، ونقل عن ابن عدي قوله فيه: ما أرى بحديثه بأسا، وهو عندي صدوق، إلا أنه يقع في حديثه أفرادات، ونقل توثيقه عن ابن حبان، والبخاري، ونقل عن ابن معين قوله لمن لم يجمع حديثه: أضعتم والله علما عظيما، وذكر أن موسى بن صالح امتنع عن الكتابة عنه لِمَا وجد عنده من آيات الله؛ يُنظر تهذيب التهذيب، (٢٠٩/١٠-٢١٢)؛ وبعض ما نقلته عن الحافظ ابن حجر فيه ذكره الحافظ الذهبي في ترجمته من سير أعلام النبلاء، (١٥٨/٧-١٦٣)، وفيه أيضا وصفه بالحفظ والثقة، وذكر الذهبي حديثا في إسناده معاوية هذا، وقال في إسناده: صالح الإسناد، وقال: معاوية من شرط مسلم، وذكر أنه دخل على أهل مكة في مجلس لمحدثيهم، وفيهم ابن مهدي، قال ابن مهدي: فسألناه: من أنت؟ قال: معاوية بن صالح، قال: فاحتوشناه، أي جعلناه وسطنا.

واقصر الذهبي في تذكرة الحفاظ، (١٧٦/١) على قوله فيه: "وثقه أحمد بن حنبل، وقال ابن عدي: هو عندي صدوق، قلت (القائل هو الذهبي): لم يحتج به البخاري، توفي بعد قضاء حجه سنة ثمان وخمسين ومائة، وكان من أوعية العلم ومن معادن الصدق".

إن مثل من هذا حاله لا يضُرُّ انفراد، فهو من التابعين الذين لم يتوفَّر لهم ما توفَّر لمن بعدهم انتشار الرواية واشتهارها، حتى يكون انفراد الواحد منهم محتملا للضرر، خاصة أن معاوية بن صالح المتفرد بهذا الحديث ممن اشتهرت عدالته، ولو كان فيه مخالفة وشدوذ، ما صحَّحه الذهبي ولا الألباني. ثم إن الأستاذ شعيبا الأرناؤوط حفظه الله تعالى، وهو المشرف على تحقيق طبعة مؤسسة الرسالة لمسند الإمام أحمد هو نفسه حسن إسناده لحديثين في سير أعلام النبلاء، (١٥٨/٧، ١٥٩)، وفي إسناده كل منهما معاوية بن صالح، وحسن الأستاذ شعيب ومعه محققو المسند الحديث رقم ٤٤ في المسند، (٢١٦/١)، وقالوا فيه: إسناده حسن من أجل معاوية بن صالح، وصححو إسناده الحديث رقم ٧٨٦٨ في المسند، (٢٥٤/١٣)، وحسنوا إسناده الحديث رقم ٨٠٢٥ في المسند، (٣٩٥/١٣) رغم أن في إسناده كل منهما معاوية بن صالح، وقالوا في الحديث رقم ٨٧٦١ في المسند، (٣٦٨/١٤): رجاله رجال الصحيح غير أبي مريم الأنصاري، وهو ثقة؛ فكيف يُحسن أو يصحح أسانيد أحد رواة كل منها معاوية بن صالح، ثم هم يضعفون أو يضعف بعضهم حديث ابن حوالة، لأجل أن فيه معاوية بن صالح؟!!

هذا، ولم يوضَّح محققو مسند أحمد طبعة مؤسسة الرسالة وجه النكارة في حديث معاوية بن صالح، وهل النكارة في هذا الحديث بالذات؟ وبالتأكيد، فإن كان في بعض حديثه نكارة، فليس في حديث

عبد الله بن حوالة أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه وقال: (يا ابن حوالة، إذا رأيتَ

ابن حوالة هذا الذي لا زلتُ بصدد بحث إسناده نكارة.

ويظهر لي أن الرجل ثقة، وخاصة أن مسلماً روى له في صحيحه، كما في السير، (١٥٨/٧)، وهو على شرط مسلم، كما ذكر الذهبي فيما نقلته عنه؛ وقد أقرَّ الذهبي في حديث ابن حوالة الذي نحن بصدد تصحيح الحاكم لإسناده، رغم وجود معاوية بن صالح هذا فيه، وهذا منه احتجاج به وتقوية لأمره، مع ما قاله فيه في السير والتذكرة، مما نقلته عنه..

أقول: الرجل ثقة، وإنما رفض بعضهم كتابة حديثه في تقديري، ونهر من يكتب أو يحدث عنه، لما لا يسه مما يُنكره عليه أهل العلم حينها، مما ليس بمنكر، أو مما يُختلف فيه، كمسألة حيازته لبعض آلات اللهو، والمسألة فيها اختلاف كثير، ولا يصلح تضعيف إنسان لأجلها؛ ولفت نظري ما ذكره الذهبي من تعليق على بعض ما نقله في كتابه السير عن بعض أهل الجرح والتعديل في ترجمة معاوية هذا، كقول أبي إسحاق فيه: ما كان بأهل أن يُروى عنه؛ أقول: لفت نظري ما قاله الذهبي تعليقا على قول أبي إسحاق: قال: أظنه يشير إلى مداخلته الدولة؛ ويبدو لي بناء على ما قاله الذهبي: إن الرجل ثقة، غير أن توليه لبعض شؤون الدولة دفع بعضهم إلى أن يقول عنه ما قال، هذا ما يمكن أن يفهم من كلام الذهبي، وإلا فالأئمة، حتى المتشددون منهم كالنسائي، يوثقونه.

ولذا، قال الأستاذان أحمد ومحمود شاكر: ثقة، من تكلم فيه أخطأ، كما نقله عنهما الأستاذ محمد صبحي بن حسن حلاق فيما جمعه من كلام الرجلين في الرواة من تحقيقهما لتفسير الطبري، وجعل الأستاذ حلاق ما جمعه من كلامهما في كتاب عنوانه: رجال تفسير الطبري، وكلام الشيخين شاكر في معاوية بن صالح في هذا الكتاب في (ص ٥٣٣).

وأما الحديث نفسه، فأودَّ أن ألفت النظر إلى أنه حينما أورد الذهبي متنه في تلخيصه لمستدرك الحاكم قال: صحيح، ولم يقل: إسناده صحيح كما قال الحاكم، وقول الحافظ الناقد كالذهبي في حديث هو صحيح، يتجاوز تصحيح الإسناد إلى تصحيح المتن والإسناد معا، فيما إذا لم يكن للحديث إلا إسناد واحد، ولم يأت معناه في حديث آخر؛ وهذا يعني أن الحديث أعلى منزلة مما لو قيل فيه: إسناده صحيح.

ولذا صححه الأستاذ الألباني رحمه الله تعالى، وصحَّح أسانيد على شرط مسلم، وفيها معاوية بن صالح هذا، تُنظر: سلسلة الصحيحة للأستاذ الألباني، (١٩٧/٤)، ح: ١٦٤٣، (٣١٩/٧)، ح: ٣١١٩، وصحَّح إسناده فيه معاوية بن صالح، (٤٥٢/٤)، ح: ١٨٣٦، ووثقه في الموضع نفسه.

الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة، فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك).

وبعض العلماء يميلون إلى تفسير الخلافة الوارد ذكرها في هذا الحديث بخلافة بني أمية بدمشق^(١)، ولا أرى هذا التفسير صالحاً لهذا الحديث، لأن مضمونه يؤكد أن هذه الخلافة ستكون لصيقة بالساعة، كما سيأتي بيانه في هذا الفصل، ولقد كنت بينت في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا البحث أن الأرض المقدسة هي بيت المقدس، أو على الأكثر هي فلسطين، وقد سمحت بهذا التحديد للأرض المقدسة تفسيرات لجماعات من الأئمة ومسالك لجماعة من الصحابة والتابعين، ويُسهم هذا الحديث نفسه مع غيره من النصوص بهذا التحديد حين ذكرته في ذلك الفصل؛ وليرجع القارئ إليه إن شاء..

واستناداً إلى ما أكدته في ذلك الفصل من الباب الأول في تفسير الأرض المقدسة ببيت المقدس، وإلى ما سأذكره هنا، أستطيع أن أقول وبكل ثقة: إن الأرض المقدسة في حديث ابن حوالة رضي الله عنه هي بيت المقدس ذاتها، وإن بيت المقدس ستشهد آخر موطن من مواطن الخلافة الإسلامية في مسيرتها الطويلة.

وكما ذكرت، فليس يصح تفسير الخلافة التي تنزل الأرض المقدسة، والتي ورد ذكرها في هذا الحديث بخلافة بني أمية، لأن الحديث يذكر خلافة تكون أيامها ملتصقة بالأحداث العظام التي تسبق الساعة مباشرة؛ بل إن تفسير حديث ابن حوالة بخلافة بني أمية هو في تقديري مخالف لنص الحديث نفسه؛ فتعبير الرسول ﷺ فيه: (والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك)، هذا التعبير يُشعر بأن القرب هنالك ليس قرباً نسبياً، كحال قرب بعثة الرسول مثلاً من الساعة، أو قرب كثير من الأحداث والفتن التي ذكرها الرسول ﷺ كعلامات لقرب الساعة، بل إن القرب في هذا الحديث هو قرب

(١) قال ذلك الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح، (٣٤٤/٩)، وشمس الحق العظيم آبادي في عون

المعبود، (١٥٠/٧).

التصاق، بدليل تمثيل الرسول ﷺ لقرب الساعة فيه بقرب يده الملتصقة برأس عبد الله بن حوالة رضي الله عنه.

ولربما حاول البعض أن يستند على ما ورد في الصحيح من أن بعثة الرسول ﷺ نفسها كانت قرب الساعة، ومع ذلك فهي ليست لصيقة بها، فكيف تجعل قرب الخلافة النازلة في الأرض المقدسة لصيقة بالساعة، ولم لا تجعلها كما هو حال البعثة النبوية: قريبة من الساعة، وغير لصيقة بها؟

أي لعل من يرى أن القرب من الساعة في حديث نزول الخلافة الأرض المقدسة، هو نفس قرب البعثة النبوية منها، ذلك القرب الوارد في حديث الرسول ﷺ الصحيح الذي رواه الشيخان والإمام أحمد والترمذي وابن ماجه: (بعثتُ أنا والساعةُ كهاتين)^(١)، وفي رواية للبخاري: ويشير بأصبعيه فيمدهما؛ مما يسمح حسب هذا الرأي بجعل خلافة بني أمية هي المقصودة، وهذا خطأ يتنافر مع الحديث نفسه..

أقول إن هذا لا يصح، ذلك أنه ليس في حديث قرب البعثة النبوية من الساعة ما يدل على أن هذا القرب قرب التصاق، كحال قرب نزول الخلافة الأرض المقدسة من الساعة، بل ورد في حديث قرب بعثته ﷺ من الساعة رواية لمسلم تتضمن قول قتادة التابعي الراوي للحديث: كفضل إحداهما على الأخرى، أي كفضل طول الوسطى على السبابة؛ وقول قتادة هذا مروى في مسند أحمد^(٢)، وهو بيان تفسيري من التابعي الجليل

(١) البخاري مع الفتح، (٣٥٥/١١)، ح: ٦٥٠٣-٦٥٠٥، ومسلم، (١٧٦/٤)، ح: ٨٦٧، (٢٠٩/٩)، ح: ٢٩٥٠، وص: ٢١٠، ح: ٢٩٥١، والإمام أحمد في مواضع عدة من مسنده، منها حسب طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٣٩٨/١٠)، ح: ١٢١٨٥، وص: ٤٢١، ح: ١٢٢٦٢، وص: ٤٢٤، ح: ١٢٢٧٤، و(٦٢/١١)، ح: ١٢٩٤٤، وص: ١٤٧، ح: ١٣٢٥٢، وص: ١٩٣، ح: ١٣٤١٧، وص: ٣٠٤، ح: ١٣٨٤٣، وص: ٣١٣، ح: ١٣٨٨٥، وفي غير هذه المواضع من المسند أيضاً؛ ورواه أيضاً الترمذي، (٤٩٦/٤)، ح: ٢٢١٤، وابن ماجه، (٣٣/١)، ح: ٤٥).

(٢) المسند للإمام أحمد، (٤٢١/١٠)، ح: ١٢٢٦٢، و(١٤٧/١١)، ح: ١٣٢٥٢، وفي إحدى روايات الإمام أحمد، (٦٢/١١)، ح: ١٢٩٤٤: (ورفع أصبعيه السبابة والوسطى، فضل إحداهما

قتادة، مما يوحي بأنه قد يكون له أصل من رواية الحديث ذاته عن رسول الله ﷺ، وعلى كل حال، فتفسير التابعي الراوي للحديث كافٍ لاعتبار أن المقصود هو أن قرب ما بين البعثة والساعة ليس قربا التصاقيا، بل هو قرب نسبي، فهو تمثيل للمسافة بين بعثته والساعة بالمسافة بين طول كل من الأصبعين، ومن هنا فيما يبدو قال النووي في شرحه على مسلم^(١): «وأما معناه فقليل: المراد بينهما شيء يسير كما بين الأصبعين في الطول، وقيل: هو الإشارة إلى قرب المجاورة».

وعليه، فأنا أرى الأقرب في تفسير هذا الحديث هو ما قاله التابعي الجليل قتادة، وليس في الحديث ما يدل على خلافه.

وقصدي أن أرد على من قال من الأئمة: إن الخلافة المقصودة في حديث نزول الخلافة الأرض المقدسة هي خلافة بني أمية، أي حتى لا يقال إن مقصود قرب نزول الخلافة في الأرض المقدسة من الساعة هو كقرب البعثة من الساعة، أي أنني أريد أن أقول: إن قرب بعثته ﷺ من الساعة يدل على قرب نسبي منها، أما حديث نزول الخلافة في الأرض المقدسة، فهو يدل على قرب التصاق بالساعة، فكيف إذن يفسر أولئك السادة هذا الحديث بخلافة بني أمية؟.

وعودة إلى حديث نزول الخلافة الأرض المقدسة..

إن هذا التمثيل من رسول الله ﷺ ينفي أن تكون خلافة بني أمية هي المقصودة بقوله: (إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة)، فخلافة بني أمية ليست ملتصقة بالساعة، وإنما الملتصق بالساعة هو ذلك الحدث الذي تأتي الساعة من بعده تماما، أو على الأقل هو ذلك الحدث الذي تتبعه الأحداث اللصيقة بالساعة مباشرة، وهذا لا يصلح تطبيقه إلا على خلافة المهدي عليه السلام، فإن خلافته ستكون قريبا من الساعة أو من أشراتها

على الأخرى).

(١) شرح النووي على مسلم، (٢٠٩/٩).

اللصيقة بما تماما قرب التصاق، لا كقرب خلافة بني أمية التي مضى عليها إلى الآن قريباً من ألف وثلاثمائة سنة، والله وحده يعلم كم بقي للساعة من أجل، فشتان بين قرب الألف والثلاثمائة سنة من الساعة وقرب الالتصاق الذي ذكره رسول الله ﷺ في حديثه الذي لا زلنا بسبيل بحثه!

وأما قولنا إن قرب خلافة المهدي من الساعة هو قرب التصاق، فهو ما تؤكده الأحاديث التي ستأتي لاحقاً، وجاء معنا ذكر بعضها أثناء البحث، والتي تذكر أن عيسى ﷺ سيزل ويصلي مأموماً بالمهدي، وسيحاصر الدجال المهدي عليه السلام ببيت المقدس، وسيقتل الدجال بيد عيسى ﷺ، وسيخرج يأجوج ومأجوج، وسيقتلهم الله تعالى، وسيُرسل الله بعد ذلك ريحاً طيبة تأخذ من في قلبه مثقال ذرة من إيمان؛ كل ذلك في أيام عيسى ﷺ التي تشترك مع بعض أيام المهدي عليه السلام، وهي مباشرة ولصيقة بآخر أيام الدنيا، تلك الأيام اللصيقة بالساعة نفسها..

ولقد ورد في السنة ما يدل على أن هذه الأحداث العظام أحداث لصيقة بالساعة؛ ففي حديث الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم^(١) وصحح إسناده، وأقره الذهبي، في هذا الحديث يذكر رسول الله ﷺ تذاكر إبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم، للساعة، وذلك أثناء رحلة الإسراء والمعراج، وفيه يذكر عيسى ﷺ قتله للدجال وخروج يأجوج ومأجوج، ثم يقول عيسى ﷺ (ففيما عهد إلي ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتيم التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً)؛ إن هذه الأحداث العظام هي أقرب ما يكون من الساعة، والقرب من الساعة فيها هو نفسه القرب الالتصاق الذي يذكره حديث ابن حواله، وهو نفسه الذي عبّر عنه عيسى ﷺ هنا بقوله: (فإن الساعة كالحامل المتيم)؛ وأكثر هذه الأحداث يكون في نفس

(١) المسند للإمام أحمد، (٤٨٤/٣-٤٨٥، ح: ٣٥٥٦)، طبعة دار الحديث بالقاهرة، التي اعتمدت تحقيقات الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى، وقال الشيخ أحمد شاكر في هذا الحديث: إسناده صحيح؛ ورواه ابن ماجه، (٤١٠/٤-٤١١، ح: ٤٠٨١)، والحاكم، (٤٨٨/٤-٤٨٩).

أيام المهدي عليه السلام، كتزول عيسى وظهور فتنة الدجال، فإن الدجال يحاصر المهدي، وإن عيسى يُصلي مأموماً بالمهدي.

ولا شك أن المهدي خليفة، بل هو ذلك الذي سيتولى آخر خلافة للمسلمين، فقد وصفته بعض النصوص بما يوصف به الخليفة من الملك وولاية الأمر..

روى الإمام أحمد^(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (تُملأ الأرض ظلماً وجوراً، ثم يخرج رجل من عترتي، يملك سبعا أو تسعاً، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً)، فالحديث هنا يصف المهدي بأنه يملك، وهو من أوصاف الإمارة والخلافة، وقد نصت رواية أخرى لهذا الحديث أن هذا الذي يملك سبعا هو المهدي عليه السلام، رواها الإمام أحمد^(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (يكون من أمتي المهدي، فإن طال عمره أو قصر عاش سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وتُخرج الأرض نباتها، وتُمطر السماء قطرها).

وعليه، فالمهدي عليه السلام خليفة أو ملك، وهو يكون في آخر الزمان، بدليل ما ورد أن عيسى ﷺ سيُصلي خلف رجل من أمة محمد ﷺ، هو المهدي عليه السلام كما هو وارد في الحديث الذي رواه الحارث بن أبي أسامة رحمه الله تعالى في مسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يتزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله لهذه الأمة)، وقال الحافظ ابن قيم الجوزية في إسناده^(٣): وهذا إسناد جيد.

(١) المسند للإمام أحمد، طبعة دار الحديث التي حققها الأستاذ حمزة أحمد الزين، (٩٠/١٠)، ح:

(١١١٦٦)، قال محققه: إسناده صحيح.

(٢) المرجع نفسه، (٨٦/١٠)، ح: (١١١٥٥)، قال محققه: إسناده حسن.

(٣) في كتاب المنار المنيف في الصحيح والضعيف، (١٤٨).

وهذه الصلاة ستكون بيت المقدس، كما ورد في حديث ابن ماجه^(١) وحنبل بن إسحاق في كتابه الفتن أن أم شريك بنت أبي العكر قالت: يا رسول الله! فأين العرب يومئذ؟ قال: (هم يومئذ قليل، وجُلُّهم بيت المقدس، وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم المسيح، فرجع ذلك الإمام ينكص، يمشي القهقري، ليتقدم عيسى عليه السلام يصلي بالناس، فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول: تقدّم فصل فإنها لك أقيمت..)، ولقد قوّى إسناد حديث ابن ماجه هذا، المُحدّثُ الهنديُّ الشيخُ محمدُ أنورُ شاه الكشميريُّ^(٢) رحمه الله تعالى، والحق أن الحديث صحيح، لكن بإسناد غير إسناد ابن ماجه بل برواية حنبل بن إسحاق في كتابه الفتن^(٣).

والحديث يدل على أن الصلاة تكون بيت المقدس، وتكون للإمام المهدي، الخليفة الذي يصلي خلفه عيسى عليه السلام، وهي كائنة ببيت المقدس.

(١) سنن ابن ماجه، (٤/٤٠٦) الحديث رقم (٤٠٧٧)، والفتن لحنبل بن إسحاق، (١٤١-١٤٦)، وذكر ابن ماجه بعد إيراد الحديث عن عبد الرحمن المحاربي أنه قال: ينبغي أن يُدفع هذا الحديث إلى المؤدّب حتى يعلمه الصبيان في الكُتّاب.

(٢) يُنظر كتابه: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، (١٥٦).

(٣) ذكر الدكتور عبد العليم عبد العظيم البستوي في الجزء الأول من كتابه الأحاديث الواردة في المهدي في ضوء الجرح والتعديل، والذي هو بعنوان: المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، (هـ-٢٨٥)، أن في إسناد ابن ماجه إسماعيل بن رافع، وقال إنه ضعيف جدا، وذكر أن في إسناده انقطاعا أيضا، ولكنه قال: رواه بطريق آخر حنبل بن إسحاق في كتاب الفتن.

ورجعتُ إلى كتاب الفتن، لحنبل بن إسحاق رحمه الله تعالى، فرأيت فيه فعلا بطوله، (١٤١-١٤٦)، وحكم محقق الفتن الدكتور عامر حسن صبري في (هامش ١٤٦) منه على إسناد حنبل بالصحة، وذكر جماعة ممن رووه.

وعليه، فالحديث صحيح، لكن ليس بإسناد ابن ماجه، وإنما بإسناد حنبل بن إسحاق، والله تعالى أعلم.

ولعله يشهد في أن خلافة المهدي ستكون ببيت المقدس ما رواه أبو نُعيم في الحلية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يُخرج رجل من أهل بيتي يعمل بسنتي، ويُترّل الله له البركة من السماء، وتُخرج له الأرض بركتها، ويملاً الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً، ويعمل على هذه الأمة سبع سنين، ويتزل بيت المقدس)^(١).

والمهدي عليه السلام ذو سخاءٍ وذو اقتدار على السخاء، فهو يُنفق المال إنفاق العارف بما أقدره الله عليه من نعمته، ولا بد أنه هو المقصود بحديث مسلم والإمام أحمد^(٢) رحمهما الله تعالى عن جابر رضي الله عنه قال: يوشك أهل العراق ألا يُجى لهم قفيز ولا درهم، فسئل جابر: من أين ذلك؟ قال: من قِبَل العجم، يمنعون ذلك؛ ثم قال جابر: يوشك أهل الشام ألا يُجى إليهم دينار ولا مُدِّي، فقيل: من أين ذلك؟ قال: من قِبَل الروم، ثم سكت جابر هنيهة، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: (يكون في آخر الزمان خليفة يحشي المال حثياً لا يعدُّه عدداً)؛ قال أبو نضرة للجريري: أترى أن عمر بن عبد العزيز؟ فقالا: لا.

ويبدو أن النووي رحمه الله تعالى مال إلى أن هذا المنع حصل في زمانه، وعليه فيكون مقصود النووي ما فعله التتر باحتلالهم لبغداد وقتلهم لأهلها، ولقد كان ذلك عام ٦٥٦هـ^(٣)، وإنما فهمتُ هذا الفهم لكلام الإمام النووي رضي الله عنه لأنه كان معاصراً للغزو التتري لبلاد العراق والشام، وكذلك كان معاصراً لسقوط بغداد وقتل الخليفة

(١) ذكر هذا الحديث ابن القيم في كتاب المنار المنيف في الصحيح والضعيف، (١٥١)، وحكم عليه مع مجموعة من الأحاديث بقوله: «وهذه الأحاديث وإن كان في إسنادها بعض الضعف والغرابة، فهي مما يقوَّى بعضها بعضاً، ويشدُّ بعضها بعضاً»؛ وذكرناه لما نرى في مضمونه من شهادة للحديث السابق الذي ينص على مكان المهدي وأنه بيت المقدس، رغم أن الحديث السابق صحيح، ولكنني أردت تقوية المعنى.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٧٠/٩، ح: ٢٩١٣)، والمسند للإمام أحمد، (٤٣٨/١١)، ح: ١٤٣٤٣)، من طبعة دار الحديث بالقاهرة.

(٣) يُنظر رأي النووي أثناء عرضه لحديث مسلم الذي ينصّ على أن العراق تمنع درهماً وقفيزاً، وأن الشام تمنع مُدِّيها ودينارها من صحيح مسلم بشرح النووي، (١٥٦/٩، ح: ٢٨٩٦).

المستعصم رحمه الله تعالى، فالنووي مات سنة ٦٧٦هـ، أي بعد سقوط بغداد بعشرين سنة..

ولا أرى رأي النووي حسبما فهمته من سياقه، لا أراه مطابقاً للحديث، ذلك أن سياقه يوحي بأن خليفة يأتي بعد هذا المنع ويحثو المال حثوا، وهذا لم يكن في الفترة التي يُفهم أن النووي يقصدها، فلقد انقطعت الخلافة العباسية بضع سنوات، وانتقلت إلى القاهرة، وكان أول خليفة عباسي في القاهرة خليفةً فخرياً، أو قل: خليفة شكلياً، يُدعى له في خطبة الجمعة، وما شابه ذلك، أما سلطة المال والحكم فقد كانت للمماليك، ولذا فلا يصح أن يوصف أي خليفة عباسي في القاهرة في فترة المماليك بأنه الخليفة الذي ذكر هذا الحديث أنه يحثو المال حثوا، ولا بد أنه خليفة آخر، يأتي بعد أحداث هائلة تصيب الأمة، فيكون الفرج على يديه، وهذا هو المفهوم من شخصية المهدي عليه السلام، الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن تكون قد ملئت ظلماً، وعلى هذا الذي مضى، فإنني أستطيع أن أرجح ما رجّحه الأئمة الطيبي والهيثمي والسيوطي وشمس الحق العظيم آبادي والأستاذ الألباني رحمهم الله تعالى^(١)، كما نقله عنه الدكتور عبد العليم عبد العظيم البستوي مسنداً نقله إلى صحيح الجامع الصغير، ولم أجده فيه..

أقول: أستطيع أن أرجح ما رجّحه أولئك الأئمة إذ اعتبروا أن الخليفة الذي يحثو المال حثوا ولا يعدّه عدلاً هو المهدي عليه السلام.

قال الدكتور عبد العليم عبد العظيم البستوي، بعد أن ذكر هذا الحديث ضمن مجموعة من الأحاديث ذات المعنى الواحد: «وبالنظر في متن هذه الأحاديث، لا نجد دليلاً صريحاً على أنها وردت في حق المهدي، إلا أن العلماء حملوها على المهدي نظراً للأحاديث

(١) يُنظر: عون المعبود لشمس الحق العظيم آبادي، (٢٥٣/١١)، والمهدي المنتظر في ضوء

الأحاديث الصحيحة، للدكتور عبد العليم عبد العظيم البستوي، (٣٢٧).

الأخرى، فقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، في باب ما جاء في المهدي، وكذلك ذكره السيوطي في العرف الوردية في أخبار المهدي^(١).

وقد يشهد لكون هذا الذي يحنو المال حنوا هو المهدي عليه السلام، ما ورد من أحاديث تصف المهدي بوصف السخي في عطائه، مع بركات تخرج من الأرض، تُقدر القائم عليها على العطاء السخي العظيم، فقد روى الحاكم^(٢) في المستدرک وصحَّ إسناده، وأقره الذهبي رحمه الله تعالى، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويُعطي المال صحاحا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعا أو ثمانيا، يعني حججا)، وهذا الحديث صحيح كما نقلنا عن الحاكم تصحيح إسناده، وكما نقلنا عن الذهبي تصحيحه، ويشهد له ما رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم^(٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خشينا أن يكون بعد نبينا حدث، فسألنا نبي الله ﷺ فقال: (إن في أمتي المهدي، يخرج يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا)، زيد الشاذلي قال: قلت: أي شيء؟ قال: (سنين)، قال: (فيجيء إليه رجل، فيقول: يا مهدي، أعطني أعطني، قال: فيحشي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله)، وفي رواية أحمد: يجيء الرجل إليه، بدل فيجيء إليه رجل.

(١) المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث الصحيحة، للدكتور عبد العليم عبد العظيم البستوي، (٣٢٧).

(٢) مستدرک الحاكم، (٥٥٨/٤).

(٣) المسند للإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (٧١/١٠، ح: ١١١٠٦)، قال محققها الأستاذ حمزة أحمد الزين: إسناده حسن، وحسنه تبعاً للترمذي؛ ورواه الترمذي واللفظ له، (٥٠٦/٤، ح: ٢٢٣٢)، وابن ماجه، (٤١٢/٤، ح: ٤٠٨٣)، والحاكم، (٥٥٨/٤)، وفي إسناده الحديث عند جميعهم: زيد أبو الحواري، المعروف بزيد العمي، وفيه ضعف يسير، كذا قال الأستاذ حمزة أحمد الزين، محقق طبعة دار الحديث لمسند أحمد.

مما ذكرناه يتبين أن أيام المهدي عليه السلام أيام بركة وقوة للمسلمين، يُفهم هذا من تعبير الرسول ﷺ في حديث الحاكم الذي ذكرناه قبل سطور، والذي ينص فيه أن الأمة تعظم في عهده عليه السلام، ومعنى العظمة هنا لا يخرج عن معاني القوة والغنى والسؤدد. وأيام المهدي عليه السلام أيام عدلٍ بيدّ ما ملأ الدنيا من عتمة الليل الظالم، ليكسوها بثوب قشيب من العدل والرحمة، كما ذكرت ذلك الأحاديث التي قرأ القارئ الكريم بعضها قبل صفحات.

وإنما نذكر هذه الصفات للمهدي، لنؤكد أن العدل والغنى والرحمة والقوة، ستنتقل من بيت المقدس، لتنال الدنيا قسطاً من الخير العميم من منطلقه المقدسي، ذلك أن المهدي عليه السلام سيكون ببيت المقدس، بدليل الحديث الذي ذكرته أول هذا الفصل، والذي أكّدتُ أن الخلافة التي يتحدث عنها هي خلافة المهدي، لما تضمنه هذا الحديث من لصوق أيام تلك الخلافة بآخر أيام الدنيا، كما سبق بيانه.

الباب الخامس:

قضايا تاريخية وحضارية مقدسية

إن ثمة مسائل تاريخية موطنها مباحث التاريخ، أدخلناها هنا اضطراراً، ونحن لا نرى أصلاً أنها جزء من مواضيع بحثنا هذا، وإنما ألبأنا إليها ما قد توارد على ألسنة من يحاولون التصيد في تاريخنا، ليحلوا لهم فيما بعد أن يتهموا المسلمين في أفكارهم.

فمن المستشرقين من حاول أن يستخلص من بعض ما تحدث عنه التاريخ دليلاً على انخفاض مكانة القدس عند المسلمين، أو على أن مكانة بيت المقدس عند المسلمين مكانة مصطنعة، أو أن هذه المكانة منبثقة عن الفكر اليهودي تجاه بيت المقدس؛ مما دعانا إلى إدخال مسائل تاريخية وحضارية في بحثنا هذا.

إن مجمل ما يطرحه جماعة من المستشرقين هنا هو الاستناد إلى ما ظنوه قد وقع فعلاً في التاريخ العربي والإسلامي، من مسلكيات تمزّ مكانة بيت المقدس، أو ما يحاولون تفسيره مما وقع فعلاً بأنه دالٌّ على اهتزاز مكانة بيت المقدس في الإسلام؛ ونحن هنا نريد أن نؤكد أن مكانة بيت المقدس في الإسلام وعند المسلمين تُصاغ بالنصوص المعظمة لها، فإن أخطأ المسلمون في يومٍ ما أو تراجعوا عن بعض حق بيت المقدس عليهم في مسالكهم نحوها، فهذا دليل على خلل مسلكي عند من فعل ذلك من المسلمين، لا على أنه لا مقام لبيت المقدس في الإسلام.

ومع ذلك، فلقد تماقت رؤى المستشرقين بما سيراه القارئ من تعامل تفيض منه معاني الإجلال في تاريخ المسلمين وحضارتهم لبيت المقدس وأكنافه.

إن نصوص الوحي قد نجحت نجاحاً باهراً في صياغة تعامل المسلمين مع بيت المقدس في تاريخهم وحضارتهم.

إن هذا الباب سي طرح مسائل ذات صلة بالتاريخ والتاريخ الحضاري، غير أننا ذكرناها هنا لما لها من صلة بمقام بيت المقدس في التاريخ الإسلامي، فهو يرصد حركة الإنسان المسلم المدفوع بنصوص الوحي إقبالاً منه نحو بيت المقدس.

وسنبداً بتمهيد لهذا الباب عنوانه:

بيت المقدس بين النصوص والتاريخ.

ثم سينقسم معنا إلى الفصول التالية:

الفصل الأول: من هو فاتح بيت المقدس؟

الفصل الثاني: الهدف من بناء قبة الصخرة.

الفصل الثالث: متزلة بيت المقدس عند العباسيين.

الفصل الرابع: العبّاد والعلماء وروّاد الحضارة يؤمّون بيت المقدس.

الفصل الخامس: تحوّل نصارى بيت المقدس تدريجياً إلى الإسلام.

الفصل السادس: امتلاء بيت المقدس بالعلماء قبل الغزو الصليبي.

الفصل السابع: المسجد الأقصى موجود في بيت المقدس.

تمهيد: بيت المقدس بين النصوص والتاريخ

يمكن أن يكون هذا التمهيد لائقاً جداً كمدخل للكتاب كله، يوضع في بدايته، غير أنني آثرتُ أن يكون هنا كطليعة لهذا الباب المتخصص بطرح قضايا تاريخية لها صلة بمكانة وقدسية بيت المقدس، لِمَا لمضمونه من صلة واضحة بهذا الباب التاريخي في مضمونه، إذ يطرح هذا التمهيد مسألة ذات أهمية خاصة، وهي: هل التاريخ هو المؤسس لقدسية بيت المقدس عند المسلمين، أم هي النصوص؟

سيرى القارئ الكريم أن النصوص هي التي أنشأت هذه القدسية، غير أن التاريخ وأحداثه أسهمت فيها بعد تأسيسها من قِبل النصوص، وإسهامُ التاريخ ليس من باب التأسيس، بل من باب التطبيق والتنفيذ؛ وسيرى القارئ كذلك أن التاريخ ما كان ليتفرد بإنشاء هذه القدسية، بل إنه لولا نشوؤها في النصوص ما قدر التاريخ أن يُنشئها أبداً..

وكان الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب قد استأثر بدور النصوص في إنشاء مكانة بيت المقدس، وستبقى فكرة ذلك الفصل راسخة في عقل وقلب القارئ الكريم، ليدخل هذا التمهيد وهي صوب ناظره.

إن مكانة بيت المقدس نشأت بالنصوص قبل دخول المدينة المقدسة في دوحه الإسلام، وهذا ما أكدّه الفصل الأول من الباب الثاني المشار إليه، فلا نعيد مضامينه!

وإن مكانتها القدسية في الإسلام «لم ترتبط منذ عهود الإسلام الأولى بفترة زمنية دون غيرها، ولا بدولة إسلامية دون أخرى، ولا بمذهب إسلامي دون غيره؛ وإن كانت الأحداث التي تمر بها المدن، شأنها في ذلك شأن الأحداث التي تمر بها الشعوب، قد توقظ استنثارات غير عادية في النفوس، ولا سيما إذا كانت هذه المدن، لها في الأصل منزلة خاصة في نفوس الناس»^(١).

(١) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (٥٢).

ومن الضروري في هذا المقام أن يتّضح للقارئ الكريم أن التاريخ ليس خلواً من التأثير بالنصوص أو الأصول التي يقوم عليها تفكير الأمم، ذلك أن النصوص أو الأصول تعتبر أحد أهم العوامل المنشئة لحركة التاريخ، إذ إن حركة التاريخ هي ذاتها حركة الإنسان، المنبعثة بتوجيهات النصوص أو الأصول.

لكنَّ حركة التاريخ في حالتنا الإسلامية لم تُسهم في تشكيل النصوص، كما هو الحال في حركة التاريخين اليهودي والنصراني، بل إن النصوص هي المُسهم الأهم في تشكيل حركة التاريخ الإسلامي، خاصة في مراحل نضجه الحضاري؛ ذلك أن النصوص عندنا وحيُّ شريف من عند الله تعالى، وليست انبثاقاً من حركة التاريخ، وما حالات الركود أو السقوط الحضاري، إلا شكلاً من أشكال التراجع البشري عن النصوص أو عن فهمها القويم.

ومن هنا انطلقت حركة الفتح الإسلامي برُمّتها في العهد النبوي والراشدي من تحت توجيهات النصوص، بشكل من أشكال هذا الانبعاث والتوجيه.

وفي حالة بيت المقدس كان لحركة الفتح نحوها مذاق خاصٌ تحدّث التاريخ ذاته عنه، وهو بفحواه انبثاق عاديّ عن النصوص الدافعة، المؤسسة للمعاني الدافقة، لأولئك الجيوش المتّجهة إلى الشام عامة وإلى بيت المقدس، الأرض المقدسة خاصة.

فلقد بشّر حديث البخاري والإمام أحمد^(١) الذي ذكرناه في مناسبة سابقة بهذه الحركة، فعن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له في غزوة تبوك: (أعدُّ ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقُعاص الغنم..)، الحديث؛ إن مزيجاً من من هذا النص ومن النصوص الأخرى المعظمة لمقام بيت المقدس، إن مزيجاً من هذه النصوص دفع جيش المسلمين إلى بيت المقدس دفعا يتحدّث

(١) صحيح البخاري، مع فتح الباري، (٦/٣٢٠، ح: ٣١٧٦)، وهو في مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، ولكن بغير طريق البخاري، (١٦/١٥٨-١٥٩، ح: ٢١٨٩١)، و(١٧/١٨٧-١٨٨، ح: ٢٣٨٥٣)، و(١٧/١٩٤، ح: ٢٣٨٦٧).

عنه الواقدي في فتوحه، مصوراً الحالة النفسية العارمة لدى المسلم العربي فاتح بيت المقدس ليالي الفتح..

يقول الواقدي: «ولقد بلغني أن المسلمين باتوا تلك الليلة كأنهم ينتظرون قادمًا يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال أهل بيت المقدس^(١)، وكل أمير يريد أن يُفْتَحَ على يديه، فيتمتع بالصلاة فيه، والنظر إلى آثار الأنبياء، فلما أضاء الفجر أُذِّن وصلت الناس صلاة الفجر، فقرأ يزيد (بن أبي سفيان) لأصحابه: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم..)، فيقال: إن الأمراء أجرى الله على ألسنتهم تلك الصلاة أو قرأوا هذه الآية، كأنهم على ميعاد واحد»^(٢).

إن هذه الصورة المجسّدة للنفس المقبلة على بيت المقدس، لتكشف عن مقامها قبل فتحها، فلما آذن الله تعالى بنصره العزيز، قرأ القادة والأئمة على مجموعاتهم آية: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة..)، وكأنهم جميعاً يقولون بلسان واحد: إن الأرض المقدسة هي القدس وفلسطين، وإننا نحن منفذون للأمر الرباني بدخولها.

ويصف الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم الأحداث التي نقلناها من كلام الواقدي بأنها وقعت «قبل أن تكون لبني أمية دولة»، ثم يقول في تعقيبه على الأحداث التي نقلناها من

(١) المقصود بأهل بيت المقدس هم الروم المحتلون لها، فمن المعلوم كما سأذكر في الفصل الأول، التالي لهذا التمهيد، أن أرطوبون الروم هو من كان يتصدّر الجبهة المقابلة للمسلمين، وهو الذي آوى إلى بيت المقدس بجيشه ليمنع المسلمين عنها، وأن فكرة تسليم المدينة لم تكن منه، إنما من الأصحاب الحقيقيين لبيت المقدس حينها.

وقد بيّنت في بحثي: انتماء فلسطين بين دعاوى التوراتيين وحقائق الماضي والحاضر، بينتُ موقف أهل فلسطين من الفتح العربي الإسلامي لفلسطين، وبيّنت أهم عرباً استقبلوا في غالب أحوالهم، الفاتح العربي كمنقذ لهم، وتعاونوا معه.

(٢) فتوح الشام للواقدي، نقلاً عن: فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (٨٣).

كلام الواقدي: إنها «تبيّن أن المسلمين الأوائل كانوا يُدركون أن الأرض المقدسة المذكورة في القرآن الكريم هي أرض القدس وفلسطين»^(١).

واضح من هذا السياق أن مزيجاً من النصوص قد دفعت إلى بيت المقدس دفعا جعل بيت المقدس تفتح أبوابها لمن حافظوا دون غيرهم على قدسيتها ومقامها الرفيع.

إن ما سيقروّه القارئ الكريم في بعض فصول هذا الباب، من حركات بشرية إسلامية دفقت صادقة وهي تأمّ بيت المقدس ابتداءً من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومرورا بعهود الأمويين والعباسيين؛ إن ما سيقروّه القارئ الكريم من هذه الفصول سيكشف له عن أثر من آثار النصوص المعظمة لمقام بيت المقدس.

إذن، فحركة بني أمية المتجهة إلى بيت المقدس، وتسمية معاوية فلسطين بالأرض المقدسة، وتسميته إياها بأرض المحشر كما ذكرنا في فصل سابق؛ إن كل ذلك جاء وفق نصوص سبقت بالوجود خلافة بني أمية برؤيتها، ولم تُشكّل خلافة بني أمية شيئا من هذه النصوص.

بل إن شأن المسجد الذي بناه عبد الملك أو ولده على الصخرة المشرفة غير ما أحبّ فريق من المستشرقين قوله، فهم يريدون أن يقرّروا أنها سبب قدسية ومقام بيت المقدس، والأمر غير ذلك تماما، ذلك أن هذا البناء «اكتسب قداسته من الموقع الذي بُني عليه وليس العكس»^(٢).

وإن المساجد كلها ما نالت القدسية في الإسلام إلا لأن نصوصا قرآنية سمّتها بيوت الله، ونسبتها إلى الله، فقالت: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ..)، (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ...، إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمِنٍ..)، وهي ذات وظيفة تربط الإنسان بالله: (فِي بَيْوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ..)، من هذه النصوص

(١) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (٥٣).

(٢) المرجع نفسه، (٥٥).

وسواها نالت المساجد وصف التقديس، وهي غير مملوكة لأحد، لأن ما كان مقدّساً خرج عن ملك البشر إلى ملك رب البشر، سبحانه وتعالى، وما على البشر إلا الاستجابة لإذن الله تعالى، فبينوا مسجداً، تُضفي عليه النصوص أوصاف القدسية.

وليس طول التاريخ هو منشئ القدسية، بل النصوص هي التي تُنشئها، وإن طول التاريخ الأندلسي الإسلامي، الذي استمر ثمانية قرون، وإن عظمة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وغزارة الإنتاج الأدبي والعلمي والمعرفي عامة في تلك البلاد؛ إن كل ذلك لم يرفع تلك البلاد إلى جلال القداسة التي تتمتع بها بيت المقدس، فطول التاريخ وإنجازات الأمة شيء، ونيل مكان ما جلال القدسية شيء آخر.

وعلى ما مضى نقول:

إن ما كان من إقبال نحو بيت المقدس، أو تقصير أو إدبار، في طول التاريخ العربي والإسلامي، لا يعني أكثر من أن هؤلاء المقبلين أو المقصرين أو المُدبرين، حكّاماً أو محكومين، اقتربوا أو ابتعدوا عن النصوص التي سبقتهم بقرون عديدة، وأن نتيجة قربهم أو ابتعادهم تكشف عن انتماء صادق للنصوص، أو انتماء فاتر أو عدم انتماء، فقضية القدس قضية الوحي الشريف، والاهتمام بها جزء من الاهتمام بالوحي نفسه، وبمقدار ما هنالك من انطلاق من النصوص، يكون التوجّه نحو بيت المقدس!

وعليه، فليس الأمويون مُنشئى قدسية بيت المقدس، وليس العباسيون منشئين لما يخالف قدسيتها، بل هو تقصير في الالتزام بالنصوص، إن وافقنا أن ثمة تقصيراً؛ أو هو التزام بهذه النصوص.

وسيكتشف القارئ الكريم في فصول هذا الباب مقدار القرب أو البعد عن النصوص، من خلال القرب أو البعد عن بيت المقدس، فإن تصوّرنا بُعداً، فليس فيه دلالة تراجع المقام في الإسلام، لأن مقامها أطلّ علينا بإطلالة النصوص الصحيحة، وإن رأينا الحقيقة الماثلة: حبا وإجلالا وإقبالا على البيت المقدس، فهي الانبثاق الطبيعي عن النصوص، من الالتزام بها.

الفصل الأول: من هو فاتح بيت المقدس؟

إن المؤرخين يقصدون بقولهم: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو فاتح بيت المقدس، أنه رضي الله عنه هو من باشر عقد اتفاقية استلام مدينة القدس من أهلها القاطنين بما آنذاك، وأنه قد استلمها منهم فعلا، ذلك أن من قد باشر حصارها من أجل فتحها في الحقيقة هو عمرو بن العاص رضي الله عنه، ولحق به فيما بعد أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه.

وهنا نود أن ندخل في الإجابة عن سؤال: مَنْ فَتَحَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مَرَّةً أُخْرَى، وذلك في إطار الرد على تفسيرات استشراقية يهودية، وكَلَعَتْ في تاريخنا، ظنا من أصحابها أن تاريخنا لا يُحسن استعراض ذاته باستيثاق إلا من خلالهم، وكأنهم حسبوا تاريخنا مستنقعا من الخرافة كما هو حال عقولهم المُستندة في كثير من ثوابتها على التوراة، المكتظة بالخرافات..

ونطرق الموضوع من خلال مبحثين اثنين..

المبحث الأول: جولة في الأوهام الاستشراقية.

المبحث الثاني: من هو فاتح بيت المقدس؟

المبحث الأول: جولة في الأودام الاستشراقية

إن من المستشرقين من يحاول تفسير الروايات التي تقول إن عمرو بن العاص رضي الله عنه هو فاتح بيت المقدس، بأن ذلك يتضمن إهانة للمدينة المقدسة، وبالتالي فهو يُجري مفارقة بين جهد عمَرَ وجهد عمَرُو في عملية فتح بيت المقدس، ويحاول أن يرفض أن تكون رحلة عمَرَ أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى الجابية جنوب دمشق، لأجل بيت المقدس، وهو في رأي هذا الفريق من المستشرقين خرج إلى الجابية، فصادف أن بيت المقدس كانت تحت حصار المسلمين، مما دفعه إلى المجيء إليها لاستلام مفاتيحها.

كل هذا ليؤكد هذا الفريق من المستشرقين أن بيت المقدس ليست مدينة ذات أهمية خاصة عند المسلمين!

وسنؤكد نحن بدورنا أنه لا يضير المدينة المقدسة ومكانتها في الإسلام، أن يكون عمرو بن العاص رضي الله عنه هو فاتحها، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يفتحها؛ وفيما لو كانت هذه هي الحقيقة، فلا نرى نحن في الأمر مشكلة، لأن المهم عندنا أن الإسلام هو الذي فتحها بأيدي رجاله؛ لكن بعض المستشرقين يريدون خلق مشكلة من هذه المسألة..

يرى المستشرق هربرت بوسيه أن^(١) الرواية التي تنسب حصار إيلياء حتى مصالحة أهلها إلى عمرو بن العاص هي من أكثر هذه الروايات انتقاصا من مكانة المدينة، فعمرو لم يدخل الإسلام إلا في العام الثامن للهجرة^(١).

(١) تُنظر آراء المستشرق هربرت بوسيه في مقاله: The Sanctity of Jerusalem in Islam ونحن نقلنا ما نقلنا من رؤاه وأوهامه عن: التقديم الذي كتبه إسحاق حسون، المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس، للواسطي، فتُنظر في هذا التقديم، (١٧-١٩)، ومن الواضح أن المحقق اليهودي حسون ارتضى كلام بوسيه، كما يبدو من سياق

وكان بوسيه هذا يريد أن يؤصّل لعرف في التاريخ وفي مكانة المدن والبقاع، يقوم على أساس أن المدنّ العظمى تفقد عظمتها إن لم يكن مُحَرَّرها أعظم الناس، وهو منطق مسكون بأهواء تقوده أعاصيرها إلى حضيض فكري غير محمود.

ويُرجع بوسيه الروايات الأخرى التي تذكر أن عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي رضي الله عنه هو فاتح بيت المقدس، إلى ما يدعيه من توجُّهٍ قاد القصاصين الذين يتشهُون حسب رأيه اعتبار الخليفة عُمر، لا القائد عمرو بن العاص هو فاتح القدس، لكونه ذا مكانة عظيمة للغاية، فلما رأوا أن الفاتح الحقيقي لبيت المقدس هو عمرو بن العاص رضي الله عنه، ولما رأوا على ما يهْمُ بوسيه، أن فتح عمرو لها لا يتناسب والهدف التقديسي الذي يتمنى الرواة والقصاصون إلباس بيت المقدس إياه! لما رأوا ذلك كله، حسب هذيان بوسيه، صاغوا من عند أنفسهم القصة المشهورة بفتح الخليفة عمر لها، مع أن الحقيقة، حسب ما يشتهي بوسيه هذا هي أن عمرو بن العاص الذي تأخر إسلامه إلى السنة الثامنة الهجرية، هو فاتح بيت المقدس، مما سبب إهانة كبرى، بزعم هذا البوسيه لبيت المقدس.

إن ذلك دعا القصاص والرواة إلى الخروج من هذا المأزق الحرج، حسب أمنية ودعوى بوسيه، باختراع رواية تنسب فتح المدينة المقدسة إلى الخليفة عمر، يقول بوسيه هذا: «..إلا أن ذلك لا يتناسب والمكانة التي تحتلها المدينة، هذه المكانة التي أخذت تسمو شيئاً فشيئاً، وتتطلب أن يكون فاتح المدينة شخصية إسلامية مرموقة، لذا استغلت الروايات المحلية القصص أو ربطتها بواقعة تاريخية، هي مجيء عمر بن الخطاب إلى الشام (الجابية) دون أن يكون لذلك علاقة بفتح بيت المقدس».

وهذا من هذا المستشرق المشتبه أن لو يرجع التاريخ إلى الوراء، فلعل الرواية التي تنسب إلى عمر فتح بيت المقدس لا تُسجّل، هذا المستشرق يهذي بما يتمنى، ونحن نقول: ما كل ما يتمنى المرء يدركه، وللأسف الذي يهدُّ النفس هدّاً: تجري الرياح بما لا يُطيق مجدافه الهش!

نقله وسكوته عليه.

فليس لدينا من ضير أن يكون فاتح بيت المقدس أصغر الصحابة سنا أو آخر الناس إسلاما، فهو فضل الله يؤتاه من يشاء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والقضية عندنا كما قد أشرنا أن الإسلام هو الفاتح لهذه الديار المقدسة بيد رجاله الأفاضل..

ثم، لم يتأسس عندنا نحن المسلمين، ولا عند اليهود والنصارى، ولا عند فلاسفة التاريخ، أن المدن العظمى ستفقد عظمتها إن كان في الناس أعظم مكانة من الذي طهرها!

إن الله تعالى يدخر من الفضل للأواخر، حتى يجد من يحاول البعض انتقاصه ما يدفع به عن نفسه، ولقد أدخر الله تعالى فتح القسطنطينية للعثمانيين الذي تأخروا كثيرا في الوجود، رغم محاولات فتحها على يد أهل الإسلام قديما؛ وأدخر فتح شرق أوروبا لهم، حتى يتمكن بنو عثمان من رفع لواء نعمة الله تعالى عليهم، فما يُدري هذا البوسيه أن الله تعالى ألقى لعمرٍ رضي الله عنه بنعمة خاصة جعله بها مقدمة فتح بيت المقدس، حتى يصدّ محبوبه بهذه النعمة العظمى تقوُّلات المتقولِّين وتأويلات المؤوِّلين عليه رضي الله عنه.

إننا لا نقول إن المدن هي وحدها التي قد تتشرف بانفتاح أبوابها لقادة يختارهم التاريخ عنوان مجد للإنسانية، بل ثمة أمر آخر، ألا وهو: إن القادة هم أنفسهم الذين يتشرفون بما ترك الله لهم من أجماد تُتلى على مدار الزمان، أما القدس فهي وحدها التي تشرفت بعمر بن الخطاب، وشرفت عمرو بن العاص، وتلك قسمة الرحمن سبحانه وتعالى، فما لأولئك القوم لا يفقهون حديثا؟!

هذا، ولقد أسلم خالد بن الوليد في شهر صفر من عام ٨ للهجرة، وبعد ذلك بأقل من نصف عام كان خالد رضي الله عنه أحد أمراء جيش فتح مكة المكرمة، وفي الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فهل يضير ذلك مكة؟

إن الإسلام يضع الرجال في المكان اللائق بهم، دون أن تشغله مسألة: متى أسلموا، ما كانت الثقة فيهم قائمة، وإن تولي عمرو بن العاص الذي تأخر إسلامه إلى العام الثامن للهجرة، فَنَحَّ معظم مدن فلسطين ومنها بيت المقدس، بعد إسلامه ببضعة أعوام، إن ذلك ما كان ليضير المدينة المقدسة، كما لم يَضِرْ مكة أن يكون أحد أهم فاتحيها هو خالد بن الوليد رضي الله عنه، رغم أنه أسلم قبل فتح مكة ببضعة شهور، وكان الرسول ﷺ قد جعل عتاب بن أسيد^(١) رضي الله عنه عاملا له على مكة بعد أن فتحها، وكان عتاب هذا قد أسلم يوم فتح مكة، وكان غلاما ابن واحد وعشرين عاما، فهل كان رسول الله ﷺ مُهينا لمكة يوم أن اختار واليا عليها رجلا أسلم يوم فتحها، وهو غلام ابن إحدى وعشرين سنة؛ مع قول الرسول ﷺ مخاطبا مكة يوم الهجرة: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله عز وجل، ولولا أني أُخْرِجْتُ منك ما خرجتُ)^(٢)، فهل بعد كل هذا يصح أن يكون فتح عمرو لبيت المقدس دليلا على هوانها عند المسلمين، لمجرد تأخر إسلام عمرو إلى ما قبل فتح القدس بسبع سنوات؟!

وأخيرا نذكر ما في طبقات ابن سعد رحمه الله فيما يتعلق برؤية عمر رضي الله عنه فيمن يستعملهم..

ففي الطبقات: «وكان يستعمل رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، مثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة، ويدع من هو أفضل منهم، مثل عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ونظرائه، لقوة أولئك على العمل والبصر، ولا يشراف عمر عليهم وهيتهم له..»^(٣).

(١) الكامل في التاريخ، لعز الدين ابن الأثير الجزري، (١٧٨/٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، (٢٥٠/١٤) الأحاديث رقم: (١٨٦٢١، ١٨٦٢٢، ١٨٦٢٣)، (١٨٦٢٤)، وألفاظها متقاربة جدا، وهو حديث صحيح، يُنظر المسند، طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، تممة تحقيق: حمزة أحمد الزين.

(٣) طبقات ابن سعد، (٢١٤/٣).

فهي إذن سياسة عمرية في اختيار الرجال للمهام التي يرمي إليها، وليست انتقاصا لمكانة بيت المقدس، كما أحبت أهواء بوسيه أن تقول!

يا معشر المستشرقين: رويدكم، فما من أوهامكم نستقي موازين الرجال، وما من تخبطاتكم نحاكم الأبطال!

إن رؤية بوسيه هذه والتي فيما يبدو نالت إقرار المستشرق اليهودي إسحاق حسون، والقاضية بأن الرواية التي تحدثت عن فتح بيت المقدس على يد عمرو الذي تأخر إسلامه حتى السنة الثامنة للهجرة، كانت مظهر إهانة للمدينة المقدسة؛ إن هذه الرؤية منه تُلزمه بأن اليهود أكثر الأمم إهانة لبيت المقدس، ذلك أن الذي فتح القدس عندهم وأخذها من اليوسيين هو الملك داود، لا النبي داود، عليه السلام، إذ هم لا يؤمنون بنبوتيه، وهو بدعوى نصوص التوراة كان سافكا للدماء زانيا^(١)، حاشاه من كل ما نسبوه إليه، فأى إهانة لبيت المقدس أكثر من أن يكون فاتحها زانيا، على ما يدعون؟!

ثم إنه حكم القدس بعد داود ولده سليمان، عليه الصلاة والسلام الذي تدعى التوراة انحراف قلبه مع نسائه عابدات الأصنام، وتدعى أيضا بناء الصروح لآلهة المشركين^(٢)، وحاشاه عليه الصلاة والسلام من هذا الضلال.

إن اليهود يعتبرون مرجعيتهم التاريخية في فلسطين هي فترة داود وسليمان، وها هما حسب النظر الإسرائيلي اليهودي يتصفان بما ذكرنا مما كذب اليهود عليهما، فأى الفريقين هو المهين لبيت المقدس إذن، أو المسقط لمكانتها؟!

ثم إنه من الثابت لدى المسلمين واليهود والنصارى أن سيدنا موسى ﷺ ما دخل الأرض المقدسة، وأنه كما حضرته الوفاة سأل الله تعالى أن يُدنيه منها رمية بحجر، ثم دخل

(١) يُنظر للتعرف على اتهام اليهود لداود عليه الصلاة والسلام بالزنا وتدمير مؤامرات القتل: سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر جميعه.

(٢) يُنظر للتعرف على رؤية اليهود لسليمان عليه الصلاة والسلام واتهامهم له بما ذكرنا: سفر الملوك الأول، (١١/١-١٣).

الأرض المقدسة غلامه يوشع بن نون، الذي هو نبي عندنا، فهل سقطت مكانة القدس لأجل أن الله تعالى صرف عنها موسى النبي الكريم ﷺ وفتحها لغلامه يوشع؟!!

ونرى أن نعود إلى المستشرق حسون، المحقق اليهودي لكتاب الواسطي، لننقل رؤية جديدة له، بعد أن نقل هو عن بوسيه ما نقل من محاولات تفسيرية، نراه يخوض خوضه أخرى..

إنه يحسب أن منهج المسلمين في روايات الحديث والتاريخ واعتناق الأفكار والعقائد، قائم على السير وراء ما يشتهون، فيلفقون الروايات لتناسب وما تهوى أنفسهم، وأحسب أن حسون هذا متأثر جدا بما هو حاصل في التوراة، التي ألفها مؤلفوها، وفق ما رسخ في نفوسهم من أهواء، لكن يا صديقنا حسون: لسنا يهودا حتى نكون ملفقين..

يقول حسون: «..وفي رواية أخرى للطبري عن سيف بن عمر، استغل الفرق بين الاسمين (عمرو) و(عمر) لإدخال العلم الذي يقال: إن بعض أهل الكتاب يعلمه، والتأكيد على لسان قائد الروم أن الذي سيفتح المدينة اسمه مركب من ثلاثة أحرف، أو أن لقبه هو الفاروق، وقد تطورت هذه الروايات لدى ابن الأثير، فلم تكتف بالتلميح إلى عمر، بل أعطت وصفا دقيقا له؛ وهكذا نرى أنه كلما علت منزلة بيت المقدس في الإسلام، ازدادت الروايات التي من شأنها إظهار ذلك، ولو بصورة غير مباشرة»^(١).

إننا نؤمن أن لله كتبنا قبل القرآن الكريم، ولكن مشكلتنا مع هذه الكتب نابعة مما وقع في حقها من تحريف وتغيير يعترف به باحثو أهل الكتاب المعاصرون أنفسهم، ونحن لا نرى أن كل كلمة في التوراة الموجودة في عصر عمر بن الخطاب أو في عصرنا هي كلمة محرفة، فلم يقل أحد هذا الكلام أبدا، لا من المسلمين ولا من اليهود والنصارى؛ لكن معرفتنا بالتمييز بين ما قد وطأته بواعث التحريف وما لم يقع تحت مخالبتها، هو أمر

(١) من تقديم المستشرق حسون لتحقيقه كتاب فضائل البت المقدس للواسطي، (١٩).

صعب بل هو إلى المستحيل أقرب، ولكن هذا لا يمنع الباحث من أن يستأنس ببعض ما يقرأ من التوراة والإنجيل، مما لا تُعرف فيه مخالفة للحقائق، فينقله، لا على اعتبار أنه مما أنزله الله تعالى فعلا، بل على اعتبار آخر هو الاستئناس بما لا يُعرف فيه مخالفة للحقائق الثابتة..

هذا في عصرنا، أما في العصور القديمة، فالأمر أكثر وضوحا، فلقد كان لدى البعض فعلا نُسخ من الكتاب القديم، أو كان لدى البعض روايات تناقلتها الأجيال، فيها بقايا تتضمن مزيجا من حق وباطل، كان يستطيع أهل هذه الروايات التمييز بين حقا وباطلها في كثير من الأحيان..

هذا بالضبط ما يمكن أن يكون قد حصل في هذا الإخبار بوصف عُمر، وأنه يكون هو فاتح القدس لا عَمْرُو^(١)، فرواية مثل هذا الخبر في كتب التاريخ العربي والإسلامي، لا يقوم في ديننا على اعتبار ثبوته في التوراة التي أنزلها الله تعالى من السماء فعلا، وإنما هو شيء لا نجد في ديننا ما يخالفه، فلا نجد حرجا في روايته، على الوجه الذي ذكرنا.

ومع ذلك، فإن مشكلتنا هنا هي مع راوي هذه القصة، فهو على ما هو واضح من كلام حسون: سيف بن عمر الضَّبِّي، وهو ضعيف في الرواية، بل شديد الضعف^(٢)، وقد

(١) وفي الحقيقة، لا بد من تحقيق المسألة بشكل آخر، فلقد روى ابن سعد في طبقاته، (٢٤٨/٣)، أن عمر رضي الله عنه ركب فرسا، فانكشف ثوبه عن فخذه، فرأى أهل نجران بفخذه شامة سوداء، فقالوا: هذا الذي نجد في كتابنا أنه يخرجنا من أرضنا، ولقد ذكر القرآن الكريم من صفات المؤمنين ما ذكر، ومنها في سورة الفتح آية (٢٩): (محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا، ذلك مثلهم في التوراة؛ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه..)، فلا يمتنع في ديننا أن يكون بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المذكوراً في التوراة بوصفه، بعد إذ بين لنا القرآن أن التوراة تتحدث عن أصحاب الرسول عليه السلام.

(٢) في ميزان الاعتدال، (٢٥٥/٢) للذهبي عن يحيى بن معين فيه: ضعيف، وفلسٌ خير منه، وعن أبي داود: ليس بشيء، وعن أبي حاتم: متروك.

حمتنا أصول البحث التاريخي المؤصلة في الإسلام من الاعتقاد بهذه الرواية، ومع ذلك، فإننا لا نملك أن نقول إنه لا يوجد في التوراة شيء من هذا، بل نقول: لم يثبت لدينا شيء منه، فلربما وُجد ولم يصلنا بطريق صحيح.

إذن، ليست القضية أن القصصين أحبوا أن يُضفوا على حركة فتح القدس مكانة خاصة، فلما رأوا فتحها تم على يد عمرو، تمنوا لو كان ذلك الفتح على يد عمر أمير المؤمنين، فأخرجوا أنفسهم من هذه الورطة بابتداع قصة خرافية تجعل فتح القدس فتحاً عمرياً لا فتحاً عمرياً! على ما زعم بوسيه، وأيده على زعمه هذا كما يظهر المستشرق اليهودي إسحاق حسون.

فليست المسألة مسألة قصصين نُسبت إليهم هذه الأمنية إذن، وليست أكثر من روايات خاضعة لميزان الجرح والتعديل، الذي نتحدى كل يهود الدنيا ونصاراها أن يملكوا مثله، لمناقشة خرافات الكتاب المقدس، يهوديا ونصرانيا، فهل يقدرّون على هذا التحدي؟! اللهم لا، وإلا، فليُخرجوا أنفسهم من قُمم خرافاتهم، وليعرضوها على طاولة البحث العلمي!

وأما ما ينسبه بوسيه - ويعتمد عليه المستشرق حسون - إلى القصاص، زاعما أنهم يتشبهون أن يكون عمر الخليفة هو فاتح بيت المقدس، فنسبوا إليه فتحها، لمكانها عندهم وعند المسلمين، وأن هؤلاء القصاص لم يروا من اللائق أن يفتح المدينة المقدسة عمرو بن العاص الذي أسلم أخيرا في العام الثامن للهجرة، أي قبل فتح مكة بنصف عام تقريبا؛ إن نسبة هذا التشبه والسير وفقه إلى القصاص هو خلل في فكر من ينسبه إليهم، إذ لا دليل عليه، ونحن هنا نطرح الجواب على هذا الزعم في النقاط التالية:

١- نحن نعلم أن فريقا من القصاص يضيفون على ما هو حقيقة وصواب، كثيرا أو قليلا من الخرافة، لعلهم تأثروا في جوانب منها بما ألقته خرافات بني إسرائيل في الطريق الإسلامي الواضح، فحسب جهلة القصاص أن بالإمكان تقليد كتاب بني إسرائيل المقدس، المليء بالخرافات، وإضافة ما يرون أنه أكثر جذبا لسامعيهم..

٢- لم ينتظر البحث العلمي الإسلامي قدوم بوسيه أو حسون، وأضرابهما لتنقية ما قد يشوب الحق من غبشٍ قد يكون مصدره الكتاب المقدس يهوديا ونصرانيا، لم ينتظر البحث العلمي الإسلامي مكرمة هؤلاء، بل لقد قاد هذا البحث بأصوله المثبتة عمليات التمحيص من أول يومٍ وُجدت فيه رواية حديثة أو تاريخية، ولا حَقَّ العلماءُ المحققون كلَّ من سَوَّلت له نفسه إلقاء الخرافات في طريق الفهم المشرق لدين الله تعالى، حفاظا على الدين والعرض معا، وحفاظا على العقل من أوهام السكاري، وقد أَلَفَ الإمام المؤرخ والمحدث والمفسر ابن الجوزي المتوفى عام ٥٩٦هـ الموافق حوالي ١٢٠٠م، أَلَفَ كتابه: القُصَّاصُ والمُذَكِّرين، محذرا مما قد وقعوا فيه من الإثم المخرب للعقول، وأَلَفَ الإمام السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ — الموافق حوالي ١٥٠٥م، أَلَفَ كتابه: تحذير الخواص من أكاذيب القُصَّاص، وقد سُبِقَ كلاهما بجهود الأفاضل الكبار، كالبخاري ومسلم والإمام أحمد، وسُبِقَ هؤلاء أيضا بجهود ابن شهاب الزهري وابن المبارك، بل قد تخطى الأمر إلى باب آخر لا تعرف له ولا لغيره الأمم مثيلا عندها، فلقد رفض العلماء بعض روايات الثقات حين موازنتها بأصول النقل والعقل وبروايات الثقات الآخرين، ولم تشفع لهم مترلتهم العالية لقبول روايات لهم لا يقبلها الوحي والعقل والتاريخ؛ إن كل ذلك حصل، فهل عرف تاريخ اليهود والنصارى ودينهم مثله؟!!

٣- كنا قد كتبنا في بداية بحثنا هذا فصلا خاصا يدور حول أحاديث فضائل بيت المقدس، وتبين منه للقارئ الكريم، أن مترلة بيت المقدس في الإسلام لم تبرر للمنهج العلمي الإسلامي الرصين قبولَ رواية الكذب، حتى لو كان في فضائل بيت المقدس، ففضائلها تنبعث من نصوص الشرع إشعاعا مضيئا ونورا باهرا، ولا تنبعث من أهواء الدجالين أو الجهلاء؛ ولذا فنحن ندعو القارئ إلى العودة إلى ذلك الفصل وقراءته بتمعن، ولا داعي لإعادة شيء منه.

٤ - بل لقد خصصنا مسألة القصص بمبحث خاص من مباحث الفصل الثالث من الباب الثاني، وبيننا فيه سلامة المنهج الإسلامي برمته من هيمنة القصص، فليرجع إليه القارئ إن شاء، مع تأكيدنا أن من القصص من كان في سلامة أصلاً من الكذب والخرافات.

المبحث الثاني: من هو فاتح بيت المقدس؟

وعودة إلى الجواب عن السؤال: من فتح بيت المقدس؟

فمن المعروف تاريخياً أن عمرو بن العاص رضي الله عنه قد شرفه الله تعالى بفتح معظم مدن فلسطين، روى البلاذري بإسناده عن مشايخ من أهل العلم قولهم: «كانت أول وقعة وأقعها المسلمون الروم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أرض فلسطين، وعلى الناس عمرو بن العاص، ثم إن عمراً فتح غزة في خلافة أبي بكر، ثم فتح بعد ذلك سبسطية و نابلس على أن أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم، وعلى أن الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم، ثم فتح مدينة لد وأرضها، ثم فتح يبنى وعمّاس وبيت جبرين،...، وفتح يافا، ويقال: فتحها معاوية، وفتح عمرو رفح على مثل ذلك، وقدم عليه أبو عبيدة رضي الله عنه بعد أن فتح قنسرين ونواحيها، وهو محاصر إيلياء، وإيلياء: مدينة بيت المقدس، فيقال: إنه وجهه إلى أنطاكية من إيلياء، وقد غدر أهلها ففتحها، ثم عاد فأقام يومين أو ثلاثة، ثم طلب أهل إيلياء من أبي عبيدة الأمان والصلح،...، على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمرو فترل الجابية من دمشق، ثم صار إلى إيلياء، فأنفذ صلح أهلها، وكتب لهم به..»^(١)، وقد فتح عمرو مدناً أخرى غير التي ذكرها البلاذري هنا، كعسقلان والرملة وعكا. إلخ، يقول المؤرخ العسكري العراقي محمود شيت خطاب: «لقد شهد عمرو أكثر معارك فتح الشام، وكان فتح أكثر فلسطين على يديه»^(٢)، ويقول المُحدّث والمؤرخ العراقي الدكتور أكرم ضياء العمري: «وفي الوقت الذي عمل أبو عبيدة وخالد بن الوليد و عياض بن غنم على فتح سوريا والجزيرة، كان عمرو بن

(١) فتوح البلدان، لأبي حسن البلاذري، (١٤٠).

(٢) قادة فتح الشام ومصر، محمود شيت خطاب، (١٣٦).

العاص يتقدم في أرض فلسطين^(١)، وكان عمرو قد توجه إلى أجنادين^(٢) الواقعة بين الرملة والخليل، وذلك بعد مشاركته الفعالة في اليرموك، إذ كان فيها على الميمنة، ثم بعد أن أحرز المسلمون النصر المؤزر في معركة اليرموك الفاصلة، وبعد انتصار المسلمين على الروم في معارك أخرى أيضا كمعركة فحل وبيسان وغيرهما، بعد ذلك ما كان من الروم إلا أن توجهوا بقيادة الأربطون قائدهم في فلسطين، فحشدوا جيوشهم في أجنادين، فلحق بهم عمرو، وقام معاوية بن أبي سفيان بإلقاء الروم في قيسارية، وأرسل عمرو علقمة بن حكيم ومسروق العكي وأبا أيوب المالكي، ليشتغلوا الروم في الرملة عنه (أي عن عمرو) ثم قاتل عمرو الروم قتالا شديدا، حتى انتصر على داهيتهم وأربطونهم فيما يمكن أن يسمى بمعركة فتح أجنادين.

وأربطون الروم هذا شخصية فذة، يمكن تشبيهه ما تملكه من دهاء بما يملكه عمرو بن العاص نفسه رضي الله عنه، يصفه ابن جرير الطبري شيخ المؤرخين بقوله: «وكان الأربطون أدهى الروم، وأبعدها غورا، وأنكاها فعلا»^(٣)، لكنه ضعف حين فتحت معظم

(١) عصر الخلافة الراشدة، للدكتور أكرم ضياء العمري، (٣٧٣).

(٢) لا بد من لفت الانتباه إلى أن توجه عمرو إلى أجنادين هنا كان لفتحها وملاحقة أربطون الروم، الذي كان قد لحق بها، وليس المقصود هنا أنه توجه إلى أجنادين لقيادة الموقعة المسماة بأجنادين، فتلك قد وقعت عام ١٣ هجرية، وكان قائدها المسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه، وكان قائدها الرومي تذارق، وملاحقة عمرو لأربطون الروم في أجنادين هنا كان عام ١٥ هجرية، وقد فتح عمرو أجنادين في هذه الموقعة، وفي هذه الموقعة (موقعة فتح أجنادين، لا موقعة أجنادين) فيها قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رمينا أربطون الروم بأربطون العرب، فانظروا عما تنفرج»، يُنظر: فن الحرب الإسلامي، للمؤرخ العسكري بسام العسلي، (١٠٧/١ فما بعد، ١٥٨/١ فما بعد)، هذا وقد خسر الروم في هذه الموقعة خسائر لا تقل عما خسروه في اليرموك، وبعدها فر أربطون إلى بيت المقدس، وبعد أن عُقد صلح القدس فر إلى مصر.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، للإمام الحافظ والمفسر والمؤرخ أبي جعفر ابن جرير الطبري، (٦٠٥/٣)، وهذا الوصف للأربطون موجود بحروفه في الكامل في التاريخ، لعز الدين ابن الأثير الجزري، (٣٤٧/٢)، وفي البداية والنهاية لابن كثير، (٥٤/٧)، دون أن ينسبه أحدهما لصاحبه ابن جرير، ذلك

المدن الفلسطينية صدرها للفتاح والحرر العربي المسلم، وتراجع عزمه بعد أن فتح عمروُ أجنادين، فأوى منهنهما إلى بيت المقدس، فخابره عمروُ مخابرة رقيقة بأن يُسلم المدينة حقنا للدماء، فأبى، فما كان من عمروٍ إلا أن حاصرها أربعة أشهر، وعلم عمروُ أنه لن يكون هو فاتح بيت المقدس، وسبب ذلك ما ذكره ابن الأثير قال: «أرسل -أي عمرو- إلى أربوبون رجلا يتكلم بالرومية، وقال له: اسمع ما يقول، وكتب معه كتابا، فوصل الرسول ودفع الكتاب إلى أربوبون وعنده وزراؤه، فقال أربوبون: لا يفتح والله عمروُ شيئا من فلسطين بعد أجنادين، فقالوا: من أين علمت هذا، فقال: صاحبها رجل صفته كذا وكذا، وذكر صفة عمرو، فرجع الرسول إلى عمرو، فأخبره الخبر، فكتب إلى عمرو كتابا قال فيه: «إني أعالج حربا كؤودا صدوما، وبلادا قد ادُّخرت لك، فرأيك»، فعلم عمروُ أن عمرواً لم يقل ذلك إلا بشيء سمعه، فسار عمر عن المدينة»^(١)..

وإن كان الأربوبون صدق في قوله هذا الذي قاله، فلا يبعد في تقديري أن تكون صفة عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه مذكورة في كتب أهل الكتاب، كفاتح لمدينة القدس، إذ ذكر الطبري ما يدل على شيء من هذا في كلام رجل من يهود دمشق استقبال عمر رضي الله عنه يوم قدومه الجابية، فقال له: «السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء»^(٢).

وفتح عمرو بعض المدن الفلسطينية، حتى قدم عليه أبو عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه وهو محاصر الروم وأربوبونهم في بيت المقدس، وباعتبار أن أبا عبيدة رضي الله عنه هو القائد الأعلى لجيوش المسلمين في الشام، وعمروٌ تحت إمرته، فكان أن توجه الروم إلى أبي

أن كلام الكتابين، أعني الكامل والبداية والنهاية، كليهما تلخيص لكتاب ابن جرير في الفترة التي أرخ لها.

(١) الكامل في التاريخ، لعز الدين ابن الأثير الجزري، (٢/٣٤٩)، ويُنظر: تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري، (٣/٦٠٦-٦٠٧).

(٢) يُنظر: تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري، (٣/٦٠٨).

عبيدة طالبين منه الصلح، على أن يكون أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه هو من يتولى بنفسه عقد الصلح معهم^(١)، فقدم عمرُ أميرُ المؤمنين حتى عقد معهم الصلح، ولا يبعد أنه قرر المسير على أثر كتابين منفصلين وصلا إليه من عمرو وأبي عبيدة.

وقال ابن جرير: «وقيل: كان سبب قدوم عمر إلى الشام، أن ابا عبيدة حضر بيت المقدس، فطلب أهله منه أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك، فسار عن المدينة»^(٢).

فانطلق عمر رضي الله عنه مسافرا من المدينة إلى الشام، في مسيرة تحدثت عن تواضع عمرٍ عجيب^(٣) وحكمة فاروقية بالغة وثقة راشدية بالله عالية؛ مع عزيمة تقدر على مجاهدة الجبال من الرجال؛ فوجدها الفاروق فرصة أن يجتمع بالجيوش الإسلامية المجاهدة، فدعا جميع قادتها إلى الاجتماع به في الجابية، وهي ناحية من حوران جنوب دمشق، ثم انطلق إلى بيت المقدس، وتقول بعض الروايات إن صفرونيوس نفسه تبعه إلى الجابية، فأعطاه عمر الأمان العمري المعروف بالعهدة العمرية^(٤).

(١) بعض كتب التاريخ تختصر الأمر كما بينا أعلاه، فهذا المطهر بن طاهر المقدسي يذكر في كتابه البدء والتاريخ، (٥١٨٥) أن أبا عبيدة حاصر بيت المقدس، فطلبوا منه أن يرسل إلى عمر ليتولى هو الصلح.

(٢) ابن جرير في تاريخ الأمم والملوك، (٦٠٨/٣).

(٣) وأعجب العجب أن يحاول الصليبيون تصوير تواضع عمر رضي الله عنه عند دخوله بيت المقدس، بأنه يخفي به نوايا ما، فقد نقل لي سترانج في كتابه: فلسطين في العهد الإسلامي، (هامش ١٤٢) عن كتاب التاريخ للمؤرخ البيزنطي ثيوفانز الذي أُلّف في القرن الثامن الميلادي، أي بعد قرن تقريبا من فتح عمر لبيت المقدس، نقل لي سترانج عن هذا الكتاب: «..و بموجب هذا العهد، دخل عمر المدينة مرتديا الملابس المغيرة الممزقة المصنوعة من وبر الجمال، وقد ظهر بمظهر الورع، ليخفي نياته الحقيقية..»، قال هذا، رغم أن البشر كلهم يشكرون لعمر رحلته تلك، لكن، وفيما يبدو، أن هذا المؤرخ نطق بحاله المهزومة، فلم يقدر أن يقول أكثر مما قال!

(٤) يُنظر في بحث هذه التفاصيل مع تفاصيل أخرى تتعلق بفتح القدس وكتابة العهدة العمرية

وفي جعبة التاريخ رواية أخرى، نقلها لما فيها من كلام ينسب فتح بيت المقدس إلى عمر..

روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب، أن عمر بن الخطاب بعث خالد بن ثابت الفهمي إلى بيت المقدس في جيش، وعمر بالجابية، فقال، فقاتلهم، فأعطوه أن يكون لهم ما أحاط به حصنها على شيء يؤدونه، ويكون للمسلمين ما كان خارجاً منها، فقال خالد: قد بايعناكم على هذا إن رضي به أمير المؤمنين، وكتب إلى عمر يخبره بالذي صنع الله له، فكتب إليه: «أن قف على حالك حتى أقدم عليك»، فوقف خالد عن قتالهم، وقدم عمر مكانه، ففتحوا له بيت المقدس على ما بايعهم عليه خالد بن ثابت، قال: **فبيت المقدس يسمى فتح عمر بن الخطاب^(١).**

ويظهر لي أن قائل عبارة: (فبيت المقدس يسمى فتح عمر بن الخطاب)، هو نفس صاحب الكتاب الذي روى هذه الحادثة، وهو الفقيه الثقة أبو عبيد القاسم بن سلام. وبعد أن اطلعنا على بعض ما هنالك مما قيل في فتح بيت المقدس، وصاحب فتحها، فإننا بعد ذلك نؤكد على ما يلي:

إنه لا ضيرَ على المؤرخ أن يطرح الأمر بالتفصيل الذي ذكرنا حول فتح بيت المقدس، فيتعرف القارئ على دور كلٍّ من عمرو وعمر وأبي عبيدة وغيرهم تفصيلاً..

ووقعة أجنادين السابقة مباشرة لفتح بيت المقدس في: تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، (٦٠٧/٣-٦١٢)، وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير، (٦٤٦-٦٤٩)، وفي البداية والنهاية لابن كثير، (٥٤/٧-٦١)، ويُنظر في الكتب المعاصرة، ككتاب: عمرو بن العاص بين يدي التاريخ، للأستاذ المؤرخ عبد الخالق سيد أبي رابية، (٧٦-٧٩)، وفي قادة فتح الشام ومصر، للمؤرخ العسكري العراقي محمود شيت خطاب، (١٣٢-١٣٦)، وفي: الطريق إلى دمشق للمؤرخ أحمد عادل كمال، (٥٢٣-٥٢٨)، وفي كل من هذه الكتب تفاصيل قد تخلو منها الكتب الأخرى.

(١) كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد خليل هرّاس، (١٦٨).

ولا عيّب إن قال المؤرخ: إن أبا عبيدة هو فاتح بيت المقدس، على اعتبار أنه أمير عموم جيوش الشام، رغم أنه جاء إليها أخيرا وهي محاصرة بجيش عمرو، لكن أهل بيت المقدس توجهوا إليه بطلب الصلح، لما علموه من مكانه في القيادة العامة لجيوش الشام، فقام بإرسال كتاب إلى عمر أمير المؤمنين، يخبره بطلب أهل بيت المقدس..

ولا بأس على المؤرخ أيضا في أن يختصر مسافة الشرح والتفصيل، فيقول: إن عمرو بن العاص هو فاتحها، على اعتبار أن سلوك تلك المسيرة الطويلة كان على يد عمرو، وهي التي ابتدأت بتوجه عمرو نحو فلسطين، كقائد وأمير للجيش المحرر لها، وملاحقته لأرطوبون في أجنادين، ثم حصاره بيت المقدس، وبعد كل ذلك: طلبه المدد من عمر، ولحاق أبي عبيدة به؛ ولا ضير على المؤرخ أن يقول: إن عمر جاء في النهاية فاستلم مفاتيحها وعقد مع أهلها الصلح المعروف..

ولا لوم على المؤرخ أن يقول: إن عمر هو فاتحها على اعتبار مباشرته أمر استلامها وعقد الصلح مع أهلها، ثم يستند على الرواية التي رويناها أخيرا عن أبي عبيد، فيكون عمر قد ورد الجابية بعد كتابين من عمرو وأبي عبيدة، ثم أرسل رديفا للمجاهدين القائمين على حصار القدس هو خالد بن ثابت الفهمي، ويتحدث معه بعض أهل القدس حينها بهذا العرض الذي أرسله إلى عمر، ثم يأتي عمر رضي الله عنه.

وإن المؤرخ لا يكون قد ارتكب ذنبا ولا مخالفة لأسس البحث التاريخي في استعراضه لأي قول من هذه الأقوال، إذ لا تناقض بينها، فكل منها يأتي معبرا عن مشهد من مشاهد مسيرة الفتح والتحرير العربي والإسلامي الكبير لبيت المقدس، وكل منها يكشف عن حلقة من حلقات هذا الفتح المجيد؛ ولا ضير في كل ذلك إن شاء الله تعالى.

ولكن الخلل قد يأتي، بسوء نية أو بحسنها، من قارئ للتاريخ، حامل عصا الترحال، لا يطيق أن يجلس قليلا لاستكناه الحقيقة، فيأخذ ما قد سمع من سريع الكلام، أو ما قد أحب هو أن يسمع! ثم ينطلق محدثا بهذا الذي سمعه، أو أحب سماعه! أو محدثا ببعض ما

سمع قصدا لإخفاء الحقيقة، كما قد فعل بوسيه بدقّة يُحسد عليها، فقرر أن عمرو بن العاص هو فاتح بيت المقدس، ليقرّر أن هذا إهانة للمدينة المقدسة، وقد بيّن الأمر تفصيلا!

الفصل الثاني: الهدف من بناء قبة الصخرة

لقد درجت كثير من الأقلام على اعتبار أن عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي، هو باني قبة الصخرة، وسيتبين لنا لاحقا أن من الباحثين من يرجح أن بانيها هو: الوليد بن عبد الملك، لا عبد الملك نفسه، وليس في هذا غبار في تقديرنا، وكم اختلف المؤرخون في مسائل الماضي القريب والبعيد.

وثمة أقلام توجهت إلى تفسير السبب الذي خلق في نفس عبد الملك التوجه لبناء قبة الصخرة، ولا عيب في ذلك، فالتاريخ ميدان الفلاسفة والمؤرخين، يفسرون ويستنبطون، غير أن أقواما يدخلون في تفسير التاريخ وأحداثه، دون أن يلتفتوا إلى طبيعة النفس والعقيدة التي تهيمن على حركة الناس الذين يصنعون أحداثه، وها هنا مبدأ الخلل في التفسير.

لكن المشكلة تبدو أكثر استفحالا، وقد تكشف عن نفس منحرفة عن الحق، حينما يدّعي مُدَّعٍ أن ثمة حدثا وقع في التاريخ على نحو ما، وهو لم يقع على هذا النحو، ثم يقوم بناء على ادّعاء وقوعه على النحو الذي صورّه فيفسره تفسيراً هو في ذاته لا يمكن دون ادّعاء وقوعه على النحو الذي ادّعاه..

وفي الكلام إجمالٌ واختزال شديدان، وسنقوم هنا بتفصيل ما أجملنا، وشرح ما اختزلنا.

غير أن كلامنا ستركز فحسب على ناحية من نواحي المشكلة، ولن نفصل كل جوانبها.

إن من الناس من ادّعى أن بيت المقدس غير ذات قدسية لدى المسلمين، وأن قدسيتها ناشئة على أثر تقليد المسلمين لليهود في تصوراتهم واعتقاداتهم، وحاولوا أن ينفوا نسبة

أحاديث صحيحة إلى رسول الله ﷺ، ثم ادَّعَوْا أنها نشأت بعده استجابة لصراعات قامت بين المسلمين بعضهم ببعض!

ولا داعي للابتعاد كثيرا عن الموضوع، ولذا فستترك للقارئ الكريم فرصة الاطلاع عليه في مبحثين اثنين..

المبحث الأول: استعراض أكذوبة أن بناء قبة الصخرة كان يهدف صرف الناس عن الحج إلى الكعبة المشرفة.

المبحث الثاني: الرد على هذه الأكذوبة.

المبحث الأول: استعراض أكذوبة أن بناء قبة الصخرة كان بهدف صرف الناس عن الحج إلى الكعبة

إن المؤرخين اليعقوبي الشيعي وابن البطريق النصراني، هما أول^(١) من نطق بالكذبة الكبرى التي تقول: إن عبد الملك بن مروان قصد ببناؤه الصخرة المشرفة منافسة الكعبة بما لصرف الناس عنها، كرد فعل على سيطرة عبد الله بن الزبير عليها، مدعياً أن الأروقة الدائرية صُمتت من أجل الطواف، وأن الناس بدؤوا يطوفون فعلاً بمسجد الصخرة كما يطوفون بالكعبة المشرفة..

بل زاد اليعقوبي في الكذب ما يفضحه بين من لديه أدنى معرفة في التاريخ، فقد ذكر أن هذا الذي فعله عبد الملك لم يقتصر فقط على عهده، وإنما دام واستمر طيلة عهد الأمويين فيما بعد.

يقول اليعقوبي: **«ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة، فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا، فقال لهم:**

(١) دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تأليف: س. د. حواتين، ترجمة وتحقيق الدكتور عطية القوصي، (٤١)، ومما يؤسف له أن بعض من لم تُتهم من الكتاب قد تحدث حديثاً مرفوضاً هنا، دون استناد منه إلى دليل أو شبه دليل، فهذا الشيخ مجير الدين الحنبلي صاحب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، يذكر في كتابه (٤٠٠/١) أن عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج إلى مكة المكرمة، حتى لا يميلوا مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، ولم ينقل الشيخ مجير الدين كلامه هذا عن مرجع ولم يذكر له إسناداً، وفيما يبدو أن كلامه هذا مجرد تفسير منه لبناء عبد الملك لقبة الصخرة المشرفة، وهو تفسير غير موفق.

وفي الحقيقة، فإن كتاب الأنس والجليل من الكتب التي مررت كثيراً من الرؤى والمسائل حول بيت المقدس والأقصى والصخرة، مما يدخل في باب التسرع وعدم التحقق، أو في باب البدع السيئة، وهو كتاب يغترف من كل إناء، ولا يفرق في اغترافه بين عذب وأجاج.

هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله ﷺ قال: لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام؛ وهذه الصخرة التي يُروى أن رسول الله ﷺ وضع قدمه عليها كما صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة، وعلق عليها ستور الديداج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها، كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيام بني أمية^(١)!!

وعبارة المؤرخ النصراني ابن البطريق هي كما يلي: «وبعث عبد الملك فبنى مسجد بيت المقدس، وشيده وصير الصخرة في وسط المسجد، وبنى حوله ورخمه، ونصب قبة على الصخرة من نحاس مطلية بالذهب، وأمر الناس بالحج إلى الصخرة»^(٢).

ولقد تلقف هذه الأكذوبة الكبرى كل من نطق بها فيما بعد، من المؤرخين والمستشرقين والمستغربين والمتهودين، ولم يلتفت الكثيرون منهم إلى بُعد هذه الأكذوبة عن إمكان التَّحَقُّق، ذلك أن الذي كان يحذو الكثيرون منهم هو: **الطعن في الإسلام وتاريخه**

(١) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب، المعروف بابن واضح الأخباري، تعليق: محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحديثة ومطبعتها في النجف، ١٩٦٤م، (٨/٣).

(٢) تاريخ ابن البطريق النصراني، (٤٣/٢)، وقد نقلت هذا النص عن كتاب شيء من تاريخنا تأليف علي سعيد خلف، (١٥٩)، ومما يُستغرب له أن الأستاذ علي سعيد خلف ذكر النص الذي نقلناه عن تاريخ اليعقوبي في سياق امتداح عبد الملك على هذه الفعلة، وكأنه يُثبتها لا كأى شيء قد وقع فعلا، بل كمنقبة لمن نُسبت إليه، فبينما ينقل الأخبار عن سماحة عبد الملك بن مروان مع اليهود في بيت المقدس، تراه يقول مباشرة: وحاول هذا الخليفة أن يجعل القدس عاصمة الشام، جاء في تاريخ اليعقوبي: «...»، ثم نقل النص نفسه الذي نقلناه عن اليعقوبي، ونقل بعده النص الذي نقلناه عن ابن البطريق بواسطة، ثم عاد فتحول مباشرة إلى الحديث عن اليهود في عهد عبد الملك، وسياق كلامه سياق مناقب لا سياق مثالب، مع أنه ينقل مثلية ويسكت عليها، وكأنه يقرُّها، أو يقرّ وقوعها!.

ورجاله، ثم لا يهم بعد ذلك أن يُثبت الطاعن طعونه بأدلة كافية أو لم يُثبتها، فالمهم أن تلوك الألسنة من بعده أذوبته!

كان من أولئك الذين حملوا لواء هذه الفرية المستشرق اليهودي جولد تسيهر^(١)، الذي ذكر في الجزء الأول من كتابه *Muhammedanische Studien* أن عبد الملك قصد بتشييده قبة الصخرة في بيت المقدس أن يتغلب على منافسه عبد الله بن الزبير، الذي كان مهيمنا على مكة، ضمن هيمنته على الحجاز كله.

ورغم الكلام والتحقيق الجيد الذي تقدم به المؤرخ البريطاني لي سترانج في نواح متعددة من كتابه: فلسطين في العهد الإسلامي، إلا أنه حينما ذكر هذه المسألة، أوقع نفسه في طائفة هذه الأكذوبة اليعقوبية، ونطق مقرا لها، فقال: «..فخشي عبد الملك من ضياع عرشه، وخاصة عندما رأى الجموع الغفيرة من المسلمين تحج سنويا إلى الكعبة، وكذلك عندما شعر بأن مركز ابن الزبير الديني والسياسي قد أخذ ينتشر في جميع البلاد الإسلامية، ولكي يتجنب هذه النتائج، ويُضعف مركز خصمه، خطرت في ذهنه فكرة تحويل المسلمين عن الحج إلى مكة، وجعلهم يحجون إلى القدس بدلا منها»، ولا أدري كيف استطاع لي سترانج أن يقتحم على عبد الملك عقله، فيكتشف ما فيه، ليقول إنه خطرت في ذهنه هذه الفكرة!

وينقل لي سترانج عن ياقوت الحموي توافقا وتأييدا لهذه الفكرة، ثم يقول: «فلو نجح في ذلك لأقرَّ الخليفة شعائر الحج سنويا إلى القدس، على غرار تلك التي كانت تُبَّع منذ أيام النبي في الحج إلى مكة...»، ونتيجة لعدة حوادث أخرى، لم ينجح الخليفة في

(١) يُنظر تفصيل كذبة جولدتسيهر ومصادرها مع بعض الرد عليها في كتاب: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تأليف: س. د. جواتياين، ترجمة وتحقيق الدكتور عطية القوصي، (٣٩-٥٥).

تغيير وجهة الحجاج المسلمين نحو المدينة المقدسة في فلسطين، ولم تخسر مكة مكانها كمرکز ديني في الإسلام»^(١).

ثم أخذ ينقل أكذوبة اليعقوبي في ذلك، وما دار من حوار مزعوم بين عبد الملك وبين الناس المعارضين، ويذكر أن الناس أخذوا يطوفون حول قبة الصخرة، ثم نقل عن المقدسي رؤية أخرى، جعلها سببا إضافيا لبناء قبة الصخرة، منها منافسة الكنائس العملاقة في بيت المقدس خشية افتتان المسلمين بها.

ونحا هذا النحو في تفسير السبب الباعث على بناء الصخرة المشرفة، وهو أنها بُنيت لتحويل الحج إليها، نحا هذا النحو البروفيسور كييل كريزويل، البريطاني المتخصص بالعمارة الإسلامية، في كتابه الآثار الإسلامية الأولى، واعتبره السبب الرئيسي، «لأنه يلائم تماما الوضع السياسي حينئذ»^(٢)، ثم اعتبر السبب القائل إنه بناها لأجل حماية عقول المسلمين من الافتتان بكنائس النصارى، اعتبره سببا آخر غير رئيسي.

وقال الدكتور عفيف عبد الرحمن، من جامعة اليرموك الأردنية، في مقال له بعنوان: القدس ومكانتها لدى المسلمين: «وحيثما تولى عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) منع السفر إلى مكة لتأدية فريضة الحج، بسبب سيطرة ابن الزبير فيها، وطالبهم التوجه لزيارة الصخرة المقدسة في القدس، مستندا إلى قول مشهور لأحد رواة الحديث هو الزهري، حيث ذكر أن الرسول ﷺ ساوى بين مكة والمدينة والقدس، كأماكن للحج»^(٣)، ثم ذكر أن من المؤرخين من يرفض هذا التفسير الذي نقله.

(١) تُنظر أقوال لي سترانج في كتابه فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة: محمود عمارة، (١٢٣-١٢٥).

(٢) الآثار الإسلامية الأولى، للبروفيسور البريطاني ك. كريزويل، ترجمة عبد الهادي عبلة، (٣٣-٣٤).

(٣) مقال القدس ومكانتها لدى المسلمين، وانعكاس ذلك من خلال كتب التراث، للدكتور عفيف عبد الرحمن، نُشر ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، (١/٢٣٥-٢٣٦)، وقد

ومن المؤرخين من نقل قول اليعقوبي وسبط ابن الجوزي في السبب الباعث على بناء قبة الصخرة، دون أن يتعقب هذا القول بتحقيق حول مدى صوابه، كما فعل الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في البداية والنهاية، لقد نقل الحافظ كلام سبط ابن الجوزي، وهو ذاته كلام اليعقوبي، دونما تعقُّب له؛ قال ابن كثير ناقلاً كلام سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان: «فبنى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج، ويستعطف قلوبهم، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون عندها كما يطوفون حول الكعبة»^(١)، ولم يُشر الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى من قريب أو من بعيد إلى كون هذا الذي نقله عن سبط ابن الجوزي غير ممكن حصوله على أرض الواقع أصلاً!

وقرأت لمؤرخ القدس الأستاذ عارف العارف رحمه الله تعالى في كتابه: تاريخ الحرم القدسي قوله: إن بعض المؤرخين ذهب «إلى أن الغاية من بناء مسجد الصخرة بهذا الشكل البديع، هي الاستعاضة عن الكعبة، بسبب ثورة عبد الله بن الزبير الذي ثار على الأمويين، وأعلن استقلاله في الحجاز، فأراد عبد الملك بن مروان أن يصرف الناس عن الكعبة، خشية أن يأخذهم ابن الزبير عند الحج بالبيعة، وعلى قول أنه منعهم من الحج بالمرة، واعتزم بناء مسجد الصخرة.

ومن المؤرخين من يرى أن عبد الملك بن مروان إنما بناه حتى يكون للمسلمين مسجداً يضاهي في مهائه وفخامته وسحره ما لكنائس النصارى من الروعة»^(٢).

انعقد هذا المؤتمر في الجامعة الأردنية بعمان، في الفترة بين ١٩-٢٤ نيسان ١٩٨٠م.

(١) يُنظر: البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، (٢٨١/٨)، ثم: كيف يستقيم سكوت ابن كثير هنا على دعوى سبط ابن الجوزي أن عبد الملك بن قبة الصخرة ليحج الناس إليها، والحال أن ابن كثير ذاته يرجح أن الصخرة المشرفة من بناء الوليد بن عبد الملك، لا من بناء عبد الملك؟ يُنظر البداية والنهاية لابن كثير، (١٦٥/٩).

(٢) تاريخ الحرم القدسي، لمؤرخ القدس الأستاذ عارف العارف رحمه الله تعالى، (١١-١٢).

وعلى هذا النهج سار الأستاذ العارف في كتابه (المفصل في تاريخ القدس)^(١) مع تفصيل أكثر.

قال الأستاذ عارف العارف قوله هذا، رغم أنه أهدى كتابه تاريخ الحرم القدسي الذي كتب فيه هذا الكلام إلى: «عبد الملك بن مروان: باني الحرم وموطد كيان العرب والإسلام في هذه البلاد»^(٢)، ولو صحَّ أن عبد الملك قصد من بنائه قبة الصخرة، إن كان فعلا هو الذي بناها؛ أن يحجَّ الناس إليها بدل حجهم إلى الكعبة، لكان بذلك محطماً لكيان العرب والإسلام، لا موطداً له!

إن هؤلاء جميعاً تأثروا بشكل ما، كما قد تأثر غيرهم، بما خطه قلم اليعقوبي، وكثير منهم الآن في دار الحق، ليعلم كل منهم مدى الخلل الذي يُسبب فيه بقدر ما من خلال استناده على هذه الأكذوبة، والذي تولى كبرها منهم سيلقى من الله ما لا يلقاه غيره، وأحسب أن من لم يتعمد الكذب، ولم ينطلق من سوء النية، أحسبه ناجياً إن شاء الله تعالى، والله المستعان.

هذا ولا يخلِّص المؤرِّخ من المسؤولية أن يطرح مثل هذه المسألة كما لو كانت خلافية بين المؤرخين، رغم أنها ليست كذلك، فينطلق ليقول: إن من الناس من قال إن عبد الملك قصد ببناؤه قبة الصخرة أن يطوف الناس بها لينصرفوا عن الحج إلى مكة، ومنهم من قال: إنه بناها حتى تكون في بمائها وجمالها مضاهية للكنائس الكبرى في بيت المقدس، حتى لا يفتتن الناس بهذه الكنائس، ثم يترك المسألة دونما تمحيص وبيان لوجه الحق فيها؛ أقول: إنه لا يُخلِّص المؤرِّخ المنتمي إلى الحقيقة من المسؤولية الفكرية إذا قال هذا

(١) المفصل في تاريخ القدس، لمؤرخ القدس الأستاذ عارف العارف رحمه الله تعالى، (١٠٨-١٠٩)، وللإشارة، فإن العارف بذل في كتابه: المفصل، وتاريخ الحرم القدسي، جهداً يُحمد عليه في بيان من هو باني الصخرة والأقصى، هل هو عبد الملك أو ولده الوليد، وكان الأحرى به أن يبذل مثل هذا الجهد في بيان الحق في المسألة التي نحن بصدددها.

(٢) تاريخ الحرم القدسي، لمؤرخ القدس الأستاذ عارف العارف رحمه الله تعالى، صفحة الإهداء.

الكلام، بل إن من أهم أعمال المؤرخ في مثل هذه المسائل، أن ينافح عن الحقيقة، وأن يبذل ما يملك من جهد للوصول إليها، ثم لتسيبها بحصون الحجة الثابتة والبرهان الساطع..

وفي المبحث التالي ردُّ تفصيلي على هذه الأكذوبة!

المبحث الثاني: الرد على الأكذوبة

والحمد لله الذي طهرَّ أمة الإسلام من أن يُصيب خلفاءها لَوْتُ بابوات روما أو حاخامات بابل، الذين كانوا يضيفون إلى دينهم ما يشاؤون، ولم يكن لدى أممهم روح التيقُّظ الموجودة لدى أمة الإسلام، التي لا تسمح أبداً بأي شكل من أشكال العبث بدين الله تعالى، فإن لاحت من مفسد لائحة تخريب لدين الله تعالى، قامت عليه قائمة أمة الإسلام، منكرة ومعلمة ومصححة، وربما مقاتلة!

هذا، ولقد رأيتُ من بعض المستشرقين مَنْ يحاول أن يفسر ما ادَّعى أن عبد الملك فعله لصرف الناس عن الحج من مكة إلى بيت المقدس، رأيت من هؤلاء المستشرقين مَنْ يحاول تفسير ذلك بما لا يمكن حصوله في تاريخ أمة الإسلام أبداً، فعلى سبيل المثال اعتبر كريزويل كما ذكرنا عنه قريبا، أن السبب الرئيسي الذي دعا عبد الملك إلى بناء قبة الصخرة هو صرف الناس عن الحج إلى مكة، مؤكداً أن هذا السبب: **«يلائم تماما الوضع السياسي حينئذ»**^(١)، حسب رأي كريزويل، ونقلنا قريبا كلام لي سترانج الذي يعتبر أن عبد الملك: **«لو نجح في ذلك لأقرَّ الخليفة شعائر الحج سنويا إلى القدس»**^(٢)، وينسى مثل هؤلاء أن ملاءمة الوضع السياسي لا تسمح في عرفنا الإسلامي بتغيير أصول الدين، ولو سكت البعض خوفاً أو تأمراً، لقامت قيامة الثائرين والمجاهدين!

وأحسب مثل هؤلاء المستشرقين ينطلقون في أقوالهم هذه مما رسخ في أذهانهم عن ملوكهم وبابواتهم، القادرين حسب سياقهم التاريخي والفكري على إضافة ما يشاؤون فيجعلونه جزءاً من دينهم يقهرون الناس عليه^(٣)؛ وهم يحسبون أن ملوك غيرهم

(١) الآثار الإسلامية الأولى، للبروفيسور البريطاني ك. كريزويل، ترجمة عبد الهادي عبلة، (٣٣) -

(٢) لي سترانج في كتابه فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة: محمود عمارة، (١٢٥).

(٣) يُقرأ مقال: يوحنا وراء جدران الفاتيكان، للأستاذ نبيل شبيب، نشره موقع الإسلام أون لاين،

كملوكمهم، يملكون الصلاحيات لإضافة ما يشاؤون إلى الدين؛ وهم حين يحكمون على خلفاء وملوك المسلمين بما رأوه من سلوكيات بابواهم نحو دينهم، هم في ذلك ينسَوْنَ الفروقات النفسية والفكرية بين الأمم.

ويسمى المنهاج الذي اختاره هؤلاء المستشرقون في رؤيتهم التفسيرية التي رأوها ما يُطلق عليه في علم النفس: الإسقاط، ويُعنى به في هذا العلم: أن يُسقط إنسان ما، الذي في نفسه على الآخرين، حسبنا منه أنه لا يمكن أن يكون في نفوسهم إلا ما هو في نفسه؛ وثمة إطلاق آخر يُستخدم في علم النفس أيضا ألا وهو: المجال، وهو أن يحكم إنسان على آخرين وفق النمط الفكري والحياتي والنفسي الذي يعيشه بنو قومه، وكلا الإطالقين صالح في نظري لتفسير اندفاع هؤلاء القوم نحو تأكيد اتهام عبد الملك ببناء قبة الصخرة لصرف الناس عن المسجد الحرام!

وعلم الله تعالى أننا لا ننطلق في الرد على هذه الفرية من منطلق تنزيه الخلفاء من الوقوع فيها أو فيما سواها من الانحرافات، إذ نحن نعلم يقينا ألا معصوم بعد رسول الله ﷺ.

وأنا أعلم أن من الناس من يسرعون إلى تصديق أي شيء على الخلفاء، بناء على تأسيس خاطئ ملاً نفوسهم، مداره اتهام هؤلاء الخلفاء بأنهم يضمرون السوء للإسلام،

وفي هذا المقال بين الأستاذ شبيب أن البابوات أضافوا إلى دينهم شيئا اسمه: السنّة المقدسة، أخذوا من اليهود، وهي كل سنة تتخذ رقم ٢٥ بعد ميلاد المسيح عليه السلام، وتستمر هذه الوحدات (الخمسعشرينية!) إلى الأبد، وعليه، فالسنة الخمسون مقدسة، والخامسة والسبعون والمائة والخامسة والعشرون، وهكذا، وكان أول ما احتفلت الكنيسة بسنة مقدسة عام ١٣٠٠م، في عهد البابا يونيفاس الثامن، وحول مكانة البابا كرجل له سلطة في إيجاد تعديلات في عقيدة النصارى، حول ذلك يقول شبيب: «ومع اكتمال عملية الانتخاب يكتسب البابا صفة معصوم عن الخطأ، وتصل صلاحياته إلى إدخال تعديلات في صميم المعتقدات الكنسية».

وأنا أعذر بعض هؤلاء الناس ممن ينطقون بهذه التهم، فمماذج الحكام في عصرنا تجعلهم يسحبون حكمهم على حكام العصر، ليشمل خلفاء المسلمين في العصور الغابرة.

وإنني أود أن أنتهز هذه الفرصة لأقول: إذا كان ادّعاء نزاهة هؤلاء الخلفاء ضلالاً أو خروجاً على الموضوعية، فإن الإسراع إلى تصديق كل ما يُنسب إليهم، مجرد أن ينطق به أي ناطق، هو أيضاً ضلال وخروج على الموضوعية، فكما لا يصح تزيتهم، فكذلك لا يصح التحامل عليهم، والإنصاف عنوان القضاء!

وعودةً إلى اليعقوبي..

فلقد تبين لنا تماماً أن ما ادّعاه هو وسبط ابن الجوزي يقع خارج نطاق الحق والصدق وأصول البحث العلمي القائمة على النزاهة والموضوعية، وهذه أدلتنا على ما نقول:

١- إنه يكفينا للحكم على بطلان هذه الدعوى، أن صاحبها أفحمها في كتابه دون إسناد، فكما رأينا، لم يذكر إسناداً، ورجائي من القارئ الكريم أن يرجع إلى تاريخ اليعقوبي في الموطن الذي أشرت إليه ليرى مصداق ما أقول؛ هذا، ولم يذكر هذه الدعوى قبله أحد من المؤرخين، ولم يذكرها مؤرخ من المؤرخين بعده بإسناد، وإنما اعتمدوا على اليعقوبي في دعواه؛ وما دامت الدعوى بلا إسناد، فهي بلا دليل، لأن الإسناد هو الدليل، فكيف نأخذ بما في هذا الأمر الخطير وهي لم تمتلك دليلاً من إسناد صحيح أو ضعيف؟!

إن مثل هذه الدعوى تسمى في الفقه والقانون: دعوى بلا دليل، ولو لم أقل شيئاً بعد هذا الكلام، لكان فقدان الدليل كافياً في سقوط الدعوى، ومع ذلك، سأواصل ذكر ما يدل في تقديري على كذب هذه الدعوى.

٢- إن اليعقوبي وسبط ابن الجوزي يدّعيان أن عبد الملك بنى القبة على الصخرة ليصرف الناس عن الحج إلى مكة، بسبب الصراع بين عبد الملك وابن الزبير، وهذه دعوى ساقطة، ليس لها في باب الحجّة من مدخل، كما قد رأينا، بل إن القرّان تنفي إمكانية

تصديقها..

ذلك أن الباحث مهما كان قاصراً في البحث، فسوف يكشف أن مثل هذا الأمر لو حصل، فسوف يكون معروفاً للخاصة والعامّة، ولن يختبئ في قصور الحكام أو في أدراجهم، ولو كان هذا التوجه المنسوب إلى عبد الملك صحيحاً، لقام منتقدوه يفضحونه ويشنعون عليه بسبب ما قدّمت يدها، ذلك أن منتقدي عبد الملك في عصره وبعد عصره كُثُر، فلو كان قد بنى قبة الصخرة ليحج إليها الناس عوضاً عن الكعبة لقاموا بفضحه، ولأسقطوا حكمه إن استطاعوا، ولثاروا عليه على الأقل، إذ إنه انتهاك لما رسخ عند العرب قبل الإسلام وبعده، أن الحج لا يكون إلا إلى مكة المكرمة؛ وما لم يحصل مثل هذا النقد أبداً في مثل أمتنا الحية، ولم يقم أعداء عبد الملك حين كانوا يذكرون مساوئه، بذكر تحويل الحج إلى القدس ضمن ما ذكروا من مساوئه، فإن هذا قرينة على بطلان الدعوى؛ وكيف تكون صحيحة، ولم يدّعها أحد قبل اليعقوبي المتوفى بعد عبد الملك بأكثر من قرنين من الزمان، أي سنة ٢٩٢هـ.

ولو صدقت هذه الدعوى، لقام منتقدو بني أمية، وهم أكثر من الشيعة والخوارج والزبيريين وغيرهم، ولوجدوا أكثر ما يعينهم على إسقاط عبد الملك أن ينفخوا في هذا البوق الصارخ، ليعلنوا لملاّ المسلمين أن عبد الملك خرج من الإسلام، بسبب إلغائه الحج إلى مكة، وبسبب تشريعه حجاً جديداً آخر، لكن إلى بيت المقدس! لا يقال إنهم كانوا خائفين منه مما منعهم من الثورة عليه، ذلك أنهم كانوا ثائرين عليه حقيقة، ولو خافوا منه، ما ثاروا لأقل من هذا السبب المدّعى؛ والثائر دائماً يبحث عن أسباب تبرر ثورته، ولو فعل عبد الملك ما نسب إليه اليعقوبي، لكان ما نُسب إليه أعظم مبررات ثورتهم عليه.

ثم لو صح هذا الإسفاف، لرأيت الشعراء أكثر من يفضحه^(١)، فالشعراء وما أدراك

(١) وجودنا الحضاري في بيت المقدس، للدكتور أحمد فهميم جبر، (٣١).

ما الشعراء، لا يحسنون الصمت في حال صمت الناس، حبا في الحق، أو نقمة من الباطل، أو انتقاما من الأغيار، أو اتباعا للهوى! وما دام الشعراء صامتين عن هذا اللغو، فهو دالٌّ قطعا على عدم حصوله، بل إن الأمر لدى بعض الشعراء من أهل النفاق سيتجاوز إلى ادّعاء أن ما فعله عبد الملك، إن كان قد فعله حقا، إنما هو الصواب، فيقومون يُثنون عليه أنه جعل الحج إلى بيت المقدس بدل مكة، نفاقا منهم له؛ فيفضحونه من حيث يقصدون تمجيده، ولم نرَ أو نسمع من فعل ذلك في عهد عبد الملك ولا فيما بعده من العهود، حتى جاء الكذاب اليعقوبي، ودسَّ هذا السمَّ الذي يملك البحث العلمي ترياقا شافيا يمنع شروره!

وحتى لا يتَّهم أحدٌ شعراءَ عصر بني أمية بالخوف عموما من عبد الملك، فلا بد من تبين أنه تعرض منهم لانتقادات وتهجمات شديدة للغاية، ولكن في مسائل أخرى غير هذه المسألة، ولو كانوا خائفين لَسكتوا عن تهجماتهم تلك، ولو كان عبد الملك بنى قبة الصخرة فعلا لَصرَّف الناس عن الحج نحو الكعبة إلى المسجد الأقصى، لكانت هذه الفعلة الشنعاء مادَّة هجائية كافية لهم ضد عبد الملك.

لقد رأينا من شَنع على عبد الملك تشنعا شديدا من شعراء الزبيريين، كعبيد الله بن قيس الرُّقيّات، فقد قال هذا الشاعر الشهير^(١):

كيف نومي على الفراش ولمّا	تشمل الشام غارة شعواءُ
تُذهل الشيخ عن بنيه وتُبدي	عن بُراها ^(٢) العقيلة العذراءُ
أنا عنكم بني أمية مُزوَّ	رُّ وأنتم في نفسي الأعداءُ

(١) أخذنا هذا الشعر ومعاني مفرداته التي بالهامش من كتاب: العصر الإسلامي، للدكتور شوقي

ضيف، (٢٩٧).

(٢) بُراها: خلاخيل المرأة، كناية عما يصبن به من الفرع الشديد.

إن قَتَلِي بِالطَّفِّ^(١) قد أوجعتني كان منكم لئن قَتَلْتُمْ شِفاءً

إن شاعرا كهذا لو عَلِمَ أن عبد الملك بن قبة الصخرة ليحوّل حج الناس إليها بدل مكة، لكان قد وقع على صيد نفيس يُغنيه عن كل ما به يشنع على عبد الملك وبني أمية!

ولو كان هذا صحيحا، لكان من أهم أسلحة الدعوة العباسية ضد بني أمية أن يقول العباسيون: إن بني أمية حوّلوا الحج إلى القدس، وأن العباسيين سيُرجعون الحج إلى مكة! ولم يحصل ذلك أبدا، أفترى اليعقوبي عرف ما لم يعرف جميع محبي ومبغضي عبد الملك طوال قرنين، حتى جاء هو فكشفه؟ فأين دليله إذن؟ لقد بينّا أنه لم يذكر إسنادا ولا دليلا، وفي هذا كفاية.

٣- يُرَجِّح بعض الباحثين أن الوليد بن عبد الملك هو باني الصخرة المشرفة، وليس عبد الملك بن مروان، مستندين على ما قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه، المعروفة بمقدمة ابن خلدون: «وحضر عمر لفتح بيت المقدس، وسأل عن الصخرة فأري مكانها،...، ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الإسلام...»^(٢)، وذكر ابن الأثير من أعمال الوليد قوله: «بني المساجد، مسجد دمشق، ومسجد المدينة على ساكنها الصلاة والسلام، والمسجد الأقصى...»^(٣)، وقال ابن كثير: «بني الوليد الجامع (أي جامع دمشق)،...، وبني صخرة بيت المقدس، عقد عليها القبة، وبني مسجد النبي ﷺ»^(٤)، ويؤكد هذا الترجيح الأستاذ محمد محمد حسن

(١) الطّفّ: مكان في الكوفة، حصلت فيه وقعة كربلاء.

(٢) تاريخ ابن خلدون، (٤٤٣/١)، وهذا الجزء الأول هو نفسه المعروف بمقدمة ابن خلدون.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير، (١٣٧/٤).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير، (١٦٥/٩)، أرجو أن يلتفت القارئ الكريم إلى أن هذه العبارات من هؤلاء المؤرخين ليست واضحة في أن الوليد هو باني قبة الصخرة، إلا ما يُرى من كلام ابن كثير، فهو وحده الواضح في هذه المسألة، رغم أنه مناقض تماما لقوله هو (أي ابن كثير) حيث قال في البداية

شُرَّاب، ومن كتابه: بيت المقدس والمسجد الأقصى عرفنا آراء ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون.

وفي كتاب فن الحرب الإسلامي^(١) للأستاذ المؤرخ العسكري الكبير بسام العسلي: **«وتجدر الإشارة إلى أن بناء قبة الصخرة قد حدث في وقت واحد مع بناء المسجد الأموي بدمشق سنة ٨٧هـ»**، مما يعني أن الأستاذ العسلي وهو مؤرخ عسكري سوري يرى أن بناء القبة على الصخرة تمَّ في عهد الوليد بن عبد الملك، لا في عهد عبد الملك.

كذلك نقل أبو الفداء في كتابه تقويم البلدان^(٢) عن كتاب العزيزي لمؤلفه الحسن بن أحمد المهلي قوله: **«إن الوليد بن عبد الملك لما بنى القبة على الصخرة ببيت المقدس، بنى أيضا هناك عدة قباب، وسمى كل واحدة منها باسم..»**.

وأنا لا أملك الآن حجة واضحة فيمن بنى قبة الصخرة المشرفة، وأرى كثيرا من المؤرخين، بل ربما أكثر من قرأت لهم منهم، يجعلون الخليفة عبد الملك هو باني قبة الصخرة المشرفة؛ ولكن نستطيع أن نستأنس لقول الأستاذ شُرَّاب، وربما أن نقوي قوله، بأن بناء الصخرة إن كان بدأ عام ٦٦هـ، فإن ميزانية الدولة حينها لا يمكن أن تكفي، بسبب انشغالها بحالة الحرب مع الزبيريين والخوارج والروم، وخاصة أن ما بيدها من البلاد هي الشام ومصر فقط، لأن الحجاز واليمن وثلثي العراق كانت بيد

والنهاية، (٢٨٠/٨): **«ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس، وجّه إليه بالأموال والعمال، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل إليه بالأموال الكثيرة الجزيلة، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يُفرغا الأموال إفراغا ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، فبنوا القبة فجاءت من أحسن البناء...، ولم يكن يومئذ على وجه الأرض بناء أحسن ولا أهدى من قبة صخرة بيت المقدس»**.

(١) فن الحرب الإسلامي، للأستاذ المؤرخ العسكري بسام العسلي، (٢٦٧/٥).

(٢) تقويم البلدان لأبي الفداء، نقلا عن: فن الحرب الإسلامي، للأستاذ المؤرخ العسكري بسام

العسلي، (٢٦٧/٥).

عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما^(١)، وكانت الشام قد خرجت قريبا منذ أشهر قليلة فقط، من اضطرابات كادت أن تودي بالبيت الأموي برُمته، فكيف يتسنى لقبه الصخرة التي احتاجت حسب الروايات التاريخية إلى خراج مصر لسبع سنين، كيف تسنى بناؤها، والحال كما وصفنا، والدولة في حاجة كبيرة إلى مصاريف تلك الحروب التي كانت تقودها؟

إن في هذا ما يُستأنس به للقول: إن الوليد هو باني قبة الصخرة المشرفة، خاصة أن الثورات التي كادت تودي بالأمويين، كانت قد ذهبت مع الزمان!

٤- لم يكن هنالك من داعٍ إلى بناءٍ يقوم مقام الكعبة ليُحجَّ إليه، إذ لم يكن الحج ممنوعا على أحد، بل قال شيخ المؤرخين ابن جرير الطبري في أحداث سنة ٦٨ هجرية من تاريخه المشهور: «وفي هذه السنة، وافت عرفات أربعة ألوية»، ثم روى عن شُرحبيل بن أبي عون عن أبيه قوله: «وقفت في سنة ثمان وستين بعرفات أربعة ألوية: ابن الحنفية في أصحابه في لواء قام عند جبل المشاة، وابن الزبير في لواء، فقام مقام الإمام اليوم، ثم تقدم ابن الحنفية بأصحابه، حتى وقفوا حذاء ابن الزبير؛ ونجدة الحروري

(١) الأمويون بين الشرق والغرب، للدكتور محمد السيد الوكيل، (١/٣٢٩)، وينقل الدكتور السيد الوكيل في كتابه المذكور، (١/٣٣٠-٣٣١) عن مروج الذهب للمسعودي، (٣/١٠٥) قوله: «كان عبد الملك بن مروان سار في جيوش أهل الشام، فترل بطنان، ينتظر ما يكون من أمر ابن زياد، فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه، وهزيمة الجيش بالليل، وأتاه في تلك الليلة خبر مقتل حبش بن دُلجة، وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير، ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير، ومسير مصعب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين، ثم جاءه مسير ملك الروم لاوي بن فلنط ونزوله المصيصة يريد الشام، ثم جاءه خبر دمشق، وأن عبيدها وأوباشها ودُعَّارها قد خرجوا على أهلها، ونزلوا الجبل، ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرين، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبلبلق والبقاع، وغير ذلك مما نعى إليه من المُفْطعات في تلك الليلة، فلم يُرَ عبد الملك في ليلة قبلها أشد ضحكا ولا أحسن وجهًا، ولا أبسط لسانًا، ولا أثبت جنانًا، منه تلك الليلة، تجلدا وسياسة للملك».

خلفهما، ولواء بني أمية عن يسارهما..»^(١)، ثم ذكر ابن جرير جولة قام بها محمد بن جبير بين أصحاب هذه الألوية، وما كان كل منهم يخافه من قتال الآخر له، فأعطى كل منهم العهد ألا يقاتل أحداً إلا من قاتله، مما يعني تمام الحج بسلام، وكلٌّ تحت اللواء الذي هو تحته، قال ابن كثير: «وتحاجز الناس في هذا العام، فلم يكن بينهم قتال»^(٢)، قال الأستاذ المحقق والمؤرخ الفلسطيني محمد محمد حسن شرّاب: «فهذا يدل على أن بني أمية كانوا في الحج، وأن أهل الشام قد حجوا، ولم يُحصر أحد عن منسك من المناسك»^(٣).

٥- ثم لا يمكن أن تكون قبة الصخرة مكاناً صالحاً للطواف، تقول والمؤرخة البريطانية كارين أرمسترونج: «واحتمال صحة هذا القول ضئيلة، فممرات القبة شديدة الضيق، بحيث لا تسمح بأداء شعيرة الطواف المعقدة، بالإضافة أنه لو كان هدف الخليفة استبدال مكة لصار الأمر أكثر يسراً لو أنه شيد بناءً يماثل الكعبة، بدلاً من تجشم تصميم تلك القبة المعقدة»^(٤)، فلو كان عبد الملك بنى قبة الصخرة، إن كان هو بانيها، لأجل أن تحل محل الكعبة المشرفة في الحج، وكما ادّعى اليعقوبي أن الناس طافوا حولها، فإن حالة القبة لا تصلح لهذا الأمر، وهذا مشاهد لكل من عرف قبة الصخرة المشرفة.

٦- في سياق كلام اليعقوبي الذي نقلناه اتماماً لذلك الجليل الخيّر من أجيال الأمة بالسداجة العجيبة، فليس من السهولة أبداً أن يُقنع عبد الملك أو من سواه الأمة بتحويل الحج

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري، (٦/١٣٨-١٣٩).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، (٨/٢٩٥)، وكان ابن كثير قد ذكر قبل ذلك ما نقلته عن ابن جرير من وقوف الألوية الأربعة على جبل عرفات، (٨/٢٩٤).

(٣) بيت المقدس والمسجد الأقصى، للمؤرخ العربي الفلسطيني محمد محمد حسن شرّاب، (٣٥٩)، ومن هذا الكتاب تعرفت على ما كان من حج ذلك العام، فرجعتُ إلى مصادره فنقلت عنها ما قرأه القارئ، والتي لم يذكرها الأستاذ، وإنما ذكر فحوها.

(٤) كارين أرمسترونج في كتابها: القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، (٤٠٤).

من الكعبة إلى الصخرة، هكذا دونما ثورة تقوم بها الأمة، ولقد قامت في عهده وفي عهود سبقته وعهود لحقته من عهود الأمويين ثورات لمشاكل أقل شأنًا قضت عليها الخلافة الأموية؛ وكمثال: ثورة الحسين عليه السلام، وثورة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما؛ وكذلك ثورتا ابن الأشعث وسعيد بن جبير في عهد عبد الملك ضدَّ رجله وقائده القوي الحجاج بن يوسف الثقفي، وهي بمعنى من المعاني: ضد عبد الملك نفسه؛ والسؤال: أيمكن أن تقوم هذه الثورات مجرد تولى يزيد الخلافة، أو مجرد ظلم الحجاج الحاكم باسم عبد الملك، ولا تقوم الثورة لتغيير الدين نفسه؟!!

إن الخليفة عبد الملك لو فعل ذلك حقاً، «لُوصف بالكفر، ولحلَّ قتاله، بل لأصبحت مجاهدته فرضاً واجبا على المسلمين»^(١)، فهل نفَّذ المسلمون مثل هذه الفريضة ضده، والحال أنهم ثاروا ضده لأقل من ذلك؟!!

إن من يحكم على الأمة في ذلك الجليل بهذا الحكم، لا يستطيع أبداً أن يُفسّر هذه الثورات التي اشتعلت إلا على وجه من وجوه العبيثية المتناقضة مع فلسفة التاريخ نفسه، وهو ما فعله اليعقوبي، العالم بتلك الثورات، المدّعي في الوقت ذاته أن تغييراً للدين وارتكاباً للكفر البواح، لم يُحرِّك ثورة، إذ لم ينقل هو أو غيره شيئاً كهذا؛ رغم تحرّك الثورات لأمر أقل شأنًا بكثير!

إن الحس الإسلامي في ذلك الزمان، لا يمكن أن يقبل حصول ذلك أبداً.

٧- ثم إن هذا الحوار الذي ادّعى اليعقوبي أنه جرى بين الأمة وبين عبد الملك، لا يمكن أن يحصل في الأمة في حالات أهياراتها النفسية والفكرية، فكيف يدّعي اليعقوبي حصوله، وفي الأمة حينها عمالقة كبار كانت الشام قد نالت منهم حظاً وافراً؟!!

٨- والحوار الذي أقصده هنا، هو ما ادّعاه اليعقوبي على لسان عبد الملك بينه وبين من الناس من محاولة إقناعهم ببناء قبة الصخرة والحج إليها بدل مكة، وقد نقلته عن

(١) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (٥٥).

اليعقوبي في أول استعراضه لهذه الأكلوبة، وفيه يُخبر عبد الملك الناس أن الزهري حدّثه بمحدث شدّ الرحال؛ إن هذا الحوار المدّعى ينبغي أن يكون قد حصل في عام ٦٦هـ، إذا صح أن عبد الملك هو باني قبة الصخرة، إذ إن بناءها حسب هذا القول بدأ عام ٦٦هـ، وحينها كان محمد بن شهاب الزهري ابن خمسة عشر عاما، لأنه وُلد سنة ٥١هـ، ولا يمكن أن يكون الزهري حينها عمدة عند أهل الشام، وهو مدني لم يكن قد عرف الشام وأهله بعد، ولم يكونوا قد عرفوه، بل إن أهل المدينة أنفسهم لم يكونوا قد عرفوه بعد وهو منهم ويعيش بينهم؛ ولا يمكن أن يكون الزهري حينها عمدة عند أهل الشام، وهو غير معروف في بلده، وهو بعد فتى صغير يطلب العلم، فكيف يحتج عبد الملك بالزهريّ والزهريّ صغير غير معروف، فضلا عن أن يكون عمدة؟!!

إن من الكلام ما يحمل دليل كذب قائله في حروفه وبين حناياه!

٩- وأعود إلى نص اليعقوبي كما ذكرته مرة أخرى، يقول اليعقوبي: «ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة، فضج الناس»، والسؤال: أَيْضِحَّ الناس لمنعهم من الحج، ولا يضجون لتحويل الحج إلى القدس، فما دام هذا النفس الإسلامي الرافض لذلك القهر موجودا مجرد منع مدّعى للحج بسبب اضطرابات هائلة أيامها، أفيرضى هؤلاء الضاجون بتحويل الحج إلى بيت المقدس، رغم أنه كفر بواح، في الوقت الذي لم يرضوا فيه بمنع الحج؟! «وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا، فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله ﷺ قال: لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام؛ وهذه الصخرة التي يُروى أن رسول الله ﷺ وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة، وعلق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأخذ

الناس بأن يطوفوا حولها، كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيام بني أمية^(١)!! وهل أطاعه أهل الشام فحجوا إلى الصخرة، وهل استمر الأمر إلى نهاية الحكم الأموي؟ إن علماء الأمة كانوا أكثر يقظة من مثل هذا الاتهام لها بالصمت على منكر هو والكفر قرينان.

ثم إنه يذكر أن الحج استمر طيلة عهد بني أمية إلى بيت المقدس بدل مكة، فماذا إذن كان موقف الخليفة الراشدي الأموي عمر بن عبد العزيز؟ وهو قد جاء بعد عبد الملك، فهل حجَّ إلى قبة الصخرة أيضا؟!

إن أحدا لم ينقل شيئا كهذا، ولو كان هذا صحيحا، لقام عمر بن عبد العزيز بجهاده حينما تولى الخلافة وأزال ظلمات سابقه!

١٠- لم ينقل لنا المؤرخون اسم ذلك الخليفة العباسي الذي أرجع الحج إلى مكة، فاليقوي يذكر أن الحج استمر طيلة العهد الأموي إلى القدس، فمن ذا أعاده من العباسيين إلى مكة؟ الجواب: لم يذكر التاريخ أي شيء من ذلك، والسبب هو أن الحج بقي أصلا إلى مكة، ولم يُحوَّل لحظة واحدة إلى غيرها، ومثل هذه الطامات لو حصلت، لاشتهرت أيما شهرة، ولقامت لأجلها ثورات، كانت تكفي لقيامها أبسط الأسباب، ولكان يكفي الدعوة العباسية الراضية لولاية بني أمية أن تُحرِّض المسلمين ضد بني أمية دون أن يستخدموا لهم حجة إلا حجة واحدة، هي دعوى تحويل الحج من الكعبة إلى بيت المقدس، ولو كان هذا حصل فعلا، لكان الوصف الذي يستحقه أول خليفة عباسي يعيد الحج إلى الكعبة أنه ناصر السنة وقامع البدعة، ومُحرِّر الدين من أوهام الأمويين، ومُعِيد الحج إلى الكعبة المشرفة، ولاستحق بذلك شرعية بين المسلمين تزوي أمامها كل دعاوى

(١) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب، المعروف بابن واضح الأخباري، تعليق: محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحديثة ومطبعتها في النجف، ١٩٦٤م، (٨/٣).

الشرعية!

ومن اللافت للنظر هنا، بل مما يُستغرب له، أن المستشرق اليهودي إسحاق حسون، محقق كتاب فضائل البيت المُقدَّس للواسطي، رفض هذه الدعوى، ولا أحسبه رفضها اتباعاً منه لمنهج الإنصاف، بل لأن طرقات الردود الساخنة بل الحارقة التي انهمرت عليها حتى من قبل بعض المستشرقين، خوِّفته من الالتفاح بحرِّها، ويذكر القارئ الكريم أننا في أوائل هذا البحث، خضنا معركة حامية الوطيس مع هذا المستشرق، الذي رفض نسبة فضائل بيت المقدس إلى الإسلام، وأصر على انتسابها إلى اليهودية، فأثى له اتباع منهج الإنصاف هنا، وهو هناك كان متبعاً هواه اليهودي؟!!

١١ - وأخيراً ننقل ما قاله الدكتور محمود إبراهيم، في الكشف عن الدافع الذي جعل اليعقوبي يفترى هذه الفرية، التي أفرحت بني يهود؛ يقول الدكتور محمود إبراهيم رحمه الله: «ولا نشك في أن تشييع اليعقوبي الصريح، هو الذي دفعه إلى محاولة تشويه سمعة الأمويين»^(١)، وقصة الشيعة مع الصحابة، وبغضهم لأبي بكر وعمر وعثمان، وبدعهم الكثيرة التي أرهقت العقل المسلم، وقتلهم المرير لدول الإسلام على مدار التاريخ؛ إن كل ذلك يسهل على نفس اليعقوبي تدفق الكذب عبر فمه بلا ضوابط.

(١) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (٥٧).

الفصل الثالث: منزلة بيت المقدس عند العباسيين

يحاول فريق من المستشرقين أن يوهموا قارئهم أن بيت المقدس خاضعة في منزلتها لطبيعة النظام أو الدولة التي تحكم المسلمين، وهم يدعون أن الخطوة التي نالتها المدينة المقدسة ابتدأت بالأمويين، وأنها فقدت حظوتها عند العباسيين، بل إن فريقاً منهم يقول: إن مكانتها ما نشأت في الإسلام إلا في العهد الأموي، وصاحب هذا القول يريد أن يوحي أن مكانة بيت المقدس طرأت في الإسلام بعد أن لم تكن.

وكنا تناولنا في الفصل الأول من الباب الثاني مسألة تأسيس مكانة بيت المقدس في العهد النبوي، وتبين لنا أن المكانة المقدسة للمدينة المباركة نشأت عند المسلمين في العهد المكي النبوي تحديداً، قبل الهجرة النبوية الكريمة إلى المدينة المنورة؛ وعليه، فلا حاجة بنا إلى إعادة شيء مما قررناه هنالك، مما يكفينا في الرد على دعاوى النشوء المتأخر لقدسيتها بيت المقدس ومكانتها في الإسلام.

وحدثنا في هذا الفصل قاصر في بيان منزلة بيت المقدس عند العباسيين، والهدف من طرح المستشرقين لفقدان هذه المدينة مكانتها في العهد العباسي، هو أنهم يريدون تأكيد ما يدعون أنه الدور الأموي في إنشاء مكانة بيت المقدس، المدفوع برأيهم بدوافع سياسية، تمتها صراعات شتى بين الأمويين وغيرهم، اقتضاها، حسب هذا القرار الاستشراقي، إلى تأسيس مكانة خاصة لبيت المقدس، وكنا في الفصل الماضي رددنا على فريق من المستشرقين دعواهم أن بناء قبة الصخرة جاء على خلفية هذه الصراعات بين المسلمين، هذه الخلفية التي انعكست على قرار أموي مدعى، يهدف إلى صرف الناس عن الحج إلى مكة، وتحويلهم إلى بيت المقدس.

قال المستشرق اليهودي إسحاق حسون في تقديمه لكتاب فضائل البيت المقدس للواسطي: «ولم يُولِ العباسيون الشامَ عامة، وبيت المقدس خاصة عنايتهم، فهذا أبو جعفر

المنصور^(١)، ثاني خلفاء بني العباس، يرفض تخصيص شيء من المال لعمارة المسجد الأقصى، الذي تهدم في الزلزال الذي وقع سنة ١٣٠ للهجرة، ويأمر بقلع صفائح الذهب والفضة، التي كانت على أبواب المسجد، لسد نفقة إعادة عمارته^(٢)، ويستند حسون في حكمه الذي نطق به، على رواية وردت في كتاب فضائل البيت المقدس للواسطي، وهي التالية:

(١) وتحمل هذه الفكرة عن العباسيين كارين أرمسترونج، لكنها إذ تدافع عن تصرف المنصور المتهم عند المستشرق (اليهودي!) حسون في تفضيله أن يُذاب الذهب والفضة عن أبواب الأقصى بقولها إنه لا يريد البذخ كالأمويين؛ إنها إذ تفعل ذلك فهي في الوقت ذاته تجعل هارون الرشيد، بل من بعده من خلفاء بني العباس متراجعين في اهتمامهم ببيت المقدس، فهي تقول: «وكان العباسيون قد بدأوا في تحرير أنفسهم من المدينة المقدسة التي كانت ذات أهمية قصوى لدى الأمويين...، وكان هارون الرشيد شخصا نائيا غير محبوب بالنسبة لأهل بيت المقدس»، رغم أنها قبل صفحات قالت: «ولم يُرد العباسيون إهمال الحرم، إلا أنهم رفضوا تجميله ببذخ مثل الأمويين»، ثم، لا تُعلم دقة نقلها عن هارون الرشيد، ولا يصلح مثل هذا الحكم على رجل كان يقضي أعوامه بين غزو وجهاد، وهي لم تنقل فعلا ما فعله الرشيد له دلالة على ما تقول، وهي لم تُسند قولها هذا إلى مرجع يمكن الاستناد عليه؛ رغم أنها نفسها تذكر بعد بضع صفحات أن المأمون بن هارون الرشيد أمر ببدء أعمال تشييد في الأقصى، وأنه صك عملات جديدة تحمل اسم القدس، وإن كانت تفسر الأمر على وجه يُخرجه عن الاهتمام الحقيقي بالقدس؛ جاء كلامها هذا أثناء عرضها لما تراه من تراجع عناية الرشيد بل العباسيين بعده بالقدس، وفي كلامها ما يجعل الأقصى يشكل ثقلا على العباسيين، ونحن لا يضيرنا إن صحت رؤيتها أو لم تصح، فقدسية القدس عندنا نابعة من النصوص لا من مواقف الحكام، والبحث في الموضوع يطول جدا؛ يُنظر قول أرمسترونج حول عدم إهمال العباسيين للحرم، كتابها: القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، (٤١٢)، وحول هارون الرشيد ورؤيتها لموقفه من بيت المقدس كتابها المذكور، (٤١٩)، وحول المأمون وإصلاحاته كتابها نفسه، (٤٢٣)، وحول بعض أعمال التشييد في المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وحول إصدار نقد يحمل اسم بيت المقدس في عهد المأمون، يُنظر: تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، للدكتور إحسان عباس، (١٢٩-١٣٠).

(٢) من تقديم إسحاق حسون المستشرق اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس) للواسطي، (٣٠).

قال الواسطي: حدثنا عمر، نا أبي، [قال حدثنا الوليد قال ثنا عبد الرحمن بن محمد بن منصور بن ثابت، قال حدثني أبي] عن أبيه عن جده أن الأبواب كانت ملبسة ذهباً وفضة...، فلما قدم أبو جعفر، وكان شرقي المسجد وغربه قد وقع، فرُفِعَ إليه: يا أمير المؤمنين، قد وقع شرقي المسجد وغربه، وكانت الرجفة سنة ثلاثين ومائة، فقالوا له: لو أمرتَ ببناء بيت المسجد وعمارته، فقال: ما عندي شيء من المال، فأمر بقلع الصفائح الفضة والذهب التي على الأبواب، فضُربت دنانير ودراهم، وأنفق عليها، فلما فرغ منه كانت الرجفة الثانية، فوقع البناء الذي أمر به أبو جعفر، ثم قدم المهدي من بعد وهو خراب، فأمر ببنائه، فرفع ذلك إليه، فقال: دَقَّ هذا المسجدُ وطالَ، وخلا من الرجال، أنقصوا من طوله وزيدوا من عرضه، فتمَّ البناء في خلافته^(١)، على هذه الرواية اعتمد المستشرق حسون في دعواه أن العباسيين لم يُؤلِّوا بيت المقدس عنايتهم، ليؤكد فيما أحسب: فكرته أن مكانة بيت المقدس في الإسلام غير أصيلة..

وأنا والله لا أرى في تصرفات ومواقف الخلفاء العباسيين والأمويين والعثمانيين عصمة، بل هي عندي وعند كل مسلم واقعة تحت ميزان النقد القرآني، فما وافق القرآن من مواقفهم وافقناهم عليه، وما خالف القرآن منها خاصمناه إلى يوم الدين؛ ولكنني في الوقت ذاته لست أَرْضَى بمن يسرع إلى إساءة الظن بهم أو بغيرهم من المسلمين، فأحمل عليهم حملة جارفة تُخليهم من كل خير ربما يفعلونه، فغير المعصوم شرعاً، ليس بالضرورة أن يكون عاصياً، كما هو حالنا نحن، فلنا معصومين، لكن عدم عصمتنا لا يعني أن نُحمَّل من الأخطاء ما لم يقع منا، فالإنصاف هو الأصل، والإجحاف لسنا نرضاه..

(١) فضائل البيت المقدس، لأبي بكر محمد بن أحمد الواسطي، تحقيق: إسحاق حسون، (٨٣-٨٤)، ويُنظر هذا الجواب من أبي جعفر المنصور أيضاً في كتاب: فضائل بيت المقدس، لأبي المعالي المشرف بن المرجى، (٧٦-٧٧)، وكذلك كتاب: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، للشيخ مجير الدين الحنبلي العُلَيْمي، (٤١٣/١)، ولقد حقق هذا الجزء الأستاذ عدنان يونس أبو تيانة.

ونحن لا نضيرنا في مقام بيت المقدس في الإسلام أن يقول أبو جعفر المنصور أو سواه ما يقول حول هذه المكانة، وفي النهاية: فليس مصدر قدسية القدس عندنا موقف فلان من الخلفاء أو فلان، وإنما مصدر هذه القدسية هو ما جاء في الدين نفسه، من بيان لمقامها الشريف وقدسيتها الرفيعة، ثم فليفعل الحكام والخلفاء ما شاؤوا، فنصوص الحديث والقرآن أحب إلينا مما يفعله أهل السلطان.

ثم بعد هذا الطرح لهذه الرؤية التي لا أحسب أنني أجد من يخالفني فيها، وبعد عرض كلام المستشرق اليهودي حسون، فإنني أود أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى ما يلي:

إن حسون قال: إن أبا جعفر رفض تخصيص شيء من المال لعمارة المسجد، وإن الرواية التي استند عليها، بغض النظر عن قدرتها على الثبات تحت ميزان النقد، هذه الرواية تقول: إن أبا جعفر قال: ما عندي شيء من المال، فهل العبارتان متساويتان؟ وهل الحكم الذي أصدره على أبي جعفر المنصور يتناغم مع ما قاله المنصور؟ وهل ما قاله أبو جعفر هو نفسه ما نسبه إليه المستشرق إسحاق حسون؟!

إن أبا جعفر قال: ما عندي شيء من المال، وإن المستشرق اليهودي نسب إليه رفض العمل على عمارة المسجد، فهل من يقول: ليس عندي شيء من المال لعمارة المسجد، كمن يقول: أرفض أن أعمر المسجد؟! اللهم لا، فشتان بين من يقول: لا أملك، وبين من يقول: لا أريد!

إن أبا جعفر^(١) لم يمتنع عن الترميم، بل أمر به، وإلا كان بإمكانه أن يضرب صفائح الذهب والفضة التي على أبواب المسجد دنانير ودراهم ليودعها في خزانة دولته^(١)، غير أن عيون المستشرقين قاصرة عن الرؤية في كثير من الأحوال، كحال حسون هنا!

وكان بإمكان المستشرق حسون أن يبحث في مدى مصداقية دعوى أبي جعفر المنصور أنه لا يجد عنده شيئاً من المال، فيُنظر: إن كان عنده شيء من المال يكفي لهذا

(١) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم، (٥٩).

المشروع الجليل، ولا تحتاج إليه الدولة في مهمات الأمور، فحينها لا يكون أبو جعفر صادقا في دعواه؛ وأما إن كان الأمر كما قال، وتبين أن خزينة الدولة مشغولة بكثير من الأمور، التي قد تؤخر الدولة نفسها عن القيام بواجباتها في حال الصرف على عمارة المسجد، فحينها يكون أبو جعفر صادقا..

وألفت النظر إلى أن الرواية التي اعتمد عليها المستشرق حسون، تقول: إن الزلزال ضرب المسجد الأقصى عام ١٣٠هـ، أي في عهد الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد، واللافت أن أبا جعفر المنصور تولى الخلافة عام ١٣٦هـ، أي بعد ستة أعوام من الزلزال الذي ضرب المسجد الأقصى، والسؤال: هل انتظر المسلمون ستة أعوام على الأقل، حتى جاءت خلافة المنصور، ليطلبوا منه إصلاح ما تهدم من المسجد؟!!

إن الأمر في غاية البعد، ورغم ذلك فقد يمكن أن يقال: إن الأمويين كانوا حين الزلزال المذكور في آخر عهدهم المليء بالاضطرابات وسطوة الخارجين على الدولة؛ وإن العباسيين كانوا بعد الزلزال بعامين في أول عهدهم، المليء أيضا بما يكون عليه أي عهد جديد من مخاوف وترقب لثورات وبقايا فلول العهد الماضي، مما من الممكن أن يحول دون القدرة على إصلاح المسجد بالسرعة المطلوبة، والأموال الكافية.

ومع ذلك، فلا بد أن نلفت النظر إلى أمر آخر..

إن كتب التاريخ تذكر عن أبي جعفر المنصور أنه كان يلقب بأبي الدوانيق، لمحاسبته الصنّاع لَمَّا أنشأ بغداد^(١)، ويصفه المسعودي المؤرخ بقوله: «كان يُعطي الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزما، ويمنع الحقير اليسير ما كان عطاؤه تضييعا»^(٢)، مما يكشف عن أنه كان بعيدا عن صرف المال في غير ضرورة، وعليه، أفلا يمكن أن يكون منشئ بغداد،

(١) تُنظر ترجمة أبي جعفر المنصور، ومواقف له في بعض مسائل المال، في كتاب: سير أعلام

النبلاء، للإمام الحافظ الذهبي، (٧/٨٣-٩٢).

(٢) تاريخ المسعودي، (٢/٢٣٢)، نقلا عن: العصر العباسي الأول للدكتور عبد العزيز الدّوري،

وباني مدينة دار السلام، مُدققاً في مسائل المال، بحيث لا يرى الإسراف المعروف عن كثير من الخلفاء والسلاطين، فيكون موقفه من قضية نزع الذهب من أبواب الأقصى وضربها دنائير، من باب الاستفادة من مثل هذا المال في الإصلاح، بدل أن يكون مكنوزاً بلا فائدة؟ وليس مطلوباً من العباسيين أن يسيروا في الأقصى سيرة الأمويين، ليعترف لهم بتقديسه؛ تقول المؤرخة البريطانية كارين أرمسترونج: «ولم يُرد العباسيون إهمال الحرم، إلا أنهم رفضوا تجميله ببذخ مثل الأمويين»^(١).

وهذا الذي تذكره أرمسترونج هو ذاته ما التفت إليه الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقد ذكر عنه أبو بكر الطرطوشي أنه أمر بمسجد دمشق الأموي أن يُترع منه الفسيفساء والذهب، وأن يباع ويوضع ثمنه في بيت المال، فكلمه كبراء دمشق، وأخبروه ما لقي المسلمون في بنائه مع الوليد السنين الطويلة، وما كان من جهد في حمل فسيفسائه من أرض الروم، فأمر أن تُستر عجائبه بثياب القطن الغلاظ، حتى لا تُلهي المصلي^(٢).

والذي يبدو أن الأمر في بدايته عند عمر كان بسبب ما في مسجد دمشق الأموي مما يدخل في باب الإسراف، لكنه لما سمع حججهم في الاعتذار عن خلع الذهب والفسيفساء، سمح بإبقائه في المسجد على أن يُستر خشية إلهاء المُصلين.

فهل يقال أيضاً إن عمر بن عبد العزيز كان لا يعنى بمسجد دمشق الأموي؟!

إن مثل هذه التفسيرات إما أن تكون جاهلة أو متحاملة!

ثم إن قول المنصور: (ما عندي شيء)، يُلزمنا بتصديقه، إذ لا يُعرف عنه كذب حتى يكذب هنا.

(١) القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، للراهبة والمؤرخة البريطانية كارين أرمسترونج، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، (٤١٢).

(٢) الحوادث والبدع، لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، تحقيق علي حسن عبد الحميد الحلبي الأثري، (١٠٦).

ثم، وبعد نقدنا لهذه الرواية، ولأقوال حسون تعليقا عليها أو تقديمها لها، فلا بد أن نذكر ما قاله المقدسي صاحب أحسن التقاسيم حول زلزال حصل في عهد بني العباس، دون أن يبين في عهد أي خليفة منهم..

قال المقدسي عن المسجد الأقصى: «..ولكن جاءت زلزلة في دولة بني العباس، فطرح المَعطَى إلا ما حول المحراب، فلما بلغ الخليفة خبره قيل له: لا يفي بردّه إلى ما كان بيت مال المسلمين^(١)، فكتب إلى أمراء الأطراف وسائر القواد، أن يبني كل واحد منهم رواقاً، فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان، وبقيت تلك القطعة شامة فيه»^(٢)، إنه رغم أن المقدسي لم يذكر في عهد أي خليفة عباسي وقع هذا الزلزال، إلا أننا نميل إلى وقوعه في عهد المنصور، أي نميل إلى أنه الزلزال نفسه الذي تحدث عنه الواسطي، لما في رواية الواسطي وخبر المقدسي معاً من حديث حول عدم القدرة المالية التي تصلح لإعمار ما تهدم من المسجد، مما يؤكد أن خبر المقدسي ورواية الواسطي تدوران على حدث واحد.

ومما يؤيد ما نميل إليه هنا، من أن الزلزال الذي ذكره الواسطي وقع في عهد المنصور، لا في عام ١٣٠هـ، ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية بقوله: «فلما كان في خلافة أبي جعفر المنصور، قدم بيت المقدس في سنة أربعين ومائة، فوجد المسجد خراباً، فأمر أن يُقلع ذلك الذهب والصفائح التي على القبة والأبواب، وأن يعمرها بما ما تشعّت في المسجد، ففعلوا ذلك؛ وكان المسجد طويلاً، فأمر أن يؤخذ من طولهِ ويُزاد في عرضه»^(٣)، ولقد ذكر الطبري زيارة المنصور لبيت المقدس سنة مائة وأربعين، ولم يذكر

(١) أرجو أن يلحظ القارئ الكريم هنا أن القول بأن بيت المال لا يكفي لردّ المسجد كما كان، ليس قول المنصور، بل هو قول غيره ممن يقومون على مسؤولية بيت المال في عهده أو في عهد سواه، مما يدل على إمكانية تصديق أبي جعفر حين قال: ما عندي من المال شيء.

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لشمس الدين أبي عبد الله، محمد المقدسي، (١٦٨).

(٣) يُنظر: البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، (٢٨١/٨).

ما كان مما فعله أبو جعفر المنصور من الإصلاح الذي ذكره ابن كثير، ولكنه ذكر توجهه إلى بيت المقدس وصلاته فيه، فقال (أي الطبري) عن أحداث هذه السنة: «وفيها خرج أبو جعفر المنصور حاجاً، ثم رجع بعد أن قضى حجه إلى المدينة، فتوجه منها إلى بيت المقدس،...، ولما قدم أبو جعفر المنصور بيت المقدس صلى في مسجدها..»^(١)، وذكر ابن خلكان أن أباجعفر المنصور زار بيت المقدس سنة ١٥٤هـ^(٢)، ويعني هذا تعدد زيارات أبي جعفر المنصور، المتهم لدى المستشرق حسون بعدم الاعتناء ببيت المقدس.

وقال المقدسي عن أبواب مسجد قبة الصخرة التي أثنى على جماها: «أمرت بمن أم المقتدر بالله»^(٣)، ولم أعر فيما بين يدي من المراجع على اسم أم المقتدر بالله، لكن المهم أنها عباسية، وأنها زوجة الخليفة العباسي المعتضد (والد المقتدر) المتوفى سنة ٢٧٩هـ.

إن ما ذكرناه هنا من خدمات عباسية للمسجد الأقصى، يدل على الاهتمام ببيت المقدس صادر عن البيت العباسي المتهم من قبل المستشرق حسون بأنه لم يُول بيت المقدس اهتمامه؛ ولكن: لماذا لم يذكر هذا الباحث العلمي التزيُّه جداً حسون هذا الاهتمام، واقتصر على ذكر نقيضه، مما غير في عرضه، كما قد أسلفنا؟!

السبب في تصرفه هذا هو ما ذكرناه من أن هذا المستشرق اليهودي ينطلق في بحثه من أهوائه وأمانيه، لا من أصول البحث العلمي، ولا من مبادئ النزاهة، ولا من إنصاف الموضوعية! بل هو ينتقي ما يشاء، لما يشاء فحسب، ويُغطي عمداً على ما يشاء، لإخفاء الحقائق التي تناقض أهواءه!

(١) تاريخ الأمم والموك للطبري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، (٥٠٣/٧-٥٠٤)، وهو نفس ما ذكره الحافظ ابن الجوزي فيما بعد في تاريخه: المنتظم (٢٦/٨).

(٢) وفيات الأعيان للقاضي شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، (٣٢٢/٦).

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لشمس الدين أبي عبد الله، محمد المقدسي، (١٦٩).

ومن كل ما تقدم، ينكشف لنا ماذا وراء أكذوبة المستشرق اليهودي! حسون من مقاصد وراء إيهامه القارئ أن المسجد الأقصى لم ينل من العباسيين المكانة التي كان يناها فيما مضى.

إن المستشرق حسوناً خالف منهج البحث العلمي أيما مخالفة، وشاهدي هنا هو أنه لم ينقل ما قصّه المقدسي نفسه من قصة الزلزال الذي ضرب الأقصى، لأن عبارة المقدسي تحمل في طياتها تحسين الظن بموقف العباسيين (أي الدولة الإسلامية في ذلك العهد القديم) من المسجد الأقصى ومكانته، فهو (أي حسون) يريد أن يصل إلى تراجع اهتمام الحكام المسلمين بالأقصى المبارك، وخص العباسيين بالذكر، ولو ذكر نص المقدسي الذي ذكرناه لَمَا استطاع أن يطرح هذا الادّعاء، وهو قد قرأ كلام المقدسي بالتأكيد، ذلك أنه نقل عنه أيضاً ما يحلو له، حينما أراد أن يبين قلة العلماء وكثرة النصارى، إذ بين الكلامين صفحة واحدة، وسنبين فيما سيأتي من الحديث مسألة قلة العلماء قريبا إن شاء الله تعالى.

إن كلامه في النهاية يصب في أكذوبة كبرى مفادها أن المسجد الأقصى ضئيل المكانة في الإسلام.

وعلى جميع الأحوال: فحتى على افتراض صحة هذه القصة، ليس ثمة ما يدل على أن خلفاء بني العباس لم يُعطوا الأقصى أو بيت المقدس المكانة اللائقة بهما، كما زعم المستشرق اليهودي إسحاق حسون، بل إن فيها ما يدل على اهتمام الدولة العباسية بالأقصى، بإصلاحه بعد الزلازل، وبتحسين بنائه في عهد المهدي بن أبي جعفر المنصور، الذي أمر بتنقيص المسجد من طوله، والزيادة في عرضه^(١).

(١) ويُنظر كتاب تاريخ الحرم القدسي، لمؤرخ القدس عارف العارف، رحمه الله تعالى، (٤٣-٤٤)، وكذا كتابه: الفصل في تاريخ القدس، وفيه أن أبا جعفر المنصور زار بيت المقدس، والتقى في المسجد الأقصى بالليث بن سعد، عالم مصر وفقهها ومحدثها؛ المفصل، للعارف، (١١٩)، ويُنظر حول لقاء المنصور والليث بيت المقدس: الأندلس الجليل بتاريخ القدس والخليل، للشيوخ مجير الدين الحنبلي العليمي، (ج ١/٤٢٩)، وقد حقق هذا الجزء الأستاذ عدنان يونس أبو تيانة.

ولقد كان من تعظيم الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور لقبه الصخرة المشرفة، أنه كان يرى من مناقب بني أمية أنهم سبقوا بني العباس ببناء قبة الصخرة المشرفة^(١). وما لنا نتحدث كثيرا عن العباسيين هنا، أو لم يكن الأجدد بنا في مقام الرد على البروفيسور حسون، أن نرد عليه من تاريخه المنصوص في العهد القديم؟ إنه يتهم العباسيين بعدم العناية بالقدس، فتعال عزيزي القارئ لنرى عناية ملوك إسرائيل بالهيكل والقدس معا..

ففي سفر الملوك الثاني، عن الملك مَنَسَّى وضلالاته: «ووضع تمثال السارية التي عمل في البيت الذي قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه: في هذا البيت وفي أورشليم التي اخترت من جميع أسباط إسرائيل، أضع اسمي إلى الأبد»^(٢)، وفي سفر الأخبار الثاني: «حتى إن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم، ونجسوا بيت الرب الذي قدّسه في أورشليم»^(٣)، ويذكر سفر الملوك الثاني الانحرافات التي وقع فيها الملك مَنَسَّى، الذي ملك خمسا وخمسين سنة، حسب السفر نفسه، (٦٩٨ - ٦٤٣)^(٤)، هذا الملك وقع في أخطر المحظورات، على ذمة سفر الملوك الثاني، يقول السفر: «وعاد فبنى المرتفعات التي أبادها حزقيّا أبوه، وأقام مذابح للبعل، وعمل سارية كما عمل آخاب ملك إسرائيل، وسجد لكل جند السماء وعبدها، وبني مذابح في بيت الرب، الذي قال الرب عنه: في أورشليم أضع اسمي، وبني مذابح لكل جند السماء في

(١) يُنظر: الفصل في تاريخ القدس، لمؤرخ القدس عارف العارف، (١٢٠)، وفيه: «كان المهدي يقول لكاتبه: إن بني أمية سبقونا في أربعة أشياء: المسجد الأموي بدمشق، وئبل الموالي، وعمر بن عبد العزيز، ومسجد الصخرة في بيت المقدس»، ويقصد بقوله: وئبل الموالي: أن موالي بني أمية كانوا خيرا من موالي بني العباس.

(٢) سفر الملوك الثاني، (٧/٢١)، ويُنظر: أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، (٦١).

(٣) سفر أخبار الأيام الثاني، (١٤/٣٦).

(٤) تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، فتحي محمد الزغبي، (٤٠٢).

داري بيت الرب^(١)، وفي سفر الملوك الثاني أيضا أن الملك يوشيا، الذي نُصّب ملكا حوالي عام ٦٣٨ ق.م.، قد اختار بعد دعوى اكتشاف سفر الشريعة في الهيكل أن يطيع الرب، إن الملك يوشيا هذا قد أمر بإخراج ما في الهيكل من أدوات الشرك، مما يدل على امتلاء الهيكل المقدّس بما في عهود السابقين من ملوك بني إسرائيل؛ ولنا أن ننظر إلى شيء من نصوص سفر الملوك الثاني في هذه المسألة..

يقول السفر: «وأمر الملكُ حَلِقِيّا، الكاهنَ العظيمَ، وكهنةَ الفرقة الثانية وحراس الباب، أن يُخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجناد السماء، وأحرقها خارج أورشليم في حقول قدرون، وحمل رمادها إلى بيت إيل،...، وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادي قدرون..»^(٢)، وفي ترجمة جمعية الكتاب المقدس عن إصلاحات يوشيا أيضا: «وهدمَ بيوت البغاء المكرّس التي في دار الهيكل، حيثُ كانتِ النساءُ ينسُجنَ ثيابًا لأشيرة»^(٣)، وهذا يعني أن كل ذلك كان موجودا في بيت الرب المقدّس، حتى جاء يوشيا وأزاله، غير أن المستقبل لم يُسعد البيت المقدّس، فلقد جاء بعد يوشيا من أعاد الرجاسات إليه!!

وثمة نصوص أخرى كثيرة في الأسفار، لم نقل منها خشية التطويل!!!

هل يحقُّ لمن احتكر كل هذه النجاسات في تاريخ تعامل قومه مع البيت المقدس بيت الرب كما يقولون عنه، هل يحق له أن يتهم أمة الإسلام بما اتهمها به من عدم عنايتها ببيت المقدس؟!

من كان بيته من زجاج، فلا يرحم الناس بالحجارة!!

(١) سفر الملوك الثاني، (٣٣/٢١).

(٢) سفر الملوك الثاني، (٦-٤/٢٣).

(٣) سفر الملوك الثاني، (٧/٢٣)، من الترجمة التي نشرتها جمعية الكتاب المقدس اللبنانية عبر موقعها

الفصل الرابع: العبّاد والعلماء ورواد الحضارة بيومون بيت المقدس

واجب هذا الفصل أن يعرّف القارئ الكريم على ما كان هنالك من إقبال على المسجد الأقصى وبيت المقدس من قبل العلماء والعبّاد ورجال الحضارة الإسلامية في فترات سابقة للحروب الصليبية، وتبتدئ هذه الفترات بما بعد الفتح والتحرير العربي والإسلامي لبيت المقدس، مما يؤكد بقوة أن بيت المقدس كان محورا مهما من محاور الاهتمام الإسلامي.

سنرى أن بيت المقدس كانت تعج بالعلماء من أوائل أيام الفتح الإسلامي الراشدي لها، وكان يقصدها أهل العلم من كل صوب، وسنرى أن المسجد الأقصى كان مقصدا خاصا من مقاصد أهل العلم في بلاد الإسلام^(١).

لن نطيل هنا، بل سيكون القارئ الكريم أمام الصفحات التالية، ليتعرّف على بعض ما هنالك.

وقد جعلنا فصلنا هذا في مبحثين:

المبحث الأول: بيت المقدس والقدرة على الاستقطاب.

المبحث الثاني: انحسار نسبي للحركة العلمية في بيت المقدس.

(١) أرجو أن ينتبه القارئ الكريم إلى أننا قصدنا هنا تغطية فترة بيت المقدس في أول الإسلام، وكذلك في القرنين الثالث والرابع الهجريين، لأسباب سيرها القارئ ماثلة أمامه، وسنخصص لفترة ما قبل الغزو الصليبي لبلادنا فصلا خاصا.

المبحث الأول: بيت المقدس والقدرة على الاستقطاب

فمن أول يوم ابتدأت فيه مسيرة الإسلام في بلاد الشام، أرسل يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب كتابا يطلب منه فيه إرسال من يُعلِّمون أهل الشام، وكان ممن أرسلهم عُمرُ رضي الله عنه استجابة لطلب يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت، وقال لهم عُمرُ رضي الله عنه: «ابدأوا بحمص فإذا رضيتم منهم فليخرج واحد إلى دمشق وآخر إلى فلسطين، فذهبوا إلى حمص، وتوجّه معاذ وعبادة بعد ذلك إلى فلسطين»^(١)، فمات معاذ في طاعون عمّواس، وبقي عبادة في بيت المقدس سبعة عشر عاما، تولى خلالها القضاء، فصار أول قاضٍ إسلامي في فلسطين، كما ذكر ابن عساكر عن محمد بن عوف^(٢)، وقال الحافظ ابن عساكر: «مات بفلسطين الشام، وكان أخرجه إليها عُمر بن الخطاب معلّما، ذكره البخاري»^(٣)، وكان أبرز معلّم في فلسطين؛ وفي تاريخ ابن عساكر أن عبادة مات بالرملة، وفيه أنه مات بالقدس، وفيه أن قبر عبادة ببيت المقدس^(٤)، ولا يبعد أنه مات بالرملة، ثم حُمل ليُدفن في بيت المقدس.

ولم يكن عمل معاذ في بيت المقدس تعليم العلم فحسب، بل كان فيه يجتهد في العبادة، ففي فضائل القدس لابن المُرجي: عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أتى بيت المقدس وأقام بها ثلاثة أيام ولياليهن يصوم ويصلي، فلما

(١) تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، (١٩٤/٢٦).

(٢) المرجع نفسه، (١٨٣/٢٦).

(٣) المرجع نفسه، (١٨٤/٢٦).

(٤) يُنظر: المرجع نفسه، وعلى سبيل المثال: (٢٠٦/٢٦، ٢٠٨).

خرج منها وكان على الشرف التفت إليها، ثم أقبل على أصحابه فقال: «أما ما مضى من ذنوبكم فقد غُفرت لكم، فانظروا فيما أنتم صانعون فيما بقي من أعماركم»^(١).

ومن ورد إلى فلسطين معلماً أيضاً: الصحابي الجليل شدّاد بن أوس بن ثابت، ابن أخي حسان بن ثابت، روى الحافظ ابن عساكر أنه نزل ببيت المقدس، وذكر أنه معدود في أهلها^(٢)، وأنه توفي بها سنة ٥٨هـ^(٣)، وقد وصفه عبادة بن الصامت بقوله: «وإن شدّاد بن أوس من الذين أوتوا العلم والحلم»، وقال أبو الدرداء: «لكل أمة فقيه، وفقيه هذه الأمة شدّاد بن أوس»^(٤).

ومن نزل بيت المقدس من الشهيرات في الزهد والعلم، الصحابية الجليلة أم الدرداء، واسمها هُجَيْمَة بنت حبي، وقد شهد لها العلماء بالعلم، روى ابن عساكر عن مكحول فقيه أهل الشام قوله: «كانت أم الدرداء فقيهة»^(٥)، وهي القائلة في ردّها على من حسب أنها ملّت من مجالستهم العلمية: «لقد طلبتُ العبادة في كل شيء فما أصبتُ لنفسي شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم»^(٦).

ومما ورد من أخبارها في بيت المقدس ما رواه ابن عساكر في ترجمتها، أن عبد الملك بن مروان عيّن مولى خاصاً يقودها خلال أسفارها بين دمشق وبيت المقدس بعد أن فقدت بصرها^(٧)، وروى ابن عساكر أن إسماعيل بن عبيد الله قال: كانت أم الدرداء

(١) فضائل بيت المقدس، لأبي المعالي المشرف بن المرجى، (٢٣٦).

(٢) تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، (٤٠٧/٢٢).

(٣) المرجع نفسه، (٤١٧/٢٢).

(٤) المرجع نفسه، (٤١٠/٢٢، ٤١١)، ونسب الدكتور جميل العسلي كلا القولين اللذين ذكرناهما هنا لعبادة بن الصامت، وذلك في كتابه: أجدادنا في ثرى بيت المقدس، (١٩٩)، رغم أن أحدهما لأبي الدرداء، كما نقلناه عن ابن عساكر.

(٥) تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، (١٥٦/٧٠).

(٦) المرجع نفسه، (١٥٦/٧٠).

(٧) التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر الحديث، كامل جميل العسلي، ضمن

تتكئى على عبد الملك بن مروان إذا خرجت من صخرة بيت المقدس، وعن إسماعيل أيضا أنه قال: «كان عبد الملك بن مروان جالسا في صخرة بيت المقدس، وأم الدرداء معه جالسة، حتى إذا نودي للمغرب قام عبد الملك، وقامت أم الدرداء تتوكأ على عبد الملك حتى يدخل بها المسجد، فإذا دخلت جلست مع النساء، ومضى عبد الملك إلى المقام فصلى بالناس»^(١).

وروى أبو المعالي المشرف بن المرجى في كتابه فضائل بيت المقدس^(٢)، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عالم القراءات الآتي ذكره، قال: كانت أم الدرداء تأتينا من دمشق إلى بيت المقدس على بغلة لها، ولها قائد يقود بغلتها، فكانت إذا مرت بالجبال تقول لقائدها: سمع الجبال ما وعدها، يعني ربها، ويرفع صوته بهذه الآية: (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا).

وكان بيت المقدس ومسجده الأقصى ذا قدرة هائلة على استقطاب أصحاب الرسول ﷺ، حتى لقد بلغ الأمر أن يروي يعلى بن شداد بن أوس قائلا: «شهدت مع معاوية ببيت المقدس، فجمع بنا، فإذا جُلُّ من في المسجد أصحاب رسول الله ﷺ»^(٣).

وعن عطاء الخراساني عن أكثر من راوٍ حدثوه أن عبد الله بن عمر جلس بعد صلاة الصبح ببيت المقدس حتى طلعت الشمس، ثم قام فصلى ركعاتٍ هو ومن معه، ثم قعدوا على رواحلهم، ولم يأتوا الصخرة^(٤).

أبحاث الموسوعة الفلسطينية قسم الدراسات الخاصة، (ج/٣/٦).

(١) تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، (١٦٤/٧٠)، وذكره أيضا الذهبي أثناء ترجمتها في كتابه سير أعلام النبلاء، (٢٧٩/٤).

(٢) فضائل بيت المقدس، لأبي المعالي المشرف بن المرجى، (٢٣٣).

(٣) التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر الحديث، كامل جميل العسلي، ضمن

أبحاث الموسوعة الفلسطينية قسم الدراسات الخاصة، (ج/٣/٦).

(٤) فضائل بيت المقدس، لأبي المعالي المشرف بن المرجى، (٢٣٦).

واستمر التابعون في التواصل مع المسجد الأقصى وبيت المقدس، وفي الاعتراف مما اختصه الله تعالى به من البركة، فالتابعون هم تلامذة الصحابة، وهم تَرْجُمَانُ الإسلام.

فممن قصدتها من مكانٍ غاية في البُعد من التابعين، سيد التابعين أويس القرني اليمني، فلقد روى ابن المُرجي أنه أتى المدينة واستقبله عمر، ولما عرفه مما وصفه له رسول الله ﷺ طلب منه أن يستغفر له، واعتنقه عمر رضي الله عنه، وفي القصة التي رواها ابن المُرجي أن أويساً قال: **قد حججتُ واعتمرتُ وصليتُ في مسجد رسول الله ﷺ ووددتُ أني صليتُ في المسجد الأقصى، فجهَّزه عمر وأحسن جهازه، ثم سار إلى بيت المقدس، ثم رجع إلى الكوفة**^(١).

وممن وردَ منهم بيت المقدس الإمام عالم القراءات إبراهيم بن أبي عبلة، وهو القائل: **«كان الوليد يبعث معي بقصاع الفضة إلى أهل بيت المقدس فأقسمها عليهم»**^(٢)، ويبدو أن هذا كان يحصل حينما كان ابن أبي عبلة صبياً، إذ إن الوليد مات سنة ٩٦هـ، ومات ابن أبي عبلة سنة ١٥٢هـ، كما في ترجمته في تاريخ مدينة دمشق^(٣).

ومن جيل التابعين كان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، **«الإمام البارع،...، قال أبو زرعة الدمشقي: هو وأخواه من صالحي القوم»**^(٤)، وهو **«حكيم قريش وعالمها في عصره»**^(٥)، وكان الرجل معروفاً بالعلم والبحث، وهو من الطراز الأول في مسيرة منهج البحث العلمي الإسلامي، وكان أول من بدأ حركة التعريب، وقد أمر بنقل كتب

(١) المرجع نفسه، (٢٤٣).

(٢) تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، (٤٣٦/٦).

(٣) للحافظ ابن عساكر، (٤٣٩/٦، ٤٤٠).

(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٣٨٢/٤)، وقد حقق هذا الجزء مأمون الصاغري، وأخواه هما:

معاوية وعبد الرحمن ابنا يزيد بن معاوية، بويح للأول بالخلافة، وعبد الرحمن كان فقيهاً، يُنظر: المرجع نفسه.

(٥) الأعلام لخير الدين الزركلي، (٣٠٠/٢)، وفيه أنه توفي سنة ٩٠هـ.

الكيمياء إلى العربية^(١)، وكان له رحمه الله تعالى مجلس علم يحاضر فيه في المسجد الأقصى، وكان ممن يحضر هذا المجلس عمر بن عبد العزيز، أحد سادة التابعين، والخليفة الراشد الخامس..

روى ابن عساكر في ترجمة عبد الرحمن بن سلمان الحولاني أنه قال: «بينما خالد بن يزيد بن معاوية مُحاضِر عمر بن عبد العزيز في صحن مسجد بيت المقدس، إذ قال عمر بن عبد العزيز: علينا عين؟ قال خالد: نعم، عليكما من الله عين ناظرة وأذن سامعة، فاختلج يده من يد خالد وولى وقد ارفضت عيناه، قال عبد الرحمن: فأقبل علي خالد بن يزيد «أما إنك إن بقيت رأيتَه إماماً عادلاً»^(٢).

وهكذا بدت بيت المقدس من أول أيامها في ظل الإسلام، بدت بلد علم وعلماء، وكان يفد إليها الناس معلّمين ومتعلّمين ومغترفين من البركة المعروفة لمسجدها الأقصى، ولما حوله..

هذا، ولم ينقطع التوجّه إلى بيت المقدس من قِبل المسلمين، علماءً ومتعلّمين وعُباداً ومتزهدّين، إلى أجيال تلت ولا زالت تتوالى..

فكان ممن نزلها من العلماء الكبار الإمام ثور بن يزيد، وأصله من حمص، سكن بيت المقدس وتوفي بها سنة ١٥٣هـ^(٣)؛ وسفيان الثوري الإمام المحدث والفقيه الكبير المتوفى سنة ١٦١هـ، وقد ختم القرآن الكريم في قبة الصخرة^(٤)؛ وإبراهيم بن أدهم أحد كبار الزهاد والعبّاد، وأحد الثقات المأمونين، المتوفى سنة ١٦١هـ، وقد قدم بيت المقدس ونام

(١) الحضارة العربية الإسلامية، شوقي أبو خليل، (٤٤٣).

(٢) تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، (٣٩٣/٣٤).

(٣) طبقات ابن سعد، (٣٢٤/٧).

(٤) مشير الغرام إلى زيارة القدس والشام، شهاب الدين المقدسي، (٣٥٣)، وإعلام الساجد بأحكام المساجد، بدر الدين الزركشي، (٢٨٨)، وفضائل بيت المقدس، لأبي المعالي المشرف بن المرجى، (٢٣٥).

في صخرتها، على ما ذكره صاحب مثير الغرام^(١)؛ والأوزاعي فقيه أهل الشام المتوفى سنة ١٥٧هـ^(٢)، والليث بن سعد فقيه أهل مصر وكان ثقة كبيراً نظيراً للإمام مالك في العلم، مات سنة ١٧٥هـ^(٣)؛ ومن ذكرهم الذهبي ممن قصدوا بيت المقدس نازلاً فيها أو معلماً أو متعلماً في كتابه سير أعلام النبلاء: صدقة بن يزيد، أحد رواة الحديث النبوي، مات عام مائة وخمسين ونيّف^(٤)؛ والإمام عبد الله بن شوذب البلخي، نقل الذهبي عن ابن عساكر قوله عن ابن شوذب: «هو خراساني، سكن البصرة ثم انتقل إلى الشام، فسكن بيت المقدس»؛ ونقل عن سفيان الثوري قوله فيه: «نحن نعدّه من ثقات مشايخنا»، ولقد مات ابن شوذب عام ١٥٦هـ^(٥)؛ وذكر الذهبي أن الإمام الحافظ الكبير أحد الأعلام، وكيع بن جراح الكوفي، أحرم من بيت المقدس، ولقد ولد وكيع سنة ١٢٩هـ، ومات سنة ١٩٧هـ^(٦).

ومن ورد بيت المقدس الإمام فقيه السنة الأكبر محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، قال شهاب الدين المقدسي: قدم بيت المقدس فصلى فيه وقال: «سلوني عما شئتم، أخبركم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»^(٧)؛ وكذلك ذو النون المصري أحد أعلام الزهاد، مات سنة ٢٤٥هـ؛ وبشر بن الحارث الحافي أحد كبار الصوفية والزهاد المتبعين للأثر، قيل له: لِمَ يفرح الصالحون ببيت المقدس؟ قال: «لأنّها تُذهب الهمَّ ولا تستعلي

(١) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، شهاب الدين المقدسي، (٣٥٤).

(٢) المرجع نفسه، (٣٥٤)، وإعلام الساجد بأحكام المساجد، بدر الدين الزركشي، (٢٨٦).

(٣) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، (٣٥٥).

(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٥٧/٧)، ولقد حقق هذا الجزء علي أبو زيد تحت إشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٥) تنظر ترجمته في المصدر نفسه، (٩٣-٩٢/٧).

(٦) تُنظر ترجمته في المرجع نفسه، (١٤٠/٩-١٦٧)، ولقد حقق هذا الجزء كامل الخراط تحت

إشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، ويُنظر: مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، (٣٥٧).

(٧) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، (٣٥٧).

النفس بها»، وقال: «ما بقي عندي من لذات الدنيا إلا أن أستلقي بجني تحت السماء بمجامع بيت المقدس»^(١)، مات بشر سنة ٢٢٧هـ^(٢)؛ وأبو عبد الله محمد بن وليد بن محمد الأنصاري، وهو فقيه مالكي سكن مصر وروى بها عن عبد الله بن أبي زيد القيرواني، توفي ببيت المقدس أواسط القرن الرابع^(٣)؛ وأحمد بن عبد العزيز أبو الفتح الخوارزمي، مقرئ، توفي سنة ٣٥٩هـ^(٤).

ويظهر أن ثمة مظاهر بدت لكل ناظر، تدلُّ على مدى إقبال الناس على المسجد الأقصى المبارك في فترة القرن الرابع، لتتلاقى فيها حوارات العلماء بتسييحات العباد، وليرسوا جميعاً صورة لبيت المقدس، يتحدث عنها التاريخ، يقول آدم متز: «وكان يُصنع بمدينة بيت المقدس في ذلك العصر السُّبحُ، لكثرة من كان يزور الحرم الشريف»^(٥)، وياليتنا نملك المصادر والمراجع الكافية التي نتحدث عن وُله عامة الناس ببيت المقدس على تعاقب أجيالهم، إذ ليست قدسية القدس معنىً علمياً مجرداً يقتصر على تذوقه علماء الأمة، بل هي روح ديني يسري في كيان الأمة يتشارك فيه العلماء والعباد معاً، ويلحق بهم من أصناف الأمة من يلحق، ممن صدق انتماؤه، وخلص ولاؤه، لتنعكس من مسالك سيرهم جميعاً مكانة بيت المقدس ومسجدها الأقصى.

إننا لم نذكر كل ما هنالك، ولكن هذه النماذج التي ذكرناها تُنبئ عن المقصود، وتحدث عن بيت المقدس حديث الحبِّ المعظم الذي تقوده أشواقه وما رسخ في فؤاده

(١) المرجع نفسه، (٣٥٩).

(٢) الأعلام للزركلي، (٥٤/٢).

(٣) أجدادنا في ثرى بيت المقدس، الدكتور كامل جميل العسلي، (٢٢٤)، ونقل الدكتور العسلي

هذا عن مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، لأبي محمود المقدسي.

(٤) المرجع نفسه، (٢٢٤)، وقد نقل هذا الدكتور العسلي عن طبقات القراء .

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لآدم متز، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريده،

(٣٦٨/٢).

من إجلال وإعظام لبيت المقدس إلى القدوم عليه، إنه حديث هذا المُحبِّ عن أولئك
المُحِبِّين.

المبحث الثاني: انحسار نسبي للحركة العلمية في بيت المقدس

ورغم أن انتقال عاصمة الإسلام في عصر الخلافة العباسية إلى بغداد قد أثر تأثيراً سلبياً على محورية دمشق والشام إجمالاً في العلم واستقطاب العلماء، إلا أن فلسطين لم تتأثر تأثيراً سلبياً ملموساً، يقول الدكتور العسلي: «وقد فتر التعليم بالشام بانتقال الخلافة إلى بني العباس في بغداد، ولكن هذا الفتور لا يبدو ملموساً بالنسبة إلى فلسطين، فإن كتب التراجم التي بين أيدينا لا تشير إلى نقص في عدد المشتغلين بالعلم والتعليم في القرنين الثاني والثالث والنصف الأول من القرن الرابع، وإن كانت تشير إلى بعض التغيرات في نشاط المراكز العلمية، ففي القرن الثاني شهد بيت المقدس حركة علمية نشيطة تمثلت في زيارة عدد غفير من العلماء والأئمة من مختلف البلدان إلى المسجد الأقصى،...، كما ازدهرت القراءة في المسجد الأقصى ازدهاراً شديداً، وبعد أن كان أكثر القراء من أهل دمشق في القرن الأول، أخذ يقرئ في المسجد قراء كثيرون من أهل فلسطين، وصار المسجد قبلة طلبة العلم من بلاد الشام وخارجها»^(١).

ولكن يظهر أن ثمة انحساراً ما طرأ على النشاط العلمي في بيت المقدس في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ويظهر هذا الانحسار من خلال تتبع تراجم علماء بيت المقدس في تلك الفترة، ولكن الأمر لم يكن في تقديري قد بلغ إلى الحال التي ذكرها الدكتور العسلي، حين قال: «ولكن النشاط العلمي التعليمي في المسجد الأقصى تراجع في القرنين الثالث والرابع عما كان عليه في القرن الثاني، وعلى سبيل المثال فإن مجير الدين الحنبلي

(١) التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر الحديث، كامل جميل العسلي، ضمن

أبحاث الموسوعة الفلسطينية قسم الدراسات الخاصة، (ج ٣/٧).

لا يذكر من علماء بيت المقدس سوى واحد في القرن الثالث وواحد في القرن الرابع^(١).

ولعل هذا يتفق مع بعض ما ادّعاه المستشرق حسون أثناء تقديمه لكتاب فضائل البيت المقدس للواسطي، فقد نقل عن المقدسي صاحب أحسن التقاسيم قوله عن بيت المقدس: إنها «قليلة العلماء كثيرة النصارى»^(٢)، ولقد سعد حسون بكلام المقدسي هنا، واستند عليه ليقرر أن ذلك عائد إلى تراجع نظرة المسلمين العباسيين إلى بيت المقدس، ليمهد بذلك حسب تقديري، إلى ما قرّره من أن فضائل بيت المقدس ليست أصيلة في الإسلام، وأن ما حصل في عهد العباسيين حسب دعواه إنما هو عودة بالأمر إلى أصوله، فلا فضائل أصيلة إسلامية لبيت المقدس حسب دعواه، ومن هنا أكد على ما نقله عن المقدسي.

وأرى أن حسون يحاول أن يتلقط ما يجب أن يكون معبراً لِمَا يتمنى، ثم يلقي ستارا كثيفا على ما لا يتلاقى وأمانيه، ولذلك فهو يغض الطرف تماما عما قال المقدسي نفسه مما يخالفه فيه، فقد قال، أي المقدسي: «ولأصحاب أبي حنيفة بالمسجد الأقصى مجلس ذكر، يقرؤون في دفتر، وكذلك الكرامية في خوانقهم، وكان الحراس يهللون بعد صلاة الجمعة، ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين العشاءين، وللقراء مجالس في الجوامع»^(٣)،

(١) المرجع نفسه، (ج ٧/٣).

(٢) من تقديم إسحاق حسون اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس) للواسطي، (٣٠).

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسي، (١٨٢)، وأود أن أشير إلى أن الناشر أو المحقق لكتاب أحسن التقاسيم، ذكر في الهامش نقلا عن نسخة أخرى رجع إليها، ذكر مكان كلمة (ذكر) الواردة في العبارة التالية: «ولأصحاب أبي حنيفة مجلس ذكر»، ذكر مكانها كلمة: «حسن»، فصارت العبارة كما يلي: «إلا أصحاب أبي حنيفة فإن لهم مجلس في المسجد الأقصى حسن»، واختار الناشر أو المحقق العبارة التي أثبتناها في النص أعلاه، فلم اختارها الناشر أو المحقق؟ هل قصد أن يوهم القارئ أن الموجود في المسجد الأقصى حينذاك هو مجالس الذكر لا مجالس الفقه؟ ربما قصد، وربما لم يقصد، لكن تكفيننا

فهل تحمل هذه العبارة ما رمى إليه المستشرق حسون حينما نقل عن المقدسي بعض ما قال، وترك ما لا يجب أن ينقله عنه؟

أميل إلى أنه قصد انتقاء ما يتمنى أنه كان، ذلك أننا أشرنا في حديثنا عن موقف الدولة العباسية من المسجد الأقصى إلى انتقاء واضح من قبل حسون، بل إلى ما يمكن أن يدخل في باب الكذب، ليصل إلى ما يصبو إليه ذلك الصابي! وهي شنشنة نعرفها من أخزم!

وأستغرب لما رأيناه من اعتماد سعادة الأستاذ الدكتور العسلي على الشيخ مجير الدين وكتابه الأنس الجليل، في اعتباره أن بيت المقدس وصل إلى هذا الحضيض من ترك الاهتمام به في القرنين الثالث والرابع، ذلك أنني لا أحسب الشيخ مجير الدين يقصد انحصار علماء بيت المقدس في العالمين اللذين ذكر الدكتور العسلي أن الشيخ مجير الدين لم يذكر سواهما ممن عُرف من علماء بيت المقدس في القرنين الثالث والرابع.

وسبب استغرابي أيضا ما سأذكره الآن من تراجم سريعة، بل ما أذكره ممن ذكرهم الأستاذ الدكتور العسلي نفسه في الفترة المشار إليها، ولم أقصد بإيرادها الاستيعاب، وإنما التمثيل فحسب؛ وهذه التراجم تؤكد أن بيت المقدس قد تعاهدها العلماء ولم يتركوها في الفترة التي تحدث عنها العسلي هنا..

ومقصدي أن ورود هذا العدد من العلماء على بيت المقدس، يدل على حركة علمية ونشاط مستمر، وإن لم يكن بعض هؤلاء من أهل بيت المقدس فعلا، فإن حركتهم إليها ذهابا وإيابا، تعلما وتعلما، يدل على وجود لحركة علمية أعلى مستوى بكثير مما يفهم من كلام الدكتور العسلي والشيخ مجير الدين وبعض كلام المقدسي، ولا ننس المستشرق اليهودي حسون.

هنا الإشارة لبيان اختلاف النسخ، مع رجائي أن ينتبه القارئ إلى أن اللحن الوارد في العبارة فيما تحته خط ليس من عندي.

ولا بد أن أئبه القارئ الكريم إلى أن منطلق كل من الدكتور العسلي والمقدسي والشيخ مجير الدين الحنبلي، يختلف عن منطلق المستشرق حسون، فالدكتور العسلي والمقدسي والشيخ مجير الدين يعبر كل منهم مع كل حرف من حروف كتاباتهم عن حب وانتماء عميقين إلى بيت المقدس عربية إسلامية، بخلاف المستشرق اليهودي حسون، الذي يحاول أن ينتزع بيت المقدس من الإسلام والعرب.

هذا، ويظهر لي أن الأستاذ الدكتور العسلي ربما يكون قد تأثر بما ذكره المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم عن قلة علماء بيت المقدس، والمقدسي ألف كتابه عام ٣٧٥هـ^(١)، أي بعد سبعة عشر عاما من هيمنة الفاطميين على فلسطين، إذ احتلوا سنة ٣٥٨هـ، مما قد يعني أن كلامه جاء انعكاسا عن الأثر النفسي الذي أثقل فؤاده حينما رأى ممارسات الفاطميين الذين احتلوا الأرض المقدسة، مما سنشير إليه بإيجاز شديد.

ويعلق الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى على الصورة التي قدمها المقدسي في أوائل العصر الفاطمي قائلا إنهما: «كانت صورة ناقصة لأنه أهمل أو أشار إشارة عابرة إلى أمور، كان من شأن استكمالها أن يعدّل الصورة ويوضح الواقع بصورة أفضل...، ولما كانت [أي الدعوة الفاطمية] دعوة منظمة مدعومة بالمال والنفوذ الرسمي، كما كانت سرّية في مراتبها المتقدمة، فقد أزاحت إلى الظل الاهتمام بعلم الحديث ودرسه في البلاد، وما يتبعه من العلوم النقلية...، وكان الفاطميون وبخاصة في أوائل العهد في فلسطين، يهتمون بتحويل السنة إلى التشيع أكثر من اهتمامهم بتحويل أهل الذمة إلى الإسلام، لهذا لم ير المقدسي من طبيعة الحياة الثقافية التي يُحبُّ أن يرى في بلده سوى الصيغة التعبدية، من تذكير وقصص وذكر وقراءات، فأما حلقات المناظرة ومجالس الجدل فاختلفت عنه، فلم يذكرها...، وهكذا لسنا نعرف من العلماء (من زار فلسطين بين أواسط القرن الرابع وأواسط القرن الخامس) وإن عرفنا من خلال مراقبة التراجم

(١) ذكر ذلك الدكتور كامل جميل العسلي في كتابه: بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب

حركة طلاب الحديث بين المدن الفلسطينية، من بيت المقدس إلى الرملة وطبريا وعسقلان وقيسارية^(١).

إن هذا النص الذي قرأناه للدكتور شاكر مصطفى يدعونا إلى مراقبة فعلية لحركة طلب العلم التي أشار إليها، والتي كان محورها بيت المقدس، وسنقوم الآن بشيء من هذا فيما سننقله عن حركة بعض العلماء، ومعظم نقلنا هنا عن الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء^(٢)، وأرجو من القارئ المعذرة عما سيراه من بعض التكرار في ذكر بعض الشخصيات العلمية التي تكرر ذكر بعضها هنا وفي الفصل التالي، رغم اختلاف مناسبة ذكرها هنا عن مناسبة ذكرها هناك.

ذكر الذهبي أن الحدث الإمام الكبير الحافظ الجوال:

١. أبا بكر بن المقرئ الأصبهاني المولود سنة ٢٨٥هـ، روى عن:
٢. محمد بن بكر الشعرائي في بيت المقدس، ذكر ذلك في ترجمة بكار بن قتيبة في السير^(٣)، وذكر أنه روى عن عدّة بيوت المقدس منهم:
٣. عبد الله بن محمد بن سلم، ذكر الذهبي ذلك في ترجمة أبي بكر المقرئ في السير^(٤)، وذكر الذهبي أن ابن حبان لقي ابن سلم هذا ببيت المقدس^(١)، وذكر

(١) فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، شاكر مصطفى، ضمن أبحاث الموسوعة الفلسطينية، قسم الدراسات الخاصة، (٢/٥٠٠).

(٢) وكان الدكتور شاكر مصطفى قد أشار إلى تاريخ ابن عساكر لأمثلة أخرى تدل على الحركة العلمية المتعلقة ببيت المقدس في ذلك التاريخ، يُنظر: فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، شاكر مصطفى، ضمن أبحاث الموسوعة الفلسطينية، قسم الدراسات الخاصة، (٢/٥١٩).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، (١٢/٦٠٠)، ولقد حقق هذا الجزء صالح السمر تحت إشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٤) المرجع نفسه، (١٦/٣٩٨)، ولقد حقق هذا الجزء أكرم البوشي تحت إشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط.

الذهبي عن أبي بكر المقرئ أنه قال: «دخلتُ بيت المقدس عشر مرات،
وحججتُ أربع حججات، وأقمتُ بمكة خمسة وعشرين شهراً»^(٢).

٤. وكانت للحافظ الكبير أبي القاسم الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة المولود في
عكا سنة ٢٦٠هـ، والمتوفى بأصبهان سنة ٣٦٠هـ؛ كانت له رحلة إلى بيت
المقدس لقي فيها:

٥. جماعة من العلماء، فقد ذكر الذهبي أنه لقي ببيت المقدس الإمام المحدث أحمد
بن مسعود المقدسي الخياط سنة ٢٧٤هـ^(٣).

٦. وذكر الذهبي أيضاً أن الإمام المحدث المفسر المقرئ بكر بن سهل الدمياطي
المتوفى سنة ٢٨٩هـ قدم إلى بيت المقدس وقرأ لأهلها^(٤).

٧. ولقي ابن حبان في رحلته إلى فلسطين:

٨. الإمام المحدث الكبير أبا العباس محمد بن الحسن بن قتيبة اللخمي العسقلاني،
مسند أهل فلسطين^(٥).

٩. وممن ورد بيت المقدس الإمام العارف الفقيه القدوة أبو عبد الله محمد بن
خفيف الفارسي الشيرازي المتوفى سنة ٣٧١هـ، ذكر ذلك الذهبي في
ترجمته^(١).

(١) المرجع نفسه، (٩٣/١٦).

(٢) المرجع نفسه، (٤٠٠/١٦)، ويُنظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي، (٩٧٣/٣).

(٣) المرجع نفسه، (٢٤٤/١٣)، ولقد حقق هذا الجزء علي أبو زيد تحت إشراف الشيخ شعيب
الأرنؤوط، وكذلك: (١٢٠/١٦)، وذكر أن الطبراني روى عن أحمد بن مسعود في بيت المقدس
الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، (١١/٦)، ولم أجد في ترجمته في ابن عساكر وسير أعلام
النبلاء للذهبي ذكراً لتاريخ وفاته، وإنما ذكر كلاهما أن الطبراني روى عنه في سنة ٢٧٤هـ.

(٤) المرجع نفسه، (٤٢٦/١٣).

(٥) المرجع نفسه، (٢٩٢/١٤)، وقد توفي ابن حبان سنة ٣٥٤هـ.

١٠. وزار بيت المقدس أيضا الشيخ العالم أبو بكر محمد بن عبد الله الأصبهاني الرِّباطي، المتوفى سنة ٤٢٠هـ.

١١. وأملى في بيت المقدس مجالس عدَّة^(٢).

ونقلنا قريبا عن الدكتور العسلي أن:

١٢ - الفقيه المالكي أبا عبد الله محمد بن وليد الأنصاري مات ببيت المقدس في أواسط القرن الرابع الهجري.

١٣ - وكذلك الإمام المقرئ أبا الفتح أحمد بن عبد العزيز الخوارزمي ورد بيت المقدس ومات فيها عام ٣٥٩هـ.

إن هذه المشاهد التي ذكرناها آنفا، تعني فيما تعني أن بيت المقدس مقصود لرحلة العلماء في هذه الفترة الفقيرة حسب الدكتور العسلي وحسب مرجعه الشيخ مجير الدين، وفيها كما يرى القارئ الكريم أن فلانا من العلماء أملى ببيت المقدس مجالس عدة، وهل تُلقى المجالس إلا على طلبة العلم والعلماء!؟

وفيها أن فلانا من العلماء قرأ لأهل بيت المقدس، وفيها أن فلانا لقي جماعة من العلماء في بيت المقدس وروى عنهم؛ هذا كله في فترة القرنين الثالث والرابع، تلك التي ذكر الدكتور العسلي أن الشيخ مجير الدين لم يذكر من علماء بيت المقدس إلا اثنين، ولا يظهر لي أن الدكتور العسلي قصد أنه لم يوجد في بيت المقدس في تلك الفترة إلا عالمان، لكن القارئ سيخرج بهذه النتيجة، رغم أنها قد لا تكون مقصودة للدكتور العسلي.

(١) المرجع نفسه، (٣٤٤/١٦).

(٢) المرجع نفسه، (٣٦١/١٧)، ولقد حقق هذا الجزء الشيخ شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم

العرقسوسي.

ومن المعقول أن تكون الحركة العلمية تراجعت تراجعاً ما في هذه الفترة، لكن غير المعقول أن تكون تراجعت إلى المستوى الذي نقله الأستاذ الدكتور العسلي عن الشيخ مجير الدين الحنبلي^(١).

وبعد أن ذكر الدكتور العسلي مشكلة هجرة علماء فلسطين إلى خارجها في النصف الثاني من القرن الرابع، وبعد أن اعتبر أن سبب هذه الهجرة التي رآها عامة في معظم العصور، هو قدرة العواصم السياسية الكبرى مثل دمشق والقاهرة وبغداد على اجتذاب العلماء وإتاحة فرص التفوق والمكافآت المادية لهم، بعد ذلك قال العسلي: «وربما كان من أسباب ضعف الحركة العلمية في فلسطين في القرن الرابع اجتياح القرامطة البلاد، والحروب التي نشبت بينهم وبين الفاطميين في أواسط القرن، ومعروف أن الحسن بن الأعصم القرمطي تمكن من هزيمة الفاطميين، ودخلت قواته دمشق سنة ٣٦٠هـ—، واستولى على كل الأراضي الواقعة بين دمشق والرملة مدة من الزمن، وأدت الحروب إلى دمار وخراب في المدن والقرى وقتل وتشرد من جرائها الكثيرون»^(٢).

(١) وحول الحركة العلمية في فلسطين عموماً يقول الأستاذ الدكتور العسلي: «وأما الرملة وعسقلان وغزة وطبرية وقيسارية، فقد أظهرت نشاطاً علمياً في القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع، كان يتمثل في الدرجة الأولى في علم الحديث، فقد كانت فلسطين مركزاً مهماً للحديث، ولا سيما في القرن الثالث، وكان يفد إليها الكثيرون من الطلبة، وكان ممن زارها في هذا القرن البخاري والترمذي وأبو داود وابن ماجه والنسائي».

ويقول: «وقد اشتهرت طبرية في القرن الثالث وقبله وبعده بتخريج الكتاب...، وبإنتاج المحدثين، وأبرزهم الإمام سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، (٢٦٠-٣٦٠هـ) الذي سمع الحديث في بيت المقدس والرملة وقيسارية وعسقلان وغزة، ثم استقر في آخر عمره في بأصبهان».

يُنظر: التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر الحديث، كامل جميل العسلي، ضمن أبحاث الموسوعة الفلسطينية قسم الدراسات الخاصة، (ج٣/٧).

(٢) التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر الحديث، كامل جميل العسلي، ضمن أبحاث الموسوعة الفلسطينية قسم الدراسات الخاصة، (ج٣/٨).

وهذا ما يقوله الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلما كان في أثناء المائة الرابعة اضطرب أمر الخلافة، وصار للرافضة والمنافقين وغيرهم دولة وملك بالبلاد المصرية والمغرب، وبالبلاد الشرقية وأرض الشام، وغلب هؤلاء على ما غلبوا عليه من الشام، سواحله وغير سواحله، وهم أمة مخذولة ليس لهم عقل ولا نقل، ولا دين صحيح ولا دنيا منصور»^(١).

وهذا الذي ذكره الدكتور العسلي ومن قبله ابن تيمية بالغ الأهمية، فالاستقرار أمر لا بد منه لحركة العلم، والبلد الذي تفقده، ستفقد مع فقدانه ريادة العلم.

وعليه، فلا يمكن أبدا إرجاع الانحسار النسبي للحركة العلمية في بيت المقدس في الفترة المذكورة إلى تراجع النظرة إلى بيت المقدس، بل الواضح أن هذا الانحسار حصل في فترة الصراع بين الفاطميين والقرامطة والطولونيين، ذلك الصراع الذي يتحمل مسؤوليته أولئك المتصارعون، ولا تتحملها مكانة المسجد الأقصى.

ومع ذلك، فهذا الانحسار النسبي الذي نذكره، لم يكن انحسارا عاما في كل مجالات العلوم، يقول الدكتور العسلي: «ويلفت نظرنا في القرن الرابع مع الانحسار النسبي في الدراسات الدينية تطوراً في العلوم الطبية وتدريسها في بيت المقدس، وكان من أعلام هذه الحركة الأطباء من آل التميمي، وأبرزهم محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، الذي درس الطب في بيئة نصرانية، وكان معظم الأطباء والكتبة في ذلك الوقت من النصارى، وكان قد أخذه عن راهب يدعى زخريا بن ثوابة، وكان سعيد التميمي، جد محمد، طبيا كذلك؛ واشتهر من أطباء القدس في القرن الرابع أبو محمد بن أبي نعيم أبو علي، ومن المعروف أن الفاطميين قد أنشأوا بيمارستانا في القدس، وكانت البيمارستانات بعامة معاهد لتدريس الطب»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى بها وخرّج أحاديثها عامر الجزار وأنور الباز، (٣٤/٢٧).

(٢) التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر الحديث، كامل جميل العسلي، ضمن

بل إننا نستطيع أن نؤكد أن المقدسي نفسه صاحب أحسن التقاسيم هو من إنتاج بيت المقدس في الفترة التي يتحدث عنها الشيخ مجير الدين الحنبلي ويقره على طرحه فيها الدكتور العسلي، فالمقدسي صاحب أحسن التقاسيم مات سنة ٣٨٠هـ، وعليه فهو أحد الشاهدين الناطقين بوجود حركة علمية أفضل مما أشار إليه الشيخ مجير الدين، فكتاب أحسن التقاسيم «وإن اعتُبر كتابا في الجغرافيا البشرية، فإنه في الوقت نفسه كتاب في علم الاجتماع أو نحوه، أدرك صاحبه أنه يوجد شيئا جديدا فيه»^(١)، وهو من إنتاج بيت المقدس في الفترة الفقيرة!

إننا نستطيع أن نقول بعد كل ما مضى ذكره: إن ثمة انحسارا أصاب المسيرة العلمية في بيت المقدس في الفترة التي تحدث عنها الدكتور العسلي، لكن هذا الانحسار انحسار نسبي، لا يمكن أن يصل أبدا إلى مستوى ما نقله الدكتور العسلي عن الشيخ مجير الدين الحنبلي.

وعليه، فلا يمكن أن يكون أيضا صحيحا ذلك التصور الذي حاول بثه المستشرق إسحاق حسون المحقق اليهودي لكتاب فضائل البيت المقدس للواسطي حينما نقل عن المقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم قوله عن بيت المقدس في فترة حياته فيها إنهما: «قليلة العلماء كثيرة النصارى»^(٢)، محاولا إيهام قارئه أن القضية ترجع إلى نظرة الدولة العباسية آنذاك إلى بيت المقدس، مما أدى في رأيه إلى التأثير السلبي على احتمال التأليف في فضائل بيت المقدس، فالحركة العلمية مسترسلة كما قد رأينا، وإنما تراجعت نسبيا بسبب انتقال مركز الدولة الإسلامية إلى بغداد، وبسبب الصراعات التي أحمت وطيسها القرامطة

أبحاث الموسوعة الفلسطينية قسم الدراسات الخاصة، (ج ٨/٣).

(١) فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، شاكر مصطفى، ضمن أبحاث الموسوعة الفلسطينية، قسم الدراسات الخاصة، (٢/٥٠١).

(٢) من تقديم إسحاق حسون اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس) للواسطي، (٣٠).

والفاطميون، مما لا يمكن أن يحمل معنى تراجع النظرة إلى بيت المقدس عند المسلمين أو عند العباسيين؛ ولقد قدمنا في الباب الثاني أحاديث تفصيلية عن كتب فضائل بيت المقدس، وقدمنا في فصل سابق من هذا الباب تعريفاً بحال بيت المقدس أيام العباسيين، لا نرى ضرورة إعادة شيء منها.

ونركّز هنا وبشدةٍ على مسألة غاية في الأهمية، ألا وهي: إن مكانة بيت المقدس في الإسلام ترجع إلى نصوص الإسلام نفسه، فإن قصر المسلمون في جيل من الأجيال في إعطاء بيت المقدس مكانها العالي، فهذا شأنهم في تقصيرهم، ولا يعني هذا إطلاقاً أن مكانة بيت المقدس في الإسلام منهارة.

ومع ذلك فالمسلمون لا يصبرون على تقصير، وإنما هي فترات من الفتور يرجع بعدها المسلمون أكثر تعلقاً ببيت المقدس، وما رأينا قصوراً في حق بيت المقدس من ناحية الحركة العلمية إلا في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع الهجري، وسائر تاريخ الإسلام يتحدث عن إقبال علمي وعبادي وحضاري إلى بيت المقدس.

ولكن هل ثمة تفسير تاريخي لدعوى أن علماء بيت المقدس كانوا قليلين، وذلك في الفترة التي تحدث عنها المقدسي، وركّز عليها المستشرق اليهودي حسون؟ هذا ما سنتحدث عنه في الفصل التالي..

الفصل الخامس: تحول نصارى بيت المقدس تدريجياً إلى الإسلام

سنحاول أن نتعرف هنا على زمان وكيفية تحوّل نصارى بيت المقدس إلى الإسلام..
وبعض هدفنا هو: محاولة تفسير كلام المقدسي حين ذكر قلّة في علماء بيت المقدس،
وكثرة في نصاراها.

فمن المعروف أن سكان بيت المقدس كانوا قبل الإسلام نصارى، بل كان سكان
سورية جميعها نصارى، «مع أقلية يهودية تافهة»^(١)، وكانت بيت المقدس ذاتها تحت حكم
النصارى، فجاء الإسلام بجهود رجاله الأفذاذ، واستمرت القدس تحت الوجود الإسلامي
قروناً، حتى رأينا معظم سكان القدس في العصور الحديثة مسلمين، والأقلية منهم نصارى،
فكيف حصل هذا التحوّل.

إنني أريد أن أوكد من البداية أنه لو بقي معظم سكان القدس نصارى في العهد
الإسلامي، فإن ذلك لن يضرّ الإسلام شيئاً أبداً، بل هو يكشف عن صفحة مشرقة من
صفحات التاريخ الإسلامي، الذي كان يرفض بمجمله إكراه الناس على التحوّل إلى
الإسلام؛ فليُسجل التاريخ إذن أن بقاء النصارى في ديار الإسلام لم يكن عن ضعف
إسلامي، وإنما عن عهد إسلامي بعدم إكراه الناس على التحوّل عن دينهم، وعن
محافظة إسلامية على هذا العهد.

أما كيف تحوّل النصارى إلى الإسلام، فهو ما سأُتحدث عنه حديثاً قصيراً، حسب
المعلومات المتوفرة لدي، وأرى أن الموضوع حريٌّ بدراسة تستقصي جوانبه وخفاياه، حتى
تظهر سماحة الإسلام، وحتى ينكشف عوَار الصليبية الحاقدة على نفسها وعلى الإسلام.

(١) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارغ ويوسف كراباج،

ترجمة: بشير السباعي، (٢٠).

فلقد جاء الإسلام، كما قلنا، إلى مدينة يملؤها النصارى، ولم يكن فيها مسلم واحد، وتحدث كارين أرمسترونج عن فترة ما بعد فتح عمر رضي الله عنه للقدس قائلة: «فقد احتفظ المسيحيون بالأغلبية العددية بالمدينة، وكان المسلمون أنفسهم يعترفون أن بيت المقدس مدينة ذميين إلى حد بعيد، أما الأماكن المقدسة للمسيحيين، فكانت تتركز جميعها تقريبا على التل الغربي، وعلى هذا ظلت تلك المنطقة بالكامل منطقة مسيحية، ولم يستوطن المسلمون ذلك الجزء من المدينة رغم أنه كان ذا مناخ ملائم، وأكثر برودة من منطقتهم أسفل الحرم...، أما المكان الوحيد الذي كان المسلمون يتبعدون فيه بأعداد كبيرة، فهو حرمهم الخاص بهم»^(١)، وتقول أيضا: «.. ولم يُسمح للفاتحين المسلمين باستيطان المناطق الجديدة، فقد سُمح لهم بالبقاء كحامية عسكرية صغيرة كانت تعيش معزل عن السكان المحليين...، وظل بيت المقدس مدينة مسيحية إلى حد كبير، بما منطقة إسلامية مقدسة واحدة»^(٢)، وتقول عن فترة بناء عبد الملك قبة الصخرة: «وكان المسلمون أقلية ببيت المقدس»^(٣).

ويؤكد ستيفن رنسيمان، المؤرخ الأوروبي المشهور، أن سكان بيت المقدس حتى القرن الرابع الهجري كانوا نصارى في غالبيتهم، يقول رنسيمان: «وفي الإسكندرية وفي سائر المدن الهلينية في سوريا، حافظ المسيحيون على وفرة عددهم، والراجح أنهم فاقوا المسلمين في العدد»^(٤)، ويقول أيضا: «وعلى الرغم مما كان لبيت المقدس من تجميل

(١) القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، للراهبة النصرانية البريطانية كارين أرمسترونج، ترجمة

فاطمة نصر ومحمد عناني، (٣٩٣).

(٢) المرجع نفسه، (٣٩٥).

(٣) المرجع نفسه، (٤٠٣).

(٤) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة السيد الباز العريبي، (٤٥/١).

خاص عند المسلمين، ظل المسيحيون يؤلفون به غالبية السكان،...، وظل سكان سوريا وفلسطين ومصر متجمعين على هذه الصورة في القرون الأربعة التالية^(١).

وفي كتاب: المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، نجد إشارة إلى أن بعض المؤرخين يعتقدون أن سكان الدولة الإسلامية كانوا في غالبيتهم غير مسلمين حتى جاءت الحروب الصليبية^(٢)، ويتضمن الكتاب بعض الجداول التي تتحدث عن نسبة المسلمين إلى النصارى في الشام عامة وفي فلسطين خاصة، وذلك في عهودٍ متعدّدة، ويقول المؤلفان: «ويبدو أن سوريا في مجموعها سوف تحتفظ بغالبية مسيحية حتى أواخر القرن الثالث الهجري،...، ونحو عام ٩٠٠م نجد أن العدد الإجمالي لسكان سوريا، والذي لا مرأى في أنه لم يتغير كثيراً منذ الفتح، لا بد أنه كان يتألف من مليونين من المسيحيين ومليونين من المسلمين»^(٣)، وفي أحد الجداول التي يرسمها، يذكر أن عدد المسيحيين واليهود معاً عام ٩٠٠م (يوافق عام ٢٨٨هـ) يساوي عدد المسلمين، وهو مليون وتسعمائة ألف نصراني وأربعون ألف يهودي، ومثل مجموعهم عدد المسلمين في جميع سوريا، التي تشمل فيما تشمل فلسطين^(٤)، ويذكر المؤلفان أن المسلمين في سوريا وفلسطين كانوا في بداية الغزو الصليبي يشكلون أغلبية طفيفة^(٥).

إننا هنا أمام كلام يتلوه أخصائيو في تاريخ بيت المقدس، والأمر ليس بعيداً، بل إن طبائع الأمور تسمح بمثل هذا الحال؛ أوليس الإسلام هو رافع لواء الحرية الدينية؟ فإذا كان ذلك كذلك، فإن أصحاب الديانات الأخرى لا بد أنها شعرت بالأمان في ظل الإسلام،

(١) المرجع نفسه، (٤٦/١).

(٢) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارغ ويوسف كيراج،

ترجمة: بشير السباعي، (٢٣).

(٣) المرجع نفسه، (٢٩).

(٤) المرجع نفسه، (٤٥).

(٥) المرجع نفسه، (٧٦).

ولم تجد نفسها مكرهة على اعتناقه، بل وجدت نفسها أمام نموذج يطرح نفسه بالحوار والاحترام لإنسانية الإنسان وحقوقه، فدخل من دخل منها في الإسلام، دونما إكراه أو مصادرة للعقول أو فتكٍ بالحرريات، إلا ما حصل في بعض الفترات الشاذة من التاريخ الإسلامي، تلك الفترات التي تعتبر خروجاً على المألوف إسلامياً، بل إن المسلمين لقوا أثناءها من الضيم مثلما لقي أهل الكتاب.

فمن الطبيعي والحال كما ذكرنا، ألا يدخل كثير من المسيحيين المقدسة والفلسطينيين في دين الله تعالى، وإذا دخله من دخله، فإن ذلك سيكون تدريجياً، وبلا إكراه.

لكنني أود أن أبين للقارئ الكريم أن هذا الكلام الذي قرأه، لم أجده فيما وقع تحت يدي من المراجع الإسلامية، فلم أعثر على نقل عن سوى هؤلاء المؤرخين الذين نقلت عنهم هذه الأرقام والحقائق، واثان منهم غريبون نصارى، أعني كارين أرمسترونج وستيفن رانسيمان، واثان عرب نصارى، يعيشون في الغرب، أعني فيليب فارغ ويوسف كرباج؛ ولم أستطع أن أعثر على شيء من المصادر الإسلامية يؤكد ذلك أو ينفيه.

لكنني قرأت للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي كلاماً يلتقي فيه مع هذا المعنى، ويضيف عليه شيئاً آخر..

فلقد نقل الدكتور البوطي عن ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق وعن ابن الأثير صاحب الكامل في التاريخ وعن أحمد زيني دحلان صاحب كتاب الفتوحات الإسلامية، أن القدس كانت ذات أغلبية نصرانية حتى جاءت الحروب الصليبية، وكان الصليبيون يريدون من النصارى المقدسة أن يكونوا معهم على المسلمين أبناء وطنهم، ولما رفض كثير من النصارى هذه الرغبة الصليبية، صبَّ عليهم كثيرٌ مما صبَّ على المسلمين من

أنواع الانتقام، «وغدا الغزو الصليبي وبالا على المسيحيين العرب، بمقدار ما كان وبالا على المسلمين»^(١).

وأستطيع أن أنطلق من هذا النقل التاريخي الذي نقله الدكتور البوطي، لأقول: إنه لا يبعد في تقديري أن بعض النصارى العرب تحوّل إلى الإسلام ذاته، واتخذة ديناً له، حينما رأى المفارقة بين تعامل أبناء الإسلام مع حرمة الدين، وبين تعامل أبناء دينه الأوروبيين مع حرمة السياسة؛ ثم لا يبعد في تقديري أيضاً أن يكون جماعات من النصارى العرب قد رضوا بالانضمام إلى بني دينهم من الصليبيين الأوروبيين، فلما انتصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، خشى كثير من هؤلاء على أنفسهم، وحسبوا أن صلاح الدين سيعاملهم كما عاملوا المسلمين؛ فخرجوا مع الأوروبيين إلى أوروبا.

وأعود لأقول: إنه موضوع ثري يستحق مزيداً من الدراسات التخصصية، لكشف جانب من إشراقة التعامل الإسلامي مع غير المسلمين.

ثم أود ألا أترك هذا الفصل قبل أن أسهم في الإجابة عما استند عليه المستشرق اليهودي حسون، من كلام المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم، إذ قال المقدسي عن القدس: (إنها قليلة العلماء كثيرة النصارى)، ولقد استند حسون على كلام المقدسي هذا، لبيت وهما يدور فحواه حول تراجع مكانة بيت المقدس عند المسلمين في العهد الذي كتب المقدسي كلامه، وكأنه يريد أن يقول: لو كانت القدس ذات مكانة عند المسلمين، لما كان النصارى أكثرية فيها، وبيننا أن كثرة النصارى ما هي إلا انعكاس طبيعي عن الحرية الدينية التي منحها الإسلام للبشر، ولا تعني هذه الكثرة في حال من الأحوال تراجع مكانة القدس في نفوس المسلمين.

(١) معاملة الدولة الإسلامية لغير المسلمين: القدس نموذجاً، مقال كتبه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ونشرته مجلة دراسات القدس الإسلامية، العدد الأول من السنة الثالثة، شتاء ١٩٩٩م، (١٣)، هذا وقد أحال الدكتور البوطي أيضاً على كتاب: من سيحمي المسيحيين العرب، للدكتور فكتور سحاب، لتوضيح وشرح هذه المسألة.

أقول: أفلا يمكن أن يكون قول المقدسي هذا شكلاً من أشكال الألم الذي غاص في نفسه من هذا الواقع الذي تحدثنا عنه، وهو: بقاء النصارى كثرة على المسلمين في بيت المقدس، حتى بداية الحروب الصليبية؟

إن كان هذا هو الواقع الذي آلمه، فنحن نتألم معه على انحراف الناس عن الدين الحق، ولكننا نلتفت إلى المعنى البالغ الأهمية الذي يتضمنه هذا الواقع، ألا هو: **محافظة الإسلام على الحرية الدينية لدى غير المسلمين، رغم أن الأمر والدولة له لا لغيره!**

ومع ذلك فاقراً عزيزي القارئ الفصل التالي، لترى الحركة العلمية الكثيفة في بيت المقدس في الفترة نفسها التي نقلنا في فصلنا هذا أن أكثرية سكان بيت المقدس فيها كانوا نصارى!

الفصل السادس: امتلاء بيت المقدس بالعلماء قبل الغزو

الصليبي

وفصلنا هذا مسوق لبيان أن اهتمام المسلمين ببيت المقدس ليس ناشئا عن ردة فعل على الغزو الصليبي، بل هو اهتمام أصيل، بل إن هذا الاهتمام الذي سنراه، وسنرى تطبيقا له من خلال شد العلماء رحالهم إلى بيت المقدس ومسجد بيت المقدس في فترة ما قبل الصليبيين؛ إن هذا الاهتمام هو رجوع بالأمر إلى أصوله، فهكذا كان الأمر في عهد الصحابة والتابعين، وهكذا كان الأمر أولا وهكذا هو آخراً.

قال المؤرخون: إن الصليبيين أعدموا «عند دخولهم المدينة المقدسة عددا كبيرا من الأطباء المسلمين الذي كانوا يسكنونها»^(١)، وقال الإمام المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩٢هـ، وهي السنة التي سقطت فيها القدس في أيدي الصليبيين: «وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعُبادهم وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف..»^(٢).

قال الدكتور العسلي: «وشهد القرن الخامس من جديد انتعاشا كبيرا في العلوم الدينية ولا سيما في بيت المقدس،...، وغدا المسجد الأقصى من جديد مركزا لحياة علمية نشطة، ضمت علماء كثيرين من فلسطين ومن خارجها،...، وأم بيت المقدس وعلم في مسجدها، عددٌ غفير من العلماء من الأندلس وفارس والحجاز وخراسان»^(٣).

(١) دُور الكتب العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، للدكتور يوسف العشي، ترجمة نزار أباطة ومحمد الصباغ، (١٥٣)، وهو نقله عن المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء.

(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، (١٨٩/٨).

(٣) التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر الحديث، كامل جميل العسلي، ضمن

وذكر ابن العربي في رحلته التي قام بها إلى بيت المقدس، أنها كانت «تبعُ بالعلماء من أهلها ومن الوافدين»، مما دعاه إلى إطالة المقام فيها، وتأجيل الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة^(١).

إن هذه الشواهد والنصوص التي نقلناها تدل على أن بيت المقدس كانت عامرة بالإسلام والمسلمين، وبعلماء الإسلام وأئمة المسلمين حين دخلها الاحتلال الصليبي عام ٤٩٢هـ، ولقد رأيتُ أن أشفح ما قدّمت بنقول متعددة عن بعض كتب التراجم تتحدث عن علماء بيت المقدس، وعن الحركة العلمية من بيت المقدس وإليها، تلك الحركة التي تكشف عما كان من سعي كثير من العلماء إلى بيت المقدس، وأخذهم عنم فيها، أو تلقيح أفكار بعضهم بأفكار بعض فيها، وعقدهم حلقات العلم والحديث فيه، ولقد استعنت للتعرف على كل هذا الذي سيقروّه القارئ الكريم بفهارس الكتب التي رجعتُ إليها^(٢)، وكانت مادة البحث في هذه الفهارس: (بيت المقدس، أو القدس) ولم أعرض كل ما رأيتُ من الاهتمام ببيت المقدس والرحلة إليها.

كان أكثر عمدي كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي ثم طبقات الشافعية الكبرى للسبكي وطبقات الحنفية لعبد القادر القرشي ووفيات الأعيان لابن خلكان، وعلى كتاب الحركة الفكرية في المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي للدكتور عبد الجليل

أبحاث الموسوعة الفلسطينية قسم الدراسات الخاصة، (ج ٩/٣).

(١) يُنظر: مقال الدكتور إحسان عباس: رحلة ابن العربي إلى المشرق، نقلا عن: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي، (٢١).

(٢) بعد أن كتبتُ اسم بضعة وعشرين عالما من ذوي الصلة ببيت المقدس، رحلة إليها، أو تعلما أو تعليما فيها، أو نشأة في رحابها، وقعتُ على ما في كتاب الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي، (الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي)، فوجدته كان قد ذكر في كتابه بعض ما ذكرته أنا حاليا هنا، ثم رأيتُ أن أستفيد من كتابه في هذا الفصل، وأضيف منه ما ينبغي إضافته.

عبد المهدي؛ وربما رجعت أحيانا إلى كتب أخرى غيرها؛ هذا ولم أذكر كل ما نقلت هذه الكتب عن بيت المقدس، وهي لم تذكر كل ما هنالك، كما أنني لم أفصل في ترجمة واحد من هؤلاء المحبين لبيت المقدس، إلا بقدر ما يفصح عن إقباله إليها، وبقدر ما يبين منزلة هذا المحب أو ذاك، ليتبين عظيم المقام المقدسي، بعظمة محبيه، وهذا أوان البيان:

١- ذكر الدكتور يوسف العش رحمه الله تعالى أن الإمام الفقيه أبا الفتح، نصر بن إبراهيم المقدسي، شيخ الشافعية بالشام، وقف مكتبته على بيت المقدس^(١)، وذكر الذهبي أنه سمع العلم بالقدس من عدة من أهل العلم^(٢)، وكان يعمل الدعوات لتلاميذه في القدس^(٣)، وقال تاج الدين السبكي: «درس العلم ببيت المقدس مدة»^(٤)، وذكر ابن العماد الحنبلي في ترجمة حياة الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي أنه طلب العلم في مسيرة حياته في القدس، وقال: «أقام بالقدس مدة طويلة، ثم سكن دمشق سنة ثمانين (أي وأربعمائة)»^(٥)، وكان مقصودا من العلماء، حتى جاؤوه من الأندلس، كالفقيه المالكي أبي علي الحسن بن خلف، فقد سمع من الشيخ نصر بن إبراهيم في بيت المقدس سنة ٤٦٥ هـ^(٦)، وإليه وإلى الغزالي تُنسب المدرسة النصرية، والتي يقال لها أيضا: الغزالية في القدس^(١).

(١) يُنظر: دُور الكتب العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، للدكتور يوسف العش، ترجمة نزار أباطة ومحمد الصباغ، (٢٧٦).

(٢) سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، (١٣٧/١٩)، وقد حقق هذا الجزء الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٣) المصدر نفسه، (١٤٣/١٩).

(٤) طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلوة، (٣٥٢/٥).

(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد ابن العماد الحنبلي، تحقيق محمود الأرنؤوط، (٣٩٧/٥).

(٦) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمؤرخ الأندلسي أحمد بن محمد المقرئ التلمساني،

٢- وهذا الإمام أبو بكر ابن العربي الأندلسي، المولود سنة ٤٦٨هـ والمتوفى سنة ٥٤٣هـ، يجول في آفاق الديار الإسلامية، ويصل بيت المقدس في رحلته الكبيرة، ويتلقى العلم، ويأخذ عن العلماء، فلقد ذكر الذهبي أنه سمع في بيت المقدس من علامة بيت المقدس الشيخ الشهيد مكّي بن عبد السلام الرميلّي^(١)، وكانت رحلته هذه قبل اغتصاب الصليبيين للقدس، ذلك أن شيخه الشيخ مكّي بن عبد السلام قد قُتل على يد الصليبيين سنة ٤٩٢هـ، وذكر ابن العربي في رحلته التي قام بها إلى بيت المقدس، ما نقلناه قريبا عنه أن القدس كانت «تُعجُّ بالعلماء من أهلها ومن الوافدين»، وهو ما دعا ابن العربي إلى تطويل الإقامة فيها، وتأجيل الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة، وترك والده يحج دون مصاحبته في تلك السنة، وقال لوالده يوم أن تركه يحج وحده: «إذا كانت لك نية في الحج، فامض لعزمك، فإنني لستُ برائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها، وأجعل ذلك دستورا للعلم، وسُلماً إلى مراقبيها»^(٢)؛ وذكر ابن العربي أنه كان يدخل مدارس الحنفية والشافعية كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف^(٣)، ويبدو أن ابن العربي مكث في القدس أكثر من ثلاثة أعوام، فقد قال نفسه عن رحلته إليها: «..فدخلنا الأرض المقدسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدر المعرفة، فاستترتُ به أزيد من ثلاثة أعوام»^(٤)؛

(٢٦٢/٣).

(١) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي، (١٥).

(٢) سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، (١٩٨/٢٠)، وقد حقق هذا الجزء الشيخ شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم الرقسوسي.

(٣) يُنظر: مقال الدكتور إحسان عباس: رحلة ابن العربي إلى المشرق، نقلا عن: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي، (٣١، ٢١).

(٤) يُنظر: مقال الدكتور إحسان عباس في المرجع نفسه، (٢٢).

(٥) يُنظر: مقال الدكتور إحسان عباس في المرجع نفسه، (٣٠).

وسياتي مزيد بيان عن تلقي ابن العربي في بيت المقدس العلم أثناء كلامنا الآتي قريبا إن شاء الله عن زيارة أبي بكر الطرطوشي إلى القدس.

٣- ولقد نقل تاج الدين السبكي قول ابن السمعاني في الشيخ مكّي بن عبد السلام الرّميلي: «هو أحد الجوالين في الآفاق، وكان كثير النَّصَب والسهر والتعب، طلب وتغرّب وجمع، وكان ثقة متحرّيا ورعا ضابطا»، ثم قال التاج السبكي: «شرح في تاريخ بيت المقدس وفضائله، وجمع فيه شيئا»، ثم نقل أن الفتاوى كانت تخبئه من مصر والسواحل ودمشق، وقد قتله الصليبيون فيمن قتلوا من أهل الإسلام ببيت المقدس عام ٤٩٢هـ^(١)، قال الإمام المجهّد تقي الدين السبكي والد الإمام تاج الدين في اسمه الرّميلي: «نسبة إلى الرملة في الأرض المقدسة»^(٢).

٤- وفي الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية للإمام عبد القادر القرشي في ترجمة الشاعر والفقير الأديب أبي السّمح إبراهيم بن عبد الله التّنوخي المَعريّ، المتوفى في بغداد عام ٥٠٣هـ عن الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق: «اجتاز بها (أي دمشق) عند توجّهه إلى بيت المقدس»^(٣).

٥- ولننظر إلى هذه الترجمة الوجيزة للغاية من تاريخ ابن عساكر، نقلا عن طبقات الحنفية للحافظ عبد القادر القرشي، يقول ابن عساكر في ترجمة الفقيه الحنفي محمد بن يوسف بن علي الحوراني العُقيلي: «كان جدّه من أهل غزنة، وسكن بيت

(١) تُنظر هذه النقول عن الشيخ مكّي بن عبد السلام الرّميلي في ترجمته التي عقدها له تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى، (٣٣٢/٥-٣٣٣)، وتُنظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، (١٧٨/١٩-١٧٩)، وقد حقق هذا الجزء الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٢) شفاء السقام في زيارة خير الأنام، للإمام المجهّد تقي الدين السبكي، (١٣٣).

(٣) تُنظر ترجمة الشيخ الفقيه أبي السّمح في: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، لعبد القادر

القرشي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، (٨٧/١-٨٨).

المقدس،...، وتفقه أبوه ببيت المقدس، وعُمِّر^(١)، وقال عنه: توفي سنة ٥٦٤هـ، ولم يذكر تاريخ وفاة والده ولا وفاة جده، وبالإمكان حين المقايسة أن نعرف أن الجد تَرَكَ غزنة وتوجه إلى بيت المقدس في حدود منتصف القرن الخامس الهجري، أي في حدود سنة ٤٥٠هـ، ويكون الأب حول هذا التاريخ أو بعده بقليل قد تفقه ببيت المقدس.

٦- وكان ممن قصد بيت المقدس الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، فلقد قصد مكة حاجا عام ٤٨٨هـ، ثم بعد حجه قصد دمشق، ثم توجه إلى بيت المقدس^(٢)، قال تاج الدين السبكي: «ودخل دمشق سنة ثمانٍ وثمانين، فلبث فيها يُؤيِّماتٍ يسيرة على قدم الفقر، ثم ذهب إلى بيت المقدس فجاور بها مدة^(٣)»، وقال ابن الأثير عن سفره إلى الشام والقدس: «وفي هذه السفرة صنف إحياء علوم الدين^(٤)»، ولم يتضح من كلام السبكي وابن الأثير فيما إذا كان حجة الإسلام الغزالي أُلِّف الإحياء في بيت المقدس أو في دمشق، فهو كان يتردد بين البلدين، وربما يكون أُلِّفه في البلدين معاً، أثناء تجواله فيما بينهما، فقد نقل الذهبي^(٥) عن أحمد بن صالح الجليلي المؤرخ أنه شرع بالإحياء في دمشق، وبما أنه كان يتردد بين البلدين، فلا مانع أن يكون أُلِّفه فيهما، ومع ذلك، فقد رجح الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي أن الغزالي أُلِّف الإحياء في دمشق، مستندا على كلام ابن الأثير والسبكي،

(١) تُنظر ترجمة الشيخ الفقيه الحَوْراني في: المرجع نفسه، (٣/٤٠٩-٤١٠)، وترجمة والده في (٦٣١/٣).

(٢) وفيات الأعيان، (٤/٢١٧)، وسير أعلام النبلاء، (١٩/٣٣٠).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى، (٦/١٩٧).

(٤) قال الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي: «وذهب الذهبي وابن العماد وابن هداية إلى مثل ذلك»، يُنظر كتابه: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والملوكي، (١٩).

(٥) سير أعلام النبلاء، (١٩/٣٣٠).

ولم أرَ في كلامهما ما يدل على هذا^(١)، وقد أخذ على الغزالي فيه وفي بعض كتبه الأخرى بعض الانتقادات، وأرجو ألا يضيره ذلك، ولقد قال الإمام الذهبي فيه رضي الله عنه: «الغزالي إمام كبير، وما من شرط العالم أنه لا يخطئ»^(٢).

٧- وكان ممن ورد بيت المقدس الإمام أبو بكر الطرطوشي الأندلسي، ورحل إلى المشرق عام ٤٧٦هـ، وكانت له رؤيا منامية رآها في بيت المقدس، وقد ذكرها هو إذ قال: كنت ليلة نائما في بيت المقدس، فبينما أنا في جنح الليل، إذ سمعتُ صوتا حزينا يُنشد:

أخوفٌ ونومٌ؟ إن ذا لعجيب شكَّلتُك من قلبٍ فأنتَ كذوبٌ
أما وجلالِ الله لو كنتَ صادقا لَمَا كان للإغماض منك نصيبٌ

قال: فأيقظ النوم وأبكي العيون^(٣)، وكان طلبة العلم يأخذون عن الطرطوشي في مكان اسمه الغوير في ساحة الحرم الشريف، ومن سمع منه أبو بكر ابن العربي الفقيه المالكي الآتي من الأندلس، يقول ابن العربي في سماعه من الطرطوشي: «وانفتح لي به إلى العلم كل باب، ونفعني الله به في العلم والعمل، وتيسر لي على يديه أعظم الأمل، فاتخذتُ بيت المقدس لي مباءة، والتزمتُ فيه القراءة، لا أقبل على دنيا ولا أكلم إنسيا، نواصل الليل بالنهار، وخصوصا بقبة باب السلسلة»^(٤).

(١) يُنظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي، (١٩).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، (٣٣٩/١٩).

(٣) تُنظر ترجمته في وفيات الأعيان، (٢٦٤/٤)، وسير أعلام النبلاء، (٤٩١/١٩)، وهذه القصة في الوفيات.

(٤) يُنظر: مقال الدكتور إحسان عباس: رحلة ابن العربي إلى المشرق، نقلا عن: الحركة الفكرية

٨- ومن علماء بيت المقدس: شيخ الشافعية فيها الشيخ أبو الفضل عطاء المقدسي، وقد حضر مجلسا فيه ابن العربي وأبو بكر الطرطوشي ببيت المقدس، فقد ذكره ابن العربي في رحلته إليها^(١).

٩- وكذلك الخطيب البغدادي صاحب كتاب تاريخ بغداد، والذي لم يدع علما من علوم الحديث إلا كتب فيه، فقد ذكر له الذهبي رواية في بيت المقدس^(٢)، ونقل أنه كان يزور بيت المقدس ويعود إلى صور، إلى سنة ٤٦٢هـ^(٣)، وهو قد مات سنة ٤٦٣هـ^(٤).

١٠- وزار بيت المقدس أيضا الشيخ العالم أبو بكر محمد بن عبد الله الأصبهاني الرباطي، المتوفى سنة ٤٢٠هـ، وأملى في بيت المقدس مجالس عدة^(٥).

١١- وكان قد زار القدس أيضا، وحدث فيها، الإمام الكبير، شيخ الإسلام، المفسر الفقيه أبو عثمان، إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني النيسابوري^(٦)، قال الذهبي: «رُزق العزّ والجاه في الدين والدنيا، وكان جَمَلا للبلد، مقبولا عند الموافق والمخالف؛ مجمعٌ على أنه عدم النظر، سيف السنة ودماغ البدعة»، وذكر تاج

في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي، (٢٢).

(١) يُنظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، (٢٤).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٤٤٤/١١)، ولقد حقق هذا الجزء صالح السمر تحت إشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٣) المرجع نفسه، (٢٧٧/١٨)، ولقد حقق هذا الجزء الشيخ شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم

العرقسوسي.

(٤) المرجع نفسه، (٢٨٦/١٨).

(٥) المرجع نفسه، (٣٦١/١٧).

(٦) المرجع نفسه، (٤١/١٨).

الدين السبكي، تلميذ الذهبي أن أهل خراسان من أهل السنة لم يكونوا يعنون بقولهم: شيخ الإسلام غيره، وقال: توفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة^(١).

١٢- وكذا الشيخ الإمام الحافظ بركة المحدثين، أبو بكر محمد بن أحمد البغدادي الدقاق المعروف بابن الخاضبة، المتوفى سنة ٤٨٩هـ، ها هو يأتي إلى القدس ويستمع العلم في بيت المقدس، نقل الذهبي عن ابن عساكر: «سمع ابن الخاضبة بالقدس من عبد الرحيم البخاري وأحمد بن علي الدينوري، وكتب الكثير»^(٢).

١٣- وكان المحدث مقرئ الكوفة الملقب لجودة قراءته بأبي، الشيخ محمد بن علي بن ميمون النرسي المتوفى سنة ٥١٠هـ قد زار بيت المقدس وسمع العلم بها^(٣).

١٤- وسمع بالقدس وأقام فيها زمانا أيضا الإمام الحافظ أبو نصر الساجي البغدادي، المتوفى سنة ٥٠٧هـ^(٤).

١٥- وولد بالقدس وسمع العلم بها وأحرم منها إلى مكة المكرمة الإمام الحافظ محمد بن طاهر المقدسي^(٥)، أحد كبار العلماء، وهو المعروف بابن القيسراني، وهو صوفي ظاهري المذهب، قال فيه أبو الحسن الكرجي: «ما على وجه الأرض له نظير»، ولقد أخذ عليه بعض ما يرى جوازه مما لم يجوز غيره، ولا يسقط الثقة بما يؤخذ عليه من قليل المآخذ، ولقد قال الذهبي في ترجمة الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه: «وما من شرط العالم أنه لا يخطئ»^(٦).

(١) طبقات الشافعية الكبرى، (٤/٢٧١، ٢٧٨).

(٢) سير أعلام النبلاء، (١٩/١١٣).

(٣) المرجع نفسه، (١٩/٢٧٤).

(٤) المرجع نفسه، (١٩/٣٠٩-٣١٠).

(٥) المرجع نفسه، (١٩/٣٦١، ٣٦٨).

(٦) المصدر نفسه، (١٩/٣٣٩).

١٦- وزار القدس أيضا الإمام الكبير صاحب أكبر كتاب في الدنيا، أعني كتاب الفنون، الشيخ العلامة البحر أبو الوفاء علي بن عقيل شيخ الحنابلة، وكتابه الفنون أكثر من أربعمائة مجلد^(١).

١٧- وكذلك سمع العلم بما الشيخ أبو الحسن علي بن الحسين الفراء، المتوفى سنة ٥١٦هـ^(٢).

١٨- والإمام المُحدِّث أبو القاسم السمرقندي المولود في دمشق سنة ٤٥٤هـ، والمتوفى ٥٣٦هـ^(٣).

قال الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي: «ومن قدم إلى بيت المقدس وشارك في الحركة الفكرية هناك:

١٩- شيخ الإسلام أبو الفرج عبد الواحد بن أحمد،... الشيرازي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، المتوفى سنة ٤٨٦هـ، فقد ذكر أنه قدم إلى الشام وسكن في بيت المقدس، ونشر مذهب الإمام أحمد فيما حوله..»^(٤)، ولم يكن يُعرف المذهب الحنبلي في القدس قبل الشيخ أبي الفرج الشيرازي، كما ذكر الدكتور عبد المهدي.

(١) ترجمته في المرجع نفسه، (١٩/٤٤٣-٤٥١).

(٢) ترجمته في المرجع نفسه، (١٩/٥٠٠-٥٠١).

(٣) ترجمته في المرجع نفسه، (٢٠/٢٨-٣١).

(٤) يُنظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، الدكتور عبد

الجليل حسن عبد المهدي، (٢٨-٢٩).

الفصل السابع: المسجد الأقصى موجود في بيت المقدس

هذا، ونختم كتابنا هذا بهذا الفصل، ونطرح فيه إحدى المسائل البديهية، ألا وهي مسألة: مكان وجود المسجد الأقصى، وهل هو موجود في بيت المقدس؟

وسبب طرحنا لهذه المسألة رغم بدايتها، ورغم ما سيصيب القارئ الكريم من دهشة للحديث فيها، هو أننا لا بد واجدون من يسعى ولو من طرف خفي، إلى التقليل من مركزية القدس في التفكير الإسلامي، من خلال محاولات متعددة، منها: إثبات أن المسجد الأقصى ليس في القدس، أو على الأقل بث شك في أن مكان الأقصى وكونه في القدس حُدد في أزمان متأخرة عن فترة الترتيل القرآني، ليقول لنا في نهاية المطاف: إن الفضائل العظمى التي نالتها بيت المقدس لوجود المسجد الأقصى فيها، إن هذه الفضائل قد زالت عن بيت المقدس، بسبب أن المسجد الأقصى ليست فيه؛ ونحن مارسنا الرد على طائفة ممن يحاولون مثل هذه المحاولات اليائسة والباطسة معاً في هذا البحث..

وما كان لنا أن نتحدث هنا في هذه المسألة، لكن شيئاً ما أُلجأنا إلى الحديث فيها.. إن مشكلتنا هنا هي مع فريق من الناس، بعضهم مستشرقون يهود، وبعضهم أتباع لهم، وبعضهم لا نقدر أن نتهم نواياهم، رغم أن إمكانية الاتهام واردة.

فقد أصدر المستشرق اليهودي بن شمش ترجمة للقرآن الكريم في السبعينيات من القرن العشرين، وكان أن ذكر المسجد الأقصى في ترجمته أثناء ترجمته آية الإسراء، وكان مما قاله بالنص: «إنه لا يوجد شيء يُسمى المسجد الأقصى في منطقة معبد سليمان، وإن الرسول سار من مكة إلى مكان قريب من المدينة يسمى (الجعرة)، وتوهم أنه أُسري به إلى فلسطين، ثم إن المسجد الأقصى لم يكن قد بُني حتى يُسرى بمحمد إليه».

وكتب المستشرق ف. بوهل تحت مادة القدس في الموسوعة الإسلامية أن محمداً ﷺ ربما فهم أن المسجد الأقصى المذكور في آية الإسراء ليس هو الموجود في القدس، وإنما في

السماء^(١)، ونقل المستشرق حسون عن بحار الأنوار للمجلسي الشيعي رواية منسوبة لبعض أهل البيت أن المسجد الأقصى في السماء^(٢)، وفي حكمة من الحكم العالية الغالية!! نطقت بها المستشرقة اليهودية حوّا لاتسروس يافه، تقول هذه الحكمة عن المسجد الأقصى، إنه «قد فهم منذ البداية أنه مسجد بعيد قصي سماوي، ولم يقصد منه بالطبع ذلك المسجد الذي لم يقيم في القدس إلا زمن الأمويين»^(٣).

وفي مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية في القاهرة، الذي يملكه ويديره الدكتور سعد الدين إبراهيم، والذي حوكم في مصر لصلوات غير مشروعة بأمريكا، في هذا المركز المشبوه بالولاء لأمريكا، أصدر الباحث عثمان محمد علي دراسة قال فيها إن المسجد الأقصى ليس هو المعروف بفلسطين والموجود ببيت المقدس، وإن الرسول ﷺ أُسري به إلى الجعرانة، وهو نفس رأي المستشرق اليهودي بن شيمش الذي عرضنا له قبل فقرات^(٤).

وقالت الراهبة البريطانية كارين أرمسترونج، بعد أن ذكرت الآية الأولى من سورة الإسراء: «ومن المؤكد أن المسجد الحرام هو الكعبة، ورغم أنه لا يوجد في القرآن ما ينص على أن المسجد الأقصى هو مدينة أورشليم (القدس) فمن المحتمل أن المسلمين

(١) كذا ذكره الدكتور حسن عبد الرحمن السلوادي في بحث له بعنوان: المستشرقون اليهود ومحاولة التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام، (٥)، ويُنظر: فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، للدكتور محمود إبراهيم (٤٧).

(٢) هذا ما ذكره المستشرق إسحاق حسون، محقق فضائل البيت المقدس للواسطي، فقد ذكره عن بحار الأنوار للمجلسي في هامش مقدمة تحقيقه لفضائل الواسطي، (٣٥)، وليس كتاب بحر الأنوار مما في وسعي الحصول عليه، حتى أستوثق من النقل.

(٣) قدسية القدس في الإسلام، لحوّا لاتسروس يافه، من كتاب: القدس، دراسات في تاريخ المدينة، تحرير: أمنون كوهين؛ نقلا عن: بحث الدكتور حسن عبد الرحمن السلوادي بعنوان: المستشرقون اليهود ومحاولة التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام، (٥).

(٤) نقلنا قول هذا المستشرق ومقلده عثمان محمد علي عن جريدة القدس المقدسية، ١٠/١/٢٠٠٤م.

فيما بعد، هم الذين قاموا بذلك التعريف..^(١)، ثم أخذت تسرد بإيجاز قصة الإسراء والمعراج..

قال هؤلاء الذين عرضنا لهم هذا الكلام، وكأنهم يريدون أن يُلقوا وهماً في طريق التعرف على منزلة القدس عند المسلمين، فكون المسجد الأقصى ليس في بيت المقدس بل في الجعرانة، على قول المستشرق اليهودي ومُقلِّده في مركز ابن خلدون، وكون القرآن لم ينص صراحة على أن الأقصى موجود في بيت المقدس، وكون المسلمين فيما بعد هم الذين حددوا القدس مكاناً للأقصى، كما ذكرت الراهبة أرمسترونج؛ ثم كون الأقصى هو المحور الأهم الذي تتجلى من خلاله قدسية القدس في الإسلام، فإن كان موجوداً في القدس فعلاً فهي مقدسة، وإن لم يكن فيها فهي غير مقدسة؛ إن هذا المزيج الذي يريد معظم هؤلاء أن يصلوا إليه، إنما يأتي في سياق العبث الذي مارسه كثير من المستشرقين والمتهودين المعاصرين، والتي يدور حول دعوى أن قدسية القدس ناشئة في الفكر الإسلامي بعد أن لم تكن، وهي تعني في نهاية المطاف: سحب بيت المقدس من مكانها الرفيع في الإسلام..

وقد لا يستغرب البعض صدور هذا الكلام عن مثل المستشرق اليهودي ومقلِّده، اللذين عرضنا لقولهما قريباً، فدائرهما الفكرية أُلقت بهما في عبثهما هذا، ولكن الاستغراب قد يلحق بما قالته أرمسترونج في كتابها الذي لا يعتبر في مجمله صادراً عن عداءٍ أو رفض لمكانة القدس في الإسلام، فما معنى أن تنطق به الراهبة البريطانية كارين أرمسترونج إذن؟!

إن من الناس من يقول الكلمة من الحق، ويخلطها بشيء من الوهم أو الباطل، ليعلق الباطل في ذهن السامع أكثر من علوق الحق فيه، لتمضي الشبهة في مستقر القلب والعقل عند السامع والقارئ، ثم إذا سؤل هذا الإنسان عن هذا الدخّل في

(١) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، (٣٧٩).

كلامه، تراه مجري ويقول: لم أَرِدْ هذا المعنى الذي فهمتموه، بدليل ما في كلامي نفسه من الحق الواضح الذي يُرضيكم!!..

وأنا لا أهتم الكاتبة الراهبة والمؤرخة البريطانية بأنها تريد أن تلقي شبهة في مسألة مكان المسجد الأقصى، لكن كلامها يحتمل هذه التهمة، والله أعلم!
ثم، للرد على دعوى المستشرق اليهودي ومقلده والراهبة نقول:

إنه قد رسخ في عقل المسلم في عهد رسول الله ﷺ أن الأقصى في القدس، بل لقد رسخ في ذهن المشركين أنفسهم أن رحلة رسول الله ﷺ، التي تسمى رحلة الإسراء، كانت إلى بيت المقدس، وكان الكلام المر الذي سمعه عليه السلام من المشركين، قائما على استغراب أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام قد أُسري به في بعض ليلة من مكة إلى بيت المقدس تحديدا.

ففي مسند الإمام أحمد^(١) أن رسول الله ﷺ قال لأبي جهل بعد أن أُسري به: (إنه أُسْرِي بي الليلة) قال أبو جهل: إلى أين؟ فقال رسول الله: (إلى بيت المقدس)، قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: (نعم)، قال: أرأيت إن دعوت قومك، تُحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: (نعم)، فدعا بني كعب بن لؤي، فلما قدموا وجلسوا قال أبو جهل: حدث قومك بما حدثتني، فقال رسول الله ﷺ: (إنه أُسْرِي بي الليلة)، قالوا: إلى أين؟ قال: (إلى بيت المقدس)، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: (نعم)، قالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: (فذهبتُ أُنعتُ، فما زلتُ أُنعتُ حتى التبس علي بعضُ النعت، فجيءَ بالمسجد وأنا أنظر، حتى وُضع دون دار عقالٍ أو عُقيل، فنعتته وأنا أنظر إليه)، فقال القوم: أما النعت، فوالله لقد أصاب.

(١) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، (٣/٢٥١-٢٥٢).

(٢٥٢)، قال المحقق الشيخ شاكر رحمه الله: إسناده صحيح.

وأكثر من ذلك أن المطعم بن عدي قال لرسول الله ﷺ مكذبا رحلة الإسراء:
(أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدا شهرا ومُنحدرا
شهرا، تزعم أنك أتيتَه في ليلة، واللات والعزى لا أصدّقك)^(١).

إذن، فالمسجد معروف، وليس مسألتنا مجرد معرفته، بل مسألتنا هنا: إنه أضيف إلى
هذه المعرفة بيان قرآني بمكانة هذا المعروف، والذي عرفه المسلمون أصلا، وكما أشرنا،
من أول يوم كانت فيه صلاة، لأن المسلمين توجهوا أول ما توجهوا حينما صلوا لله في
مكة، إلى بيت المقدس.

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن المسجد الأقصى الذي تحدث عنه القرآن
الكريم موجود في بيت المقدس، لأن الآية قالت: (.إلى المسجد الأقصى الذي باركنا
حوله..)، وقالت هذه الرواية التي نحن بصددتها: إن محمدا ﷺ قال لقريش: إنه أُسري بي
الليلة، وعليه، فكل من قرأ الآية، وسمع بهذه القصة، علم أن الأقصى في بيت المقدس.

وأما عن كلام المستشرق اليهودي ومقلّده العربي في مركز ابن خلدون المشبوه ولاءً
لأمريكا، عن هذا الكلام الذي يقضي بأن المسجد الأقصى الذي أُسري بالرسول إليه هو
في الجعرانة لا في بيت المقدس، عن هذا الكلام نقول:

إن بقاء اتجاه صلاة المسلمين إلى بيت المقدس، قبلتهم الأولى، مدة وصلت إلى ما
بعد الهجرة بقريب من عام ونصف، إن هذا كافٍ في بيان أن المسجد الأقصى الذي
أُسري بمحمد ﷺ إليه هو بيت المقدس، ذلك لعلمهم أنهم كانوا يصلون إلى المسجد
الأقصى الذي ببيت المقدس.

وكلام هؤلاء هو وهمٌ متهافت في مواجهة حقيقة أقوى من الجبال، فمن أين هؤلاء
الواهمين أن الرسول أُسري به إلى الجعرانة، وهل ورد في شيء من مصادر الإسلام أن
الجعرانة هي مسرى رسول الله ﷺ؟!!

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، (١-١٧٥).

وأما احتجاج بن شميم لقوله بأن المسجد الأقصى لم يكن مبنيا أيام الرسول، فكيف يكون قد أُسري به إليه؟ إن الردّ عليه هو بما أثبتناه في فصل طويل من فصول الباب الرابع من بحثنا هذا، والذي خصصناه للحديث حول معالم هذه القدسية التي تتمتع بها بيت المقدس، وأن أول هذه المعالم هو ارتباطها في أول منشئها بالسماء، فقد بينّا فيه بشيء من التفصيل تاريخ بناء المسجد الأقصى، مما يؤكّد أن الأقصى كان موجودا قبل الإسلام بآلاف السنين، ولعل هذا المستشرق يقصد أن البناء الموجود حاليا لم يكن موجودا، إذ هو مبني في العهد الأموي، لكننا نقول: إن الذي أعطى بيت المقدس مقامها في الإسلام ليس هو البناء الأموي، بل هو المكان الذي سُمي مسجدا من أول بناء مسجدي بني فيه قبل الإسلام بآلاف السنين، كما نقلنا في الفصل الذي أشرنا إليه.

وفي نقاش الرسول ﷺ لأبي جهل وقريش حول رحلة الإسراء، وفي وصفه ﷺ للمسجد بناء على طلب قريش، وفي قول قريش بعد أن وصفه الرسول: أما النعت، فوالله لقد أصاب؛ في كل ذلك دليل على أن بعض بقايا البناء القديم للمسجد كانت موجودة، وأن الأمر كان معروفا حتى لقريش نفسها؛ وأرجو أن يرجع القارئ إلى هذا النقاش الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، وذكرناه قريبا، وفيه ذكر صريح لبيت المقدس.

ثم نوّد أن نقول أخيرا: إن الكعبة نفسها بُنيت قبل آلاف السنين، ولكن البناء الحالي ليس هو نفسه البناء القديم، وإنما المكان الحالي هو نفس المكان القديم، وكذلك المسجد الأقصى.

إنني أرى أن الرد هاهنا كافٍ، وإنما رددتُ على ما يمكن أن يُفهم من كلام الراهبة النصرانية أرمسترونج، رغم ضآلة الفكرة ووضوح تماثتها، لأنني أحشى أن يلتقطها بعض ملتقطي الأفكار، من المستشرقين والمبشرين والعلمانيين والمتهودّين؛ ليصوغوا منها مواقف سياسية وغير سياسية، إذ ينبغي أن يكون المسلم عارفا بما يمكن أن يدفع به شبهات المشككين.

وبالمناسبة، فإن تسمية (بيت المقدس) كانت معروفة في عهد الرسول ﷺ حتى بين المشركين، مما يدل على ذلك، ذكرها على لسان المطعم بن عدي، وكذلك ذكرها في سياق النقاش حول رحلة الإسراء، ذلك النقاش الذي دار بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين أبي جهل، وهذا يعني أن الدعوى التي ادّعاها إسحاق حسون من أن تغيير اسم بيت المقدس من إيلياء إلى بيت المقدس^(١) حصل في عهد عبد الملك بن مروان هي دعوى باطلة من أساسها.

(١) يُنظر تقديم أ. حسون اليهودي من الجامعة العبرية، لكتاب (فضائل البيت المقدس) للواسطي،

الخانمة

وبعد عزيزي القارئ، فهذه هي بيت المقدس، خرجت تتلألاً بأنوارها الساطعة، لتنبعث معها معالم الهداية للعالمين..

هذه هي بيت المقدس، طلعت علينا تتبسّم تبسّم المنتصر، على كل من حاولوا تلويث قدسيّتها المباركة، وبركتها المقدسة، وهي تقول بملء فيها تسيحاً وآذاناً مُجلجلاً في الفضاء العالي، وبالآثار الفصيحة من قديم الزمان: إني مَعلم التوحيد، ودرّة الإسلام، ومعدن العروبة..

ولقد طاشت تلك السهام الملوّثة، التي خطّطت لعودة أصنام الهيكل المزعوم؛ ولقد خبت تلك النار الجائحة، التي دبّرت لعودة تماثيل العهر في ذلك الهيكل المُدّعى، والتي شاءت أن تحرق قداسة الأرض بنيران الشهوة المحرّمة، لتجعل من بيت المقدس أوروبا العصر، أو خزانة الزناة الغارقين..

هذه هي بيت المقدس، بيت الصلاة من أول الدهر، عادت لتقول: سأبقى أقيم الصلاة حتى نهاية الدهر، وسأفتح أبوابي لمقيمي الصلاة، طاهري البدن والنفس والاعتقاد، العاكفين الرُّكع السجود!

عزيزي القارئ الكريم: هذه هي بيت المقدس في الإسلام، ولا أحسب أنني أنا الذي وضعتها في قلبك، فهي في شغاف القلب عندي وعندك ساكنة سكنا لا ترحه ما دامت الدنيا تنبض بحياتنا، وإنما أزعم أنني لفتُ النظر إلى بعض ما أتغنى أنا وأنت به، فهل تراني أدّيتُ شيئاً من رسالة هذه الأرض المقدسة؟

إن كان ذلك كذلك، فإنني أعلم أنني مجرد مُسهمٍ، أو أنا حلقة من حلقات الإسهام في بعث رسالة هذه الأرض، وجيوش المُسهمين لا تنقطع بإذن الله، والمأمول أن يتجرّد لبيت المقدس من المسلمين آلاف الباحثين المتجرّدين، الذين ليس لهم همٌّ إلا بيت المقدس!

أعلمتَ لماذا يا قارئِ الكريم؟

إن بيت المقدس هي عزُّ الإسلام ومجده في نهاية الدنيا، وهي باعثة الأمل في نفوس المسلمين، لما يتعلق بها من خير عميم آتٍ بإذن الله تعالى.

فليشحذ المفكرون والكتابون والباحثون أقلامهم وأذهانهم، فالأمانة أكبر من صفحات كتبناها، لا نعلم مقدار ما تبعته من استحقاقات بيت المقدس عند المسلمين، بل عند العالمين.

ثم، لم أنقل في بحثي هذا كل ما عندي حول مكانة بيت المقدس، والذي عندي لا يمثل الموجود كله، وإن البحث في مثل هذا الموضوع حريٌّ أن يستمر، إذ لا أحد يستطيع أن يقول كل ما هنالك، فما هنالك أكبر بكثير من قدرة الأفراد، بل أعظم بكثير من قدرة مراكز البحث العلمية.

ولقد رأى القارئ الكريم أنني اعتمدتُ في بحثي هذا على نصوص الكتاب والسنة، وأني لم أعتمد نصا ضعيفا من السنة في طول هذا البحث، إلا ما رأيتُ صحته رغم ما قد يراه بعض الأئمة ضعيفا، لا مستندا في ذلك على جهدي، فأنا أقل من ذلك بكثير، وإنما على جهود أئمة آخرين، رضي الله عن جميع أئمتنا.

غير أني لم أستقص، فالاستقصاء أكبر مني بكثير، وإنني أدعو هنا إلى الاستقصاء، أعني استقصاء جميع النصوص التي صحَّت في بيت المقدس، وجميع الآيات التي فسَّرت فيها.

ولا ينبغي تجاوز الضعيف المحتمل، الذي لم يشتدَّ ضعفه، وإن كنتُ تجاوزته هنا، إلا استئناسا في أحيانٍ قليلة جدا؛ لكنني أقصد الاستقصاء الذي يجمع مثل هذا النوع من الضعيف، ما دام ضعفه يسيرا، وما لم يتناقض مع نص صحيح أو أصل صريح.

كما وأدعو إلى استقصاء كل ما هنالك مما يتعلق ببيت المقدس، من خلال الغوص في كتب التاريخ والجغرافيا والأدب وطبقات العلماء من كل فن، ولسوف يجد من يفعل ذلك الكثير الكثير مما تنبغي كتابته والتحقيق فيه.

ثم بعد هذه الجولة الوجيزة في الحديث عن مكانة بيت المقدس في الإسلام، إنني بعدها أسأل الله تعالى خالصاً أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتي، يوم يتمايز الناس بالحسنات.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

العهد القديم، وهو الكتاب المقدس عند اليهود

أولاً: الكتب:

● إبراهيم العلي

١. الأرض المقدسة، منشورات فلسطين المسلمة، لندن، ١٩٩٦م.

٢. حذيفة بن اليمان، دار القلم، دمشق، ١٩٩٦م.

● إحسان عباس

٣. تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، الجامعة الأردنية، عمان،

١٩٩٢م.

● ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري

٤. الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

● ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري

٥. جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط،

مكتبة الحلواني، دمشق، ١٩٦٩م.

● أحمد عبد الرحمن البنا

٦. بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني، دار الشهاب، القاهرة، بلا

تاريخ.

● أحمد فهيم جبر

٧. وجودنا الحضاري في بيت المقدس، مركز القدس للأبحاث والتوثيق،

القدس الشريف، ١٩٩٩م.

● أحمد بن محمد بن حنبل

٨. المسند، تحقيق: أحمد محمد شاكر، أكمل تحقيقه: حمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٥م.
٩. مسند الإمام أحمد ابن حنبل، تحقيق جماعة من المتخصصين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م.
- أحمد بن محمد بن الصّدّيق الغماري
١٠. المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي، مكتبة الأصولي، دمنهور، ١٩٩٦م.
١١. الهداية في تخريج أحاديث البداية، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي وعدنان علي شلاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.
- أحمد عادل كمال
١٢. الطريق إلى دمشق، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٥م.
- أرمسترونج، كارين
١٣. القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، ترجمة: فاطمة نصر، ومحمد عناني، منشورات: سطور، القاهرة، ١٩٩٨م.
- الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد
١٤. معجم تهذيب اللغة، تحقيق رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠١م.
- أكرم ضياء العمري
١٥. عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠١م.
- الألوسي، محمود الألوسي البغدادي
١٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.
- باركر، أرنست

١٧. الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريبي، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.

• البخاري، محمد بن إسماعيل

١٨. التاريخ الكبير، مصوّر دار الفكر، بيروت، د. ت.

١٩. صحيح البخاري، مطبوع مع فتح الباري، للحافظ ابن حجر، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٧م.

• بسام العسلي

٢٠. فن الحرب الإسلامي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

• البغوي، الحسين بن مسعود الفراء

٢١. شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي،

بيروت، ١٩٧٤م.

• أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي

٢٢. الكليات، بعناية: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة

الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.

• البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز

٢٣. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، تحقيق: مصطفى

السقا، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م.

• البوصيري، أحمد بن أبي بكر

٢٤. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة،

٢٥. المستزاد من إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، وهو

مطبوع على هامش المطالب العالية للحافظ ابن حجر، تحقيق: أيمن

على أبو يماني وأشرف علي صلاح، مؤسسة قرطبة، القاهرة،

١٩٩٧م.

• البوصيري، أحمد بن علي

٢٦. مصباح الزجاجاة في زوائد ابن ماجه، تحقيق: موسى محمد علي وعزت علي عطية، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، بلا تاريخ.
- البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي
٢٧. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العربية الكبرى، بمصر، بدون تاريخ.
- الترمذي، محمد بن عيسى
٢٨. سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وأتم تحقيقه: إبراهيم عطوة عوض، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم
٢٩. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر بن عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٣م.
٣٠. مجموعة الرسائل الكبرى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.
٣١. مجموعة الفتاوى، اعتنى بها: عامر الجزائر وأنور الباز، المنصورة، دار الوفاء، ١٩٩٧م.
- جارودي، روجيه
٣٢. فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار التراث، القاهرة، بلا تاريخ.
- الجزائري، أبو بكر جابر
٣٣. أيسر التفاسير، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٧م.
- جُزَيّ، محمد بن جُزَي الغرناطي الأندلسي
٣٤. التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق رضا فرح الهمامي، المكتبة العصرية، بيروت.
- ابن أبي جمرة، أبو محمد عبد الله الأزدي الأندلسي

٣٥. بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها، دار الجليل،

بيروت، ١٩٧٩م.

• جواتيان، س. د.

٣٦. دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة وتحقيق:

عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م.

• ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

٣٧. زاد المسير في علم التفسير، تحقيق شعيب الأرنؤوط، المكتب

الإسلامي، بيروت، ١٩٦٤م.

• الحاكم النيسابوري،

٣٨. المستدرک على الصحيحين، مع تلخيص الذهبي، دار المعرفة،

بيروت، بلا تاريخ.

• ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر

٣٩. تحرير تقريب التهذيب، تحقيق بشار عواد معروف وشعيب

الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م.

٤٠. تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، دار ابن حزم، بيروت،

١٩٩٩م.

٤١. تهذيب التهذيب، تصوير عن طبعة دائرة المعارف النظامية،

حيدرآباد الدكن، الهند، ١٣٢٦هـ

٤٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين

الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان، القاهرة،

١٩٨٧م.

٤٣. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق: أيمن علي أبو

يماني وأشرف صلاح علي، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١٩٩٧م.

• ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد بن محمد

- ٤٤ . القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩٤م.
- حسن عبد الرحمن السلوادي
- ٤٥ . المستشرقون اليهود ومحاولة التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام، مسحوب على ماكينة الطباعة.
- حسين عمر حمادة
- ٤٦ . آثار فلسطين بين حرب الهياكل العظمية التوراتية اليهودية، ووثائق الاستكشافات الأثرية العلمية، والإدانة الدولية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٩٣م.
- حنبل بن إسحاق بن حنبل الشيباني
- ٤٧ . الفتن، تحقيق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٨م.
- أبو حيان الأندلسي
- ٤٨ . البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد المجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب
- ٤٩ . معالم السنن، شرح سنن أبي داود، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي، المكتبة الأثرية، باكستان، ١٩٧٩م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون
- ٥٠ . تاريخ ابن خلدون، المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه ووضع حواشيه وفهارسه: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.
- ابن خلّكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر

٥١. وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،

بدون تاريخ.

• الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام

٥٢. سنن الدارمي، بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية،

بلا عنوان ولا تاريخ.

• دانيال، الراهب الروسي

٥٣. وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ترجمه وعلق عليه الدكتور

سعيد عبد الله البيشاي والدكتور داود إسماعيل أبو هدبة، دار

الشروق، رام الله، ٢٠٠٣م.

• الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان

٥٤. تذكرة الحفاظ، الطبعة التي صورتها دار إحياء التراث العربي

بيروت عن طبعة دائرة المعارف الهندية، بتصحيح الشيخ عبد الرحمن

المعلمي اليماني.

٥٥. سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المتخصصين بإشراف

الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

٥٦. الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تحقيق: عزت

عيد علي عطية وموسى محمد علي الموشى، دار الكتب الحديثة،

القاهرة، ١٩٧٢م.

٥٧. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: محمد علي البجاوي،

دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٩٦٣م.

• الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن حسين

٥٨. مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.

• الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل

٥٩. مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٢م.
- أبو الحسن الربيعي
 - ٦٠. فضائل الشام ودمشق، حرّج أحاديثه الأستاذ الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ.
 - رفيق شاكر التنشة
 - ٦١. القدس الإسلامية، دار ثقيف للنشر والتأليف، الرياض، ١٩٩٦م.
 - رنسيما، ستيفن
 - ٦٢. تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريبي، دون ناشر ولا عنوان، ١٩٩٣م.
 - الزركشي، بدر الدين
 - ٦٣. إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبي الوفاء مصطفى المراغي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٩م.
 - الزمخشري، محمود بن عمر المعتزلي.
 - ٦٤. تفسير الكشاف، (الكشاف عن حقائق التزويل وعيون التأويل)، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٢م.
 - السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي
 - ٦٥. شفاء السقام في زيارة خير الأنام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م.
 - السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي
 - ٦٦. طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ.
 - سترانج، لي

٦٧. فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمارة، وزارة الثقافة والإعلام الأردنية، ١٩٧٠م.
- السنخاوي، محمد بن عبد الوهاب
 - ٦٨. الأجوبة المرضية، تحقيق: محمد إسماعيل محمد إبراهيم، دار الراية، الرياض، ١٤١٨هـ
 - ٦٩. القناعة فيما يحسن الإحاطة من أشراف الساعة، تحقيق محمد بن عبد الوهاب العقيل، أضواء السلف، الرياض، ٢٠٠٢م.
 - ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري
 - ٧٠. طبقات ابن سعد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
 - أبو السعود، محمد بن محمد العمادي
 - ٧١. تفسير إبي السعود المسمى: (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.
 - سعيد عبد الفتاح عاشور
 - ٧٢. الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م.
 - سعيد عبد الله البيشاوي
 - ٧٣. نابلس، الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية، عمان، دون ناشر، ١٩٩١م.
 - السمعاني، أبو سعد، عبد الكريم بن محمد
 - ٧٤. فضائل الشام، تحقيق: عادل بن سعد، مطبوع ضمن مجموع في فضائل الشام، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
 - السمين الحلبي، أحمد بن يوسف
 - ٧٥. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: محمد أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦م.

٧٦. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: أحمد التونجي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م.
- السندي، محمد بن عبد الهادي التتوي المدني
٧٧. حاشية الإمام السندي على سنن النسائي، المطبوع بهامش سنن النسائي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد اليعمرى الأندلسي الأشبيلي المصري
٧٨. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.
- سيد حسين العفاني
٧٩. واقدسناه، مكتبة معاذ بن جبل، بني سويف، ٢٠٠١م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر
٨٠. تحذير الخواص من أكاديب القصاص، تحقيق محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.
- شاكر مصطفى
٨١. فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، مطبوع ضمن أبحاث الموسوعة الفلسطينية، قسم الدراسات، نشرته مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٠م.
- الشريف الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد
٨٢. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- شوقي أبو خليل
٨٣. أطلس القرآن، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.
٨٤. الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٤م.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد

٨٥. فتح القدير، بعناية: هاشم البخاري وخُضر عكاري، المكتبة
العصرية، ١٩٩٧م.
- ابن أبي شيبة، أبو بكر
٨٦. مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت،
١٩٩٤م.
- صادق أحمد داود جودة
٨٧. مدينة الرملة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.
- الصالحى الشامى، محمد بن يوسف
٨٨. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، المجلس الأعلى للشؤون
الإسلامية، القاهرة.
- صلاح عبد الفتاح الخالدي
٨٩. تصويبات في فهم بعض الآيات، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧م.
- الطبري، محمد بن جرير
٩٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت،
١٩٨٨م.
- الطحاوي، أحمد بن محمد بن سلامة
٩١. شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة
الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م.
- الطرطوشي، محمد بن الوليد
٩٢. الحوادث والبدع، تحقيق: علي حسن عبد الحميد الحلبي الأثري،
دار ابن الجوزي، الدمام، ١٩٩٠م.
- طه الولي
٩٣. المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.
- ظفر أحمد العثماني

- ٩٤ . إعلاء السنن، تحقيق: محمد تقي عثمانى، إدار القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، باكستان، بلا تاريخ.
- ٩٥ . قواعد في علوم الحديث، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة، إدار القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، باكستان، بلا تاريخ.
- عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ
 - ٩٦ . تراثنا بين ماضٍ وحاضر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م.
 - عارف العارف
 - ٩٧ . تاريخ الحرم القدسي، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، القدس، ١٩٤٧م.
 - ٩٨ . المفصل في تاريخ القدس، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٩٦م.
 - ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور
 - ٩٩ . التحرير والتنوير، بلا ذكر للناسر والتاريخ ومكان النشر.
 - العباسي، أحمد بن عبد الحميد
 - ١٠٠ . عمدة الأخبار في مدينة المختار، نشره: أسعد درابزوني الحسيني، بدون تاريخ ولا عنوان.
 - عبد الجليل حسن عبد المهدي
 - ١٠١ . الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٠م.
 - عبد الحميد طهماز
 - ١٠٢ . سبيل السعادة في سورة طه وكلمة التوحيد وأمة التوحيد في سورة الأنبياء، دار القلم، دمشق، ١٩٩٤م.
 - عبد الخالق سيد أبو رابية
 - ١٠٣ . عمرو بن العاص بين يدي التاريخ، للزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٨م.

- عبد العزيز الدوري
١٠٤ . العصر العباسي الأول، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨م.
- عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني
١٠٥ . الأنوار الكاشفة لِمَا فِي كِتَاب: أضواء على السنة، من الزلل والتضليل والمجازفة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م.
- عبد القادر القرشي، بن محمد بن نصر الله ابن أبي الوفاء
١٠٦ . الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.
- عبد الوهاب عبد السلام طويلة
١٠٧ . المسيح المنتظر ونهاية العالم، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٩م.
- عبد الوهاب المسيري
١٠٨ . موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م.
- أبو عبيد القاسم بن سلام
١٠٩ . هجرة اليهود السوفييت، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ابن العربي، محمد بن عبد الله المالكي الأندلسي
١١٠ . الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب
١١١ . القبس في شرح موطأ ابن أنس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب
١١٢ . المحرر الوجيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- العظيم آبادي، محمد شمس الحق

١١٣. عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- ابن عساكر،
 - ١١٤. تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محيي الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.
 - ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين عبد الحي بن أحمد
 - ١١٥. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط؛ خرّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٩١م.
 - فارح، فيليب فارح ويوسف كرباح
 - ١١٦. المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م.
 - ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا
 - ١١٧. معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٧١م.
 - الفاسي، محمد بن أحمد بن علي
 - ١١٨. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.
 - فتحي محمد الزغبي
 - ١١٩. تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، دار البشير، طنطا، ١٩٩٤م.
 - فنسك، أ. ي.
 - ١٢٠. مفتاح كنوز السنة، ترجمة: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
 - الفيروزآبادي

١٢١. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية،

بيروت، بلا تاريخ.

١٢٢. القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.

• القاري، ملا علي

١٢٣. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت،

١٩٩٢م.

• القرطبي، محمد بن أحمد ابن فرح الأنصاري الأندلسي.

١٢٤. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، دار الريان للتراث،

القاهرة، ١٩٨٨م.

١٢٥. الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا

تاريخ.

• القنوجي البخاري، صديق حسن خان

١٢٦. فتح البيان في مقاصد القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت،

١٩٩٩م.

• ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر

١٢٧. تهذيب الإمام ابن قيم الجوزية، مطبوع بهامش مختصر السنن

للمنذري، المكتبة الأثرية، باكستان، ١٩٧٩م.

١٢٨. المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق: عبد الفتاح أبي

غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٨٢م.

• كامل جميل العسلي

١٢٩. أجدادنا في ثرى بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية،

عمان، بلا تاريخ.

١٣٠. بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان،

١٩٩٢م.

١٣١. مخطوطات فضائل بيت المقدس، دار البشير، عمان، ١٩٨٤م.

● الكاندهلوي، محمد زكريا

١٣٢. أوجز المسالك إلى موطأ مالك، بعناية تقي الدين الندوي، دار

القلم، دمشق، ٢٠٠٣م.

● كاهن، كلود

١٣٣. الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ،

سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م.

● الكتاني، محمد بن جعفر

١٣٤. نظم المتناثر من الحديث المتواتر، دار الكتب السلفية، القاهرة،

بلا تاريخ.

● ابن كثير، إسماعيل بن كثير

١٣٥. البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٧م.

١٣٦. تفسير القرآن العظيم، المكتبة التجارية الكبرى، بمصر، بلا تاريخ.

● كروزويل، ك.

١٣٧. الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دار قتيبة،

دمشق، ١٩٨٤م.

● ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني

١٣٨. سنن ابن ماجه، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٦م.

● متز، آدم

١٣٩. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد

الهادي أبي ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.

● الإمام محمد أبو زهرة

١٤٠. خاتم النبيين ﷺ، من منشورات المؤتمر العالمي الثالث للسيرة

والسنة النبوية، الدوحة، بدون تاريخ.

- محمد أحمد إسماعيل المقدم
١٤١. المهدي وفقه أشراف الساعة، الدار العالمية، الإسكندرية،
٢٠٠٣م.
- محمد أنور شاه الكشميري
١٤٢. التصريح بما تواتر في نزول المسيح، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة،
دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨١م.
- محمد جلاء إدريس
١٤٣. أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، مركز الإعلام
العربي، الجزيرة، ٢٠٠١م.
- محمد سهيل طقوش
١٤٤. تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت،
١٩٩٩م.
- محمد السيد الوكيل
١٤٥. الأمويون بين المشرق والمغرب، دار القلم، دمشق، ١٩٩٥م.
- محمد صبحي بن حسن حلاق
١٤٦. رجال تفسير الطبري، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٩م.
- محمد عثمان شبير
١٤٧. بيت المقدس وما حوله، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٧م.
- محمد علي الصابوني
١٤٨. مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨١م.
- محمد بن لطف الصباغ
١٤٩. تاريخ القصص، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.
- محمد محمد شراب
١٥٠. بيت المقدس والمسجد الأقصى، دار القلم، دمشق، ١٩٩٤م.

١٥١ . معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٧م.

● محمد ناصر الدين الألباني

١٥٢ . سلسلة الأحاديث الصحيحة، نشرت معظم أجزاءها مكتبة

المعارف، الرياض، ونشر بعضها المكتب الإسلامي، بيروت؛ وذلك

بين عامي ١٩٨٥-٢٠٠٢م.

١٥٣ . سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، نشرت دار المعارف

بالرياض بعض أجزاءها، ونشر المكتب الإسلامي ببيروت أجزاءً

أخرى؛ وذلك بين عامي ١٩٨٨-٢٠٠٠م.

١٥٤ . صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الرياض، ٢٠٠٠م.

١٥٥ . ضعيف الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الرياض، ٢٠٠٠م.

● محمود إبراهيم

١٥٦ . فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، معهد

المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،

الكويت، ١٩٨٥م.

● محمود سعيد ممدوح

١٥٧ . التعريف بأوهام من قسم السنن إلى صحيح وضعيف، دار

البحوث للدراسات الإسلامية والتراث، دبي، ٢٠٠٠م.

١٥٨ . رفع المنارة بتخريج أحاديث التوسل والزيارة، دار الإمام

الترمذي، القاهرة، ١٩٩٧م.

● محمود شيت خطاب

١٥٩ . قادة فتح الشام ومصر، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

● ابن المُرَجِّي، أبو المعالي المُشَرَّف بن المُرَجِّي بن إبراهيم المقدسي

١٦٠ . فضائل بيت المقدس، تحقيق: أيمن نصر الدين المقدسي، دار

الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.

- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري
١٦١. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، رقمه وخرّج أحاديثه:
محمد فؤاد عبد الباقي، حققه: عرفان حسونة، دار إحياء التراث
العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.
- مصطفى السباعي
١٦٢. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي،
بيروت، ١٩٧٦م.
- مصطفى مراد الدباغ
١٦٣. من روائع حضارتنا، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٨م.
- مصطفى مراد الدباغ
١٦٤. بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨م.
- المقدسي البشاري، شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي
١٦٥. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، مصوِّرة
عن مطبعة بريل، كيدن، ١٩٠٩م.
- المقرئ التلمساني، أحمد بن محمد
١٦٦. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: يوسف الشيخ
أحمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م.
- المقدسي، شهاب الدين أبو محمود بن تميم
١٦٧. مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق أحمد الخطيمي، دار
الجيل، بيروت، ١٩٩٤م.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف
١٦٨. التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية،
دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠م.
- ١٦٩. التيسير شرح الجامع الصغير، تحقيق مصطفى محمد الذهبي، طبعة
دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٧٠. فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.
- المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي
 - ١٧١. الترغيب والترهيب، تحقيق: محيي الدين مستو وسمير أحمد العطار ويوسف علي بدوي، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٩٦م.
 - المنهاجي السيوطي، شمس الدين محمد بن شهاب
 - ١٧٢. إتحاف الأحصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
 - النسائي، محمد بن شعيب
 - ١٧٣. سنن النسائي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧م.
 - نور الدين العتر
 - ١٧٤. منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩م.
 - ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري.
 - ١٧٥. السيرة النبوية، المعروفة بسيرة ابن هشام، تحقيق وتخرّيج: جمال ثابت ومحمد محمود وسيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٨م.
 - هيئة الموسوعة الفلسطينية
 - ١٧٦. الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، دمشق، ١٩٨٤م.
 - الهيثمي، علي بن أبي بكر
 - ١٧٧. مجمع الزوائد ومنبع الفرائد، تصحيح: حسام الدين القدسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢م.
 - وايتلام، كيث
 - ١٧٨. اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة: سحر الهنيدي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٩م.
 - الواسطي، أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد

١٧٩. فضائل البيت المقدس، تحقيق: إسحاق حسّون، دار ماغنس للنشر، الجامعة العبرية في أورشلين، القدس، ١٩٧٩م.

• ياقوت الحموي

١٨٠. معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

• اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح
١٨١. تاريخ اليعقوبي، تعليق: محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحديثة ومطبعتها، النجف، ١٩٦٤م.

• يوسف العث

١٨٢. دُور الكتب العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ترجمة نزار أباطة ومحمد الصباغ، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م.

ثانيا: الدوريات:

١٨٣. مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣١)، صيف ١٩٩٧م.
١٨٤. مجلة العربي الكويتية، العدد (٥٠٥)، كانون أول ٢٠٠٠م.
١٨٥. جريدة الحياة الجديدة، ١٤/١١/٢٠٠٠م.
١٨٦. مجلة الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، العدد (٧)، ١٩٩٠م.
١٨٧. مجلة دراسات القدس الإسلامية، لندن، العدد الأول، السنة الثالثة، ١٩٩٩م.
١٨٨. جريدة القدس المقدسية، ١١/٣/١٩٩٦م.

ثالثا: مواقع الإنترنت:

١٨٩ . www.islamonline.com موقع الإسلام على

[الإنترنت](#).

١٩٠ . WWW.bahethcenter.org موقع باحث

للدراسات.

١٩١ . www.elkalima.com جمعية الكتاب المقدس اللبنانية.

١٩٢ . موقع قناة الجزيرة الفضائية على الإنترنت،

[/http://www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net)

١٩٣ . موقع مركز نون للأبحاث والدراسات القرآنية،

[./http://www.islamnoon.com](http://www.islamnoon.com)

فهرس المحتويات

٧	المقدمة
١٥	الباب الأول:
١٥	جولة في مفهومي القدسية والبركة وآفاقهما وتعلقهما بالقدس
١٩	الفصل الأول: قَدَم المعاني القدسية وحيويتها
٢٥	الفصل الثاني: مفهوم القدسية والبركة وما ينبثق عنهما
٤١	الفصل الثالث: القدسية والبركة رسالة أخلاقية وإنسانية
٤٥	الفصل الرابع: مفهوم الأرض المقدسة
٥٩	الباب الثاني:
٥٩	فضائل القدس بين نصوص الوحي وكتب الفضائل
٦٥	الفصل الأول: تأسيس نصوص الوحي لمكانة القدس عند المسلمين
٨١	الفصل الثاني: شبهات المستشرقين حول أحاديث فضائل القدس ^١
٩٧	الفصل الثالث: الرد على شبهات المستشرقين
١٠١	المبحث الأول: مقارنة سريعة بين رؤية المسلمين للقدس ورؤية اليهود لها
١٠٣	أولاً: رؤية المسلمين للمدينة المقدسة
١٠٥	ثانياً: رؤية اليهود لمقام بيت المقدس
١١٣	المبحث الثاني: حصانة المسلمين من ضلالات التوراة
١٢٥	المبحث الثالث: مسألة القُصَّاص ومكانة بيت المقدس
١٣٣	المبحث الرابع: شيخ الإسلام ابن تيمية وبيت المقدس
١٤٣	الفصل الرابع: الأمة تيار واحد في تعظيم مقام القدس
١٤٥	المبحث الأول: دعوى وجود تيار رافض لمكانة القدس
١٤٩	المبحث الثاني: الردّ التفصيلي على هذه الدعوى
١٦٩	الفصل الخامس: نظرة في كتب فضائل بيت المقدس

المبحث الأول: حركة الكتابة في الفضائل المقدسية.....	١٧٣
المبحث الثاني: نظرة في بعض مضمون كتب الفضائل المقدسية.....	١٩٣
الباب الثالث:.....	١٩٩
المقدسية والمكانة من بيت المقدس إلى الشام.....	١٩٩
الفصل الأول: بيت المقدس مركز البركة الشامية.....	٢٠٣
المبحث الأول: ذوبان مكانة بيت المقدس في مكانة الشام عند كثير من العلماء.....	٢٠٥
المبحث الثاني: فضائل دمشق خاصة والشام عامة.....	٢١٣
الفصل الثاني: مدينة القدس مختصة بوصف القدسية في القرآن الكريم.....	٢١٩
الباب الرابع:.....	٢٢٧
معالم قدسية بيت المقدس.....	٢٢٧
الفصل الأول: ارتباطها في أول منشئها بالسماء.....	٢٣١
الفصل الثاني: اجتماع الفضائل الكبرى في مسجدها الأقصى.....	٢٤١
أولا: تشريف الأقصى برحلة الإسراء من مكة إليه، وبالانطلاق منه إلى السماء.....	٢٤٣
ثانيا: فضل الصلاة فيه.....	٢٥١
ثالثا: فضل شد الرحال إليه.....	٢٥٩
رابعا: فضل الإهلال بالعمرة منه.....	٢٦٥
خامسا: فضل الصخرة التي فيه.....	٢٦٩
الفصل الثالث: كونها أرض الأنبياء، ومسرح دعوات السماء.....	٢٧٧
الفصل الرابع: اختصاصها بفتحها على يد الفاروق عمر.....	٢٨٣
الفصل الخامس: اختصاصها بتخليص البشر من أعدائهم.....	٢٨٥
الفصل السادس: اختصاصها بدوام الطائفة الظاهرة بالحق فيها.....	٢٩٣
المبحث الأول: حديث الطائفة الظاهرة بالحق ومزلته.....	٢٩٥
المبحث الثاني: شرح حديث الطائفة الظاهرة بالحق.....	٣١٣
المبحث الثالث: المصدقية التاريخية لهذا الحديث.....	٣١٩

الفصل السابع: اختصاصُها بكثير من الصحابة والمجاهدين والأولياء.....	٣٢٥
الفصل الثامن: كونها أرض المحشر.....	٣٢٧
الفصل التاسع: كونها بإطار أفقها الشامي أرضَ رباط دائم.....	٣٣٥
الفصل العاشر: كونها آخر أرض تشهد الخلافة الإسلامية على الأرض.....	٣٤٣
الباب الخامس:.....	٣٥٧
قضايا تاريخية وحضارية مقدسية.....	٣٥٧
تمهيد: بيت المقدس بين النصوص والتاريخ.....	٣٦١
الفصل الأول: من هو فاتح بيت المقدس؟.....	٣٦٧
المبحث الأول: حولة في الأوهام الاستشراقية.....	٣٦٩
المبحث الثاني: من هو فاتح بيت المقدس؟.....	٣٧٩
الفصل الثاني: الهدف من بناء قبة الصخرة.....	٣٨٧
المبحث الأول: استعراض أكذوبة أن بناء قبة الصخرة كان بهدف صرف الناس عن الحج إلى الكعبة.....	٣٨٩
المبحث الثاني: الرد على الأكذوبة.....	٣٩٦
الفصل الثالث: منزلتة بيت المقدس عند العباسيين.....	٤٠٩
الفصل الرابع: العبّاد والعلماء وروّاد الحضارة يؤمّون بيت المقدس.....	٤٢١
المبحث الأول: بيت المقدس والقدرة على الاستقطاب.....	٤٢٣
المبحث الثاني: انحسار نسبي للحركة العلمية في بيت المقدس.....	٤٣١
الفصل الخامس: تحول نصارى بيت المقدس تدريجياً إلى الإسلام.....	٤٤٣
الفصل السادس: امتلاء بيت المقدس بالعلماء قبل الغزو الصليبي.....	٤٤٩
الفصل السابع: المسجد الأقصى موجود في بيت المقدس.....	٤٦٠
الخاتمة.....	٤٦٨
المصادر والمراجع.....	٤٧٢
فهرس المحتويات.....	٤٩٤